المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية
قسم الدراسات العليا العربية
فرع الأدب



نسق الكلام في شعر زهير

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الأدب

إعداد

الطالبة / هيفاء عثمان عباس فدا

إشراف

الأستاذ الدكتور / محمد محمد أبو موسى

١٤٠٥ / ١٤٠٦هـ
١٩٨٥ / ١٩٨٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

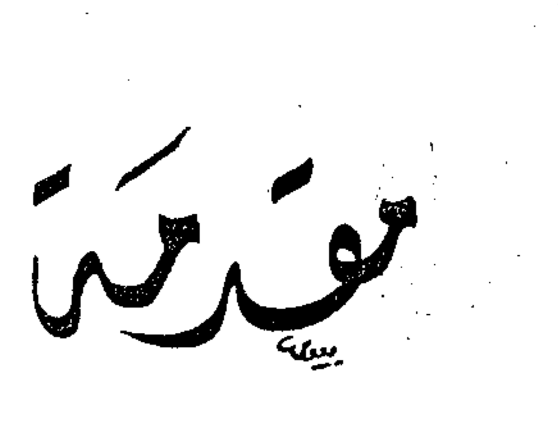
بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد :

فإنَّ علم المعاني يعتبر علماً من أدق علوم العربية ، لأنه العلم الذي يدرس أسرار هذه اللغة الشريفة ، ويبحث عن المعاني التي وراء خصوصياتها وطرائق الأداء المبينة عن حكمة هذا اللسان ودقة بيانه في التعبير والصياغة . وقد أتيح لهذا العلم بعدما استخرجه الشيخ عبد القاهر الجرجاني أن يدخل في المجال التحليلي الذي يُنتفع فيه بقدراته ومعطياته على تحليل الكلام وتذوقه مرةً واحدة في تفسير الزمخشري الذي تفرد بالكشف عن دقائق اللغة بصورة متسعة ومتميزة . ثم لم نجد هذا العلم ينتقل بهذه الصورة إلى حقل الشعر في دراسة لديوان كامل . نعم، انتفع به الدارسون في دراستهم لقصائد أو مقطوعات أو شواهد ولكنني لا أعرف دراسة شاملة لشعر شاعر تأسست على مسائل هذا العلم . وهذا هو الذي أغراني بأن أدرس " نسق الكلام في شعر زهير " دراسة تقوم على مسائل هذا العلم مع تقديري لصعوبة هذه التجربة .

وقد اخترت شعر زهير لأمور منها : ما قيل في شعره من أنه يشبه كلام الأنبياء ، وهذا يعني أنني لن أعدم فيه أدباً نافعاً وحكمة مثمرة ، ودعوة لما هو صالح في أدب النفس وتهذيبها ، وهذه واحدة في أخلاقيات الرجل جذبتني اليه . ومنها : ما عرف من


مقدمة

زهير من أنه أحد الشعراء الذين يصقلون لغتهم وينقحونها ويحكمون رصفها ، فأردت أن أتبين هذا المذهب من خلال دراسة تحليلية لخصائص معاني العربية .

والدراسة في هذا متحدِّرة من ينابيع تراثية خالصة تأصلت على أساس فهم خصائص اللسان العربي ،وبيان سرائره المعنوية ، وهذا هو الفارق الجوهري بينها وبين الدراسات الأسلوبية الحديثة التي ترصد الظواهر دون أن تقف على الأسرار ،وهي في ذلك توشك أن تقع فيما وقعت فيه بعض الدراسات البلاغية المتأخرة من حيث حصر الظواهر وتصنيفها ومسمياتها البلاغية دون نظر إلى أسرارها وما تطويه من معان .

ثم إن مادة هذا البحث العلمية ليست مقتبسة من كلام العلماء اقتباساً تامًا ،وإنما استضاءت به ،ثم استخرجت الأحوال والدلالات من الشعر ،ولذا لم تتوفر لدي مراجع مباشرة ،فقد كانت كتب البلاغيين في هذا البحث بمثابة الأضواء اقتبس منها أشياء ،وأجعل الباقي في بصيرتي وعقلي ضوءاً أفسر به الخصائص . واستخراج دلالات التراكيب من الشعر أمر لا يخلو من معاناة .

وتتجه الدراسة في هذا الموضوع إلى إثارة مجموعة من المسائل منها :
مدى استثمار زهير لأحوال اللفظ العربي إفراداً أو تركيباً .

ومدى امكانية الانتفاع بفكر عبد القاهر البلاغي في الكشف عن جوهر شعر زهير .

ومدى استقامة تقنينات البلاغيين في ضوء محاولة الاستقصاء الدقيق للظواهر الأسلوبية في شعره ، ثم بيان الصور الغالبة في النسق التركيبي عنده . إلى جملة مسائل أخرى ستتكفل الدراسة بالإبانة عنها .

وقد استقام البحث في تمهيد وفصول ستة وخاتمة . وكان موضوع التمهيد هو " شعر زهير في التراث البلاغي " ،وتضمن مسألتين ؛ إحداهما : المرويات حول شعره ،ويراد بها تجليتها ، واستخراج ما تنطوي عليه من أصول بلاغية .والأخرى : شعره في شواهد البلاغيين ، والمراد به بيان مدى التفات البلاغيين إلى شعره وهم يقررون أصول البلاغة .

والفصل الأول : هو " الدلالات البلاغية في أحوال المفردات " ، ويشمل البحث في صيغ الأفعال في بداية القصائد ،والدلالات البلاغية لصيغة المضارع خاصة ، ثم دراسة أبنية المشتقات ،كما يشمل طرائق التعريف عنده ،ودلالة التنكير وتوظيفه لهذه الدلالة .

والفصل الثاني : هو " التوكيد - طرائقه ودواعيه في شعره " ، ويتضمن الحديث عن التوكيد بإنّ ،وإنما ،والنفي والاستثناء ، وقد ، والحروف الزائدة ،وأمّا ، وألَا .

والفصل الثالث : هو " أسلوب التقديم في شعره " ،ويتضمن الحديث عن استثماره لطريقة التقديم في إطار الجملة أولاً ،ويشمل : تقديم المسند إليه ، وتقديم المسند ،وتقديم متعلقات الفعل . وثانياً : نسق الصفات في شعره في الموضوعات التي كثرت فيها الصفات وهي : المرأة .. الرجال .. الحيوان .

والفصل الرابع : موضوعه " الأساليب الإنشائية في شعره " ، ويقف البحث فيه إزاء الاستفهام والأمر والنهي والنداء مُبيناً عن طريقته في استعمال هذه الأساليب والنسق البنائي الغالب فيها .

والفصل الخامس : وهو " تكوينات الجمل وعلاقاتها " ، ويتحدث عن الجمل القصيرة ، والطويلة التي كان سبب طولها دخول جملة من الجمل في تكوينها ،ثم الجمل التيتتلاحم حتى تصير كأنها جملة واحدة ، ثم مواضع الانتقال أومعاقد الفقر من معنى إلى معنى في إطار الغرض الواحد ، أو من غرض إلى غرض في إطار القصيدة الواحدة ، ثم الجمل الوصفية والحالية ،واستعمالات الشرط ،مع الوقوف إزاء " إن " و " إذا " خاصة ،وعنايته بالظروف ،ومواقع الفاء .

والفصل السادس : " دراسة تحليلية شاملة لقصيدة من شعره ؛ وفيه ينتقل البحث من إطار من أطر التحليل للظاهرة الأسلوبية إلى إطار يشبه الدراسة المتكاملة لقصيدة ما .

ثم جاءت الخاتمة ،وفيها مجمل لنتائج البحث .

وتبقى كلمات تمتلئ بها النفس وفاء وعرفاناً :

أولى هذه الكلمات دعوات ضارعات إلى ربي أن يجعل علي هذا امتداداً الصالحات والد انقطع عمله من الدنيا بعدما أضاء قلوبنا بحب العلم.

ثم دعوات صالحات إلى والدتي أن يمنحها الله الصحة والعافية ، ولها في عنقي ما لا أستطيع الوفاء به ،وحسبها أنّ تهيئة الجو العلمي كان من بعض عطاياها .

ثم أتجه بالشكر إلى أستاذي المشرف الدكتور محمد محمد أبو موسى الذي كان له أكبر الأثر في انعطافي نحو هذا اللون من الدرس لطرائق اللسان ،والذي وهبني من وقته و فكره الكثير ،وقاسمني معاناة هذا البحث، وقد كان له في كل صفحة منه نظر ،فله عليّ الفضل بعد

الله تعالى ، وله مني الشكر والدعاء .

ثم أشكر الدكتور عليان بن محمد الحازمي عميد كلية اللغة العربية الذي كانت رعايته الكريمة من أهم ما ساعد على اخراج هذا البحث وخاصة في مرحلته الأخيرة.

ثم أتقدم بخالص شكري إلى الأستاذين المناقشين لتكرمهما بقبول فحص ومناقشة هذا البحث وأدعو الله أن ينفعني بتوجيهاتهما كما أدعوه سبحانه أن يتولى عني جزاءهما ،إنه سميع مجيب .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

تمهيد

شِعْرُ زُهَيْرٍ فى التُّراث البلاغي

أولاً : المرويات حول شعره

ثانياً : شعره فى شواهد البلاغيين

تمهيد

شعر زهير في التراث البلاغي

أولاً - المرويات حول شعره :

غايتنا في هذه المسألة تحليل ما تناقلته الرواية عن القدماء حول شعر زهير مما هو محتوٍ على إشارات تتصل بفنون البلاغة وتبين عن وجهة نظر المتذوقين الأوائل لشعره ، وليس المراد بذلك الاستقصاء لما في التراث ، لأنّه ليس موضوع بحثنا ، وإنما نُمَهِّد به . وقد كشف تتبع تلك المرويات عن أحكام عدة ارتبطت ونبتت وتكاثرت حول شعره ، وكانت منبئة عن بعض خصوصيات بلاغية فيها .

وأول ما يذكر في هذا الصدد رواية للأصمعي يقول فيها : " زهير بن أبي سلمى ، والحطيئةُ وأشباههما ، عبيدُ الشِّعر "(١) . وقد علّق ابن رشيق القيرواني على قول الأصمعي : " يريد أنّهما يتكلّفان إصلاحه ويشغلان به حواسهما وخواطرهما "(٢) ، وكلام ابن رشيق هذا كلام رجل فقهٍ ؛ فشغل الحواس والخواطر بالشعر وصناعته تعني إدارة الألفاظ والصور ومراجعة التراكيب واختيار ما هو أدق وأحكم .

وذكر الجاحظ : " ومن شعراء العرب مَن كان يدع القصيدةَ تمكث عنده حولاً كَريتاً ، وزمناً طويلاً ، يُردِّد فيها نظَرَه ، ويُجيل فيها عقله ، ويُقلِّب فيها رأيه ، اتّهاماً لعقله ، وتتبُّعاً على نفسه ، فيجعل عقلَه زماماً على رأيه ، ورأيَه عِياراً على شعره ، إشفاقاً على أدبه ، وإحرازاً

---

(١) الجاحظ (البيان والتبيين) ٢ : ١٣ .

(٢) (العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده) ١ : ١٣٣ .

لما خوّله الله تعالى من نعمته . وكانوا يسمّون تلك القصائد : الحوليّات، والمقلّدات ،والمنقّحات ،والمحكَمات ؛ ليصير قائلها فحلاً خنذيداً ،وشاعراً مُفْلقا ".[1] ثم ذكر أنّ زهير بن أبي سلمى كان يسمّي كبار قصائده الحوليّات[2] ، ثم ساق[3] شاهداً على ما قاله من شعر سُويد كُراع العُكليّ :

أبيتُ بأبْوابِ القَوافِي كأنَّما	أُصَادِي بها سِرْباً من الوَحْشِ نُزَّعا
أُكالِئُها حتَّى أُعَرِّسَ بَعدَما	يكونُ سُحَيْراً أوبُعيداً فأهجَعا
عَواصِيَ إلا ما جعلتُ أمامَها	عصا مِرْبَدٍ تغشى نحوراً وأذرُعا
أَهَبْتُ بغُرِّ الآبدات فراجعت	طريقاً أمَلّتْهُ القصائدُ مَهْيَعا
بعيدةُ شأوٍ ، لا يكاد يرُدُّها	لها طالبٌ حتى يَكِلَّ ويَظْلَعا
إذا خِفْتُ أن تُروى عَلَيَّ رددتُها	وراءَ التراقي خشيةً أن تطلَّعا
وجشّمني خوفُ ابن عَفّان رَدَّها	فثقّفتُها حَولاً حَريداً ومَرْبَعا
وقَدْ كان في نَفْسِي عليها زِيادةٌ	فلم أرَ إلا أنْ أُطِيعَ وأسْمَعَا

يريد أن أهل صناعة الكلام والمنقطعين له إنما كان يأتيهم القول بعد مراجعة ومكابدة . ثم نقل الجاحظ : " وكان يُقال : لولا أنَّ الشّعرَ قد كان استعبَدَهم واستفرغ مجهودَهم حتى أدخلَهم في باب التكلُّف وأصحاب الصنعة ،ومن يلتمِسُ قَهْرَ الكلام ،واغتصابَ الألفاظ ، لذهبوا مذهبَ المطبوعين،الذين تأتيهم المعاني سَهْواً ورهوا ،وتنثال عليهم الألفاظ انثيالا ."[4] وقد قال الجاحظ ما قال

----

(١) (البيان والتبيين) ٢ : ٩ . (٢) (المصدر السابق) ٢ : ١٢ .

(٣) (المصدر السابق) ٢ : ١٢-١٣ .

(٤) (المصدر السابق) ٢ : ١٣ .

وهو يركّز على خصوصية النبي محمد صلى الله عليه وسلم في الكلام ، وأنّ الله تعالى ألهمه إلهاماً وأعده إعداداً لم يكن عليه أهل العربية ، وهكذا فإنّ زهيراً يُظلَم والجاحظ معه إن عُدَّ كلام الجاحظ هو رأيه في شعر زهير ؛ لأنه قال : " وكان يقال " ، ثم إنه ذكر ذلك في مقدّمة حديثه عن بيان النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنّه كان يقتضب الكلام اقتضاباً في الوقت الذي كان فيه رجال من بني قومه يحككون ويراجعون وينقحون .

وثمة أمر آخر حول المراجعة في قول الشعر والجهد المبذول فيه ، وهو ما يظنّه بعض الناس من أنَّ الشعراء الفحول كان الكلام يتفجر في لسانهم كما يتفجر الماء من العين ، وليس الأمر كذلك ، فقد كان كثير منهم يجد مكابدة ورشح جبين حين يقوّمون شعرهم بالثِّقَافِ ، كما يقول ابن قتيبة (١) .

وكان مما أورده شاهداً على تنقيح الشعر قول عَدِيّ بنِ الرِّقاع (٢) :

وقَصِيدَةٍ قَدْ بِتُّ أُجْمَعُ بَيْنَهَا	حَتّى أُقوِّمَ مَيْلَها وسِنَادَها
نَظَرَ المُثَقِّفِ في كُعُوبِ قَنَاتِهِ	حَتّى يُقِيمَ ثِقَافُهُ مُنَآدَها

وهكذا هم الشعراء يكدون ويعانون .

كما ساق عبد القاهر الجرجاني (٣) شواهد من وصف بعض الشعراء للشعر بما يدل على مكابدتهم في صناعته وإدلالهم به ، ومن ذلك

---

(١) (الشعر والشعراء) ١ : ٩٤ .

(٢) (المصدر السابق) ١ : ٨٤ .

(٣) (دلائل الإعجاز) ص ٥١١ - ٥١٨ .

قول أبي حَيَّةَ النُّمَيْرِي :

إنَّ القَصَائِدَ قَدْ عَلِمْنَ بأنَّني ... صَنَعُ اللِّسانِ بِهِنَّ ،لا أتنحَّلُ

وإذا ابتدأْتُ عُرُوضَ نَسْجٍ رَيِّضٍ ... جَعَلَتْ تَذِلُّ لِمَا أُرِيدُ وتُسْهِلُ

حتّى تُطَاوِعَني ،ولو يَرتَاضُهَا ... غَيْرِي لَحَاوَلَ صَعْبَةً لا تَقْبَلُ

تأمل قوله : " ولو يرتاضها غيري لحاول صعبة لا تَقْبَلُ "

وقول تميم بن مُقْبِل :

إذا مِتُّ عن ذِكْرِ القَوافي فَلن تَرَى ... لَها قائِلاً بَعْدِي أَطَبَّ وأَشْعَرَا

وأكْثَرَ بَيْتاً سائِراً ضُرِبَتْ لَهُ ... حُزُونُ جِبَالِ الشِّعْرِ حتّى تَيَسَّرَا

تأمل قوله : " ضُرِبَتْ له حُزُونُ جِبالِ الشِّعْرِ حتّى تيَسَّرا ".

وقول بشار :

عَمِيتُ جَنيناً ،والذَّكاءُ من العَمَى ، ... فَجِئْتُ عَجِيبَ الظَّنِّ لِلْعِلْمِ مَوْئِلاَ

وَغَاضَ ضِياءُ العَيْنِ لِلعِلْمِ رافِداً ... لِقَلْبٍ إذا ما ضَيَّعَ النَّاسُ حَصَّلاَ

وشِعْرٍ كَنَوْرِ الرَّوْضِ لاءَمْتُ بَيْنَهُ ... بِقَوْلٍ إذا ما أَحْزَنَ الشِّعْرُ أَسْهَلاَ

وتأمل قوله : " لاءمت بينه ".

وقول البحتري ،وقد كان من شعراء الطبع :

بِمَنْقُوشَةٍ نَقْشَ الدَّنَانِيرِ يُنْتَقَى ... لَهَا اللَّفْظُ مُخْتاراً كَما يُنْتَقَى التِّبْرُ

تأمل قوله " ينتقى لها اللفظ ".

وقوله :

يُقَدِّرُ فِيهَا صَانِعٌ مُتَعَمِّلٌ ... لإِحْكَامِها تَقْدِيرَ دَاوُدَ في السَّرْدِ

وقد وصف نفسه بالصّنعة ، وأنّه يقدر تقدير داود يعني يحكم صنعته .

إلى شواهد أخرى عديدة ، علّق عليها عبد القاهر بأنّها " كلّها عبارات عمّا يُدرك بالعقل ويُستنبط بالفكر ،وليس الفكر الطريق إلى تمييز ما يثقل على اللسان مما لا يثقل ،إنّما الطريق إلى ذلك الحس.(١)

وكلام الشيخ هذا ينصرف إلى مسألة جيدة وهي تأكيد ما سبقت الإشارة إليه من مكابدة الشعراء حتى عند أهل الطبع منهم كالبحتري الذي إن قرأت شعره لم تكتشف فيه تلك الصنعة ، وأوهمك أنّ كلامه إنّما جرى سهلاً رهواً لمقدرته ولقانته في بابه ،وهذا قاطع الدلالة فيما نذهب إليه كما ترى .

كما أشار الشيخ عبد القاهر إلى شيء مما نحن بسبيله عندما ذكر المعاني التي لا تنكشف إلا بعد مراجعة وعدّها من حسن الشعر الذي لا يقع في الخاطر لأول وهلة ،بقوله في التخييل وقد قسّمه طبقات وعلى درجات : " فمنه ما يجيء مصنوعاً قد تُلُطِّف فيه وأستعين عليه بالرفق والحذق ، حتّى أعطى شبهاً من الحق وغشى رونقاً من الصدق ".(٢)

هذا ،والمروي عن زهير(٣) أنّه عمل سبع قصائد في سبع سنين ، وأنّه كان يقول : " خير الشعر الحوليّ المُحكّك ،والرّواة كلّهم مجمعون على هذا غير مختلفين فيه ،وإذا فضّلوا شعر زهير قالوا : كان يختار

---

(١) (المصدر السابق) ص ٥١٩ .

(٢) (أسرار البلاغة)٢ : ١٢٨ .

(٣) ابن سنان الخفاجي (سر الفصاحة) ص ٢٧٥ .

الألفاظ ويجتهد في إحكام الصنعة ، وإذا وصفوا الحُطيئة شبهوا طريقته في الشعر بطريقة زهير ،ويروون أنَّ زهيراً كان يعمل نصف البيت ويتعذر عليه كماله فيتمه كعب ابنه "(١) ،ويُعلّق ابن سنان الخفاجي على ذلك بأنه بمعزل عن الطبع وسهولة النظم. ولا شك أنّه أراد ساعة أن يتعذر على زهير كمال البيت فيتمه كعب ابنه ،وليس ذلك بعجيب لأنّ للشعر أوقاتاً يستثار فيها الشاعر ،وابن سنان في هذا يتابع الأصمعي الذي بدا مهاجماً لطريقة زهير واعتبره مخالفاً للطبع .

إنّ لفظة "الصنعة" هذه مما تكررت عند القدماء ،والظنّ فيها عدم مخالفتها للطبع ،فالشعر برمته - كما يبدو - صنعة من حيث التأنق والدقة في البناء ،وهو شيء آخر غير صنعة المتأخرين التي عرفت فيما بعد ،وفي بيت البحتري الذي مرّ ذِكْرٌ للصنعة والتعمل ووصْف نفسه بذلك ،فالمسألة إذاً ، هل كان زهير شاعر صنعة على أنه يتكلف ،أم كان شاعر صنعة على أنه يتروّى لتصفية الفن وترويق الشعر ؟ ثم أين هو من شعراء الصنعة بعد ؟ . وهذه مسألة غريبة في تاريخ الشعر العربي لا بدّ معها من الوقفة والتأني .

يقول الدكتور شوقي ضيف : " وسواء سمّى زهير قصائده الطويلة بالحوليّات أو سمّاها الرواة بهذا الاسم ، فإنَّ هذه التسمية تدل على مدى ما أحسّ به القدماء تلقاء مطولاته ،فقد أحسوا فيها بجهد شديد ، وتصوروا أنَّ هذا الجهد يستنفد آماداً بعيدة من الزمن ، وتخيلوها حولاً كاملاً ،ومضوا يسمون زهيراً والحطيئة وأضرابهما عبيد الشعر لما شعروا عندهم من طول الثِّقاف والتنقيح والتجويد والتحبير، وكأنهم يُلغون حريتهم وإرادتهم ،فهم عبيد فن الشعر ،يخضعون

---

(١) (المصدر السابق) ص ٢٧٥ .

لإرادته الفنية وما يُطوى في هذه الإرادة من تنسيق محكم للألفاظ والصِّيغ ."(١)

ولعل أصدق كلمة قيلت في حقّ شعر زهير تلك التي تواتر نقلها عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عند كثير من العلماء حينما قال لابن عباس فيما رواه : " أنشدني لأشعَر شُعرائكم . قلت : من هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : زهير . قلت : وكان كذلك ! قال : كان لا يُعاظِلُ بين الكلام ، ولا يَتْبع وحْشِيّه ، ولا يمدح الرّجل إلا بما فيه ."(٢) فأمّا المعاظلة فقد عرف ابن سنان(٣) عدمها ، بقوله : " ألا يكون الكلام شديد المداخلة يركب بعضه بعضاً " ، وغلّط قدامة ابن جعفر في فهمه إياها في " أن يدخل بعضه (أي الكلام) في ما ليس من جنسه وما هو غير لائق به "(٤) ، كما خطّأ قدامة في فهمها الآمديّ(٥) ، وكذا صنع ابن الأثير(٦) .

وأمّا عدم اتباع وحشيّ الكلام ، " ويقال : يتبع حُوشيّ الكلام ووحشيّ الكلام ، والمعنى واحد "(٧) ، فأراد به " اللفظ الغريب الذي لا يتكرّر في كلام العرب كثيراً ، فإذا ورد ورد مستهجناً "(٨) .

---

(١) (العصر الجاهلي) ص ٣٢٧ .

(٢) ابن سلام الجمحي (طبقات فحول الشعراء) ١ : ٦٣ ، وانظر ابن قتيبة (الشعر والشعراء) ١ : ١٤٣- ١٤٤ ، والرواية مختلفة .

(٣) (سر الفصاحة) ص ١٤٨ .

(٤) (نقد الشعر) ص ١٧٧ .

(٥) (الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري) ١ : ٢٩٣ .

(٦) (المثل السائر) ١ : ٤٣٣- ٤٣٤ .

(٧) أبو الفرج الأصبهاني (الأغاني) ١٠ : ٣٧٥٣ .

(٨) الآمدي (الموازنة) ١ : ٢٩٣ .

إلا أنَّ أهل العلم بالشعر (١) أنكروا على زهير - مع مقولة عمر رضي الله عنه فيه - مثل قوله :

تقيّ ،نقيّ ،لم يكثّر فنيمة بنهكة ذى قربى ،ولا بحقلّد

وَعدّوا " الحقلّد " مما هو حوشيّ غريب تُرك في لفظه السلاسة والسهولة ،وأنّه ليس في لفظ زهير أنكرمنه ،وردّ الآمدي (٢) ذلك بأنَّ مجيئه بهذه اللفظة ليس بقادح فيما وصفه به عمر رضي الله عنه ، وهو رَدٌ قويم . إلا أنَّ قدامة بن جعفر يقدم لتفسير الحوشي الذي مدح عمربن الخطاب رضي الله عنه زهيراً بمجانبته له وتنكبه إيّاه - تفسيراً آخر هو: " أن يكون (أي اللفظ) ملحوناً وجارياً على غير سبيل الإعراب واللغة ، وقد تقدّم من استقصى هذا الفنّ ،وهم واضعو صناعة النحو ،وأن يركب الشاعر منه ما ليس بمستعمل إلا في الفرط ، ولا يتكلّم به إلا شاذاً " (٣) ،وكأنّه يعد الوحشي ما بُني على اللغة النادرة والشاذة لا على الغريب ، لأنّ شعر زهير من اللغة الوضيئة الواضحة .

وأمّا مدح الرجل بما هو فيه ،ففسّره بأنّه :" لا يمدح السوقة بما يمدح به الملوك ،ولا يمدح التجار وأصحاب الصناعات بما يمدح به الصعاليك و حملة السلاح ، فإنَّ الشاعر إذا فعل ذلك فقد وصف كلّ فريق بما ليس فيه ." (٤)

ومن المرويات حول شعر زهير ،رواية ساقها ابن سلام (٥) :

---

(١) انظر على سبيل المثال : (الموشّح) ص ٦٠ ،و (الصّناعتين) ص ٣٦ ،و(سرّ الفصاحة) ص ٥٦ .

(٢) (الموازنة) ١ : ٣٠٢ . (٣) (نقد الشعر) ص ١٧٢ .

(٤) الآمدي (الموازنة) ١ : ٢٩٣-٢٩٤ .

(٥) (طبقات فحول الشعراء) ١ : ٦٤ .

" وقال أهل النظر: كان زهير أحصفهم شعرا ،وأبعدهم من سخف ، وأجمعهم لكثير من المعنى في قليل من المنطق ،وأشدهم مبالغة في المدح ، وأكثرهم أمثالا في شعره "۰

فأما الحصافة في الشعر فربما كان مرادهم منها ،تدبره في احكام لغته ، وما كان ثمرة التروي من دقة الصنع ومراجعة الخواطر۰

وأما البعد عن السخف ،أي : المعاني الساقطة ،فقد كان زهير رجلا وقوراً ،وكان رجل أخلاق ومن أهل الورع ، وهذه معان متصلة بمنزعه النفسي وأموره المعنوية ۰

وأما كونه أجمعهم لكثير من المعنى في قليل من المنطق ، فهو إيجاز اللفظ وكثرة المعنى ،وقد كان من أقدر الشعراء على تعبئة الألفاظ القليلة بالمعاني الكثيرة ،وهم يرمون بذلك الى أن لغته لغةٌ ذاتُ سخاء وثراء ۰

وأما كونه أشدهم مبالغة في المدح ،فهو متدافع مع ما ذكره عمر رضي اللّٰه عنه من أنه لا يمدح الرجل إلّا بما فيه ، وهذا الأخير متدافع مع قوله رضي اللّٰه عنه " ذلك رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم "(١) لما أُنشِد قول زهير في هرم بن سنان يمدحه :

دَعْ ذا وعَدِّ القول في هَرِمٍ	خيرِ الكهول وسَيّدِ الحَضَرِ
لو كنتَ من شيءٍ سوى بَشَرٍ	كنتَ المنوِّرَ ليلةَ البدرِ
ولأنت أوْصَلُ من سَمِعتُ به	لِشَوابِكِ الأرحام والصِّهْرِ
ولَنِعْمَ حَشْوُ الدِّرعِ أنتَ إذا	دُعِيَتْ نَزالِ ولُجَّ في الذُّعْرِ

---

(١) أبوالفرج الاصبهاني (الأغاني) ،١٠ : ٣٧٦٨ ۰

وأراكَ تَفْرِي ما خَلَقْتَ وبعـ ـضُ القومِ يخلُق ثم لا يَفْـري

أُثني عليكَ بما علمتُ وما أَسْلفتَ في النَّجَداتِ من ذِكْـرِ

والسِّتْرُ دونَ الفاحشاتِ ولا يلقاكَ دونَ الخيرِ من سِـتْـرِ

ومتدافع مع ما ذكره الثعالبي (١) في الأبيات التي في آخر قصيدته التي أولها :

* أمن أمِّ أوفى دِمنةٌ لم تكلّم *

من أنها تشبه كلام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وهذا كلام يضرب بعضه بعضاً ، فما هو الوجه فيه ؟ ويذكر في هذا الصدد أنّ الأصبهاني (٢) لم يلحظ تناقضاً في وجه كلام عمر ، فقد انصرف عنده إلى جهة لا تناقض فيها ، لأن الرواية التي ذكرها على لسان عمر كانت : " لأنه لا يتبع حُوشِي الكلام، ولا يعاظل من المنطق، ولا يقول إلاّ ما يعرف، ولا يمتدح الرجل إلاّ بما يكون فيه " ،أي : بما يعرفه هو فيه ويراه . وقد لحظ ابن رشيق هذا التناقض وحاول دفعه بقوله : " وإذا قوبل آخر كلام عمر بآخر هذا الكلام تناقض قول المؤلف - أعني ابن سلام - لأنّ عمر إنما وصفه بالحذق في صناعته ،والصدق في مَنْطِقِه ،لأنه لا يحسن في صناعة الشعر أن يعطى الرجل فوق حقه من المدح ، لئلا يخرج الأمر الى التنقص والإزراء ،كما أخذ ذلك على أبي الطيب وغيره آنفاً ،وقد فسد الوقت ،ومات أربابَ الصناعة ، فما ظنك والناس ناس والزمان زمان ؟ .. وقد استحسن عمر الصدق لذاته ، ولما فيه من مكارم الأخلاق ،والمبالغةُ بخلاف

---

(١) (خاص الخاص) ص ٩٦ .
(٢) (الأغاني) ١٠ : ٣٧٥٤ .

ما وصف "(١) ومؤدّى هذا الكلام أنّ زهيراً كان لا يمدح الرجل إلا بما كان يعرفه فيه سواء كان مطابقاً للحقيقة الخارجية أم غير مطابق .

ويقول الدكتور محمد أبو موسى (٢) في ذلك وقد عرض الإشكال مع مقالة عمر رضي الله عنه : " إلا أن يقال إن عمر رضي الله عنه نظر في شعر زهير ، وكان رضي الله عنه ذا طبع يذوق الشعر ويبصر جوهره - فوجد زهيراً يقول ما يقول في هرم وهو صادر عن وفرة اعتقاد ، وصدق إحساس ،لأنّ زهيراً كان بطبعه يحب مكارم الأخلاق ، وهذا ما جعل هواه مع هرم واستجاش شعره ،وكان هرم في أمر الديات وإطفاء ثائرة الحرب من عظماء الناس ،وأجوادهم وفلائلهم ، فقال فيه زهير ما قال ، وهو صادق ،وكان عمر رضي الله عنه يميل طبعه إلى أمثال هذه الشخصيات العظيمة الصادقة ،الواضحة المنصرفة إلى الخير سلوكاً وممارسة كهرم ،والتي تتغنى به شعراً وفناً كزهير ، وكأنّ قوله رضي الله عنه " لا يمدح الرجل إلا بما هو فيه " يعني أنّه لا يمدح الرجل إلا بما يعتقده فيه ،وهكذا كان يرى هرماً ، يراه أشجع من الليث وأنه لا تنقطع فواضله وأنه خير قيس كلها حسباً ،وخيرها نائلاً ،وأنّه لو نال حي من الدنيا بمكرمة أفق السماء لنالت كفه الأفقا .

وهكذا لم يكن هرم ولا غيره في حساب عمر رضي الله عنه ،وإنّما كان كلامه منصباً على وصف إحساس زهير بمعانيه ،وأنّه كان لا يمدح الرجل إلا بما فيه ،أي : بما يعرفه ويعتقده فيه ويحسه ،فإن كان مطابقاً للحقيقة الخارجية والواقع أو غير مطابق ،فليست بمسألة عمر رضي الله عنه ،وتلك قضية أخرى .

---

(١) (العمدة) ١ : ٩٨ .

(٢) (الإعجاز البلاغي) ص ٢٦١ .

وأمّا كونه أكثرهم أمثالاً في شعره ،فخير مثال له أبياته التي في آخر معلقته وهي على حد قول الثعالبي (١) غرة حكم العرب ونهاية في الحسن والجودة وتجرى مجرى الأمثال الرائعة الرائقة وهي :

ومَنْ يكُ ذا فضلٍ فيبخلْ بفضلِهِ ... على قومِهِ يُستغنَ عنه ويذْممِ

ومن يغتربْ يحسبْ عدواً صديقه ... ومنْ لا يكرّم نفسه لا يكرَّم

ومن لا يذد عن حوضِهِ بسلاحِهِ ... يهدَّم ومن لا يظلم الناسَ يُظلمِ

ومهما تكن عند امرئٍ من خليقةٍ ... ولو خالها تخفى على الناس تُعلمِ

ومن لا يصانعْ في أمورٍ كثيرةٍ ... يُضرَّسْ بأنيابٍ ويوطأْ بمنسمِ

إلى نماذج أخرى تتكاثر.

ومن المرويات التي تكشف عن طبيعة شعر زهير ، ما قاله الآمدي (٢) في " المعاني إذا وقعت ألفاظها في مواقعها ،وجاءت الكلمة مع أختها المشاكلة لها التي تقتضي أن تجاورها لمعناها ، إما على الاتفاق أو التضاد حسبما توجبه قسمة الكلام ،وأكثر الشعر الجيد هذه سبيله وذلك نحو قول زهير بن أبي سلمى :

سَئِمْتُ تَكالِيفَ الحياةِ ومَنْ يَعِشْ ... ثمانين حَوْلاً لا أبا لَكَ يَسْأَمِ

لمّا قال : " ومن يعش ثمانين حولاً " وقدّم في أول البيت " سئمت" اقتضى أن يكون في آخره " يسأم " .

وكذلك قوله أيضاً :

السِّترُ دُونَ الفاحشاتِ ومَا ... يَلْقَاكَ دُونَ الخَيْرِ من سِتْرِ

فالسّتر الأول اقتضى السّتر الثاني .

---

(١) (خاص الخاص) ص ٩٦ . (٢) (الموازنة) ١ : ٢٩٧-٢٩٩ .

وكذلك قوله :

ومن لا يُقَدِّمْ رِجْلَهُ مُطْمئنَّـــةً   فَيثبتها في مستوى الأرض تَزْلَــقِ

لمّا قال : "ومن لا يُقَدِّمْ رِجْلَه مطمئنة" اقتضى أن يأتي في آخر البيت "يَزْلَقِ" ، فهذا هو الكلام الذي يدلُّ بعضه على بعض ويأخذ بعضه برقاب بعض ، وإذا أنشدت صدر البيت ،علمت ما يأتـــي في عجزه ، فالشّعر الجيد - أو أكثره - على هذا مبنيٌّ ". وهذا النص ينطوي في الإطار الفسيح تحت الكلمات التي تناغي بعضها بعضـــاً وتناشدها وتتابع تتابعاً لا تكلف فيه ولا مراغمـة ،وكأنها من عشيرة واحدة ، ومثل هذا يرتبط بما قيل عن التكلف في الشعر : " بأن ترى البيـتَ فيه مقروناً بغيرجارِه ،ومضموماً إلى غير لِفْقـه ،ولذلك قال عُمَرُ بن لَجَأ لبعض الشعراء : أنا أشعرُ منك ،قال : وبمَ ذلك ؟ فقال : لأنّي أقول البيت وأخاه ،ولأنّك تقول البيت وابن عمّه . وقال عبدالله بن سالم لرؤبـة : مُتْ يا أبا الجحّاف إذا شئت ! فقال رؤبة : وكيف ذلك ؟ قال : رأيتُ ابنك عقبة ينشدُ شعراً له أعجبني ،قال رؤبة : نعم ، ولكن ليس لشعره قِرانٌ . يريد أنّه لا يقارِنُ البيت بشبهه ... والمطبوعُ من الشعراء من سَمَحَ بالشعر واقتدر على القوافي ،وأراكَ في صـــدر بيته عَجُزَه ،وفي فاتحتِه قافيتَه ،وتبيّنت على شعره رونق الطبـــع ووشي الغريزة ،واذا امتُحِنَ لم يتلَعْثَم ولم يَتَزَحَّر ." (١) وهكـــذا فلم يكن شعر زهير تصنّعاً مضاداً لطبع الشعر ،إنّما هو تجلية الشعر وصقل معانيه ،فالكلمات التي تدعو بعضها بعضاً لا بد أن تكـــون

---

(١) ابن قتيبة (الشعر والشعراء) ١: ٩٦ .

وراءها معانٍ ، يدعو بعضها بعضاً ،وكأنّ التآخي [١] بين الكلمات هو تآخٍ بين المعاني والأفكار والأحوال ،وهذا يعني أنّ الشاعر ضابط لفكرته مسيطر عليها ،فلا تنتشر بين يديه ولا تتشارد ،وعندما قال رؤبة في شعر ابنه " ليس لشعره قران "أراد أنّ شعر ابنه يغلب ابنه ،وأنّه لمّا يستطع بعد السيطرة على شعره فلم تتجانس معانيه في نفسه لتنبعث من فؤاده متآخية متلاحمة. وعليه ،فالقضية ليست قضية ألفاظ متقاربة أو متباعدة ،وإنّما هي حسٌّ منضبط منتشر حول هذه المعاني .

ومما وصف به شعر زهير خلابة المعاني وقوة فعلها ،وتأثيرها في نفس السامع للطافة بنائها وطريقة رصفها وسبكها ،يقول ابن طباطبا [٢] : " ومن الأبيات التي تخلب معانيها للطافة الكلام فيها قول زهير :

تراه إذا ما جئته متهلـلاً	كأنّك تعطيه الذي أنت سائِلُـهْ
أخي ثقة ما تهلك الخمرُ ماله	ولكنه قد يهلك المالَ نائِلُـهْ
غدوت عليه غدوة فرأيتـه	قعوداً لديه بالصريم عواذِلُـهْ
يفدّينه طوراً وطوراً يلمنه	وأعيا فما يدرين أين مخاتِلُـهْ
فأعرضن منه عن كريم مرزّأ	فَعُولٍ إذا ما جدَّ بالأمر فاعِلُـهْ "

وقد ساق لزهير شواهد عديدة في : " الأشعار المحكمة المتقنة المستوفاة المعاني ، الحسنة الرصف ،السلسة الألفاظ ، التي قد خرجت خروج النثر سهولة وانتظاماً ،فلا استكراه في قوافيها ،ولا تكلُّف في معانيها ،ولا داعيّ لأصحابها فيها "[٣] ،كما وصف شعره بتمكن

---

(١) انظر ما كتبه في هذه المسألة الدكتور محمد أبو موسى (دلالات التراكيب) ص ٢٨٨ - ٢٩٣.
(٢) (عيار الشعر) ص ١٠١ .
(٣) (المصدر السابق) ص ٦٤ - ٦٥.

القافية فيه (١) . والظّاهر أنّ ابن طباطبا كان ممن له حفاوة بشعر زهير ، وإن كانت المسائل التي تكلم فيها محدودة تتعلق بوضوح الصياغة أولطف المعنى أو تمكن القافية فإنّه كان يتلمس المناسبة ليذكر شعر زهير ،وهو لا يستشهد بالبيت أوالبيتين ،وإنما يسوق أبياتاً كثيرة .

كما وُصِف (٢) لفظ زهير بأنّه بيّنٌ قريب حسن الوصف جميل الرصف في مثل قوله :

عَلَى مُكثِرِيهِمْ رزق مَنْ يَعْتَرِيهِمُ وَعِنْدَ المُقِلِّينَ السَّمَاحَةُ والْبَذْلُ

ووصف كلامه بالصدق ، يروي الأصبهاني (٣) عن ابن الأعرابي : " قال أبو زياد الكلابيّ : أنشد عثمان بن عفّان قول زهير :

ومهما تكُن عند امرئٍ من خليقةٍ وإن خالَها تخفَى على النّاس تُعْلَم

فقال : أحسن زهير وصدق ،لو أنّ رجلاً دخل بيتاً في جوف بيت لتحدث به الناس ".

و مما أُخذ (٤) على زهير غلطه في المعاني ،في قوله :

يَخْرُجْن من شَرَباتٍ ماؤها طَحِلٌ على الجذوع يَخفْنَ الغَمَّ والغَرَقَا

والضفادع لا تخاف شيئاً من ذلك .

وقوله :

* كأحْمرِ عادٍ ثم تُرْضِعْ فَتَفطِم *

وإنّما هي أحْمَرثمود .

---

(١) (المصدر السابق) ص ١٢٤- ١٢٥ .

(٢) المبرد (الكامل) ١: ٢٧ .

(٣) (الأغاني) ١٠: ٣٧٧٠ .

(٤) علي بن عبد العزيز الجرجاني (الوساطة بين المتنبي وخصومه) ص١٠-١٣ .

وذكره [1] لفظاً عامياً ،هو القمل ، في :

وأقسمتُ جهداً بالمنازل من مِنًى ... وما سُحقتْ فيه المقادمُ والقمـلُ

ومجمل القول ، انك لا تلحظ في تلك المرويات عيوباً تدخل في باب الغرابة أو التعقيد أو التنافر .. إلى آخر ما يذكر البلاغيون في ذلك ،وإنما كان محور ما ذُكر حول شعره ؛ وصفه بعدم المعاظلة والبعد عن الغريب الوحشي ،وإحكام الصنعة في الشعر والكدّ فيه ، والتنقيح والتثقيف ، وكثرة الأمثال ،والوفاء بالمعاني بالقليل من اللفظ، وطواعية الألفاظ وخلابتها .. على حدّ ما بيّنتُ .

---

(١) ابن سنان الخفاجي (سر الفصاحة) ص ٦٥ .

ثانياً - شعره في شواهد البلاغيين :

ويراد بذلك تبيّن مدى التفات البلاغيين إلى شعر زهير وهم يقرّرون أصول البلاغة ،هل كان شعراً منسياً ؟ أم كان حاضراً بين أيديهم ينظرون فيه ويستخرجون ؟ وليس ذلك إلا أن زهيراً أحد الشعراء الجاهليين الفحول الذين قُدّموا على غيرهم لاقتدارهم على الشعر ،وعدم مجافاة طبعهم لسليقة اللغة .

وقد لحظ البحث ميل النّقاد والبلاغيين إلى الاستشهاد بشعره فيما يخص مسائل علم البديع ،وفي هذا إشارة إلى ما يتضمنه شعره من التثقيف والتنقيح ،ويليه الاستشهاد بشعره في مسائل علم المعاني ، ثم وبصورة أقلّ في مسائل علم البيان . ولا يُعنى هذا المبحث بتحليل الشعر ،وأبواب البلاغة فيه ،وإنّما البصر بحجم وجود شعره في الحقل البلاغي .

ويرد الاستشهاد بشعره في مسائل علم البديع على النحو التالي :

الطباق : وهو " الجمع بين المتضادّين "(١) ومثّل له بقول زهير :

ليثٌ بِعثَّرَ يَصْطَادُ الرِّجالَ إذا ما الليثُ كذّبَ عن أقرانه صَدَقا

ابن المعتز(٢) ، والآمدي(٣) ،والحاتمي(٤) ،والعسكري(٥) ، وابن رشيق القيرواني(٦) ،وابن سنان الخفاجي(٧) ،والبغدادي(٨) ، وابن منقذ(٩) .

---

(١) الخطيب القزويني (الإيضاح في علوم البلاغة) ٢ : ٤٧٧ .
(٢) (البديع)ص٣٨ .
(٣) (الموازنة) ١ : ١٧ ، ٢٨٩ .
(٤) (حلية المحاضرة) ١ : ٤٣ .
(٥) (الصناعتين)ص ٣٢١ .
(٦) (العمدة) ٢ : ٦ .
(٧) (سر الفصاحة)ص ١٩٤ .
(٨) (قانون البلاغة)ص ٨٥ .
(٩) (البديع في نقد الشعر)ص٣٦ .

الإرصاد : وهو " أن يُجْعَلَ قبل العَجُز من الفِقْرة أو البيت ما يدل على العَجُز إذا عُرف الرَّويّ "(١) ، ومثّل له بقول زهير :

سَئمت تكاليفَ الحياةِ و مَنْ يَعِشْ ثمانين حولاً - لا أبا لكَ - يَسْأَمِ

محمد بن علي الجرجاني (٢) ، والخطيب القزويني (٣) على اختلاف الرواية .

وقوله :

وأعلمُ عِلْم اليوم والأمس قبلَه ولكنّني عن علم ما في غدٍ عَمِ

العلوي (٤) .

الاستطراد : وهو " الانتقال من معنى إلى معنى آخر مُتَّصلٍ به لم يُقصَد بذكر الأول التوصُّلُ إلى ذكر الثاني ... وقد يكون الثاني هو المقصود ، فيذكر الأول قبله ؛ ليُتَوصَّل إليه "(٥) ، ومنه قوله :

إنَّ البَخيلَ مَلُومٌ حيث كان ولـ ـكنَّ الجوادَ على عِلَّاتِه هَرِمُ

ذكره : الحاتمي (٦) ، والعسكري (٧) ، وابن رشيق القيرواني (٨) ، وابن منقذ (٩) .

الرجوع : وهو " العود على الكلام السابق بالنقض لنُكْتَةٍ "(١٠) ، وهو عند زهير في قوله :

----

(١) الخطيب القزويني (الايضاح) ٢ : ٤٩٢ .
(٢) (الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة) ص ٢٧١ .
(٣) (الإيضاح) ٢ : ٤٩٣ . (٤) (الطراز) ٢ : ٣٢٧ .
(٥) الخطيب القزويني (الإيضاح) ٢ : ٤٩٥ - ٤٩٦ .
(٦) (حلية المحاضرة) ٢ : ٦٤ . (٧) (الصناعتين) ص ٤١٥ .
(٨) (العمدة) ٢ : ٣٩ . (٩) (البديع في نقد الشعر) ص ٧٦ .
(١٠) الخطيب القزويني (الإيضاح) ٢ : ٤٩٩ .

قِفْ بالدِّيار التي لم يَعْفُها القِدَمُ   بَلَى ،وغيَّرها الأرْوَاحُ والدِّيَـــمُ

وذكره : قدامة (١) ، والمرزباني (٢) ، وعلي بن عبد العزيز الجرجاني (٣) ، وابن سنان الخفاجي (٤) ،ومحمد بن علي الجرجاني (٥) ، والخطيب القزويني (٦) ، والعباسي (٧) ، على اختلاف الرواية .

التقسيم : وقد يطلق على " استيفاء أقسام الشيء بالذكر" (٨) ،ومثَّل له بقول زهير :

يطعَنُهم ما ارتَمَوا حتى إذا اطَّعَنُوا   ضاربَ حتَّى إذا ما ضاربُوا اعْتَنَقَا

الحاتمي (٩) ، وعلي بن عبد العزيز الجرجاني (١٠) وابن رشيق القيرواني (١١) ،وابن سنان الخفاجي (١٢) ، والبغدادي (١٣) ، على اختلاف الرواية .

وقوله :

فإنّ الحَقَّ مَقْطَعُـهُ ثـــلاثٌ   يمينٌ ،أو نِفَارٌ ،أو جَـــــلاء

العسكري (١٤) ،وأسامة بن منقذ (١٥) ،على اختلاف الرواية .

---

(١) (نقد الشعر) ص٢١٣ .   (٢) (الموشح) ص٦٢ .

(٣) (الوساطة)ص ٤٤٢ .   (٤) (سر الفصاحة) ص ٢٣٢ .

(٥) (الإشارات والتنبيهات)ص ٢٧١ .

(٦) (الإيضاح)٢ :٤٩٩ .

(٧) (معاهد التنصيص على شواهد التلخيص) ٢ : ٢٥٧ .

(٨) الخطيب القزويني (الإيضاح) ٢ : ٥١٠ .

(٩) (حلية المحاضرة) ١ : ٤٦ .

(١٠) (الوساطة)ص ٤٦ .   (١١) (العمدة) ٢ :٢٣ .

(١٢) (سر الفصاحة) ص٢٢٧ .   (١٣) (قانون البلاغة) ص ١٠٤ .

(١٤) (الصناعتين) ص ٣٥١ .   (١٥) (البديع في نقد الشعر)ص٦٢ .

وقوله :

وأعلمُ عِلْمَ اليومِ والأمسِ قبلَه ولكنّني عن عِلْمِ ما في غَدٍ عَمِ

ذكره محمد بن علي الجرجاني [١] ، والحلبي [٢] ، والخطيب القزويني [٣] ، والعباسي [٤] على اختلاف الرواية .

الإغراق : وهو " ما نطق فيه الشاعر أو المتكلم بكاد أوما شاكلها نحو كأنّ ولو ولولا ، وما أشبه ذلك " [٥] ، ومثله عند زهير قوله :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرمٍ قومٌ بأحسابهم أو مجدِهم قَعَدُوا

ذكره ابن طباطبا [٦] ، وابن رشيق [٧] ، على اختلاف الرواية .

تجاهل العارف : وهو " سوق المعلوم مساقَ غيره لنُكتةٍ " [٨] ، ومثله قول زهير مبالغة في الذم :

وما أدْرِي - وسوفَ إخالُ أدْرِي - أقومٌ آلُ حِصْنٍ أم نِساءُ ؟

وذكره : عبدالله بن المعتز [٩] ، والبغدادي [١٠] ، ومحمد بن علي الجرجاني [١١] ، والخطيب القزويني [١٢] ، والعباسي [١٣] .

---

(١) (الإشارات والتنبيهات) ص ٢٧٧ .
(٢) (جوهر الكنز) ص ١٤٦ .
(٣) (الإيضاح) ٢ : ٥١١ .
(٤) (معاهد التنصيص) ٢ : ٣٠٧ .
(٥) ابن رشيق القيرواني (العمدة) ٢ : ٦٤ .
(٦) (عيار الشعر) ص ٦١ .
(٧) (العمدة) ٢ : ٦٤ .
(٨) (الإيضاح) ٢ : ٥٣٠ .
(٩) (البديع) ص ٦٢ .
(١٠) (قانون البلاغة) ص ١٣٤ .
(١١) (الإشارات والتنبيهات) ص ٢٨٦ .
(١٢) (الإيضاح) ٢ : ٥٣١ .
(١٣) (معاهد التنصيص) ٣ : ١٦٥ .

الجناس : " بين اللفظين وهو: تشابههما في اللفظ "[١] ،

ومنه قول زهير:

كأنَّ عَيْني ، وَقَدْ سالَ السَّلِيلُ بهِمْ   وجِيرَةٌ مَا هُمُ لو أنَّهُمْ أَمَمُ

ذكره : عبدالله بن المعتز[٢] ،وقدامة[٣] ،والعسكري[٤] ، والبغدادي[٥] .وقد ذكر منه العسكري[٦] ،قول زهير :

هُمْ يَضْرِبُون حَبِيكَ البِيضِ إن لَحِقُوا   لا يَنْكِلُون إذا ما استُلْحِمُوا وحَمُوا

رد العجز على الصدر : وهو " أن يكون أحدهما (أي اللفظين) في آخر البيت ، والآخر في صدر المصراع الأول ،أو حَشْوِه ،أو آخرِه ،أو صدر الثاني "[٧] ،وذكر منه العسكري[٨] ،قول زهير :

ولأنت تفرى ما خلقت وبعـ   ـض القوم يخلق ثم لا يفـــرى

وقوله :

والسِّتْرُدون الفاحشاتِ ولا   يلقاكَ دونَ الخير من سِتْـــرِ

وابن رشيق[٩] قول زهير :

كَذَلِكَ خِيمُهُمْ ،ولكُلِّ قَـــوْمٍ   إذا مَسَّتْهُمُ الضَّرَّاءُ خِيـــمُ

---

(١) الخطيب القزويني (الإيضاح) ٢: ٥٣٥.

(٢) (البديع) ص٢٨.

(٣) (نقد الشعر) ص١٦٣.

(٤) (الصناعتين) ص٣٣٤.

(٥) (قانون البلاغة) ص٨٧.

(٦) (الصناعتين) ص٣٤٢.

(٧) الخطيب القزويني (الإيضاح) ٢: ٥٤٣.

(٨) (الصناعتين) ص٤٠١-٤٠٢.

(٩) (العمدة) ٢: ٣.

وقولـه :

له في الذاهبين أروم صدق   وكان لكل ذي حَسَبٍ أروم

وأسامة بن منقذ (١) ،قول زهير :

إن تَلْقَ يوماً على علاّته هَرِماً   تَلْقَ السَّماحة منه والنّدى خُلُقا

وكذا ذكره ابن سنان الخفاجي (٢) على اختلاف رواية البيت .

الترصيـــع: وهو "أن يكون حشو البيت مسجوعاً" (٣) ،ومنه

قول زهير :

كَبْداءُ مُقْبِلَةً وَرْكاءُ مُدْبِـــرَةً   قَوْداءُ فيها إذا اسْتَعْرَضْتَهاخَضَعُ

ذكره : قدامة (٤) ،والعسكري (٥) .

أما الاستشهاد بشعره في مسائل علم المعاني فقد ورد أقـــل

من سابقه كما ذكر ،وانحصر فيما يلي :

الإيجـــاز : كما في قوله :

فإنّي لو لقيتُك واتّجَهْنَـــا   لكَانَ لِكُلِّ مُنْكَرةٍ كِفَـــاءُ

ذكره : قدامة (٦) ،والحاتمي (٧) ،والخفاجي (٨) ، علـــى

اختلاف رواية البيت .

---

(١) (البديع في نقد الشعر) ص٥٢ .

(٢) (سر الفصاحة) ص٢٧٧ .

(٣) العسكري (الصناعتين) ص٣٩٠ .

(٤) (نقد الشعر) ص٤١ .

(٥) (الصناعتين) ص٣٩١ .

(٦) (نقد الشعر) ص١٥٤ .

(٧) (حلية المحاضرة) ١/ ٣٩ .

(٨) (سر الفصاحة) ص٢٠٤ .

الإطناب : وأتى عند زهير ، إمّا بالإيغال و" هو ختم البيت بما يفيد نكتة يتمّ المعنى بدونها" [١] ،كما في قوله :

كأنّ فُتاتَ العِهْنِ في كلّ مَنْزلٍ نَزَلْنَ به : حَبُّ الفَنَا لم يُحَطَّمِ

ذكره : قدامة [٢] ، والعسكري [٣] ،وابن رشيق [٤] ، والبغدادي [٥] ، والخطيب القزويني [٦] .

وإمّا بالتتميم ،وهو " أن يُؤتى في كلام لا يُوهِم خلافَ المقصود بفضلةٍ تفيد نكتة " [٧] ،كما في قول زهير :

من يَلْقَ يوماً - على عِلّاتِهِ - هَرِماً يَلْقَ السَّماحَةَ منه والنّدى خُلُقا

ذكره : ابن رشيق [٨] ،والخطيب القزويني [٩] ،والعلوي [١٠] .

المساواة : وهو " أن يكون اللفظ بمقدار أصل المراد " [١١] ،

ومثله من شعر زهير ،قوله :

ومهما تكن عند امرئٍ مِنْ خليقةٍ وإن خالها تَخْفى على النّاس تُعْلَمِ

---

(١) الخطيب القزويني (الإيضاح) ١ : ٣٠٥ .

(٢) (نقد الشعر) ص ١٦٩ .

(٣) (الصّناعتين) ص ٣٩٦ .

(٤) (العمدة) ٢ : ٥٨ .

(٥) (قانون البلاغة) ص ١٠٠ .

(٦) (الإيضاح) ١ : ٣٠٦ .

(٧) (المصدر السابق) ١ : ٣١٢ .

(٨) (العمدة) ٢ : ٥١ .

(٩) (الإيضاح) ١ : ٣١٢ .

(١٠) (الطراز) ٣ : ١٠٤ .

(١١) (الإيضاح) ١ : ٢٨١ .

وقوله :

إِذا أنتَ لم تُقْصِرْ عن الجَهْلِ والخنَا ... أَصَبْتَ حليماً أو أَصَابَكَ جاهِلُ

وذكرهما : قدامة (١) ،وابن سنان (٢) ،والبغدادي (٣) على اختلاف في الرواية ،وزاد قدامة (٤) :

سَعَى بَعْدَهُمْ قَوْمٌ لِكَيْ يُدْرِكُوهُمُ ... فلم يُدْرِكُوا ولم يُليمُوا ولم يأْلُوا

الحشو غير المفسد : كقول زهير :

واعلم علمَ اليوم والأمسِ قبلَه ... ولكنّني عن علم ما في غَدٍ عَمِ

ذكره : الخطيب القزويني (٥) ، والعبّاسي (٦) .

وقول زهير :

كأنَّ فُتاتَ العِهن في كلِّ منزل ... نزلن به حَبُّ الفَنَا لم يُحطَّمِ

ذكره : ابن سنان الخفاجي (٧) .

تقديم المسند إليه : ذكر عبد القاهر (٨) كثرة تقديم المحدَّث عنه في المدح ،ومثَّل له بقول زهير :

ولأنتَ تَفْرِي مَا خَلَقْتَ وبَعْـ ... ـضُ القَوْمِ يَخْلُق ثُمَّ لا يَفْرِي

---

(١) (نقد الشعر) ص١٥١ .

(٢) (سر الفصاحة) ص٢٠٩ .

(٣) (قانون البلاغة) ص٩٤ - ٩٥ .

(٤) (نقد الشعر) ص١٥١ .

(٥) (الإيضاح) ١ : ٢٨٤ .

(٦) (معاهد التنصيص) ١ : ٣٢٥ .

(٧) (سر الفصاحة) ١٤٥ .

(٨) (دلائل الإعجاز) ص١٣٤ .

أمّا مسائل علم البيان ،فقد أتى الاستشهاد بشعر زهير فيه على النّحو التالي :

التشبيه : حيث شبّه امرأة بثلاثة أوصاف في بيتٍ واحد :

تَنازَعَتِ المَهَا شَبَهاً ودُرَّ الـ ـبحُورِ وشاكَهت فيها الظِّبَاءُ

ثم قال ،ففسّر :

فأمّا ما فُوَيْقَ العِقْدِ منها فمِنْ أَدْماءَ مَرْتَعُهَا الخَلاءُ

وأمَّا المُقْلَتَانِ فمن مَهَاةٍ وللدُّرِ المَلَاحَةُ والصَّفَاءُ

وذكره : ابن قتيبة (١).

وذكر المبرّد (٢) قوله - وقد عَدَّه من أحسن التشبيه .

كأنَّ فُتَاتَ العِهْنِ في كلِّ منزلٍ نَزَلْنَ به حَبُّ الفَنَا لم يُحطَّمِ

وذكر عبدالله بن المعتز (٣) قوله - وقد عَدَّه من حسن التشبيه -

بَكرن بكوراً واستحرن بسحرة فهنَّ بوادي الرس كاليد في الفم

ومثّل ابن طباطبا (٤) بقول زهير في تشبيه الشيء بالشيء معنىً لا صورة :

لو كنت من شيءٍ سوى بشر كنت المنير لِلَيْلة البَدْرِ

وفي تشبيه الشيء لوناً :

زجرت عليه حرةً أرحبيةً وقد صار لونُ الليل مثل الارْنَدَجِ (٥)

---

(١) (الشعر والشعراء) ١ : ١٤٥- ١٤٦ .
(٢) (الكامل) ٣ : ٩٢ .
(٣) (البديع) ص ٦٩ .
(٤) (عيار الشعر) ص ٣٨ .
(٥) (المصدر السابق) ص ٤١ .

كما ذكر له من التشبيهات البعيدة ، قوله :

فزلَّ عنها وأوفى رأسَ مَرْقَبةٍ كمَنْصِبِ العِتْرِ دمَّى رأسَهُ النُّسُكُ[١]

وهذا الشاهد ذكره المرزباني[٢] أيضاً ، والعسكري[٣] ، على اختلاف الرواية .

الاستعارة : ومثّل لها من شعر زهير :

صَحا القَلْبُ عَن سَلْمَى وأَقْصَر باطِلُهْ وعُرِّيَ أفراسُ الصِّبَا وَرَوَاحِلُهْ

ابن المعتز[٤] ، وقدامة[٥] ، والآمدي[٦] ، والجرجاني[٧] ، والعسكري[٨] ، وابن سنان[٩] ، وعبد القاهر[١٠] ، والبغدادي[١١] ، والسكاكي[١٢] ، والخطيب القزويني[١٣] ، والعبّاسي[١٤] ، على اختلاف الرواية .

وقوله :

إذا لَقِحَتْ حَرْبٌ عَوانٌ مُضِرَّةٌ ضَروسٌ تُهِرُّ النّاسَ أنيابُها عُصْلُ

وقوله :

إذا سُدَّت به لَهَوات ثَغرٍ يُشارُ إليه جانِبُه سَقيمُ

---

(١) (المصدر السابق) ص ١٠٦ .
(٢) (الموشح) ص ١٣٠ .
(٣) (الصناعتين) ص ٢٦٤ .
(٤) (البديع) ص ٨ .
(٥) (نقد الشعر) ص ١٧٨ .
(٦) (الموازنة) ١ : ١٥ ، ١٩ : ٢٦٧ .
(٧) (الوساطة) ص ٣٤ .
(٨) (الصناعتين) ص ٢٩١ .
(٩) (سر الفصاحة) ص ١١٣ .
(١٠) (أسرار البلاغة) ١ : ١٤١ .
(١١) (قانون البلاغة) ص ٩٠ .
(١٢) (مفتاح العلوم) ص ١٦٠ .
(١٣) (الإيضاح) ٢ : ٤٤٦ .
(١٤) (معاهد التنصيص) ٢ : ١٧١ .

ذكرهما : عبدالله ابن المعتز [١] ، والعسكري [٢] .

ومما جمع فيه الترشيح والتجريد ، قوله :

لَدَى أسدٍ شاكي السلاحِ مُقَذَّفٍ ... له لِبَدٌ أظفارُه لم تُقَلَّمِ

ذكره : محمد بن علي الجرجاني [٣] ، والخطيب القزويني [٤] .

وقوله :

وَمَنْ يَعْصِ أطرافَ الزِّجاجِ فإنَّه ... يُطيعُ العَوالي رُكِّبَتْ كُلَّ لَهْذَمِ

ذكره : العسكري [٥] ، وابن سنان الخفاجي [٦] ، والبغدادي [٧] ، وأسامة بن منقذ [٨] .

والعرض السابق يظهر تردد شعر زهير عند البلاغيين بصورة جيدة في علم البديع . أمّا في علم المعاني فقد وردت شواهد عديدة ولكن يلحظ عليها أنّها حصرت - غالباً - في الإيجاز والإطناب ، فلم يلتفت البلاغيون كثيراً إلى شعره في مسائل هذا العلم على كثرتها ؛ كالتعريف ، والأساليب الإنشائية .. إلى آخره ، وهو أمرٌ عُني بـه هذا البحث ، كما سيأتي . وأمّا علم البيان فلم يكن بأوفر حظاً من علم المعاني مع ما عرف عن زهير من مقدرة تصويرية فائقة أُفرِدت لتجليتها عدة رسائل جامعية ؛ منها : " التصوير البياني في شعر زهير بن أبي سلمى " لمحمد أحمد عثمان خيمر ، و " تشبيهات زهير " لزينب عبد الجواد .

---

(١) (البديع) ص ٧ - ٨ .
(٢) (الصناعتين) ص ٢٩١ .
(٣) (الإشارات والتنبيهات) ٢٢٥ .
(٤) (الايضاح) ٢ : ٤٣٤ .
(٥) (الصناعتين) ص ٣٦٧ .
(٦) (سر الفصاحة) ص ٢٢٤ .
(٧) (قانون البلاغة) ص ١٠٥ .
(٨) (البديع في نقد الشعر) ص ١٠٣ .

الفصل الأول

الدلالات البلاغية في أحوال المفردات

أولًا : صيغ الأفعال في بداية القصائد

ثانيًا : الدلالات البلاغية لصيغة المضارع

ثالثًا : الدلالات البلاغية في أبنية المشتقات

رابعًا : وسائل التعريف

خامسًا : التنكير

الدلالات البلاغيّة في أحوال المفردات

تتجه العناية في هذا الفصل إلى النظر في أحوال المفردات باعتبارها عناصر لغوية تكسب العناصر الأخرى حولها قيمة، كما تكتسب هي هذه القيمة بوجودها في إطار جملتها على صورتها وبنيتها التي هي عليها، وبالتالي تختلف دلالتها باختلاف موقعها وطبيعة السياق الذي يحكمها. ولذا، فإنّ هذا الفصل يُعنى بالبحث في صيغ الأفعال ومواقعها المختلفة في شعر زهير وخاصة ما يكون في مفتتح القصائد، ثم يتبين مواقع الفعل المضارع - خاصة - والدلالة التي يطويها، وطريقة استثمارة لهذه الصيغة في إبانته عن معانيه، ثم يتحدّث عن الدلالة البلاغية في المشتقات وقدرة زهير على الإبانة من خلالها، كما يعني بدراسة طرائق التعريف عنده، ومدى شيوع هذه الوسائل في شعره المنبئة عن طريقة استعمالاته لها، ومدى ارتباطها بمقرّرات البلاغيين في معانيها وسياقاتها، ثم تسجيل ما قد يبدو من تشابه في أنماط الصياغة معها، وأخيرًا يتناول البحث دلالة التنكير عنده.

وبناء على ذلك، سيتعرض البحث للمسائل التالية:

أولاً : صيغ الأفعال في بداية القصائد.

ثانيًا : الدلالات البلاغية لصيغة المضارع.

ثالثًا : الدلالات البلاغية في أبنية المشتقات.

رابعًا : وسائل التعريف.

خامسًا : التنكير.

أولاً :- صيغ الأفعال في بداية القصائد

باستقصاء استعمالات زهير لصيغ الأفعال التي بدأ بها قصائده ، تبين أنّ معظم افتتاحاته كانت مبدوءة بفعل ماضٍ ، ثم إنّ هذه الافتتاحات كانت من العناصر الشعرية الرائعة ، فهي زاخرة بالمعاني القلبية العامرة بما يهيج ويثير الشجى والحنين ، مثل قوله :

بَانَ الخَلِيطُ ،ولم يأْوُوا ، لِمَن تَركُوا وَزَوَّدُوك اشتياقاً ،أَيَّةً سَلَكُوا (١)

فالبينونة والمفارقة معنىً عالقٌ بالنفس ،وفيه من الثراء النفسي ما فيه .

وقوله :

صَحا القلبُ عن سَلمَى وقد كادَ لا يَسلُو وأَقفَرَ مِن سَلمَى التَّعانِيقُ ،فالثِّقلُ (٢)

فـ " صحا " فيها إشارة إلى طول ضلاله في مَتِيهَة اللهو ،ومُضِيّه في غيِّه غير مهتد ببصيرة من فؤاد ، فلما أفاق قال :" صحا " .

ولثراء هذه اللفظة كرّرها في مطلع قصيدة ثانية :

صحا القلبُ عن سَلمَى ،وأقصَرَ باطِلُهْ وعُرِّيَ أفراسُ الصِّبا ،ورَواحِلُهْ (٣)

وقوله :

عَفا ،من آلِ فاطِمةَ ،الجِـواءُ فيُمْنٌ ، فالقَوادِمُ ، فالحِساءُ (٤)

---

(١) ٩ : ١ ،ص ١٢٧ . والعمدة هنا وما سيرد بعد على " شرح شعر زهير بن أبي سلمى " صنعة ثعلب ، ما لم يرد غيره فينبه إليه .

(٢) ٥ : ١ ، ص ٨٣ .

(٣) ٧ : ١ ، ص ١٠١ .

(٤) ٣ : ١ ، ص ٥٢ .

وقوله :

هاجَ الفؤادَ ، مَعارِفُ الرَّسْمِ   قَفْرٌ ، بذي الهَضَباتِ ، كالوَشْمِ (١)

وقوله :

شَطَّتْ أُمَيْمةُ ، بَعْدَما صَقِبَتْ   ونأتْ ، وماقَنِيَ الجنابُ ، فيَذْهَبا (٢)

وقوله :

غَشِيتُ الدِّيارَ ، بالبَقيعِ ، فَثَهْمَدِ   دَوارِسَ ، قد أَقْوَيْنَ من أمِّ مَعْبَدِ (٣)

وقوله :

صَرَمَتْ جَديدَ حِبالِها أسماءُ   ولَقَد يَكونُ تَواصُلٌ ، وإِخاءُ (٤)

وقوله :

أَثَوَيْتَ ، أَمْ أَجْمَعْتَ أنَّك غادِي؟   وعَداكَ ، عن لُطْفِ السُّؤالِ ، عَوادِي (٥)

وقوله :

غَدَتْ عَـذْلَ التَناي ، فقُلْتُ : مَهْلاً   أفي وَجْدٍ ، بِسلْمَى ، تَعْذُلانِي؟ (٦)

وقوله :

وقالتْ أمُّ كَعْبٍ : لا تَزُرْنا   فلا ، واللّهِ ، مالَكَ من مَزارِ (٧)

وقوله :

مَرِجَ الدِّينُ ، فأَعْدَدْتُ لَهُ   مُشْرِفَ الحارِكِ ، مَحْبُوكَ الثَّبَجْ (٨)

---

(١) ١ : ٥٥ ، ص ٢٨١ .
(٢) ١ : ٥٣ ، ص ٢٧٦ .
(٣) ١ : ١٤ ، ص ١٦٠ .
(٤) ١ : ٤١ ، ص ٢٥٣ .
(٥) ١ : ٣٥ ، ص ٢٤٤ .
(٦) ١ : ٤٨ ، ص ٢٦٢ .
(٧) ١ : ٣٩ ، ص ٢٥٠ .
(٨) ١ : ٤٤ ، ص ٢٥٨ .

فالأفعال الماضية " صحا ، عفا ، هاج ، شطّت ، فشيت ، صَرَمَتْ ، ثويت ، غدت ، قالت ، مَرِج " أفعال لها قيمتها من حيث مادتها ودلالتها المعنوية ، ومن حيث الامتداد الزمني الذي تطويه في صيغة الماضي .

ويأتي الأمر في فاتحة القصائد في شعر زهير بلفظ " أبلغ " ، و " تبيّن " ، و " تعلَّم " ، و " قف " . وبتأمل طول القصائد التي أتت في فاتحتها صيغة " أبلغ " تبيّن أنّها لم تكن في قصائد طِوَالٍ يحتفل بها الشاعر ويُتمّ فيها عناصر القصيدة ، وإنما هي مُقَطّعات تشبه الرسائل المختصرة التي كانت تحتدّ في بعضها ، وتطوي ثناءً عاطراً في بعضها الآخر .

ولم يأت المضارع في فاتحة قصائد طوال ، وإنما جاء في مقطّعة قصيرة في مدح ابن ورقاء :

سَتُرْحَلُ ، بالمَطيِّ ، قَصائدي حتّى تَحُلَّ ، على بَني ورقاءِ (١)

وأخرى في الحكمة ، من ثلاثة أبيات :

ولا تُكثِرْ ، على ذي الضِّغْنِ ، عَتْباً ولا ذِكْرَ التَّجَرُّم ، للذُّنوبِ (٢)

وثالثة من ثلاثة عشر بيتاً في مدح سنان :

هل تُبْلِغَنّي ، إلى الأَخيار ، ناجيةٌ تَخدي كَوَخْد ظَليمٍ ، خاضِبٍ ، زَعِرِ ؟ (٣)

---

(١) ٥٢:١ ، ص ٢٧٥ .
(٢) ٣٦:١ ، ص ٢٤٦ .
(٣) ٢٩:١ ، ص ٢٣٢ .

ثانيًا - الدلالات البلاغية لصيغة المضارع :

تعنى الدّراسة بتبين استعمال صيغة المضارع ،وهي صيغة الغرض الأصلي منها الدلالة على الحال أو الاستقبال ، وقد تفرّع من دلالة الحال : التّجدد والحدوث ، وقد استخرج الشعراء منها هذا المعنى في مقامات بلغوا فيها الغاية ، و هي مع ذلك تفيد حضور الصورة ؛ لأنّ التجدد والحدوث يعنى حضور لحظة الفعل وحال وقوعه . وقد يتمحض المضارع للاستحضار ،وذلك إذا وقع موقع الماضي ،وهو معنىً وقف علماء البلاغة عنده ، أمّا المضارع نفسه المعبّر عن الحال أو الاستقبال والمفيد التجدد والحدوث فكان الموقف معه خلاف ذلك ، ولذا فإن هذه الدراسة تقف على هذه الصيغة حتى تجيء على أصل الوضع في شعر زهير ، وحين تأتي واقعة موقع الماضي ، وهذان هما الاستعمالان الجاريان في الكلام .

ومّا جاء على أصل الوضع ، قوله :

أَراني مَتَى ماهِجتَني ،بَعْدَ سَلْوةٍ ، على ذِكْرِ ليلى ،مَرّةً ،أَتَهيَّجِ (١)
وأَذْكُرُ سَلمى ،في الزّمانِ الذي مَضَى كَمَيْناءَ ،تَرتادُ الأَسِرَّةَ ،مَوهَجِ
على حَدِّ مَتنيها ،منَ الخَلْقِ ،جُدَّةٌ تَصيرُ ،إذا صامَ النَّهارُ ،لِدَولَجِ
بِبَطْنِ العَقيقِ ،أَو بِخَرْجِ تبالةٍ مَتَى ما تَجِدْ حرًّا ،منَ الشَّمسِ،تَدْمُجِ
تَحُلُّ الرِّياضَ ،في هِلالِ بن عامرٍ وإن أَنجدَتْ حَلَّتْ ،بأَكنافِ مَنْعِجِ
وتُصبِي الحَليمَ ،بالحَديثِ ،يَلَذُّهُ وأَصواتِ حَلْيٍ ،أو تَحَرُّكِ دُمْلُجِ

---

(١) ٣٢: ٣-٨ ، ص ٢٣٦-٢٣٧ .

الأبيات السابقة ، أربعة منهـا تبدأ بفعل مضارع ، منها بيتان يتحدث الشاعر فيهما عن حال نفسه ، والآخران يتحدث فيهما عمّن يحب . يقول " أراني " وكأنّه يشير إلى حدث يتجدد منه بصورة دائمة ، وأنّه هكذا أبداً ، على هذه الحالة التي يصفها فتى ما هجته تهيّج ، وهو وصف يتجدد بتجدد الأيام لا يحول ولا يتغيّر ، وعليه فقد أنبأت الصيغة عن معنىً جليل : وهو أنه على حال يتجدد في هذا الباب ، كلّما ذُكِّر بليلى تهيّج . وهذا البيت حَسَنٌ جداً ، ويرجع بعض حسنه إلى ما في الفعل " أراني " على حد ما بيّنا فيه ، ودلالته على أنّه يرى نفسه على هذه الحالة المستقرة " متى ماهجتني بعد سلوة ... ، وبعضه إلى الفعل " هجتني .. أتهيّج " ، وفيه ما ترى من وَجْدٍ مُسْتَكِنٍّ فإذا ما هُيِّج تهيّج . وقوله : " أذكر " بصيغة المضارع معناه : أنَّ حالة تذكره لسلمى حالة تتجدد ، وهو تذكر لا يدخل في حيّز الماضي ، وإنما هو مع هذه الصيغة المتجددة دائماً ، ويُتَلَمَّس هذا المعنى في قوله قبل ذلك :

أَمِن كلِّ أخدانٍ ، وإلفٍ ، ولَـذَّةٍ سَلَوتَ ، وما تسلو عن ابنةِ مُدْلِجِ ؟ (١)

ولِلْـبِيدَينِ ، حتّى قالَ من يَزَعُ الصِّبا : أَجِدَّكَ ، لما تستحي أو تَحَرَّجِ ؟

فهو قد سلا عن كل شيء إلا ابنة مُدْلِج ، وانظر قوله : " كلّ أخدانٍ ، وإلفٍ ، ولذّةٍ " ، وتأمّل كيف عبّر عما سلا عنه الخدن والإلف واللذة ، وليس أعلق بالقلب من هذه الأمور ، ثم

---

(١) ٣٢ : ١-٢ ، ص ٢٣٦ .

إن اللذة هنا مشيرة إلى ما يلذه القلب ، والقلب يلذُّ ما دام فيه دفق الحياة ،فإذا سلا عن كل لذّة عني ذلك أنّه شاخ وفني ، ثم يبقى هذا القلب مطويّاً على ابنة مُدْلج .وانظر إلى القصة التي أومأ إليها بقوله : " وليدين حتّى قال ..." ، فالزمن قد تقادم ،وكأنّه قال هذه الأبيات بعدما دخل الشيخوخة أو قاربها ؛ فقوله :"أعن كل أخدان .. " كلمة لا يقولها من هو في مقتبل العمر لأنّه يذكر قصته مع الحياة ، وأنّه سلا عن الأصحاب والآلاف واللذات ، وبعد هذا الإحساس بتقادم العهد تجد المضارع أشد ما يكون توهّجاً في "أراني"، وهو دليل على أنّ الأمر مهما تقادم فستبقى رؤيته لها وذِكْرها في حيّز الحدث الحي . وقوله " ترتاد الأسِرّة " المضارع هنا يشير إلى أنّ العيناء - وهي الظبية - يتجدّد ارتيادها دائماً ،أي : تعيش في خصب يتجدد منها الرّعي فيه ، وهذا المعنى ينتقل إلى سلمى بالنعمة . وقوله " تَحُلُّ الرّياض " يدل أيضاً على تجدد ذلك منها . وقوله :- " وإن أُنجدت " قاير في الصّيغة فحسب ،فالماضي بعد "إن" في معنى المضارع من حيث هي للشرط في المستقبل . وقوله :" تُصبي الحليم " التجدد فيه دال على قيام عناصر التأثير والجمال والحياة والصبوة فيها ،وكأنّها نبع لا ينضب ، فليست بالتي تشيخ وتذبل . وقوله :- " تُصْبي " أجود من "تَحُلُّ " فهو يصف هنا أحوالها وأنوثتها الفائقة التي الشأن فيها أن تتفوق بها على غيرها والتي لها صلة بقلبه . وقال :" الحليم " يريد قوة تأثيرها ، فإذا كان الحليم يصبو فكيف بغيره ؟ . وقوله : " يلذُّه " جملة حالية صدرت بمضارع تعنى أنّ تَلذُّذ حديثها أمر متجدد لا يحول ولا يزول

أبدا ، والشأن في الإنسان أن يُملَّ حديثه مهما يكن من أمره ،أمّا هنا فهو حديث لا يُمل .

ومن الرائق في هذا الباب ،قوله :

إنْ تَستَبِيكَ ،بِجِيدِ آدَمَ ، عاقِدٍ ... يَقْرو طُلُوحَ الأَنْعَمَينِ ،فَثَهْمَدِ (١)

وُموَشَّرٍ،حُمْشِ اللِّثَاتِ ،كأنَّمـا ... شَرِكَتْ مَنابِتُه رضِيضَ الإِثْمِدِ

أبدع زهير صورة رائعة من خلال الألفاظ ، فقوله : " تستبيك " هذا الفعل الحدث الحاضر وقع موقعه الأمثل من حيث معناه اللغوى ؛ فسلمى ذات تأثير بالغ عليه حتّى إنه يكون سبياً لها . ومن حيث مبناه ودلالته على التجدد ؛ فهو يجعل الفعل وكأنه يقع الآن ، وهذا يعين الشاعر على إحضار الصورة الباقية ،وهي صورة لا تشبع منها العين .ومن حيث تعلقاته " بجيد آدم . . . ".

وأخذ يحلّل ما تستبيه به ، فذكر جيدها ، ووصفه بـ " آدم " أي: أبيض ، و " عاقد " أي : ملوي ، وذكر الظّبية بأنّها " تقرو طلوح الأنعمين وثهمد " . والأدمة وصف ثابت ،وكذلك " عاقد " ،وإن كان عقد الجيد مما يتجدد ،إلا أنّ الشاعر آثر في هذه الصفة الاسمية لأنّ عقد الجيد له مدخل في الحسن لا محالة ، ولأنّ الظبية حينما تعقد جيدها إنما تعقده - غالباً - على ولدها ،وهذا مشعر بمزيد من الحبّ والحنان ،وأنّها عاطفة رؤوم جياشة وآثر الفعل في " يقرو" لكونها حالة رعي ،وهذا يعني تجدد هذه الحركة منها ، فهي توضيح لمزيد من محاسنها ، ثم إن حركة العنق حين تقرو أبين لرشاقتها .

---

(١) ٢١ :٣- ٤ ، ص ١٩٤- ١٩٥.

وقوله : "مؤشَّر" بصيغة الاسم وصف ثابت لا يتجدد في الأسنان . وفي اختيار صيغة الماضي : "شُرِكت" دلالة معنوية جيدة من حيث إنَّ مخالطة هذه المنابت لرضيض الإثمد - الذي أكسبها السواد المستملح - كانت منذ زمن بعيد ،فهو أمر قديم أمسى خلقةً ثبتت فيها وتأصّلت .

وهذا قريب من قوله :

قامَتْ ،تَبَدَّى بذي ضالٍ ،لتَحزُنَني   ولا مَحالةَ أنْ يَشتاقَ مَن عَشِقا (١)

بِجيدِ مُغْزِلةٍ ،أَدْماءَ ،خاذِلةٍ   من الظِّباءِ ،تُراعي شادِنًا ،خَرِقا

يقول ثعلب (٢) : "تبدّى : تظهر ،من قوله تعالى : * ثُمَّ بدا لهم من بعد ما رأوا الآياتِ * أي : ظهر لهممن الرأي. وكلّ ظاهر فهو غير مهموز . فإذا أردت ابتداء الرأى همزته فقلت : بدأت الرأيِ وابتدأته وأبدأته . قال اللّه عزوجل: * اللّه يبدأ الخَلْقَ * وقال ذو الرُّمّة :

* فقلت :لا والمُبْدئِ المُعيدِ *

ويروى : "قامت تراءَى" ويقال : حَزَنني وأَحْزَنني . ولا محالة: لا بدّ أن يشتاق من عَشِقَ . وبذى ضالٍ . موضعٌ به ضالٌ ،وهو السِّدْر البرّيّ. والعُبْرِيّ والعُمْريّ : ما كان على الأنهار...الباء من صلةِ "تبدّى" . بجيد : بعُنُقِ ظبيةٍ معها غزالٌ . والشادنُ : الذي قد اشتدّ لحمه . وكذلك جادِلٌ وجادِنٌ.

---

(١) ٢ : ٤-٥ ، ص٣٩ .

(٢) (شرح شعر زهير بن أبي سلمى) ص٣٩-٤٠ .

سيعتمد في شرح أبيات زهير - بعد - على ثعلب ما لم يرد غيره فينبه إليه في موضعه.

وإنما جعلها "مُغْزِلاً" ،لأنّه أشدُّ لانتصابها ،لحذرها عليه.

وأدماء: خالصة البياض ،وساكنها الجبال. الخاذلة: المتأخرة عن الظّباء. والخَرِقُ: الذي لا يقدر أن يتحرك ولا يدرى كيف يأْخُذُ ،من ضعفه وصِغَره. يقال: خَرِقٌ. وإذا تحرّك وقوي قيل: شَدَنَ".

يتناول هذان البيتان الموقف الذي تناوله البيتان السابقان ، ويبدو -واضحًا- تقارب المجاري المعنوية للصياغات الشّعرية ،فهما موقفان متقاربان جدًا ،وليسا سواء ،فالموقف الشعري لا يتكرر ، ولكل منهما خطراته وخوالجه ،وكأنك إزاء نوع من التقارب المقاسي لموقف تناغمت فيه اللغة.

قال :- " تبدّى "بالمضارع ،والفعل المضارع أكثر الأفعال في الجمل الحالية استعمالاً في شعر زهير ،وفعل التبدّي هذا له فضل تعلّق بقلب الشاعر ،والظّنّ في صاحبته أنّها تعلم منه ذلك فهي إذا قامت تبدّت لتَحْزُنه ،وهو يعلم منها ذلك ، ولم يستطع دفع هذا الأثر الذي تقصد إليه ،وهو يعتذر عن ضعفه هذا بقوله:

* ولا مَحالةَ أن يشتاقَ من عَشِقا *

وعجيب أن تحزنه وقد تبدّت ،وقد ذكر عبدالله الطيب (١) في علة ذلك :-

" أنها لم تحزنه ،ولكن أعجبته ،ومنالها عزيز ،وقلبه قد تعلّق بها ، فهذا هو الذي يحزنه. وكأنّها إذ أرته من نفسها ما أرته ،من

---

(١) (المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها) ٣ : ١٠٧١.

انصلات جيد ،وبريق شفر ،ورقّة نظر ،وخلجات ودّ ،كل ذلك مافعلته إلا لتحزنه . وهذه كما ترى إلمامة رقيقة لطيفة بمعنى التجربة الفردية ، تلقي عليك ظلاً كثيفاً من حب الاستطلاع ورغبة الكشف ، وتشعرك لفحاً ما من حرارة الإدراك لبعض ما كان " .

وقال : " مُغزلة "أي: ذات غزال .و "أدماء" أي : شديدة بياض العنق . و "خاذلة " أي : متأخرة عن الظباء .فهي تمدّ عنقها لترى ولدها . و "مغزلة " ، و "أدماء ،و "خاذلة " ، و "خرِق " صيغ اسمية فيها معنى الثبات والدوام ، لأنّها دالة على معان لاتتجدد . وقال : "تراعي " أراد الحدث نفسه ،حدث أنّها تراعي هذا الشادن ، وأنّها قائمة على أمره قياماً حيّاً يتجدّد منها .

ومثل هذا الموقف المتشابه يدعو إلى وقفة تأملٍ مُقارِنةٍ ، إنَّ النغمة هناك أشدّ وقاراً ،أمّا هنا فهي أقوى ،ويبدو التكاثف الموسيقي واضحاً ، فلم يُكتف بالبحر العروضي ،وإنّما أدخل الترصيع :

* بجيد مغزلة أدماء خاذلة *

وبذلك كان النغم أكثر ظهوراً وثراءً ،وهو دال على مزيد نشوة الشاعر وغنائيته ،وقال هناك :" تقرو " وقال هنا :" تراعي "فالحركة هناك حركة رغبة تتجدد إلى الطعام وشهوة إليه ،وهي في "تراعي" حركة اشفاق على الابن وحَيْطة ،وكأنّ الشاعر وضع هذه الكلمة موضع "عاقد " هناك ،ولمحة الحنان التي استخرجت هناك لم تكن شيئاً غريباً ، لأنّ الشاعر لما ترك لفظ " عاقد " وصورة ليّ العنق التي تبدو منها - استبدل بها " تراعي شادناً " ،وذكر هنا " خاذلة "وهي التي

" خذلت القطيع وأقامت على ولدهــــــــا وأحسن ما تكون حينئذ لأنّها مرتاعة حذرة " (١) ،وفي هذا الذكر ملاءمة دقيقة لقوله : "لتحزنني" والصورة هنا عليها وشاح رقيق من الحزن ألقته هذه الكلمة "خاذلـــة"، وما أكثر الشعراء الذين يحرصون أحيانا في صورهم على إفراغ قطرات من هذا الضرب تكون الظبية فيه خاذلة أو مرتاعة أو مزءودة فاقدة ولدهــــــــا ، ثم تجدهم أحيانا أخرى يفرغون ضروبا أخرى كالنعمة والرفه . ولا ريب أنّ مثل هذا إنما يرجع إلى البعد النفسي المحيط بالقصيدة الذي يمكن استخلاصه بامعان النظر ودقة الملاحظة . وأما الصورة هناك فهي مشرقــة بالنعمة والرفه "يقرو طلوع الأنعمين .. مؤشر حُمْش اللثات" ،وهكذا ترى العناصر الشعرية مع تقاربها تختلف وتتنوع . ثم قوله في الشطر الثاني من البيت الأول :

* ولا محالة أن يشتاق مَنّ عشقا *

ليس له ما يقابله هناك ،وفيه إقرار بالعجز عن المقاومة ،فهي قد قامت تبدّى لتحزنه ،وقد نفذت إلى ما أرادت ،فكان قوله هـــذا اعتذاراً منه ، كما تقدّم .

ويبدو أنّ زهيرا في ضوء الاستشهاد بنماذج من هذه القصيدة قد برع في إتقان النغم في هذه القافية ،فأعطى الشعر حقه ، وأعطـــى اللغة حقها ،وبلغ الغاية فيما أراد الإبانة عنه .

---

(١) الأعلم الشنتمري (شعر زهير بن أبي سلمى) ص ٦٤ .

ومن جيد مواقع المضارع أيضاً ، قوله :

بِها العِينُ ، والآرامُ ، يَمشِينَ خِلفَةً وأطلاؤُها يَنْهَضْنَ ، من كلِّ مَجثِمِ [١]

قال ثعلب [٢] : " العِين : البقرُ . الواحدة عيناءُ ، والذكر أَعينُ . وإنما سُمِّيت عِيناً لسَعَة أعينها . والآرام : الظِّباء البيض الخوالص البياض . . وقوله " خِلفةً " إذا مضى فوجٌ جاء آخرُ . وأصله إذا ذهب شيء خَلَفَ مكانه شيءٌ آخرُ . وإنّما أراد أنَّ الدار أقفرت حتّى صار فيها ضروبٌ من الوحش . . والطّلا : ولد البقرة وولد الظبية الصغير . وقوله : " ينهضن من كل مجثم " أراد أنهن يُنِمْن أولادهن إذا أرضعنهنَّ ثم يَرعينَ ، فإذا ظَنَنَّ أنّ أولادهنّ قد أنفدن ما في أجوافهنّ من اللبن صوّتن بأولادهنّ ، فينهضْنَ للأصوات ليشرَبن . . . وجَثَم يجثُمُ إذا ربض . والجثوم للطّير مثلُ الربوض للشّاء " .

ديار أمِّ أوفى الخرساء التي لم تتكلم تنبعث فيها هذه الأحياء والمخلوقات الصغيرة التي أخذت تمضي فوجاً بعد فوج ، وقد عبّر عن المشي بالفعل المضارع " يمشين " ولا تخفى دلالته على المشي المتجدد من العين والآرام . وقوله : " اطلاؤها " واضح الدلالة على الأمومة والطفولة . وإسنادُ " يمشين " للعين والآرام ، و " ينهضن " للأطلاء ؛ سببه جمال العين والآرام في حركة السير ، وليس في حركة النهوض التي هي موضع جمال عند الأطلاء في هذا الوثب الجميل الخفيف المرح ،

---

(١) (: ٣ ، ص ١٧ .

(٢) ص ١٧-١٨ .

ويبدو الفعل "ينهضن" أكثر ملاءمة من الفعل "يمشين" ؛ فالنهوض فيه حركة وانتصاب ،وفيه فضل انفعال لا تجده في المشي ،وهذه هي المعاني المتجددة . وهذا الحال الذي استخرجه زهير من جملة "يمشين خِلْفة" أبان عن تنظيم حَسَنٍ لحركة المشي وحركة هذه العين والآرام ،وأنّها طائفة تعقب طائفة .

وتأمّل قوله ، في قصيدة رواها أبوعمرو الشيباني ،وهي متّهمة عند المفضّل :

وبَلْدةٍ ،لا تُرامُ ،خائفةٍ زَوراءَ ، مُغْبرَّةٍ جَوانِبُها (١)

تَسمَعُ للجنِّ ،عازِفينَ بِها تَضبَحُ ،من رَهْبةٍ ،ثَعالِبُها

يَصعَدُ مِن خَوفِها الفُؤادُ ،ولا يرقُدُ ،بعضَ الرُّقادِ ، صاحِبُها

تنكير "بلدة" يدل على أنّها بلدة منكورة غير معروفة ،وهذا مبعث للتخويف منها ،وقد ألح زهير على توكيد هذا التنكير أي : كونها منْكرة بقوله : "لا ترام" أي : مخوفة لا يُقدرُ عليها ، وبقوله : "خائفة" ،وهل تخاف البلدة ؟ أم هو إلباس الأمكنة أوصاف ساكنيها؟ أي : خائف من فيها . وترى زهيراً وقد وصف البلدة بـ "خائفة" قد استخدم اسم الفاعل ليدل بذلك على أنَّ الخوف وصفٌ ثابتٌ فيها ، وهوقريب من قوله تعالى ﴿ فأصبحَ في المدينةِ خائفاً يترقب ﴾ (٢)

---

(١) ٢٠-١-٣ ،ص ١٩١ .

(٢) القصص : ١٨ .

فالخوف وصفٌ ثابتٌ ،و "يترقّب" وصف يتجدّد حدوثه . وفرقٌ بين قوله : خائفة ،وقوله : مخوفة . وفي قوله : " تسمع" لم يقل "أسمع" موءثراً توجيه الخطاب لغير معين ليفيد ذلك العموم وذلك الشمول لكل من يتأتى منه الفعل المأمور به .ثم صيغة المضارع " تسمع" دالة على تجدّد سماع أصوات عزف الجن . وقوله بالمضارع " تضبح" وصف يتجدد أيضًا ، فهذه الثعالب على حالة من الذعر يتجدد فيهاتصويتها ، وعجيب أن ترهب الثعالب ! ، وهذه مبالغة حسنة جدا في الذي عليه البلدة . وقوله : " يصعد الفوءاد " كناية عن حالة الوجيف التي يصعد من خوفها الفوءاد ،وهو قريب من قوله تعالى : * وبلغت القلوب الحناجر * [(١)].

وقوله :

وإنّي لمُهدٍ ،مِن ثناءٍ ،ومِدحةٍ إلى ما جدٍ ، تُبغَى إليه الفَواضِلُ [(٢)]

مَنَ الأكرَمِينَ ،مَنصِباً ،وضَريبةً إذا ماشَتا تأويءإليهِ،الأرامِلُ

فما مُخْدِرٌ ،وَردٌ ،عليه مَهابةٌ يَصيدُ الرِّجالَ ،كلَّ يومٍ يُنازِلُ

بأوشَكَ مِنهُ ،أنْ يُساوِرَ قِرْنَهُ إذا شالَ ،عن خَفْضِ العَوالِي ،الأسافِلُ

فَيبدَوءهُ ،بِضَربةٍ ،أو يَشُكَّهُ بنافذةٍ ،تَصْفَرُّ مِنْه الأنامِلُ

" الضريبة : الخُلقُ . والمنصب : الأصل... خَدَرالأسدُ وأخدر ،فهو خادر ومُخْدِرٌ ،إذا استتر في خيسه [(٣)] ،أى الأجمة . أوشك منه : أسرع منه . أن يساورقرنه : يواثبه في الحرب . يقول : ليس

---

(١) الأحزاب : ١٠ .

(٢) ٢٤ : ١١-١٥ ،ص ٢١٦ .

(٣) ص ٢١٦ .

الأسد أسرع منه في مواثبة الأقران . وشال : ارتفع . والعوالي : جمع عالية . وهي القسم الأعلى من الرمح . والأسافل جمع أسفل . وهو القسم الأدنى من الرمح . يريد : إذا رفع الفرسان أيديهم بالرّماح ، وسدّدوا أسنّتها إلى صدور الأعداء.(١)

" تُبغَى " بصيغة المضارع فيه أن قَصْد الناس إليه وعطاءه إيّاهم أمرٌ يتجدّد دائماً . و" تأوي إليه الأرامل " بالمضارع ، وكأنّ الشاعر نسي مسألة موت من يرثيه تماماً ، فأحضر صورة إيوائه الأرامل . وقوله : "يصيد " . أي : هذا دأبه ؛ فصيد الرجال يتجدّد من هذا الأسد بطريقة مستمرة . وفي قوله : " كل يومٍ يُنازِل " دليل على منازلة متجددة .

وقوله :

قُضاعِيَّةٌ ، أوْ أُخْتُها ، مُضَرِيَّةٌ يُحرِّقُ ، في حافاتِها ، الحَطَبُ الجَزْلُ.(٢)

ظاهر في "يُحرِّق " معنى التجدد .

وقوله :

إذا لَقِحَتْ حَربٌ ، عَوانٌ ، مُضِرَّةٌ ضَرُوسٌ ، تُهِرُّ النّاسَ ، أنيابُها عُصْلُ.(٣)

---

(١) ص ٢١٦ . حاشية (٥) .
(٢) ٥ : ١٧ ، ص ٨٨ . " قضاعية أو أختها مضريةً أي : حربٌ مُنكَرةٌ ... والجزلُ : ما غلظ من الحطب " ص ٨٨-٨٩ .
(٣) ٥ : ١٦ ، ص ٨٨ . " لقحت : اشتدت . وعوانٌ : ليست بأولَى ، قد قوتل فيها مرّة بعد مرّة . وضروس : عضوض سيئة الخُلق . تُهِرُّ الناس : أي : تُصيرهُم يَهِرُّونَها ، أي : يكرهونها .. وعُصلٌ : كالحة معوّجةٌ ... ومضِرّة : مُلِحّةٌ " ص ٨٨ .

قال : "تهرُّ الناس" ،أراد أنَّ الكره الذى لها أمر متجدد دائماً .

وقوله :

فاستبدَلَتْ بعدَنا داراً،يمانيَّـةً تَرْعَى الخريفَ،فأدْنَى دارِها ظَلِمُ (١)

"ترعى الخريف" جملة حالية ،يتكلم عن أسماء حالة كونها ترعى الخريف ،وقوله هذا قريبٌ من الجملة الوصفية "ترتاد الأسِرّة" قبله، كما مرّ . والصيغة تعني أن هذا الحدث يتجدد ويحدث شيئاً بعد شيء.

وهناك نماذج كثيرة ترى المضارع فيها دالاً على التجدد والحدوث منبئاً عن حضور الصورة ،كما ذكر. وقد يأتي المضارع والغرض منه: استحضار الصورة ، وذلك إذا كان الفعل قد مضى ،والأصل أن يُعبَّر عنه بالماضي ،ولكن الشاعر يؤثر المضارع لاستحضار الصورة ،و هذا النوع ليس كثيرا في شعر زهير ،و منه قوله :-

تنجو كذلك ،أو نَجاةَ فريـدةٍ ظلَّتْ تتبَّعُ مرتَعاً ، بالفرقـدِ (٢)

بينا تُراعِيهِ ،بكلِّ خميلـةٍ يَجْري عليها الطَّلُّ ، ظاهِرُها نَدِي

غَفَلَتْ،فخالفها السِّباعُ ،فلم تَجِدْ إلا الإهابَ ،تَرَكْنَه بالمرقدِ

"تنجو ، يعني : الجسرة . وكذلك : كنجاء الحمار . أو فريدةٍ : بقرةٍ منفردةٍ . والفرقد : ولدها ... تراعيه : ترعى معه ، وقيل : تحفظه . وخميلةٌ : رملةٌ فيها شجر . عليها : على الخميلة . والطَّلُّ : النَّدى . وظاهرها ندٍ لقلة الماء،لم يبلغ الأصول ". (٣)

---

(١) ٨ : ١١ ، ص ١١٩ . "استبدلت ، يعني : أسماءَ . ترعى نبتَ الخريفِ . يمانية : ناحية اليمن ، لأنّ الخريفَ أنفع لهم منه لغيرهم." ص ١١٩ .

(٢) ٢١ : ١٢-١٣ ، ص ١٩٧ . (٣) ص ١٩٧ .

الفعلان:"تجرى"و " تراعيه " لاستحضار الصورة ، والفعل "تراعي " أراد به أن هذه البقرة كانت تحرص على رعاية فرقدها ، ولمّا أصابتها الغفلة خالفت السباع إليه ، فـ" تراعيه " فعل حيٌّ معبّرٌ أعاد الشاعر من خلاله صورة هذه البقرة وهي ترعى وليدها .

وقولـه :

أضاعَتْ ،فَلَمْ تُغْفَرْ لها غَفَلاتُهـا ... فلاقَتْ بياناً ،عند آخِرِ مَعْهَـدِ (١)

دَماً ،عند شِلْوٍ ،تَحجُلُ الطّيرُ حولَهُ ... وبَضْعَ لحامٍ ،في إِهابٍ ، مُقَـدَّدِ

فجالَتْ على وحشِيِّها ،وكأنّهـا ... مُسَرْبَلةٌ ،في رازِقيٍّ ،مُعَضَّـدِ

وتَنْفُضُ ،عنها ،غَيبَ ،كلِّ خميلـةٍ ... وتَخشَى رُماةَ الغَوثِ ، مِن كلِّ مَرصَدِ .

* أضاعت : تركت ولدها وغفلت عنه . وغفلاتها : جمع غَفْلـة . فلاقت بياناً: استبانت الجلْد والدّم ،هو الذى بيَّن لها ،عند آخر موضعٍ عهدته فيه ،أي : فارقته فيه ... دماً: ردٌّ على بيان . شِلْوٌ : بقية الجسد . وبَضْع : جمع بضعةٍ . لحام : جمع لحم . اهاب : جِلْدٌ . والجمع أُهُبٌ . ومقدَّدٌ : مخرق ومشقّق . تحجل الطير حوله: أكل الذئب ما أكل ،وبقي شيء تحجل الطيرُ حوله ...جالت البقرة : جاءت وذهبت. وحشيُّها : الجانب الذى لا يُركب منه ،وهو الأيمن ... ومسربلةٌ : لابسةٌ سِرْبالا ،وهوالقميص . شبَّه بياضها ببياض الكتّان . ومُعضَّد : مخطَّطٌ . وذلك أنَّ في قوائمها خطوطاً ،وفي وجهها سواداً . والرّازقيُّ : الكتّانُ... تنفض : تنظر هل ترى فيه ما تكره أم لا . والغيب:

---

(١) ١٤: ١٨-٢١ ، ص ١٦٤- ١٦٥.

كل ما استترعنك . والخميلة : رملةٌ فيها شَجرٌ . والجميع خمائل .
والغوث : قبيلةٌ من طيِّئٍ . وَمرصَدٌ : مكان يُرْصَدُ فيه ". (١)

الصورة هنا جيدةٌ ،ثمَّ هي في غاية الغرابة ، صورة الفصيل الذي أكلته السباع ،وقوله " تحجل " استحضارٌ ،لأنَّ حَجْل الطير عند الشّلو ليس أمرًا دائمًا ،فالحدث قد انتهى ،ولكن لمَّا كان أكل الطير من لحم ابن البقرة شيئًا مفجعًا محزنًا قال : " تحجل " ،والحَجْل : (مَشْيُ المقيَّد) (٢) ،وتبدو من هذا الفعل لمسة مأسوية عميقة هي في صورة إيقاع حركي داكن حزين . ومثله "تنفضُ " و " تخشى " يبينان عن اندفاع هذه البقرة في سبيل دفع الأذى عن نفسها ، هل ترى خلف الخمائل ما تكره أم لا ؟

وقوله ، في الفرس :

نَظرتُ إليه نَظرةً ،فرأيتُهُ على كُلِّ حالٍ ،مَرَّةً ،هُو حامِلُهْ (٣)
يُثِرْنَ الحَصَى ،في وَجهِهِ ،وهولاحِقٌ سِراعٌ تَوالِيهِ ،صِيابٌ أوائلُهْ

"نظرت " و "رأيت " بالماضي حكاياتٌ لأحداثٍ مضت ،فالسياق سياق مُضِيّ لأنه حديث عن صيد ،ولكنّه عبّر بالمضارع في قوله : " يُثِرن الحصى " .وقوله : في البيت التالي :

فَرَدَّ علينا العِيرَ ،من دُونِ إلفِهِ على رَغمِهِ ،يَدمَى نَساهُ وفائلُهْ (٣)

---

(١) ص ١٦٥ .
(٢) الأعلم الشنتمري (شعر زهير بن أبي سلمى) ص ١٨٣ .
(٣) ٧ : ٢٥-٢٧ ،ص ١٠٩ " صياب : قاصدةٌ . وتواليه : أواخره . يريد رجليه وعَجُزه . وأوائله : يداه وصَدْره ... إلفه : أتانه . ونساه : عِرقٌ في رجله . والفائل : جانب الذّنب . وهو عرق في خُرّابة الورك ، يهجم على الجوف." ص ١٠٩ .

عبر بالفعل " يَدمَى " لإبراز الصورة واستحضار أحداث معينة هي صورة هذا العير العظيم الذي جهد الغلام البارع في إحضاره حالة كونه يدمى نساه .

ومن إيثار المضارع استحضاراً للصورة ، قوله :

تَبصَّرْ ، خَليلي ، هل تَرى من ظَعائنٍ تحمَّلْنَ ، بالعَلياءِ ، من فَوقِ جُرثُمِ ؟(١)

عَلَونَ بأَنماطٍ ، عِتاقٍ ، وكِلَّةٍ ورادٍ حَواشِيها ، مُشاكِهةِ الدَّمِ

وفيهنَّ مَلهىً ، لِلَّطِيفِ ، و مَنظَرٌ أَنيقٌ ، لِعَينِ النّاظِرِ ، المُتَوَسِّمِ

بكَرْن بكوراً ، واستَحَرْنَ بسُحْرةٍ فهُنَّ ، ووادِى الرَّسِّ ، كاليَدِ في الفَمِ

جَعَلْنَ القَنانَ عن يَمينٍ ، وحَزْنَهُ وكم بالقَنانِ ، من مُحِلٍّ ، و مُحْرِمِ

ظَهَرْنَ ، من السُّوبانِ ، ثمّ جَزَعْنَهُ على كُلِّ قَينِيٍّ ، قَشِيبٍ ، و مُفأَمِ

وَوَرَّكْنَ ، في السُّوبان ، يَعلُونَ مَتنَهُ عليهِنَّ دَلُّ النّاعِمِ ، المُتنعِّمِ

" الظعائن : النساء على الإبل . الواحدة ظعينة . ثم كثر حتى صار يقال للمرأة ظعينة ... وِرادٌ : لون الورد . والواحدة وردةٌ . ويُروى : "وعالين أنماطاً " وهي التي تفترش ... والكِلّة : السِّترُ . وحواشيها : نواحيها . ومشاكهة الدّم أي : يشبه لونها لونَ الدم ... وعتاق : كِرامٌ ... واللطيف : الذى ليس فيه جَفاء . وأنيق : مُعجِبٌ ... والمتوسِّم : الناظر الذي يتفرس في نظره ، كأنه يطلب شيئاً من سِمَتِهِ ، يعرفها به ... واستحرن : ببقية من الليل ... وقوله " من محل و مُحْرِم"

---

(١) ١ : ٧-١٣ ، ص ١٩-٢١ .

يقول : كم بالقنان من له عَهدٌ أوذِمّةٌ أوجوارٌ فله حُرْمةٌ من أن يغار عليه . فهذا محرم . ومن ثمّ قيل : مُسْلِمٌ محْرِمٌ ،أى : لم يُحِلَّ من نفسه شيئاً يوقع به له . . . وقوله "ظهرن منه" أي : خرجن منه ،ثم عرض لهن مرة أخرى ،فقال "جزعْنَه" أي : قطعنه ، لأنّه يتثنى . وقوله "قيْني" أراد غبيطاً منسوباً إلى بلقين ،وهوابن جَسْرٍ ،وهو قَتَبٌ ،طويل يكون تحت الهودج . وقشيب : جديد . مفأم أي : قد وُسّع وزيد فيه بنيقتان من جانبيه ليتسع »(١) .

الاستحضار هنا ، ليس استحضاراً لمشهد جزئي ،وإنما استحضار كلّي لرحلة كاملة ،فالشاعر عندما أمرخليله أن يُمعن في النظر كان كمن يستحضر استحضاراً حقيقياً ،وكأن ما يجده من شوقٍ إلى هوى الأصحاب قد عظم وصار يرى مرائي لا أصل لها ،ولكنّها عنده كالحقيقة وقد وقف بعد الرحيل بعشرين حجّة يرى الرّكب مرة ثانية ،وهذا خيال شعري جيّد وقدرة فائقة في سياق كهذا ، فالمضارع هنا "ترى" عنصر جزئي ضمن استحضار مشهد كلّي ،والذي أحضر هذا المشهد الكلّي هو وَجْدُ الشاعر وقوة خياله . وقوله : "تَحمّلن" ، و "علون" ، و "بكرن" ، و "استحرن" ، و "جعلن" ،و "ظهرن" ، و "جزعن" و "وركن" أفعال ماضية ،وهكذا ، فالمشهد مع استحضار الشاعر له بصيغة المضارع في "ترى" و "يعلون" إلا أنك ترى فيه عنصر الفوات والمضي في تلك الأفعال الماضية ، وهي عناصر ذات إيحاء جيد لموقف نفسي فيه حيرة وتلدّد .

---

(١) ص ١٩-٢١ .

إن الدرس السابق حاول أن يُظهر طبيعة استعمال زهير لصيغة المضارع ، فها أنت تراها وقد وقعت الموقع الأحكم لها ،وكان جريانها على الأصل دالة على التجدد والحدوث بما يُروِّق المعنى ويظهر خصبه - ظاهراً جدا في شعره في معظم ما وقعت فيه . أمّا جريان المضارع موضع الماضي فقد كان قليلاً جداً عند مقارنته بما جاء على الأصل ولكنه على قلته أنبأ عن سرائر جليلة ،تكفلت الدراسة بمحاولة تجليتها والبصر بها .

ثالثاً - الدلالات البلاغية في أبنية المشتقات :

وكما لحظ دقة زهير في استعمالاته لصيغ الأفعال - والمضارع خاصة - لحظ - أيضاً - دقته في استعمال المشتقات وإيقاعها الموقع الأحكم والأبلغ - وهو جزء من ملاءمة الكلمة لسياقها - وانظر قوله :

مَرِجَ الدِّينُ ،فأَعدَدْتُ لَهُ ... مُشْرِفَ الحارِكِ ،محبُوكَ الثَّبَجْ (١)

يَرهَبُ السَّوطَ ،سريعاً ، فإذا ... وَنَتِ الخَيلُ ،من الشَّدِّ ،مَعَجْ

سَلِسَ المَرْسِنِ ،مَحُوصَ الشَّوَى ... شَنِجَ الأَنساءِ ،من غيرِ فَحَجْ

« مرج : اختلط ، لم يكن لهم من يُقيمُهم على طاعةٍ. والدِّينُ : الطّاعة. والحارك : المَنسِجُ . ومحبوكٌ : مفتولٌ . والثَّبَجُ : الوسَطُ. يريد الظهر...ونت: فترت . مَعَجَ : مرّ مرّاً سريعاً . سَلِسَ أراد : سَلِسَ القيادِ . والمَرْسِنُ : موضع الرَّسَنِ من الأنف . والمحوصُ : القليل اللحم . شَنِجُ الأنساءِ : متقبِّضٌ فيه توتير. والأنساء : جمع نساً. وهو عِرقٌ من مُنشقٍّ ما بين الفخذين فيستمر في الرِّجل . وهما نسيان اثنان . وإذا كان في نسا الفرس بعضُ التَّشنّج والتقبّض كان أنعتَ ، وهو في القوائم الصافِنُ. والفَحَجُ : تباعد ما بين الرِّجلين (٢)..»

لمّا كان علوّ حارك البعير وصفًا لا يتغير ،قال : "مُشرِف الحارك" ،ومثله " محبوك الثبج " و "سلِس المرْسنِ " و "محوص الشّوى " ، و "شنج الأنساء " فهي أوصاف ثابتة لا تتغيّر ،ومن هنا فقد أجرى الشاعر معها صيغ الاسم (المشتقات : اسم الفاعل ، اسم المفعول ..)

---

(١) المقطعة ٤٤ ، ص ٢٥٨.

(٢) ص ٢٥٨.

مما يدل على الثبات والدّوام .أمّا " يرهب السوط " بالمضارع فلأن الرهبة تتجدد من البعير ،وهذا من فرط نشاطه وأنه ليس بليداً .

وقوله :

وبَيداءَ ،تِيهٍ ،تَحرَجُ العَينُ وَسْطَها   مُخفِّقةٍ غَبراءَ ،صَرماءَ ،سَمْلَقِ [(١)]

" بيداء : فلاة . والجميع بِيدٌ . وتيهٌ : مَضَلَّةٌ يتيه فيها الإنسان . الواحدة تيهاء . وتَحْرجُ كـأنّها تبطرُ وتدهش . والحرج في العين : الحيرةُ والدهش . ومخفّقةٌ : تخفق بالسراب أي : تلمعُ لخفْق السّراب . وصرْماءُ : لا ماءَ فيها . ويقال : ناقةٌ صرماء ،إذا انقطعت أخلافها فذهب لبنُها . وسَملقٌ : لا نبت فيها [(٢)] ".وكما ترى ،فقد استعمل الشاعر الصيغ الاسمية فيما هو ثابت دائم كقوله : " مخفّقة " ،و " غبراء " ، و " سَملق " ، و " صَرماء " .أمّا الوصف المتجدد المتحرك الذي يحدث شيئًا فشيئًا فقد استعمل فيه صيغة المضارع -وهو قوله :" تَحْـرَجُ العين "-لأنّ دهش العين وحركتها أمر يتجدد .

وتأمل قوله :

خَلِطٌ ،أَلوفٌ للجَميعِ ، بِبَيتِهِ   إذ لا يُحَلُّ ،بحَيِّزِ المُتَوحِّدِ [(٣)]

يَسِطُ الهُبوتَ ،لكي يكون مَظِنَّةً   مِن حيثُ تُوضَعُ جَفْنَةُ المُستَرفِدِ

---

(١) ١٦ : ١ ،ص ١٧٧ .

(٢) ص ١٧٧ .

(٣) ٢١ : ٢٠-٢١ ،ص ١٩٨ .

" خَلِطٌ : مختلطٌ بالناس . وأُلوفٌ للجميع أي : يجعل بيته في الجميع ، لا يتنحّى وينزل وحده . أي : يألفهم . وحيِّزٌ : ناحية . والمتوحِّدُ : الذي ينزل ناحيةً كيلا يُضيفَ ولا يَقري... يسط البيوت : يكون أوسطها لكي يظنّ الناس عنده خيراً ، يقال : اطلبوا الخير من مظانّه ، أي : من الموضع الذي تظنون فيه خيراً . والمسترفد : الذي يُسأل الرِّفد والمعونة ، يسترفده الناس[1] ". وهكذا بيوت كرام الناس حتى تكون مقصد القاصد . وقوله : " خلط " و " ألوف " بصيغة الاسم (صيغ مبالغة دالة على معان ثابتة دائما وهي خلقة . ثم قوله : " يسط البيوت " بصيغة المضارع المفيدة التجدد والحدوث ، وهذا الوصف ، وإن كان معناه أن بيته وسط البيوت - وهو وصف ثابت - فإن الغاية من وقوعه وسط البيوت هي : تجدد الضيفان وتجدد الإكرام ، وكأنّ الشاعر دلّ على تجدد الغاية من الفعل الثابت بصيغة الفعل نفسه ، وهذا ملحٌ لطيف كما ترى .

---

(١) ص ١٩٨ .

رابعاً : وسائل التعريف :

تختلف وسائل التعريف وطريقة التنكير عن كثير من الأساليب البلاغية كالانشاء أو التقديم أو التوكيد ،فالكلام قد يُبنى من غير الانشاء أوالتقديم أوالتوكيد ،أمّا التعريف والتنكير فهما وصفان لا ينفك أحدهما عن كل اسم يرد في الكلام ،ولهذا تكاثر التعريف والتنكير فيه ،وعليه فهذا الموضوع واسع ،وكلّ جملة تفيد فائدة يحسن السكوت عليها ـ لا شك ـ موجود فيها تعريف أو تنكير ،لانّ الجملة لا توجد بدون اسم ، والاسم إمّا نكرة أو معرفة ،وهذا أمر لازم .

ويقرر ابتداءً ،أنّه لا يوجد في الكلام تعريف من غير فائدة مقصودة من هذا التعريف ،ولا يوجد تنكير من غير فائدة مقصودة من هذا التنكير ،وهذه الفائدة التي لا تنفك عن التعريف أو التنكير هي المعنى الحقيقي لهما . يقول عبد القاهر (١) " من البعيد أن يكون في جملة النظم ما يدل تارة ولا يدل أخرى " ،وهذا كما ترى شامل لكل خصائص النظم التي منها التعريف والتنكير ، وغير ذلك من مسائل علم المعاني . ثم إنّ التعريف أوالتنكير قد يفيدان معاني أخرى بجانب هذه الدلالة الحقيقية ، أي يتضمنان فائدة ذات قيمة ،وذات مغزى ،وهذا يكون في الحال بعد الحال .

وعودٌ إلى الفائدة ،وهي أصل الوضع ،فالتعريف فيه تعريف بأمر معيّن ، والتنكير فيه شيوع ،إلا أنّ هذه الدراسة تنظر إلى ما فوق هذا المعنى الأصلي ،وبعبارة أخرى تبحث في المعاني والاعتبارات

---

(١) (دلائل الإعجاز) ص ١١٠ .

الزائدة عن أصل الوضع ،وهي عند زهير ظاهرة في أساليب التعريف وطريق التنكير ،إلا أن تصريفه لهذه المعاني على درجات تسطع أحياناً وتخبو أخرى . قال عبد القاهر (١) وهو يعقّب على مراجع المزية في قول البحتري :

بَلَوْنا ضَرائبَ مَنْ قَدْ نَرَى ... فَما إِنْ رأَيْنا لِفَتْحٍ ضَرِيبا

هو المرءُ أَبْدت له الحادثا ... تُ عَزْماً وشيكاً ورأياً صليبا

تنقّل في خُلُقَيْ سُؤْدُدٍ ... سَماحاً مُرجًّى وبأساً مهيبا

فكالسيف إِن جئته صارخاً ... وكالبحر إِن جئته مستثيبا

وقول ابراهيم بن العباس :

فلو إذْ نَبا دَهْرٌ ،وأُنكِرَ صاحبٌ ... وسُلِّط أعداءٌ ،وغاب نَصيرُ

" وإذ قد عرفت أنّ مدار أمر " النظم " على معاني النحو ،وعلى الوجوه والفروق التي من شأنها أن تكون فيه ،فاعلم أنّ الفروق والوجوه كثيرة ليس لها غاية تقف عندها ،ونهايةٌ لا تجد لها ازدياداً بعدها = ثم اعلم أن ليست المزيّة بواجبة لها في أنفسها ، ومن حيث هي على الإطلاق ،ولكن تعرِض بسبب المعاني والاغراض التي يُوضع لها الكلام ، ثم بحسب موقع بعضها من بعض ،واستعمال بعضها مع بعض .

تفسير هذا : أنّه ليس إذا راقك التنكير في " سؤددٍ " من قوله " تنقّل في خلقي سؤدد " ،وفي " دهر " من قوله : " فلو إذ نبا دهر " ، فإنه يجب أن يروقك أبداً وفي كل شيء = ولا إذا

---

(١) (المصدر السابق) ص ٨٥ - ٨٧ .

استحسنت لفظ ما لم يُسمّ فاعله في قوله "وأُنْكِرَ صاحب" ، فإنّه ينبغي أن لا تراه في مكان إلا أعطيته مثل استحسانك ههنا = بل ليس من فضلٍ ومزية إلا بحسب الموضع ، وبحسَب المعنى الذي تريد والغرض الذي تؤم .»

وقد سيق هذا النص لأنّ كلام عبد القاهر هو الضوء الذي يكتب فيه هذا البحث ،وهذا النص واضح الدلالة على أنَّ هذه الخصوصيات اللغوية لا تراها تروق و تبهر في كلّ موقع ،وإنما تكون كالشذرات التي تقع عليها المرة بعد المرة ، أوهي كعروق الذهب كما يقول البحتري .

١ ـ التعريف بالصلة :

ورد اسم الموصول في شعر زهير قليلاً بالنسبة لوسائل التعريف الأخرى . فلم يقع في شعره منه إلا ما يقارب ثلاثة عشر موقعاً ،والعجيب أنه مع قلة وروده ،أتى مرّتين في ثلاث قصائد ،وثلاث مرات متتابعة في قصيدة واحدة ، ولم ترد " التي " ـ فيما وقعت عليه ـ إلا مرة واحدة وذلك في قوله :

قف بالدِّيار التي ،لم يَعْفُها القِدمُ بلى ،وغيَّرها الأرواحُ ،والدِّيَمُ(١)

ومن مواقع اسم الموصول المستجادة في كلامه ،قوله :

هو الجَوادُ ،الذي يُعطيك نائلَه عَفْواً ،ويُظْلَمُ أحياناً ،فيَظَّلِمُ(٢)

---

(١) ٨ : ١ ،ص ١١٦ .

(٢) ٨ : ١٣ ،ص ١١٩ .

التعريف هنا - فيما يبدو - من الباب الذي قال فيه عبدالقاهر أنّه لمحة كالخلس ، يعني أن المراد إذا أردت رؤية الجواد الذي يعطي نائله عفواً من غير سؤال ،ثم إذا طُلب منه أعطى ما طلب وإن كان مظلوماً بمعنى وإن كان ذا حاجة - إذا أردت رؤية هـذه الصورة الناضرة من كرام الناس وأهل السماحة فيهم فهو هذا . وكـان اسم الموصول هنا علماً لهذا المعنى الجليل الذي قاله الشيخ عبدالقاهر، وأشار إلى أنك تجده يأتي معك كثيراً في الصلة ،يقول :- " وليس شيء أغلب على هذا الضرب الموهوم من "الذي "، فإنّه يجيء كثيراً على أنك تقدر شيئا في وَهْمك ، ثم تعبّر عنه "بالذي " ،ومثال ذلك قوله :

أخوك الذي إن تَدْعُهُ لِمُلِمَّـةٍ   يُجِبْكَ ،وإن تَغْضَبْ إلى السَّيف يَغْضَبِ

وقول الآخر:

أخوك الذي إن رِبْته قال: إنَّمـا   أَرَبْتَ ،وإنْ عاتَبْتَه لانَ جَانِبُـهُ

فهذا ونحوه على أنك قدّرت إنساناً هذه صفته وهذا شأنـه ، وأحلْت السامع على من يَعِنُّ في الوهم ،دون أن يكون قد عرف رجـلاً بهذه الصفة ،فأعلمته أن المستحقّ لاسم الأخوّة هو ذلك الذي عرفـه ، حتّى كأنك قلت : "أخوك زيد الذي عرفت أنّك إن تَدْعه لملمّة يُجبك ".(١)

----

(١) (دلائل الإعجاز) ص ١٨٤-١٨٥ .

ومن المواقع الدقيقة للتعريف بالصلة ،قوله :

فأَقْسَمْتُ بالبيتِ الذي طافَ حَولَهُ رِجالٌ بَنَوهُ ،من قُرَيشٍ ،وجُرْهُمِ (١)

يَميناً ،لَنِعْمَ السَّيِّدانِ وُجِدتُما على كُلِّ حالٍ ،من سَحيلٍ ،ومُبْرَمِ

" أي : نعم السيّدان وُجدتما حين تفاجآن ،لأمر قد أبرمتماه ، وأمر لم تُبرماه أي : لم تُحكماه . على كل حالٍ ،من شدّة الأمر وسهولته . وأصل السَّحيل والمُبرم أنّ المبرم يُفتلُ خيطاه حتّى يصيرا خيطاً واحداً ، والسحيل : خيطٌ واحدٌ لا يضم إليه آخر ." (٢)

التعريف بالصلة هنا لمزيد تعظيم هذا البيت والإشادة بالمكانة التي يتمتع بها وعراقته ،فالشاعر يقسم بأعظم ما عند العرب ، بهذا البيت الذي هو جامع العرب و مهوى أفئدتهم ،ولذا كانت المناسبة قوية بين جملة الصلة " طاف حوله " والمُقْسَم عليه ،وكأنّه يشير إلى سنّة العرب الأوائل في توحدهم وتآزرهم ،وقد تمثّل ذلك في هذين السيدين ،لأنّهما هما اللّذان تحمّلا الديات ،وأحلّا السلم محل الحرب ، والإخاء محل العداء .

وقوله ،في رثاء سنان بن أبي حارثة المُرّيّ :

تَراه ،إذا ماجئتَه ، مُتهلِّلاً كأنّك تُعطِيهِ الذي ،أنتَ سائلُ (٣)

أُحابِي به مَيْتاً ،بِنَخْلٍ ،وأَبتَغِي إِخاءَك ،بالقَولِ الذي أنا قائلُ

---

(١) ١ : ١٧-١٨ ،ص ٢٣ .

(٢) ص ٢٣-٢٤ .

(٣) ٢٤ : ١٩-٢٠ ، ص ٢١٧ .

أحابي : " أخصّه بالثناء ،من المحاباة . به : بهذا القول ، يعني سناناً . وأبتغي إخاءك ،لابن الميت، ونخلٌ : موضع ،أرض قبره بها . بالقول : بمدْحَته إيّاه . القيل والقول واحدٌ .»[(١)]

الأمر مبني على العادة من محبة النفس للأخذ ،فهو يريد أنّك عندما تذهب إليه لتأخذ منه تراه متهلّلا ، كأنك ذاهب إليه لتعطيه ، ولمّا كان المعطى غير محدّد أعانت الصلة " الذي أنت سائل " على تعميمه وبقاء إبهامه وأحالت الأمر إلى المخاطب "أنت" . أمّا قوله : " الذي أنا قائل " فالتعريف بالصلة فيه تعظيم للقول .

ومما أفاد التعظيم أيضاً ،قوله في هرم بن سنان بن أبي حارثة ، والحارث بن عوف بن أبي حارثة المُرِّي :

رأى اللّه ،بالإحسانِ ،ما فعلا بكُم فأبلاهُما خَيرَ البلاءِ ،الذي يَبلُو[(٢)]

فالتعريف بالصلة " الذي يبلو " إشارة إلى البلاء وتعظيمه لأنّه خير البلاء ،والبلاء من الله قد يكون بالخير وقد يكون بالشر ،وهذا من خير البلاء ،وقد احتُجّ[(٣)] بهذا البيت على استعمال البلاء في الخير والشر . يقال : أبلاه اللّه بلاءً حسناً وأبليته معروفاً .

---

(١) ص ٢١٨ .

(٢) ٥ : ٢٩ ،ص ٩١ .

(٣) ابن منظور (لسان العرب) ١ : ٣٥٥ (مادة : بلا) .

وقـولـه :

وأذكرُ سَلْمى ، في الزَّمانِ الذي مَضَى   كَعَيناءَ ، ترتادُ الأسِرَّةَ ، عَوهَجِ (١)

أتى اسم الموصول " الذي " وسيلة للوصف بالصلة ، أشار الشاعر من خلاله إلى تراخي الزمن ومُضيه وانقطاعه ، فهو يذكر سلمى على هـذا الزمن المتطاول المتباعد ، ولا تُذكر الصاحبة مع تطاول الزمن وانصرامـه إلا إذا كان في القلب ما فيه . وكأنَّ الزمن الذي مضى وتراخى وانقطـع لم يُؤثِّر في ذكر سلمى .

وقوله :

قفْ بالدِّيارِ التي ، لم يَعْفُها القِدمُ   بلى ، وغيَّرها الأرواحُ ، والدِّيَـمُ (٢)

التعريف بالصلة مكّنه من وصف الديار بأنّها : " لم يعفها القدم " ولم يُذْهِب ملامحـها ، وأعدَّ الكلامَ لهذه الرجعة اللطيفة :

* بلى ، وغيَّرها الأرواح والدِّيم *

مثبتاً أنّ الذي غيَّرها الأرواح والديم ، والشطر الأول نفي أن يعفها القدم ، وكأنَّ اللفةفيها نوعٌ من التجاذب والتضاد ، فهي لـم يعفها القدم ، وهي غيَّرها الأرواح والدّيم . والأرواح والدّيم لا تتغيّـر إلا بالتقادم وطول عهدها بالدّيار .

---

(١) ٣٣ : ٤ ، ص ٢٢٦ .

(٢) ٨ : ١ ، ص ١١٦ .

وقوله في النعمان بن المنذر من قصيدة زعم (١) بعض الناس أنها لصرمة بن أبي أنس الأنصاري :

فأينَ الّذينَ كان يُعْطِي جيادَهُ ... بِأَرْسانِهِنَّ ،والحِسَانَ ،الحَوالِيا ؟ (٢)

وأين الّذين كان يُعطِيهمُ القُرى ... بغلاتِهِنَّ ،والمِئِينَ ،الغَوالِيا ؟

وأينَ الّذين يحضُرون جِفانَهُ ؟ ... إذا قُدِّمت أَلقَوا ،عليها ،المَراسِيا

الجياد : الخيلُ . والحسانُ الحوالي : الجواري . واحدتهن حاليةٌ . ويروى : "الغواديا" . والمئون : من الإبل . والغوالي : الغاليةُ الأثمانِ المثّمنةُ . ألقوا عليها المراسيا : هذا مثل . أي : ثبتوا عليها وأقاموا ، أي : أكلوا مثل المرسى للسفينة . وهو الأنجرُ . يقال : ألقوا عليها مراسِيَهم ، إذا ثبتوا عليها . وقال غير أبي عمرو : ثَبتوا ، إذا جلسوا عليها فقد ألقوا المَراسيَ . (٣)

حديث الشاعر عن القوم باسم الموصول واستعماله هنا أتاح له أن يتحدث عن عطاء النعمان إيّاهم ،وأن يذكر نعمته عليهم ،فدلّ على بشاعة ما وقعوا فيه حين تخلّوا عنه .

والظاهر ممّا سبق أنّ اسم الموصول أخذ في معظم ما مضى نسقين بنائيين متّحدين نغماً ولفظاً ، أحدهما :

---

(١) ص ٢٠٦ .

(٢) ٢٣ : ٢٠-٢٢ ،ص ٢١١ .

(٣) ص ٢١١ .

الذي أنت سائله .

وتكرر مرة أخرى :

الذي أنت سائل .(١)

، الذي أنا فاعله .

، الذي أنا قائل .

والآخر :

أين الذين كان يعطي جياده .

، أين الذين كان يعطيهم القرى .

، أين الذين يحضرون جفانه ؟

وهذا النسق المتشابه إنّما هو وليد عكوف زهير ومراجعته لصيفه وبيانه ، وكأنّه في صياغة "الذي" عكف على نمطين خاصين ،أحدهما: صلة المبتدأ : الضمير المنفصل والخبر اسم فاعل ،والآخر : الاستفهام بأين معقبة بالذين . ولعلّك لمحت تلك المواقع المستجادة التي أتى فيهما اسم الموصول على قلّة وقوعه ، وقد أنبأت صلته عن معانٍ جليلة ، منها ما كان التعريف فيه من الباب الذي قال فيه عبد القاهر إنه لمحة كالخلس ،ومنها ما كان لمزيد التعظيم والإشادة ،ومنها ما أتى فيه اسم الموصول وسيلة للوصف بالصلة .

أمّا "ما" و"مَنْ" ،فإنّ استعمال الشاعر لهاتين الأداتين في حدود معانيهما الوضعية قد ورد كثيراً ،ولن تقف الدّراسة عنده .

---

(١) ٧ : ٣٩ ، ص ١١٣ .

ولمّا كانت "من" دالة على العاقل ـ وهو معنًى لا يحتمل معاني جانبية أو معاني سياقية شعرية ـ فإنك لا تجد لها شواهد في كلام البلاغيين، وإنما استشهدوا بـ "ما" ودلالتها على التفخيم (١) والابهام، مثل قوله تعالى: ﴿ فَغَشِيَهُم مِنَ اليَمِّ ما غَشِيَهُمْ ﴾ (٢).

ومما وردت فيه "من"، قوله:

وَليدَينِ، حتّى قال مَن يَزَعُ الصِّبا: أَجِدَّكَ، لمّا تَستَحي، أو تَحَرَّجِ (٣)

"مَنْ" هنا لا شيء فيها، لأنّها محاطة بألفاظ حيّة، فـ "وليدين" تشير إلى قصته مع ابنة مُدلِج، التي سلا بها عن كُلِّ شيء. وكانت الفائدة حين عبّر بقوله: "يزع الصِّبا" دون أن يقول العاذل أو اللائم أو الزاجر ليبين أنّه لا يقول هذا القول إلا الذي من شأنه أن "يزع الصِّبا" أي: "يكُفُّ ويزجُرُ" (٤).

وأمّا "ما"، فلمّا كانت تحمل أحداثاً ومشاعر وأحوالاً، فقد استثمرها زهير استثماراً جيداً، وأفرغ عليها كثيراً من أحواله وخواطره في سياقات كثيرة، وتأمّل قوله:

إنَّ الخَليطَ أجدَّ البَينَ، فانفَرَقا وعُلِّقَ القَلْبُ مِنْ أسماءَ ما عَلِقا (٥)

---

(١) الخطيب القزويني (الإيضاح) ص ١١٥.
(٢) طه: ٧٨.
(٣) ٣٢: ٢، ص ٢٣٦.
(٤) ص ٢٣٦.
(٥) ٢: ١، ص ٣٨.

عبّرت "ما" في قوله "وعُلِّق القلب من أسماء ما علقا" عن معنًى مبهم، فضلا عن أنّه من المعاني القلبية الجياشة في أبواب الوجد وأحوال الصّبوة. والمعاني القلبية عندما يتناولها الشاعر يُعَذِّب لفظه ويفني نفسه، وكأنّه يقول: قد علق قلبي منها ما لا يحاط بأوصاف وما لا أستطيع الإبانة عنه وما لا يجوز البوح به، وهو أمرٌ قد طوته "ما"، وكم يطوى إبهام اللغة من أحوال القلوب! وما أعظم اللغة حين تساعد هذه الأفئدة المكلومة على البوح المبهم، ولعلَّ شيئاً من ذلك قد ضمّنه عبد القاهر[1] عبارته البليغة حين قال: "وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطِق، وأتمّ ما تكون بياناً إذا لم تُبِن."

وقوله:

وأعْلم ما في اليوم والأمسِ قبلَهُ ولكنّني عن علمِ ما في غدٍ عَمي[2]

استعمل "ما" في البيت مرتين، مرة فيما علمه مما في اليوم والأمس، ومرّة للدلالة على ما في الغد، وترى الإبهام في الثانية أشد غموضاً وأشد لصوقاً بالقلب؛ لأنّه عَمٍ عنه. ولكل جملة مرماها وسياقها، والكلمة تتأثر أبلغ التأثر بهذا السياق المحدود، وهذا واضح جداً في كلام البلاغيين، فكم من لفظة واحدة تكررت في بيت واحد، واختلف سياقها ومرماها في الجملتين فدلت على معنيين مختلفين[3].

---

(١) (دلائل الإعجاز) ص ١٤٦.

(٢) ١: ٥٠، ص ٣٥.

(٣) راجع كلام الخطيب القزويني في (الإيضاح) ص ١٢٧، حول تنكير لفظ "حاجب" في قول ابن أبي السِّمْط:

له حاجبٌ عن كلّ أمرٍ يشينهُ وليس له عن طالب العُرف حاجِبُ

وقولـــه :

وحِفظِي ،للأمانة ،واصطباري   على ما كان من ريبِ الزَّمـــانِ [(١)]

" ما " هنا تشير إلى أنَّ الذي كان من ريب الزمان أمر ضخم ،وفيها تفخيم وتهويل ،وقد أعان على هذا المعنى قوله : " اصطباري " والاصطبار افتعال ،والافتعال معاناة ،وعليه فإنَّ صيغة "اصطبار" هذه أبانت عن معنى الاستعظام الموجود في هذا الإبهام ،وعندما تعاود النظر في أول القصيدة ستجد بيتاً يلقي ضوءاً على هذا الإبهام ،يقول :

فقد أبقتْ صُروفُ الدَّهر ،مِنِّـــي   عُروف العُرْف ،ترَّاك الهَـــوانِ [(٢)]

يبدو أنَّ الرجل قد عانى معاناة شديدة من صروف الدهر وريب الزمان ،وهذا البيت يشير إلى ضخامة وهول ما أصابه لأنَّه قال "مِنِّي" أي : أتت عليه حتى لم تبق منه إلا الذي ذكره.

ومن جيد مواقع " ما " قوله :-

رَعَوا ما رَعَوا ، من ظِمئِهم ،ثُمَّ أَوردُوا   غِماراً ،تَفَرَّى بالسِّلاحِ ،وبالـــدَّمِ [(٣)]

" غمارٌ : جمع غَمْرٍ . وهو الماءُ الكثير. والظِّمْءُ : ما بين الشَّربتَين . يقول : أقاموا في غير حَرْبٍ ثم أوردوا . أراد : دخلوا في الحـــرب..."

----

(١) الأعلم الشنتمري (شعر زهير بن أبي سلمى) ٥١ : ٦ ،ص ٢٨٤.

(٢) (المصدر السابق) ٥١ : ٢ ،ص ٢٨٣.

(٣) ٤١ : ١ ،ص ٣١.

يقـــــــــــــول : كانوا في صلاحٍ من أمرهم ، ثم صاروا إلى حَرْبٍ تشقّق بالسّلاح وبالدّم ، فضربه مثلاً . وتفرّى : تشقّق .»(١)

"ما" تبين هنا عن المرحلة التي رعوا فيها ما رعوا : كانـت مرحلة بلغت فيها الدعة والرخاء والسلم والأمن والرغد حدّاً عظيماً ، وعليه فالإبهام الذي تحمله "ما" مفيد التعظيم ؛ تعظيم هذه المرحلة . وممّا يعين على هذا الفهم قوله : "ثُمَّ أوردوا" فـ "ثُمَّ" تشير إلى التباعد الزمني بين المرحلتين ، أو التباعد في الحالة والرتبة ؛ مرحلة السلم بمـا فيهـــــــا من أمن ورغد بالرعي وما يحمله من رخـــــاء وخصب ، ثم مرحلة الحرب . وواضح أنّ الشاعر قد افتن في تصوير بشاعتها بقوله : "أوردوا غماراً" والغمار : الماء الكثير ، صوّر القوم وهم يردون الغمر الذي ليس بماء ، وإنما هو سيل من الدم والرّمـاح . ولمحة غريبـة في جعله الرّماح تسيل في الغمر ، وإنّما أراد بذلك ما يتقصّف مـن الرّماح بسبب شراسة الطعن . وإن قارنت بين "ما" التي في "ما علقا" السابقة ، و "ما" التي هنا لوجدت فرقاً ، فكلاهما من معينٍ مختلـف ، لأنّ "ما" هناك غصّت بوجْد الشاعر وأحواله ، أمّا هنا فهي مغموسـة برغد القوم وترفهم .

وقوله ، أيضاً يمدح الحارث بن عوف وهرم بن سنان :

سَعَى ساعيا غَيْظِ بن مُرَّةَ ، بَعدَما   تبزَّل ما بين العَشِيرةِ ، بالدَّمِ (٢)

---

(١) ص ٣١ - ٣٢ .

(٢) ١ : ١٦ ، ص ٢٣ .

المعنى الذي تحمله "ما" في قوله : "ما بين العشيرة" ناشىء من أثر الموقف الذي طرأ فجعل ما بين العشيرة - وقد كان نفيساً غالياً ينبغي الحرص عليه - "تبزّل" أي : "تشقّق"[1] وتقطّع، وكان من أثر قطع الروابط التي بين العشيرة والتي كانت تحمي الناس وتحوطهم بالأمان ما كان من تفرّقٍ وتشقّقٍ وويلاتٍ ،وقد أعان على هذا المعنى كلمة "تبزّل" ،وهذا من قولك لمن تدعوه للمحافظة على صلة رحمه "احفظ ما بينك وبين ذويك" ، "ما" تفيد معنى نفيساً عزيزاً يجب حفظه ، وهذا هو ما يستخرج من دلالة اللفظ.

وقد تجد "ما" الموصولة في شعر زهير ،وقد أعقبها بما يشرحها ويزيل إبهامها ،وبذلك يصير في الكلام عنصر بلاغي آخر هو البيان بعد الإبهام ،وانظر قوله : -

ويقيكَ ما وَقّى الأكارِمَ ، مـن حُوبٍ ، تُسَبُّ به ،ومِنْ غَدْرِ[2]

فـ "ما" لا تطوي معنى الإبهام هنا ،لأنّها مفسّرة بـ "مِنْ حُوب" ، و "من غَدْر" بعدها .

وقوله وقد سبقها ما يزيل إبهامها :

بَدا لي أنَ اللّه حقٌّ ، فزادَني إلى الحقِّ ،تَقوى اللّهِ ،ما قدبَداليا[3]

بَدا لي أنّي لستُ مُدْرِكَ ما مَضَى ولا سابِقي شَيءٌ ،إذا كان جائيا

---

(١) ص ٢٣ .

(٢) ٤ : ١٣ ،ص ٨٠ .

(٣) ٢٣ : ٨-٩ ، ص ٢٠٨ .

فالإبهام في "ما" قد انكشف لأنّ الشاعر نص عليه بقوله :- "بدا لي أنّ اللّه حقّ" ، فلمّا قال : "ما قد بدا ليا" لم يعد فيه إبهام ، وإنما فيه تعظيم للذي بداله .

وليس مثله "ما" في قوله : "أنّي لست مدركَ ما مضى" ، وإنّما يبقى الذي مضى بغموضه وكثرته وأهميته وتنوعه .

وقد تستعمل "ما" ولا تحمل أكثر من دلالتها اللغوية ، مثل قوله :

والمالُ ما خوّلَ الإلَهُ ، فلا بُدَّ ،لهُ ،أن يَحُوزَهُ قَدَرُ(١)

وقولـه :

فأمّا ما فُويَقَ العِقْدِ منها فمِن أدماءَ مَرتَعُها الخَلاءُ(٢)

وقولـه :

فلا مُستكرَهُون ،لِما مَنَعتُمْ ولا مُعْطُونَ ،إلا أنْ تَشاؤوا(٣)

والشواهد فيها كثيرة ،ولا مجال للتأويل .

---

(١) ٢٨ : ٦ ، ص ٢٣٠ .
(٢) ٣ : ١١ ، ص ٥٦ .
(٣) ٣ : ٤٤ ، ص ٦٧ .

وإذاً ،فقد أتت " من " في شعر زهير غير حاملة دلالة شعرية خصبة ، وهذا راجع لطبيعة دلالتها على العاقل ؛ولذا فلم يقف البحث أمامها . أمّا " ما " ،فقد تصرّفت في شعره تصرّفاً جيداً ، أنبأت عنه تلك المواقع التي وقعتها طاوية دلالتها على الإبهام ، وكان لها في كل ذلك معين مختلف اكتسبت قيمتها منه ، بل إنّها تقع في البيت الواحد مرّتين وترى دلالتها أشد وقعاً في إحداهما عن الأخرى ،وهكذا ، فقد وقعت موقعها الأحكم منبئة عن طبيعة المعنى الذي تحمله حسب السياق الواقعة فيه ؛أتت عند التعبير عن معنى مبهم هو أشد عُلْقةً بوجد الشاعر ،أو دالة على التعظيم والتفخيم والإشادة ،أو طاوية لمعنىً نفيس ناشئ عن أثر موقف طارئ ،وجاءت وقد أعقبت بما يشرحها ويزيل إبهامها ،أوالعكس : سبقت بما يزيله ، كما وقعت كثيراً وهي لا تحمل أكثر من دلالتها اللغوية ،وكان الأمر في ذلك بيّناً .

٢ - التعريف باسم الإشارة :

تردّد اسم الإشارة في شعر زهير فيما يقارب أربعاً وعشرين مرة ، وكان هذا التردد يأتي متتابعاً في القصائد ،ولعل مردّ ذلك إلى علوق اللفظ في ذهنه ،فيذكره ويكرّره أكثر من مرة . ثم إنه استعمل من أسماء الإشارة : هذا وذاك وذلك وتيك ،ولم يستعمل : هؤلاء ولا أولئك ،ولا اسم الاشارة للمثنى : هذان وهاتان ، على الرغم من مجيء معنى يقتضي الإشارة إليه بالمثنّى في قوله :

إذا رُفع السِّياطُ ،لها ،تَمطَّتْ وذلكَ ،من عُلالَتِها ،مَتينُ (١)

يقول الأعلم (٢): إنّ ذلك العدو والتمطّي وإن كان علالة فهو متين . والعلالة : ما تمطي الخيل من الجري بعد ما بذلت جهدها .

وهنا سؤال عن العلة التي دفعت بزهير إلى استعمال هذا اللون من اسم الإشارة دون سواه ،وعلى هذه الدرجة من القلة ؟ هل السبب أن شيوعها كان قليلاً عند شعراء الجاهلية ؟ وبمراجعتي ديوان أوس ابن حجر- وهو شيخ زهير- ظهر قلة مجيء اسم الاشارة ، فلم تتعد استعمالاته له أكثر من ثمانية مواقع .

ولقد أتى اسم الإشارة مستعملاً في معناه الأصلي وهو : تمييز المشار إليه أكمل تمييز وتشخيصه وإحضاره ، وقد انتفع زهير بهذا المعنى المتسع فأجراه في مقامات متعددة واستخرج منه معاني جيدة ، انظر قوله يمدح هرم بن سنان:

وذاك أحزَمُهم رأياً ، إذا نَبَأٌ من الحوادثِ ،آب الناسَ ،أو طَرَقا (٣)

لما كان غرض الشاعر أن يذكر بعض صفات هذا الممدوح ،ولمّا كانت هذه الصفات عظيمة الشأن - لجأ الشاعر إلى الإشارة إليه وتمييزه

---

(١) ١١:١١ ، ص ١٤٢ .
(٢) (شعر زهير بن أبي سلمى)ص ١٥٧ .
(٣) ١٨،٢ ، ص ٤٦ .

أكمل تمييز بقوله : "وذاك" ،ولا تغفل البعد الموجود فيه فهو إشارة إلى بعد المنزلة ،وأنّه في منزلة عالية مرموقة ومكانة لا ينالها إلا أفراد الرجال ، وقيمة هذا الخبر كونه أحزم القوم رأياً في هذا الوقت الصعب الذي تضيع فيه الآراء ،ويضيع فيه الناس .

وقوله يمدح سنان بن أبي حارثة :

ولكنّ جَلْداً ،جَميعَ السِّـــلا ح ،لَيلةَ ذلكَ ، صَدْقاً بَسِيلا (١)

" جميع السِّلاح : مُجتمعَ السِّلاح ، معه السّلاحُ كلُّه ، كمــا قــال :

الرُّمح لا أَمـلأُ كَفّي بِـــهِ واللّبْدُ لا أَتبعُ تَزوالَـــهُ

ويروى : " عِضّاً بسيلاً " . العِضّ : الدّاهية . ويقال : بَسيــلُ وباسلُ ،للشّجاع . والبَسالةُ : الشّدة والكراهة . ويقال للكريه المنظر : إنّه لباسلُ . وليلةَ ذلك : ليلةَ الحرب ".(٢)

" ليلة ذلك " أي : ليلة محاولة الفوار ،ليلة الحرب ، فـ "ذلك" إذاً للإشارة إلى تشخيصها وتمييزها وحضورها لأنها تشير إلى الموقف الصعب ، ولذا اختار اسم الإشارة للبعيد ،فلو كانت أمراً سهلاً ميسوراً قليل الشأن لما كان حق القوم أن يمدحوا فيها .

---

(١) ١١ : ٩ ، ص ١٤٨ .

(٢) ص ١٤٨ .

وقولـــه :

تَعَلَّمَنْ ،ها ـ لَعَمْرُ اللّه ـ ذا قَسَماً   فاقصِدْ بِذَرعِكَ ،وانظُرْ أينَ تَنْسَلِكُ(١)

" ذا قسما " اسم الإشارة فيه ،لإبراز القسم وإظهاره ،وجعـــل غير المرئي مرئياً .

ومن إخراج المعقول في صورة المحسوس ، قوله :

فَضْلَ الجَوادِ ،على الخَيلِ البِطاءِ ،فلا   يُعْطي بذلكَ ،مَمنُوناً ،ولا نَزِقـــا(٢)

" ممنوناً أي : لا يعطيك نقصاناً أو ما يمنّ به عليك . ونزقاً : إذا جاءت منه حدة في العطية والجرئ ثم يكف عن ذلك . ونزق ينزق إذا سيق . ونزّقه صاحبه إذا ضربه حتى يسرع ."(٣)

اسم الإشارة : " ذلك " إشارة إلى فضل الممدوح الذي هو علـى الناس كفضل الجياد على الخيل البطاء ،فلا يعطي بذلك الفضل عطـــاءً مقطوعاً ،ولا عطاء يقل بعد الكثرة . وفيه إخراج للفضل من حيّـــز الأمر المعقول إلى حيز المحسوس .

وقد يستعمل زهير اسم الاشارة وسيلة من وسائل الربط ، وذلك فـــي صـــورتيـــن إحـــداهمـــا : ربط الأغراض بعضها ببعض ،فيأتي في مفاصل الكلام حين ينتقـــل

---

(١) ٩ : ٣١، ص١٣٧ .

(٢) ٢ : ١٩ ، ص٤٦ .

(٣) ص٤٦ .

الكلام من غرض إلى آخر ، وهذا الانتقال من شأنه أن يُمزّق أوصال الكلام ، مالم يحكم الشاعر لغته ويبرع في ضم نشر كلامه فيقوم بعملية الربط المحكمة هذه عن طريق اسم الاشارة ،وهذا من مجاري استعمالاته ،كما في قوله (١) يمدح هرم بن سنان - وإن رُوي أن الأبيات الثلاثة الأول ليست له وإنما لحماد الراوية :

لِمَنَ الدّيارُ ،بِقُنَّةِ الحِجْرِ ؟ أَقوينَ ،من حِجَجٍ ،ومن دَهْرِ (٢)

لَعِبَ الرّياحُ ،بها ،وغيّرها بَعدي سَوافي المُورِ ،والقَطْرِ

قَفْراً ، بمندَفَعِ النَّحائتِ ، من ضَفَوَيْ أُولاتِ الضّالِ ،والسِّدْرِ

دعْ ذا ،وعَدِّ القَوْلَ في هَرِمٍ خَيرِ الكُهُولِ ،وسيِّدِ الحَضَرِ

---

(١) ٤ : ١-٤ ، ص ٧٦-٧٧ .

(٢) « "القُنَّة" : أعلى الجبل . وأراد بها هنا : ما أشرف من الأرض . و "الحِجْر" موضع بعينه ، وهو حجر اليمامة . ومعنى "أقوين" خَلَون وأقفرن . و"الحجج" : السّنون ... وقوله "سوافي المور والقطر" يعني أنّ الرياح والأمطار ترددت على هذه الديار حتّى عفت رسومها ،وغيّرت آثارها ، بما سفّت الرياح عليها من التراب ،ومحت الأمطار من الرسوم والآثار . و "السّوافي" : جمع سافية ،وهي الرّيح الشديدة التي تسفي التراب ،أي : تطيره . و "المور" : التّراب ... "النحائت" : آبار معروفة ،وليس كلّ الابار تسمى النّحائت . و "ضَفَوي" : موضع ... والضّال : السّدر البري ... وكأنّه أراد بـ "السدر" ما كان غير برّي ،فلذلك عطفه على الضال » الأعلم الشّنتمري (شعر زهير بن أبي سلمى) ص ١١٤-١١٥ .

" دع ذا " انتقال بين غرضين متباينين من أغراض الكلام ، وتأمّل كلمة "وعَدِّ القول في هرم " تجدها واضحة الدلالة على نقل الكلام من وادٍ إلى آخر.

والصورة الأخرى الربط بين معنيين في غرض واحد كما تراه في قصيدته التي مطلعها :-

وبلدةٍ ،لا تُرامُ ،خائفةٍ زوراءَ ،مُغْبَرّةٍ جوانِبُها (١)

فقد ذكر هذه البلدة القفرة فأحسن وصفها ؛ ذكر عزيف جِنّها ، وضبح ثعالبها ،وأنَّ خوفها يخلع قلب ساكنها ،وأنّه كلّفها ناقة قوية شديدة ،ثم وصف الناقة المقتدرة على هذه البلدة ،ثمّ قال :

ذاك وقد أُصْبح الخليل بصهباءَ كُميت ،صافٍ جوانبها (٢).

والكلام الأول عن مغامراته وقدرته على الرحلة في الأماكن الوعرة ، فهي شجاعة في المغامرة وفي اجتياز تلك البلدة وعلى ناقة هذا وصفها .

واتى اسم الإشارة " ذاك " للربط ، وقوله "وقد أصبح الخليل بصهباء ." حديث عن سخائه ومجالس اللهو التي يجلسها ، أي : مغامراته في باب اللهو والملذّات ، وهذان معنيان كثيراً ما ينعقدان في الشعر " القوة والسخاء ".

---

(١) ٢٠ : ١ ، ص ١٩١ .

(٢) ٢٠ : ٧ ، ص١٩٢ .

ومثله ، قوله يمدح هرم بن سنان :

لَيثٌ بِعَثَّرَ، يصطادُ الرِّجالَ ،إذا ... ما اللَّيثُ كذَّبَ ،عن أقرانِهِ ،صَدَقا (١)

يَطعَنُهُم ما ارتَمَوا ،حتى إذا اطَّعَنُوا ... ضارَبَ ،حتى إذا ما ضارَبُوا اعتَنَقا

هذا ،وليس كَمَنْ يَعيَا بخُطَّتِهِ ... وَسْطَ الرِّجالِ ، إذا ما ناطقٌ نَطَقَا

"كذَّب : لم يصدُق الحَملةَ ... وعثَّر : قِبَلَ تَبالةَ... يقول : إذا ما رمَوا من مدًى بعيدٍ غَشِيَهم بالرّمح ، فإذا اطّعنوا دخل تحت الرماح بالسيف فضارب ،فإذا ضاربوا دخل تحت السيف فاعتنق . وإنما أراد أن يُخبر أنه أقربهم إلى القتال " (٢) . "وقوله " هذا ،وليس كمن يعيا بخُطّته " أراد : أمره هذا ،وشأنه هذا . يعني ما وصفه به من الكرم والجرأة . ثم وصفه بالبلاغة ،وأنّه لا يعيا بخطته . إذا قام وسط الندى " (٣) .

" هذا " راجع للأوصاف الماضية كلِّها ،ومحورها : امتداحه بالكرم فهو: "أغرُّ أبيض .. "ومن يلقه يلق "السماحة منه والندى خلقا " و "ليس مانع ذي قربى يوماً ،وهو شجاع "ليث بعثّر يصطاد الرجال ..". وقوله "وليس كمن يعيا بخطّته .. " حديث عن قدرته البيانيّة ،فعندما يتساجل القوم يظهر تفوقه في البيان وحكمة القول وسداد الرأي ،إذاً ، فالكلام عن طريق اسم الإشارة " هذا " ينتقل من بابي الكرم والشجاعة إلى باب الحكمة في القول . وكلّها معان تئول إلى بابٍ واحد هو امتداح الرجل بأكرم الصفات .

---

(١) ٢ : ٣٠-٣٢ ،ص ٥٠-٥١ .

(٢) ص ٥٠-٥١ .

(٣) الأعلم الشنتمري (شعر زهير بن أبي سلمى) ص ٧٧ .

والذي يبدو أنّ استعمال اسم الإشـــــارة وسيلة من وسائل الوصل وربط أجزاء الكلام وتماسكه - ليس ظاهراً في الكتب البلاغية التي بين الأيدى ،وإن كان من علماء علوم القرآن من عالجها ولم يغفلها ؛ انظر قول الزّركشي عند حديثه عن انواع ارتباط الآي بعضها ببعض ،ومنـه « ألاّ تكون معطوفة ،فلا بُدَّ من دعامةٍ تؤذن باتصال الكـــلام ، وهي قرائن معنوية مؤذنة بالربط .. »(١) ، وله أسباب منهـــــا الاستطراد ، ومن الاستطراد : "الانتقال من حديث إلى آخر تنشيطاً للسامع كقوله تعالى في سورة " ص " بعد ذكر الأنبياء : ﴿هذا ذكرٌ وإنَّ للمتّقين لحُسْنَ مآب ﴾(٢) فإنَّ هذا القرآن نوع من الذِّكر ،لمـا انتهى ذكر الأنبياء ،وهو نوع من التنزيل ، أراد أن يذكر نوعاً آخـــر وهو ذكر الجنة وأهلها ، فقال : ﴿هذا ذكرٌ ﴾ ؛ فأكّد تلك الاخبارات باسم الاشارة ،تقول : أشير عليك بكذا ،ثم تقول بعده : هذا الذي عندي والأمر إليك . وقال : ﴿ وإنّ للمتقين لحُسْنَ مآب ﴾ كمـــا يقول المصنف : هذا باب يشرع في بابٍ آخر. ولذلك لمّا فرغ من ذكر أهل الجنة قال : ﴿ هذا وإنَّ للطاغين لشرَّ مآب ﴾(٣) "(٤) .

وقد يختصر اسم الإشارة صفاتٍ كثيرة ويبرزها ويحددها ليبني عليها حكماً قد ينتقل به الكلام ؛ ليس انتقالاً مثل " دع ذا " لأنّ

---

(١) الزركشي (البرهان في علوم القرآن) ١ : ٤٦ .

(٢) الآية : ٤٩ .

(٣) الآية : ٥٥ .

(٤) الزركشي (البرهان في علوم القرآن) ١ : ٥٠ .

الغرض ما زال واحداً ، وإنّما هوانتقال لتشبيه آخر . انظر قوله وقد بنى على اسم الإشارة حكماً :

كذلك خِيمُهُم ،ولكُلِّ قوم ، إذا مَسَّتْهُم الضّرّاء ،خِيمُ (١)

" كذلك خيمهم " إشارة إلى الخلال المذكورة السابقة من أنّ هرماً عوّد قومه أنْ يعطيهم ويحمل عنهم ،وأنّ من عاداته الخلق الكريم ،وأنّ هذا الشرف موروث عن أبيه ،وأنّ أباه كان يحمل عن قومه كبيرة المغرم ،وأنّه كان يدفع عنهم الشدة التي لا يصرفها إلا أشراف الناس وأخيارهم. وقد أعان اسم الإشارة على تلخيص كلّ هذه الصفات ليبني عليها خبراً ، هو قوله -وهو كلام جيد- "ولكلّ قوم إذا مسّتهم الضّراء خيم " و معناه أنّ الناس يختلفون أمام الشدائد بإختلاف طبائعهم ، أما هوءلاء فقد كانوا كما عوّدهم أبوهم يحملون مغارم تهم الناس.

ومن المعاني الرائقة لاسم الإشارة : التلخيصُ لصفاتٍ سابقة ينتقل الكلام بعدها لتشبيه آخر ، مثل قوله :

كذلكَ تِيكَ ،وَقَدْ جَدَّ النَّجاءُ بها والخَيلُ ،تَحتَ عَجاجِ الرَّوعِ ،تَنْتَزِعُ (٢)

" يقال : مرّ يَنْزِع ويهزع ويقزع ،إذا مرّ يُسرع ." (٣)

---

(١) ١٢ : ١٤ ،ص ١٥٦ (الخيم : الخلق والطبيعة والسليقة)ص١٥٦ .

(٢) ١٥ : ١٤ ،ص ١٧٥ .

(٣) ص ١٧٥ .

"كذاك" تلخيص لصفات سابقة رائعة في التصوير، عندما شبّه فرسه بالقطاة مع الصقر، وأراد ب "تيك" الخيل، وأراد ب "كذاك" الصقر، ثم عقد على هذا التلخيص تشبيهاً آخر.

ومثل قولـه :

أذلِكَ، أم أقبُّ البطْنِ، جَأْبٌ عليهِ، مِن عَقيقتِهِ، عِفـاءُ؟ (١)

الكلام السابق شبه فيه ناقته بالظليم، وذكر صفاتها، ثم أتى اسم الإشارة "ذلك" ليلخص تلك الصفات، ويعقد عليها تشبيهاً آخر بقوله : "أم أقبُّ البطن.." .

ومثل قولـه :

أفذاكَ، أم ذو جُدَّتَينِ، مُولَعٌ لَهَقٌ، تُراعِيهِ بِحَومَلَ رَبْرَبُ؟ (٢)

"أفذاك" تلخيص لمشهد عجيب رائع، مشهد ناقته وقد شبهها بالحمار الوحشي المرتاع المفزوع في قصته مع الرابيء، وأراد ب "ذلك" الحمار، أي : أهي تشبه الحمار "أم ذو جُدَّتين" ـ وهو الثور في ظهره خطتان تخالفان لونه ـ وعقد الكلام على تشبيه آخر لم يكن في امتداد التشبيه الأول، ولعلّ السبب في ذلك إفراغ زهير لما أراد في التشبيه الأول .

---

(١) ٣: ١٧، ص٥٩ .

(٢) ٥٣: ٢٩، ص٢٧٩ .

ومثلـــه :

تنجُو كذلِكَ ،أونَجاءُ فَرِيـــدةٍ ظَلّت تَتبّعُ مرتعاً ،بالفَرقَـــدِ (١)

أي نجاءً كنجاءِ الحمار الذي ذكره في المشهد السابق ،ثم عقد عليه تشبيهاً آخر بقوله : " نجاءُ فريدة .. " ، والفريدة : بقـــــرة منفردة . والفرقد : ولدها .

وقد أتى اسم الإشارة للاختصار ، في قوله :

إذا رُفِع السِّياطُ ،لها ،تمطَّت وذلِكَ ،من عُلالَتِها ،مَتيـــنُ (٢)

" ذلك " للاختصار وتفادي التكرار ،وفيه لمحة إلى إبراز الصفة .

كما أتى اسم الإشارة مفيداً القرب في المنزلة ،في قولـه :

يَطلُبُ شأوَ امرأينِ ،قَدَّما حَسَناً نالا المُلوكَ ،وبَذّا هذهِ السُّوَقا (٣)

اسم الإشارةالمقصود به قرب المنزلة ،منزلة السوقة ودنوّها وتواضعها بالنسبة لمرتبة الملوك التي نالها هرم وآباؤه ،ولك أن تلمح في قولـه : "السُّوقا " بالجمع وإفراد اسم الإشارة "هذه " معنى أنهـــــم -ومع كثرتهم - لهم منزلة واحدة ،وربّما كان هذا موضعاً من مواضـــع استعمال " هؤلاء " ،ولكنّه عدل عنه للذي قلناه ،ولأنّه لم يستعمل هذه اللفظة .

---

(١) ٢١ : ١٢ ،ص ١٩٧ .

(٢) ١٠ : ١١ ،ص ١٤٢ .

(٣) ٢ : ٢٤ ، ص ٤٨ .

وهكذا ، فقد بيّنت الدّراسة السابقة مدى انتفاع زهير باسم الاشارة وسيلة من وسائل التعريف حين أجراه في مقامات مختلفة مفيداً معناه الأصلي : وهو تمييز المشار إليه أكمل تمييز ، أو مخرجا المعنى من حيّز المعقول إلى حيّز المحسوس ، أو لتفادي التكرار ، أو لقرب المنزلة .

ولعلّ أبرز ما يميّز هذا الانتفاع باسم الإشارة : استعماله وسيلة من وسائل ربط الكلام : إمّا ربط الأغراض بعضها ببعض حين ينتقل الكلام من غرض إلى آخر ، أو الربط بين معنيين في غرض واحد . واستعماله وسيلة لاختصار صفات كثيرة يحدّدها ليبني عليها حكماً قد ينتقل به الكلام ، ليس انتقالا بين غرضين وإنما انتقال من تشبيه إلى آخر ، وكان هذان المعنيان يجريان كثيراً في شعره حتّى كأنهما من خصائصه الأسلوبية .

٣ - الضمائر :

استعمال الضمائر مسألة حيوية في الشعر - وإن كانت أغفلت كثيراً - لأنها تبيّن الانتقالات والأحوال ، كما أنّها رموز لحضور عناصر بشرية غالباً ما تكون في الشعر ، فالخطاب وتوجيه الشاعر كلامه لقارئ أو سامع ليحكي له ما يجده من أحوال وصور من العناصر المهمة في الشعر .

وحينما يؤسس البلاغيّون بعض مسائل البلاغة على مراعاة أحوال المخاطب ، إنما يستمدون من الشعر ، فالشاعر غالباً ما يخاطب ويوجه كلامه إلى قارئه ، ومن هنا كان الهجوم على ملاحظة أحوال المخاطب في الدراسة البلاغية محتاجاً إلى إعادة نظر تستهدف تأصيل فكرة

البلاغيّين في هذا الأمر ، ولذا فإن أدقّ منهج في نقد الشعر ماكان مستمداً من الشعر نفسه ،لا من غيره . والمتوقع في الحملة على مسألة المخاطب في الدراسة البلاغيّة أنّها سوف تتوقف وحدها ، وربما انعكس الموقف بالنسبة لها ،وبعبارة أخرى : ربما وجد مدافعون جدد عن هذه المسألة ،لأنّ الدّراسة الأسلوبية الحديثة عنيت عناية أساسية بمسألة الخطاب والمخاطب (بفتح الطاء وكسرها) .

ضمير الخطاب في شعره :

يُلحظ أنّ ضمير الخطاب هو أكثر الضمائر شيوعاً وتصرّفاً في شعر زهير ، وقد توزع بين ما يصح خطابه ،وهو متنوع وكثير،وما لا يصح ، وهو قليلٌ جداً ،وكان الذي يصح خطابه موزعاً بين مخاطبة الشاعر نفسه ،وقارئ شعره ،وكل من يتأتى منه الخطاب ،والصاحب،والصاحبة .

أمّا مخاطبة الشاعر نفسه على طريقة التجريد ؛ فتكون بتجريده من نفسه شخصاً يحادثه ويخاطبه بشئونه وشجونه ، فهو أدعى إلى وصف حال المخاطب وأبين في الدلالة عليه بلغة عالية فصيحة ،ويستمد التجريد قيمته البلاغية بما يتضمّنه من قوة التخيل ، ولا يتأتى هذا على وجهه المقبول إلا في كلام أهل الطبع ،وهاهي ذي صور ما خاطب فيها الشاعر نفسه ،وقد بُني فيها الكلام على الاستفهام :

أَثَوَيتَ ،أم أجمعتَ أنّكَ غادِي ؟ وَعَداكَ ،عن لُطْفِ السُّؤالِ ،عوادِي (١)

---

(١) ٣٥ : ١ ، ص ٢٤٤ .

وقولـه :

أعن كلِّ أخدانٍ ،وإلفٍ ،ولَـذَّةٍ سَلوت ،وما تسلُو عن ابنةِمُدْلِـجِ (١)

فالاستفهام فيه شوبٌ من الإنكار والتوبيخ ،وطريقـة التجريد هذه أعانته على أداء هذا المعنى موجهاً إلى نفسه ،ولا تكاد تجد زهيـــراً يلوم نفسه أو ينكر فعله في شعره إلا معتمداً على طريق كهذا .

ومنها ما يجيء غير مبني على الاستفهام ، مثل قوله :

بَانَ الخَلِيطُ ،ولم يأْوُوا ،لمن تَركُوا وزَوَّدُوك اشتياقاً ،أيّة سَلكُـــوا (٢)

قوله : " وزَوَّدوك " يريد نفسه .

وقوله :

وفارَقْتَكَ ،بِرَهْنٍ ،لا فَكاكَ لــــهُ يَومَ الوَداعِ ،فأَمسَى رَهْنُها غَلِقا (٣)

وأَخْلَفَتْكَ ابنةُ البَكْرِيِّ ما وَعَـــدتْ فأَصبح الحَبلُ ،مِنها ،واهياً خَلَقا

وقوله :

دارٌ ،لسَلمَى ،إذْ هُمُ لكَ جِيـرةٌ وإخالُ أنْ قد أخلفَتْني مَوعِـدِي (٤)

إذْ تستبيك ،بجيدِآدم ،عاقـــدٍ يقرِو طُلوحَ الأنعمين ،فثهمدِ

وموءشَّرٍ ،حُمْشِ اللثاتِ ،كأنّمـــا شَرِكَتْ منابِتُه رَضِيضَ الإثمِـــدِ

دعْها ،وسَلِّ الهَمَّ عنك ،بِجَسْرةٍ تَنجُو نَجاءَ الأخدرِيِّ ،المُفْـــرَدِ

---

(١) ٣٢ : ١ ، ص ٢٣٦ .

(٢) ٩ : ١ ، ص ١٢٧ .

(٣) ٢ : ٢-٣ ،ص ٣٨-٣٩ .

(٤) ٢١ : ٢- ٥ ،ص ١٩٤ - ١٩٥ .

وقولـه :

تأوّبني ذِكرُ الأحِبّةِ ،بَعدَما هَجَعتُ ودُوني قُلّةُ الحَزنِ فالرّمْلُ (١)

وقولـه :

نَظَرتُ إليه نظرةً ،فرأيتُـهُ على كُلّ حالٍ ،مرّةً ،هُوَ حامِلُـهُ (٢)

والفرق بين السياق الذي يعبّر فيه عن نفسه بضمير المتكلم على أصل الوضع ، والذي يخاطب فيه نفسه - فرقٌ واضحٌ جداً ،وإن كانت الشواهد - أحياناً - من باب واحد كباب الصبوة والشوق ،وهو بخلاف ما يذكر فيه مغامرته ورحلته ، أو يفتخر فيه بنفسه ،أو يذكر ممدوحه ، فإن استعماله ضمير المتكلم على أصل الوضع هو الجاري فيه .

وأمّا خطابه قارئ شعره ، فهو كثير ،وكأنّه فيه يبثّ معانيه في نفس قارئه . و مخاطبة القارئ طريقة معروفة مشهورة في كل ما يكتبه الناس ويقولونه ،وهي ذات قيمة بيانية ولا خلاف في ذلك .

انظر قولـه :

لَعَمرُكَ ،إنّي وابنَ أُختيَ بَيهَساً لَرادانِ ،في الظّلماءِ ،مُؤتَسِيانِ (٣)

رادانِ : يرودانِ . من: رادَ يَرُود إذا جاء وذهب .
مُؤتسيان: من الأُسْوة ، يتأسيان ". (٤)

---

(١) ٥ : ٥ ،ص ٨٥ .

(٢) ٧ : ٢٥ ،ص ١٠٩ .

(٣) ٤٩ : ٨ ،ص ٢٦٨ .

(٤) ص ٢٦٨ .

وقولـه :

لَعَمْرُك ،والخُطُوبُ مُغَيِّـراتٌ وفي طُولِ المُعاشَرةِ التَّقالـي (١)

وقولـه :

تَراهُ ،إذا ما جئتَهُ ،مُتَهلِّـلاً كأنَّك تُعطِيهِ الذي ،أنتَ سائلُه (٢)

وقولـه :

فصَحَوتُ عنها ،بَعدَ حُبٍّ ،داخلٍ والحُبُّ ،تُشرِبُه فُؤادَك ، داءُ (٣)

وتأمّل طريقة الخطاب ،وكيف أكسب الكلام جزالة وحياة ،وكان ذلك وغيره من الأثر لأنّ هذا الضمير عقد عروة وثيقة لا تحل بين الشاعر وقارئه أوبين منشىء الكلام ومتلقيه كما يقول أهل هذا العصر. ثمّ تأمّل حرص زهير على توثيق هذه اللُّحمة عند مقاطع معينة تجد عندها قوة دفق الشعر في مثل قوله :

* والحبُّ تشرِبه فؤادك داءُ *

وأما خطابه كلّ من يتأتّى منه الخطاب ، فهي طريقة فذّة ، ولا تنقاد إلا لمن يعرف كيف يسوس الكلام ،وهي كثيرة جداً في شعر زهير، ومخاطبته قارىء شعره تدخل في هذا الباب لأنّ "فؤادك" في قوله السابق ،الضمير فيه لكل من يصح له أن يتلقّى هذه الحقيقة.

---

(١) ٤٣ : ١ ، ص ٢٥٧.

(٢) ٧ : ٣٩ ، ص ١١٣.

(٣) ٤١ : ٣ ، ص ٢٥٣.

وتأمل أقواله التالية :

تَعلَّمْ أنَّ شرَّ النّاسِ حَيٌّ ... يُنادَى ، في شِعارِهِمُ : يسارُ (١)

توجيه الخطاب هنا إلى كل من يصح منه الخطاب ،وفيه غاية التشهير بهؤلاء الذين أسروا يساراً .

وقوله :

أَبلِغْ بني نَوفَلٍ عنّي ، فقد بَلَغَتْ ... مِنّي الحَفيظةُ ،لمّا جاءني الخَبَرُ (٢)

وقوله :

أَبلغْ لَدَيكَ بَني الصَّيداءِ ،كُلَّهُمُ ... أنَّ يساراً أتانا ،غيرَ مَغلُولِ (٣)

وهذا وسابقه جاء في نفس المعنى الذي في قوله : " تعلّم.."

وكلّه تشهيرٌ وتشنيع .

وقوله :

ولا تُكثِرْ ،على ذي الضِّغنِ ،عَتْباً ... ولا ذِكْرَ التَّجَرُّمِ ،للذُّنُوبِ (٤)

وهذه الخصوصية - مخاطبته كل من يتأتى خطابه - دالة على مزيد حرصه على إشاعة هذا الأدب .

---

(١) ٢٥ : ١ ، ص ٢٢٠ .

(٢) ٢٦ : ١ ، ص ٢٢٤ .

(٣) ٢٧ : ١ ، ص ٢٢٦ .

(٤) ٣٦ : ١ ، ص ٢٤٦ .

وأمّا خطاب الصاحب ،فهي طريقة شائعة في شعر زهير ،ولها مواقعها ذات الفيض كما يتضح من هذه الشواهد في قوله :

تبصّر ،خَليلي ،هل ترَى من ظَعَائنٍ تحمّلْنَ ، بالعَلياء ،مِن فَوقِ جُرْثُم ؟(١)

وقوله :

تَبصّرْ ،خَليلي ،هل ترَى من ظَعائنٍ كما زالَ ،في الصُّبحِ ،الاشَاءُ الحوامِلُ (٢)

وقوله :

تَبيّن ،خَليلي ،هل ترَى من ظَعائنٍ بِمُنعرَجِ الوادي ،فُويقَ أبَـان ؟ (٣)

وواضح أنّه موقف متقارب يستعين فيه بصاحبه على رؤية هذا الركب المغيّب .

كما خاطب صاحبته ،في مثل قوله :

صحا القَلبُ ،عن سَلمَى ،وأقصَر باطِلُهُ وعُرّي أفراسُ الصّبا ،ورَواحِلُـهْ (٤)

وأقصَرَ،عمّا تَعلَمينَ ،وسُـدّدَتْ عليَّ ،سِوَى قَصْدِ السَّبيلِ ،مَعادِلُهْ

فـ " تعلمين " انتقال جاء في موضع جيد ؛ فهو يحيلها على ماتعلم من أمره ،وهو انتقال من غيبة إلى خطاب ، والخطاب قيمته أنه يُمثّل حالة حضور .

---

(١) ١ :٧ ،ص ١٩ .

(٢) ٢٤ : ٥ ، ص ٢١٤ .

(٣) ٤٩ :١ ، ص ٢٦٦ .

(٤) ٧ : ١-٢ ، ص ١٠١ .

وقوله :

وكُلّ مُحِبٍّ أعقبَ النّأيُ لُبَّـــهُ ... سُلوَّ فُؤادٍ ،غيرَ لُبِّكَ ما يَسلُـو (١)

وهذا كلّه من باب التجريد أوخطاب الشاعر نفسه ،وكلّه من باب ذكر الصاحبة كما ترى ،وهو باب غنيّ بالمواقف والأحوال والمشاعر ،وذلك مما يدعو إلى افتنان الشاعر في تصويره وبيانه .

وحين يتكلم الشاعر في المعاني المتصلة بمواقف جماعية تجده يستعمل ضمير جماعة المتكلمين ،وكأنّه لسان حال الجماعة ،كما يخاطب من يخاطبهم بهذه اللغة نفسها ،ويلمح من خلال الضمائر تلك التحيزات القبلية على حدّ ما تراه في قوله :

وإنّا وإيّاكم ،إلى ما نَسُومُكُم ، ... لَمِثلانِ ،أو أنتُمْ إلى الصُّلح أفقَرُ (٢)

إذا ما سَمِعْنا صارِخاً مَعَجَتْ بِنا ... إلى صَوتِهِ ،وُرْقُ المَراكِلِ ،ضُمَّــرُ

وقد يستعمل الشاعر ضمير المتكلم المفرد حين يتحدث عن نفسه ، كقوله :

وإنّي لِطَلّابُ الرّجالِ ،مُطَلَّــبٌ ... ولَستُ بِمَثلُوجٍ ،ولا بِمُعَـلهَــجِ (٣)

أنا ابنُ رِياحٍ ،وابنُ خالي جَوشَنٌ ... ولم أُحتَمَلْ ،في حِجْرِ سَوداءَ ،ضَمعَجِ

---

(١) ٥ : ٤ ، ص ٨٤ .

(٢) ١٣ : ٤-٥ ،ص ١٥٨ .

(٣) ٣٢ : ١٨-١٩ ، ص ٢٣٨ .

والنماذج السابقة تبيّن أنَّ ضمير الخطاب في حالات كثيرة أتى في بنية تركيبية متشابهة ،مثل "أبلغ" ،و"تبصَّر" . كما يكثر هذا التشابه في خطاب الممدوح ؛ انظر قوله :

وَلَنِعْمَ حَشْوُ الدِّرعِ أنتَ ، إذا ... دُعِيَتْ : نَزالِ ،ولُجَّ في الذُّعُرِ (١)

وقوله :

نِعْمَ الفَتَى المُرِّيُّ أنتَ ،إذا هُمُ ... حَضَرُوا ،لَدَى الحُجُراتِ ،نارَالمُوقِدِ (٢)

وقوله :

ولأنتَ تَفرِيما خَلَقْتَ ،وبَعْـ ... ـضُ القومِ يَخلُقُ ،ثُمَّ لا يَفْرِي (٣)

ولأنتَ أشجَعُ ،حِينَ تَتَّجِهُ الـ ... أَبْطالُ ،من لَيثٍ ،أبي أَجْرِ

وتجد زهيراً - أحياناً - يبدأ حديثه عن الأقوام بضمير الغيبة ، وبعد ذكر بعض الصفات ينتقل إلى طريق الخطاب و يستمر فيه ،ثم ينتقل إلى الغيبة ،وهكذا ينوّع ويراوح .

والتنويع في الخطاب يُكسب الكلام تطريةً وتنشيطاً كما يقول العلماء ، وهو نوعٌ من التفنن في العبارة وإعطاء الأسلوب الحيويةَ القادرة على الايقاظ . والذي يبدو في المقاطع التي ينتقل فيها الحديث من الغيبة إلى الخطاب أنَّها غالباً ما تكون مقاطع ذات خصوصيّة معنوية

---

(١) ٤ : ٧ ، ص ٧٨ .

(٢) ٢١ : ١٩ ،ص ١٩٨ .

(٣) ٤ : ١٧-١٨ ،ص ٨٢ .

بارزة تدعو الشاعر إلى خطاب ممدوحه ، وبيان ذلك في مثل قوله :

سعى ساعيا غَيظِ بنِ مُرَّةَ ، بَعدَما تَبزَّلَ ما بَينَ العَشيرةِ ، بالدَّمِ (١)

يبدأ الحديث عن الحارث بن عوف وهرم بن سنان بطريق الغيبة "سعى ساعيا" ، ثم انتقل :

يميناً ، لَنِعْمَ السَّيِّدانِ وُجِدتُمـا على كُلِّ حالٍ ، من سَحيلٍ ، ومُبْرَمِ (١)

فقوله : " لنعم السيدان وجدتما " ينتقل فيه عند موقف يتضح انفعاله به ؛ فأقسم ، ثم مدح بصيغة المدح - والتي تجري غالباً عند الانتقال للخطاب " لنعم السيدان " - ثم استمر الخطاب :

تَداركتُما عَبْساً ، وذُبيانَ ، بَعدَما تَفانَوا ، ودَقُّوا بَينَهم عِطرَ مَنشِمِ (٢)

وقد قُلتُما : إِنْ نُدْرِكِ السِّلمَ ، واسعاً بمالٍ ، ومعرُوفٍ من الأمرِ ، نَسلَمِ

فأصبَحتُما ، مِنها ، على خيرِ مَوطنٍ بَعيدَينِ ، فيها ، من عُقوقٍ ومأثَمِ

عَظِيمَين ، في عُليا مَعَدٍّ ، هُدِيتُما وَمَن يَستَبِحْ كَنزاً ، مِنَ المَجدِ ، يُعْظِمِ

فأَصبحَ يَجري ، فِيهِمُ ، مِن تِلادِكُمْ مَغانِمُ شتَّى مِن إِفالٍ ، مُزَنَّمِ

ثم انتقل إلى الغيبة بعده :

---

(١) ١ : ١٦-١٨ ، ص ٢٣ .

(٢) ١ : ١٩ - ٢٢ ، ص ٢٤-٢٥ .

تُعَفّي الكُلومُ ،بالمِئينَ ،فأَصبَحَتْ يُنجِّمُها مَن ليسَ ،فيها ،بمُجْرِمِ (١)

يُنجِّمُها قومٌ ،لِقَومٍ ،غَرامـــــةً ولم يُهَرِيقُوا ،بَينَهُم ،مِلءَ مِحجَمِ

انظر كيف انتقل الكلام إلى الغيبة ، وكيف كان قوله : " تُعفّى الكلوم بالمئين " مسلكاً دقيقاً أوصل إلى هذا الطريق .

كما كانت طريقته في الحديث عن الأحلاف بداية طريق الغيبة أيضاً :

فمَن مُبْلِغُ الأَحلافِ ،عنّي ،رِسالةً وذُبيانَ : هل أقسمتُمُ كلَّ مُقسَمِ؟ (٢)

في قوله : " فمن مُبْلِغ الأحلاف " ، ثم انتقل إلى الخطاب في قوله : " هل أقسمتم كلَّ مُقسَم " ،واستمر فيه :

فلا تكتُمُنَّ اللّهَ ما في نُفوسِكُم لِيَخفَى ،و مهما يُكتَمِ اللّهُ يَعلَمِ (٣)

يُؤخَّرْ ،فيُوضَعْ في كتابٍ ،فيُدَّخَرْ لِيَومِ الحسابِ ،أو يُعجَّلْ فيُنقَمِ

وما الحربُ إلا ما عَلِمتُم ،وذُقتُمُ وما هُوَ عنها بالحَديثِ ،المُرَجَّمِ

مَتى تَبعَثُوها تَبعَثُوها ، ذَميمةً وتَضْرَ ،إذا ضَرَّيتُموها ،فتَضْرَمِ

فتَعرُكْكُمُ عَرْكَ الرَّحا ،بثِفالِها وتَلقَحْ كِشافاً ،ثمّ تُنتَجْ ،فتُتئِمِ

فتُنتِجْ لكم غِلمانَ أشأَمَ ،كلُّهم كأحمَرِ عادٍ ،ثمّ ترضع فتَفطِمِ

فتُغلِلْ ،لكُم ،ما لاتغل لأهلِها قُرًى بالعِراقِ ،من قَفيزٍ ،ودِرهَمِ

---

(١) ١ : ٢٤-٢٥ ، ص ٢٥-٢٦ .

(٢) ١ : ٢٦ ، ص ٢٦ .

(٣) ١ : ٢٧ - ٣٣ ، ص ٢٦-٢٨ .

إلى أن تحدّث عن حُصين بن ضمضم الذي كان قد أبى الدخول في الصلح ،وكان حديث الشاعر عنه بالغيبة ، فلم يلتفت إليه بخطاب :

لَعَمري،لَنِعْمَ الحَيُّ ،جَرَّ عليهِمُ ... بما لا يُواتيهم ،حُصينُ بن ضَمضَمِ (١)

وكان طوى كَشْحاً ،على مُسْتكِنَّةٍ ... فلا هُوَ أبداها ، ولم يَتَقَـــدَّمِ

وقالَ : سأقضي حاجتي ،ثمّ أتّقي ... عدُوّي بألفٍ ،من وَرائيَ ،مُلْجَـمِ

فشَدَّ ،ولم يُفزِعْ بيوتاً ،كثيــرةً ... لَدى حيثُ ألقَتْ رَحْلَها أمُّ قَشْعَمِ

وفرقٌ كبير بين الخطاب في الأبيات السابقة والغيبة في هـذه الأبيات ،فالمعاني في السابقة تنفيرٌ من هذه الحرب التي برع فـي تصويرها بصورة فظيعة منفِّرة ،وحضور المخاطَب فيها مقصود ليشاهد مع الشاعر هذه الصورة البشعة ،وطريق الخطاب هنا مصاحبةٌ حيّةٌ بيـن الشاعر وهؤلاء الأحلاف الذين يتعهّدهم بنصحه ويحرص على سلامتهم. أمّا طريقة الغيبة في حديثه عن حصين بن ضمضم الذي طوى كشحـاً على مستكِنّته في هذه الظروف الحرجة وكأنّه يدمّر كل ما يحـاول زهير بناءه وما وقف عليه نفسه - فـهي مناسبة جداً لأنّها توحي بالانصراف وإشاحة الوجه عمّن هو مثله .

وتأمّل قوله يمدح هرم بن سنان والحارث بن عوف أيضاً حيـث بدأ الحديث عن القوم بطريق الغيبة :

إلى مَعشَرٍ ،لم يُورِثِ اللُّؤمَ جَدُّهُم ... أصاغِرَهُم ،وكلُّ فَحلٍ له نَجْـــلُ (٢)

---

(١) ١ : ٣٤-٣٧ ، ص ٢٩ .

(٢) ٥ : ٨ ، ص ٨٦ .

واستمر في الحديث عنهم بطريق الغيبة إلى البيت السابع والعشرين :

وهُم خَيرُ حَيٍّ ،مِن مَعَدٍّ ،عَلِمتُهُم لهم نائلٌ ،في قومِهم ،ولهُم فَضْلُ (١)

ثم خاطبهم في البيت التالي له :

فَرِحْتُ بما خُبِّرتُ ،عن سيِّديكُم وكانا امرأَينِ ،كُلَّ شأنِهما يَعلُو (٢)

حيث وجه الخطاب لقوم الممدوحين ،وكذا في البيت التالي له :

رأى اللهُ ،بالإِحسانِ ،ما فَعَلا بكمُ فأبلاهُما خيرَ البَلاءِ ،الذي يَبلُو (٢)

ذكر السّيدين في هذين البيتين بأسلوب الغيبة في قوله : " سيِّديكم " ،و " ما فعلا " ، و " فأبلاهما " ،ثم انتقل إلى الخطاب في البيتين التاليين :

تَداركْتُما الأحلافَ ،قد ثُلَّ عَرْشُها وذُبيانَ ،قد زَلَّتْ بأقدامِها النَّعْلُ (٣)

فأصبحتُما ،منها ،على خَيرِ موطِنٍ سَبيلُكُما فيها ،وإِن أحزَنُوا ،سَهْلُ

ترك أسلوب الغيبة في الحديث عن السّيدين ،وانتقل إلى أسلوب الخطاب ،وفي الوقت ذاته انصرف عن القوم إلى هذين السّيدين ،وخاطبهما، ثم انتقل إلى الغيبة وذلك في قوله :

رأيتُ ذوي الحاجاتِ ،حولَ بُيوتِهم قَطيناً لهُمْ ،حتّى إِذا أَنبتَ البَقْلُ (٤)

---

(١) د: ٢٧ ص ٩١.

(٢) د: ٢٨-٢٩ ، ص ٩١.

(٣) د: ٣٠-٣١ ، ص ٩١-٩٢.

(٤) د: ٣٣ ، ص ٩٢.

واستمر فيه إلى آخر القصيدة .

وانظر قوله في موضع آخر يمدح سنان بن أبي حارثة :

وإلى سِنانٍ ، سيرها ، ووَسِيجُها حتّى تُلاقِيَهُ ، بطَلْقِ الأسْعُدِ (١)

بدأ بالحديث عن سنان ، وقوام أبيات القصيدة بعد هذا البيت إلى خاتمتها حديث عنه ، وقد ذكره الشاعر أول ما ذكره بطريق الغيبة كما بدا في البيت السابق ، ثم انتقل إلى الممدوح مخاطباً في قوله : "أنت" :

نِعْمَ الفَتَى المرِّيِّ أنت ، إذا هُمُ حَضَرُوا ، لدى الحُجُراتِ ، نارَالمَوقِدِ (٢)

وهذا الأسلوب "نعم الفتى المريّ أنت" فيه طريقان لاستعمال الضمائر : الغيبة والخطاب ، الغيبة وتلمحها في قوله "نعم الفتى المرّيّ" وهو يُشعِرُ بأنَّه يتحدث عن فتىً الشأن في صفاته أن تُروى وتُحكى ، ثم الخطاب "أنت" فأحضره ، وكأنَّ هذا الممدوح غائب تُحكى صفاته ، ثم حاضرٌ يُخاطب ، وقوله : "أنت" منبىءٌ عن إقباله عليه ووضعه الحمد بين يديه .

ثم رجع إلى الغيبة في البيتين بعده :

خَلِطٌ ، ألُوفٌ لِلجَميعِ ، ببَيتِهِ إذ لا يُحَلُّ ، بحَيِّزِ المُتَوَحِّدِ (٣)

يَسِطُ البُيوتَ ، لكي يكونَ مَظِنّةً من حيثُ تُوضَعُ جَفْنَةُ المُسْتَرفِدِ

---

(١) ٢١ : ١٨ ، ص ١٩٨ .

(٢) ٢١ : ١٩ ، ص ١٩٨ .

(٣) ٢١ : ٢٠-٢١ ، ص ١٩٨ .

ثم قال :

عَوَّدْتَ قومكَ ، إِنَّ كلَّ مُبَــرِّزٍ مَهما يُعَوِّدْ شِيمةً يَتَعَــوَّدِ (١)

فرجع إلى الخطاب في قوله : " عوّدت " ، ثم رجع إلى الغيبة :

وإذا يُلاقي نَجْدَةً ، مَعلُومــةً يَصْلَى الكُماةُ ، بِحَرِّها ، لم يُبْلَدِ (٢)

إلى آخر القصيدة :

صَدْقٍ ، إذا ما هُزَّ أُرعِشَ مَتْنُهُ عَسَلانَ ذئبِ الرَّدْهةِ ، المُستَوردِ (٣)

ومّما راوح فيه وهو يخاطب ممدوحه ، قوله يمدح هرم بن سنان :

أَنْ نِعْمَ مُعتَرَكُ الجِياعِ ، إذا خَبَّ السَّفِيرُ ، وسابىءُ الخَمْــرِ (٤)

بدأ بضمير الغيبة ، وأسلوب الغيبة يكسب الكلام شيئاً من القبول ؛ لانّ الحديث عن الرجل في غيبته أدعى لقبول النفس له ، ثم خاطبــه في البيت الذي يليه :

ولَنِعْمَ مأْوَى القَومِ ، قد عَلِمُوا إِنْ عَضَّهُم جُلٌّ ، مِنَ الأَمْــرِ (٥)

وهناك خلاف في ترتيب الأبيات ، إلا أنَّ المهم هو المراوحــة في طرائق بناء الكلام وقد بدت واضحة ، فمرّة بطريق الغيبــة ،

---

(١) ٢١ : ٢٢ ، ص ١٩٩ .

(٢) ٢١ : ٢٤ ، ص ١٩٩ .

(٣) ٢١ : ٢٧ ، ص ٢٠٠ .

(٤) ٤ : ٦ ، ص ٧٨ .

(٥) ٤ : ٨ ، ص ٧٨ .

ومرّة بطريق الخطاب ، واستعمال الغيبة يومئ إلى أنّ الشاعر يحكي خلال رجل غاية الأمر في أخلاقه أن تُروى وتُحكى ،ثم أسلوب الغيبة الذي هو أدعى للقبول ،فالشاعر يخبر عن ممدوحه ،والممدوح بمنأى عنه . ثم إنّ مقاطع المعاني والتي أُوثِر فيها الخطاب مقاطع تشتمل على صفات أو جملة من الخلال تغري بتوجيه الخطاب .

جميع ما مضى كان في خطاب ما يصح خطابه ،أمّا ما لا يصح ؛ فمنه خطاب الحيوان ،وقد خاطبه مرّة واحدة في قوله :

فزادك أنْعُماً ،وخَلاكَ ذَمٌّ ... إِذا أَدْنَيْتَ رَحلِي ،مِن سِنانِ (١)

الخطاب فيه للجمل .

كما خاطب الدهر وتوجّه إليه :-

يا دَهْرُ ،قد أَكْثَرْتَ فَجعَتَنا ... بسَراتِنا ،وَقَرَعتَ ،في العَظْمِ (٢)

وخاطب المنيّة في قوله :-

كعَوفِ بنِ شَمّاسٍ ،يُرَشِّحُ شِعرَهُ ... إِليَّ ،أَسِدِّى - يامَنِيَّ - وأَسجِحي (٣)

إنَّ العرض السابق يوضّح طريقة زهير في استعمال ضمير الخطاب ، وهو-كما ذكرتُ-أكثر الضمائر جرياناً في شعره ، ولذا خُصَّ بمزيد من

---

(١) ٤٨ : ١٢ ، ص ٢٦٥ .
(٢) ٥٥ : ١١ ، ص ٢٨٢ .
(٣) ٤٥ : ٣ ، ص ٢٥٩ .

النظر في جريانه في السياقات المختلفة ،وقد توزّع بين ما يصح خطابه وهو متنوع وكثير ، وما لا يصح ، وهو قليل جداً . وبسط القول في الذي يصح خطابه وهو : إما خطاب الشاعر نفسه على طريقة التجريد ، وإمّا خطابه قارئ شعره ،وإمّا خطابه كلّ من يتأتّى منه الخطاب، وإما خطابه الصاحب والصاحبة . وبيّنت الدّراسة طريقته عند الانتقال في حديث الأقوام والممدوحين من الغيبة إلى الخطاب ،وهي طريقة تكاد تكون مطردة في معظم شواهد هذا الباب لديه . كما ألمّت الدّراسة إلماماً سريعاً بخطابه من لا يصح خطابه ، كخطابه الحيوان والدهر والمنية ،وهو قليلٌ كما ترى .

وآمل أن أكون بهذا العرض قد أبنت عن شيء من استعمال زهير للضمائر . وإذا كان في هذا قصور -وهو فيه لا محالة - فمرجع ذلك إلى أنّ هذا اللون من البحث لم تمهده أقلام أهل العلم فأسلك فيه طريقاً سهلاً مطروقاً وإنما هي محاولات أولى تفتح طريقاً في دراسة الأساليب الشعرية وهي قائمة على أصول بلاغة العربية .

٤ - تعريف الطرفين :

لُحظ أنّ الإطار الذي وضعه الشيخ عبد القاهر في الخبر معرّفاً بالألف واللام مستوعبٌ -بصورة واضحة - كلام زهير . وكان الظنّ في توظيفات زهير لهذه الأداة أن يوجد فيها مايخرج من مقالة هذا الشيخ الجليل فيظفر باستدراكات على مقرراته رحمه الله

ولكنّ ذلك لم يحدث ،ودونك ضروباً من تعريفات زهير تستغرق كل معانيه في استعمال هذا الأسلوب ،قال زهير :

هُوَ الجَوادُ ،فإنْ يَلحَقْ بشأوِهِما ، على تَكاليفِهِ ،فمِثلُهُ لَحِقا (١)

" هو الجواد " يفيد القصر على سبيل المبالغة ،وكأنّ الجود لم يوجد في غيره على الحدّ الذي وُجد فيه ،وكأنّه هو الحقيق بهذا الوصف ،والجود من أُمهات الفضائل ،ومن صفات أشراف الناس وسادتهم ، وهو عند عبد القاهر نظير قولك : « " زيد هو الجواد " و " عمرو هو الشّجاع " ،تريد أنّه الكامل ،إلا أنك تخرج الكلام في صورة تُوهِم أنّ الجود أو الشجاعة لم توجد إلا فيه ،وذلك لأنّك لم تعتدّ بما كان من غيره ، لقصوره عن أن يبلغ الكلام » (٢) .

ومثل قوله :

الضّامِنُونَ ،فما تَنفَكُّ خَيلُهُمُ شُعْثَ النَّواصِي ،عليها كلُّ مُشتَهِرِ (٣)

أي : "هم الضّامنون " ، فهو إنما يريد قصر هذه الصِّفة على من يمدح بطريق المبالغة ،وكأنّه يُوهم أنّه لا يضمن ضمانهم ضامنٌ ،ولا يجير جوارهم مجير ، وانظر إلى بقية البيت وكيف عضّد هذا

---

(١) ٢ : ٢٥ ،ص ٤٩ .

(٢) (دلائل الإعجاز) ص ١٧٩ .

(٣) ٢٩ : ٥ ، ص ٢٣٢ . « الضامن : المجير . والشعث : جمع شعثاء . وهي المغبرّة المتلبّدة . والنّواصي : جمع ناصية ،وهي الشعر في مقدم الرأس .» ص ٢٣٢ ، حاشية " ٥ " .

المعنى بأنّهم أصحاب غارات فما تنفكّ خيلهم شعْث النّواصي، وواضحٌ أنّه لا يريد نفي الضمان عن غيرهم وأنّ غيرهم لا يضمن وإنما يريد -ما ذُكر- من تميّز ضمانهم عن ضمان غيرهم.

ومثله -أيضاً- قوله :

هُمُ الخَيرُ ، البَجِيلُ ، لِمَن بَغاهُم وهُم نارُ الغَضَى ،لِمَنِ اصطَلاها[1]

« البجيلُ : الكثيرُ.[2] وبغى : طلب وقصد . والغضى : ضربٌ من الشجر خشبه صلبٌ،وجمره يبقى طويلاً لا ينطفئ.[3] »

قال : " هم الخير " ولم يقل : " أهل الخير " ،لأنّه أراد أنّهم الخير نفسه ، على حدّ قولهم : هو عَدْل و برّ ،وهذا وجه من وجوه المبالغة ،وطريقها طريق آخر ؛ فهي مبالغة في الصّفة نفسها ،أمّا التعريف في المسند فهومفيد قصر جنس الخيرعليهم على سبيل المبالغة ،وعلى سبيل الاعتداد بصفة الخيرفيهم ،وعدم الاعتداد بها في غيرهم. ويمكن أن يكون التعريف مشيراً إلى أنّهم عرفوا بذلك وشهروا به من غير نظر إلى قصر .

وقد يأتي تعريف المسند مفيداً قصر المسند على المسند إليه لا على سبيل المبالغة ،وإنّما على سبيل الحقيقة ، "ولا يكون ذلك إلا إذا قيّدت المعنى بشيء يخصّصه ويجعله في حكم نوع برأسه ،

---

(١) ٣٤ : ٣ ،ص ٢٤٣ . (٢) ص ٢٤٣ .

(٣) ص ٢٤٣ . حاشية " ٤ ".

وذلك كنحو أن يُقيَّد بالحال والوقت كقولك : " هوالوفيُّ حين لا تَظُنُّ نَفْسٌ بِنَفْسٍ خَيْراً " »(١) ،هكذا قال عبد القاهر ، وهذا الضرب كثر في شعر زهير ،ومنه قوله :

المانِعونَ ،غَداةَ الرَّوعِ عَقْوَتَهُمُ والرّافِدُون ،لَدَى اللَّزَبَاتِ ،بالغِيَرِ (٢)

ف " المانعون " مقيّد ب " غداة الروع " ،و " الرّافدون " مقيّد ب " لدى اللّزبات بالغير " ، واللَّزْبة (٣) : " السَّنة الشديدة ،والجمع لَزْبات كأنَّ القحط لَزِبَ،أي ثبت فيها ."

يريد بـ :

* المانعون (٤) ، غداة الروع عقوتهم (٥) *

أنَّ عدم اعطاء الدار في هذا الوقت الصعب مقصور على من يمدحهم ، بمعنى أنّه لا يطيق ذلك من الأقوام إلا هم ،وانظر العبارة عن الحرب والغارة بكلمة " الروع " وما تفيض به من شدّة الموقف وهوله وفزعه وغير ذلك مما ترتاع له القلوب وتضعف عن الذّود والمدافعة والمنع.

---

(١) (دلائل الإعجاز) ص ١٨٠ .

(٢) ٢٩ : ٨ ، ص ٢٣٢ .

(٣) ابن فارس " معجم مقاييس اللغة " ٥ : ٢٤٦ .

(٤) " المنع هو خلاف الإعطاء " (المصدر السابق) ٥ : ٢٧٨ .

(٥) " العَقْوة : ما حول الدار " (المصدر السابق) ٤ : ٧٤ .

وكذلك يريد بقوله :

* والرافدونَ ، لدى اللَّزبات ،بالخير *

أنّه لا ينهض بهذا العمل العظيم ،وهو تحمل الدّيات في وقت الشّدة إلا هم . وتأمّل كلمة "اللّزبات" تجد الشاعر وكأنّه تروّى في اختيارها كما تروّى في اختيار كلمة "الروع" فهو يريد أحداثاً خاصة وأحوالاً خاصة لا ينهض فيها الكل ،وإنّما هي التي تميز أفراد الرجال حين يعجز عنها غيرهم ،ثم إنَّ هذا الضرب من التعريف مفيدٌ أنَّ هذا جنس من الفعل يتكرّر ،والتكرر معناه أنَّ هذا خلق من أخلاقهم وعادة من عاداتهم ،وهذا أقوى في باب المديح .

ومثله ، قوله :

القائدُ الخيلَ ،مَنكُوباً دَوابِرُها   مِنها الشَّنُونُ ،ومنها الزّاهِقُ ،الزَهِمُ (١)

" قال الأصمعي : لم أسمع للشَّنُونِ بفعل . والشَّنُون : بين السَّمين والمهزول . والزّاهق : السَّمين . والزَّهِمُ : أسمنُ منه . والزُّهْمُ: الشَّحم . ويقال : الزاهقُ : اليابسُ المُخّ مثل القصيدِ . والزَّهِمُ : الكثير اللّحم والشَّحم . ودوابرُ الحوافر : مآخيرُها ." (٢)

---

(١) ٨ : ١٥ ،ص ١٢٠ .

(٢) ص ١٢٠ .

المراد أنّه جنس من الفضائل مقصور على الممدوح ، على معنى أنّه لا يفعل ذلك إلا هو ،وأنّه خلق من أخلاقه يتكرّر كلما اقتضت الأحوال وقوعه ، والحدث كما ترى قيادة الخيل التي طالما ضربت في الأرض و مجاهل الطرق حتّى نكبت دوابرها أي : وجعت مآخير حوافرها ،وهو ماضٍ نحو غايات و مقتحم أبواباً من الفضائل لا يقتحمها غيره .

والأصل في كشف هذه الدقيقة المعنوية في أسرار بيان العربية هو قول الشيخ عبد القاهر معلّقاً على قول الأعشى :

هوالواهب المئة المُصطفاة ، إمّا مخاضا وإمّا عشارا .

« وربما ظنّ الظّانّ أنّ " اللام " في " هوالواهب المئة المصطفاة " بمنزلتها في نحو " زيد هوالمنطلق " ،من حيث كان القصد إلى هبةٍ مخصوصةٍ ،كما كان القصد إلى انطلاق مخصوص .و ليس الأمر كذلك ، لأنّ القصد ههنا إلى جنسٍ من الهبة مخصوص لا إلى هبة مخصوصة بعينها . يدلّك على ذلك أنّ المعنى على أنه يتكرّر منه ، وعلى أن يجعله يهب المئة مرّة بعد أخرى ، وأمّا المعنى في قولك : " زيد هو المنطلق " ،فعلى القصد إلى انطلاق كان مرّة واحدةً ، لا إلى جنس من الانطلاق . فالتكرر هناك غير متصوَّر ، كيف ؟ وأنت تقول : " جرير هو القائل :

* ولَيْسَ لِسَيْفي في العِظام بقيّةٌ * " ،

تريد أن تثبت له قِبلَ هذا البيت وتأليفه "(١).

ومثله ، قوله :

القائدُ الخيلِ ،مَنكوباً دَوابُرها   قد أُحكِمَتْ حَكماتِ القدِّ ،والابَقا (٢)

و قولــه :

المانعُ الجَورِ ،يَومَ الرَّوعِ ،قد عَلمُوا   وذُو الفُضُولِ ،بلا مَنٍّ ،ولا كَــدَرِ (٣)

وقد يراد بتعريف المسند إقراره للمسند إليه ،وقد أشار الشيخ عبد القاهر إليه عندما ذكر بيت الخنساء :

إذا قَبُح البكاء على قتيــــلٍ   رأَيتُ بكاءَك الحَسَنَ الجميــلا .

" لم تُرِد أن ما عدا البكاء عليه فليس بحسنٍ ولا جميلٍ ،ولــم تُقيِّد الحَسن بشيءٍ فيتصوّر أن يقصر على البكاء ،كما قَصر الأعشــى هبة المئة على الممدوح ،ولكنّها أرادت أن تُقِرّه في جنس ماحسنــه الحُسْنُ الظاهر الذي لا ينكره أحد ،ولا يشكُّ فيه شاكٌّ" (٤) . وهذا نادر في الكلام ،ولذلك لا ترى له في كتب البلاغة شواهد غير ماذكر

---

(١) (دلائل الإعجاز) ص ١٨٠-١٨١ .

(٢) ٢ : ٢١ ، ص ٤٦ .

(٣) ٢٩ : ١١ ،ص ٢٣٣ .

(٤) (دلائل الإعجاز) ص ١٨١ .

عبد القاهر ، وقد نُظِر طويلاً في تعريف الطرفين عند زهير لاستنباط هذا المعنى ، فما وُجد إلا في قوله يرثي سناناً :

أُحابي بِهِ مَيْتاً ،بِنَخْلٍ ،وأَبتَغي إخاءَك ،بالقَولِ الّذي أناقائِلُ(١).
أُحابي بِهِ مَنْ ،لو سُئِلتُ مَكانَهُ يَميني ،ولو لامَتْ عليه العَواذِلُ
لَعِشنا ذَوي ،أَيدٍ ،ثلاثٍ ،وإنّما الـ حَياةُ قَليلٌ ،والصَّفاءُ التَّباذُلُ

لم يرد قصر التباذل على الصفاء ،وإنّما أراد تقرير أنَّ الصفاء هذا وصفه ،ويلحظ أنَّ جملة "والصفاء التباذل" داخلة في حيّز "إنّما" ، وهذا يعني أنَّ الصفاء مقصور على البذل ،فليس صفاء إلا ما كان عطاء ،وبذلك فإنّ في التركيب مانعاً يمنع أن يكون التباذل مقصوراً على الصفاء ، وكان يمكن الشاعر أن يقول : "والصفاء تباذل" كما قال قبله "الحياة قليل" ، ولكنّه أراد البذل المعروف المشهور ، أي : بذل ما تضنّ به النفس ،لأنَّ المراد به هنا "يمينه" أي : بذلها . وانظر قوله : "ولو لامت عليه العواذل" أي : هو يعطي عطاء يتوجه اللوم بسببه إليه ،أي عطاء المضنون به ،وهو المراد بالتباذل .

وقد يقع المسند معرّفاً ، ويراد به الإشارة إلى بلوغ المسند إليه في الصفة المذكورة المعرّفة بالألف واللام - مبلغ الكمال ، وكأنَّ المسند إليه هو الذي يمثّل هذه الصفة في صورتها المثالية ، أو قُلْ : وكأنَّ هذه الصفة في كمالها واجتماع أحوالها وشمائلها

---

(١) ٢٤ : ٢٠-٢٢ ، ص٢١٨ .

وتوفّر كل ما يلزم لها - إنّما هي في هذا المسند إليه ،كما يقال : " هو الرجل " أي الذي تتوفر فيه كمالات الرجولة وشمائلها وأحوالها من قوة ومروءة وصدق وشجاعة و نبل وعزة إلى آخر ما توحي به كلمة "الرجولة" ،ولا يعرف أحدٌ كشف دقيق هذا المعنى وأماط عنه لثامه في هذه اللغة العالية الشريفة قبل الشيخ عبد القاهر ، قال : "وله مسلك ثمّ دقيقٌ ولمحة كالخَلْس ،يكون المتأمل عنده كما يقال : " يعرف ويُنْكر "،وذلك قولك : " هوالبطل المحامي " و " هو المُتّقى المُرْتجى " ،وأنت لا تقصد شيئاً مما تقدّم ... = ولكنك تريد أن تقول لصاحبك : هل سمعت بالبطل المُحامي ؟ وهل حصَّلت معنى هذه الصفة ؟ وكيف ينبغي أن يكون الرجل حتّى يستحق أن يقال ذلك له وفيه ؟ فإن كنت قتلْته علماً ،وتصوّرته حقّ تصوُّره ، فعليك صاحبك واشدُد به يدك ، فهو ضالّتك وعنده بُغيتك " (١) .وهذا المعنى كما ترى لا يتأتى لكل من يرومه ،ومنه في كلام زهير ،وهومالم تعرض له صورة ثانية في شعره ؛لأنّه معنى نفيس قليل - كما ذُكِر - قوله :

هوالجوادُ ،الذي يُعطيك نائلَهُ عَفْواً ،ويُظْلَمُ أحياناً ،فَيظَّلِمُ (٢)

يقول : إذا أردت أن ترى الجواد الذي هذا وصفه :

---

(١) (دلائل الإعجاز) ص ١٨٢.

(٢) ٨ : ١٣ ، ص ١١٩ .

الذي يعطيك العطاء من غير سؤال ، ثم هو إذا طلب منه أعطى ما طلب ولو كان مظلوماً في هذا الطلب - أي حين يطلب منه في غير وقت الطلب - ، إذا أردت أن ترى هذه الصورة الناضرة من كرام الناس وأهل السماحة والفضل فيهم وتتصوّرها حق تصورها = فهو هذا الرجل . وقد أفادت الصلة هذا المعنى ، كما سبق ذكره في اسم الموصول (١) .

ومن المواقع اللطيفة لتعريف المسند ، وهو في ذات الوقت منبئ عن طريقة زهير في استعمال اللغة ، وتنادي الألفاظ بعضها ببعض ، وإحكام الكلمة في موقعها ، قوله :

إنَّ البخيلَ ملومٌ ، حيثُ كان ، ولـ ـكنَّ الجواد ، على علاته ، هَرِم (٢)

أراد قصر الجود على هرم على سبيل الحقيقة من قصر المسند على المسند إليه ، والأجرى في الكلام أن يقول : هرم الجواد ، ولكنّ هذا التقديم استدعاه السياق وليست القافية وهذا قاطع . ووجه استدعاء السّياق لهذا التركيب الذي قُدِّم فيه الوصف على الاسم الجامد : " الجواد على علّاته هرم " هو قوله في صدر البيت " إنّ البخيل ملوم " فقد بنيت هذه الجملة على ذكر البخيل ، أي بدئ به الكلام و بنى عليه ، فناسب ذلك أن يقول :

----

(١) ص ٥٧ .

(٢) ٨ : ١٢ ، ص ١١٩ .

" ولكنّ الجواد هرم " ليتم تناسق الكلام وتلاؤمه . وهذا قريبٌ مما قاله العلماء في بيت السقط :

* يخوض بحراً نقعه ماؤه *

لأنك تبتدئ بالأعرف ، فالأفصح " ماؤه نقعه " " لأن السامع يعرف أنّ له (أي البحر) ماء وإنما يطلب تعيينه "(١) ، وهكذا فقد استدعت كلمة البخيل كلمة الجواد ونادتها فكانت أوّلا في بناء الجملة الثانية .

وممّا سبق يتضح قلة المواقع التي أتى فيها تعريف الطرفين ، إذ ورد - فيما وقعت عليه - نحو عشر مرات ، والعجيب أنّه مع قلته شمل - أولاً - تلك الألوان التي أشار إليها الشيخ عبد القاهر عند حديثه عن الفروق في الخبر ، وكون الخبر معرّفاً بالألف واللام ، ثم إنّ تعريف الطرفين ومع قلة مواقعه - ثانياً - وقع ثلاث مرات في قصيدة واحدة ، ومرتين في قصيدتين . وهذا التكثيف في استخدام تعريف الطرفين في قصائد بعينها والإتيان به متتابعاً ، لحظ في التعريف باسمي الموصول والإشارة ، ولعلّ ذلك يرجع فيما نزعم إلى أنّ سليقة الشاعر تألف صيغاً معينة في سياقات شعرية معينة ، وليس هذا من باب استخدام الأساليب " الجاهزة " كما يقال الآن ، وإنّما هي صيغ تتشابه أنماطها

---

(١) سعد الدين التفتازاني (المطول) ص ١٧٧ .

وتتكرر ،وإذا راقب كلّ منا نفسه وجد عنده بعض اللوازم والصياغات التي رضيها حين استخرجها من الكلام وعلقت بلسانه ،وهكذا كان زهير، تعلق في لسانه بعض الصيغ فيظل يردّدها . وهكذا.

مواقع الإضافة في شعره :

ثمة استعمالات متميزة في استثمار زهير للإضافة ،منها : ذلكم الكم الهائل من الاستعمال للفظ " كل " مضافاً ، وهي كلمة تحمل معنى الشمول ، وقد أتت إضافتها إلى النكرات ، والإضافة إلى النكرات تكسب المضاف التخصيص . وقد تكاثر هذا اللون من الإضافة في قصائد بعينها . وواضحٌ أنّ التعميم والشمول في الأحكام باب مخوف حذرٌ ، ودوران هذه اللفظة ذات المدلول المتسع الشامل يكون - غالباً - في كلام رجل شأنه واحد من اثنين : إمّا رجل مجترئ على الحقيقة لا يُبالي أين يقع كلامه منها ،أورجل كثير المراجعة شديد الفطنة عظيم التدقيق فهو يصبّ - غالبا - في هذا اللفظ العام حقائق محكمة يستخلصها بثاقب فكره ولطيف نظره ،وكثرة دورانها في شعره تنبئ عن سعة نفس وعقل وقدرة على اقتناص الحقيقة العامة من المواقف الجزئية الخاصة ،وهكذا استعمالات زهير ،ويظهر ذلك في قوله :

عَوّدتَ قَومَكَ ،إنَّ كلَّ مُبرّزٍ مهما يُعَوَّد شِيمةً يتعوّدِ(1)

---

(1) ٢١:٢٢ ، ص١٩٩ .

وقولـه :

هم جَدّدوا أحكامَ كلِّ مُضِلَّةٍ   مِنَ العُقْمِ ،لا يُلفَى لأمثالِها فَصْلُ(١)

وقولـه :

وكلُّ مُحِبٍّ أعقَبَ النّأيُ لُبّهُ   سُلُوَّ فُؤادٍ ، غيرَ لُبّكَ ما يَسلُو(٢)

وقولـه :

إلى مَعشَرٍ ، لم يُورِثِ اللّؤمَ جَدُّهُم   أصاغِرَهُم ،وكُلُّ فَحلٍ له نَجْلُ(٣)

وقولـه :

تَهامُونَ نَجدِيّونَ ،كيداً ،ونُجْعةً   لكُلِّ أُناسٍ ،من وَقائعِهم ،سَجْلُ(٤)

وقولـه :

لهُ ،في الذّاهِبينَ ،أُرُومُ صِدْقٍ   وكانَ لكلِّ ذِي حَسَبٍ أُرُومُ(٥)

وقولـه :

ومَن يَعْصِ أطرافَ الزِّجاجِ فإنّه   يُطِيعُ العَوالِي ،رُكِّبَتْ كُلَّ لَهذَمِ(٦)

وقولـه :

لقد طالَبتُها ،ولكُلِّ شيءٍ   إذا طالَتْ لَجاجَتُهُ ، انتهاءُ(٧)

---

(١) ٥: ٢٣، ص ٩٠.

(٢) ٥: ٤ ، ص ٨٤.

(٣) ٥: ٨ ، ص ٨٦.

(٤) ٥: ٢٠ ، ص ٩٠.

(٥) ١٢: ١١، ص ١٥٤.

(٦) ١: ٥٦ ، ص ٣٦.

(٧) ٣: ٩ ، ص ٥٦.

وقولـــه :

فإن تكُن النِّساءَ ،مخبّـــآت فحُقّ ، لكُلّ مُحْصَنةٍ ، هِـــداءُ (١)

وقولـــه :

وتُوقَدْ نارُكُم شَرَراً ،ويُرفَـــعْ لكُم ،في كُلّ مَجمَعةٍ ،لِـــواءُ (٢)

وواضح من الأبيات السابقة أنّ لفظ " كلّ " يمثّل شمولاً وعموم قاعدة أو حكمة مستخلصة من موقف خاص .

كمـــا كثرت إضافتها إلى الضمير خاصة ، مفيدة التوكيـــد،كمافي قوله :

سِيروا إلى خَيرِ قَيْسٍ ،كُلِّها ،حَسَباً ومُنْتَهى من يُريدُ المَجْد ،أو يفِدُ (٣)

وقولـــه :

بلِ اذكُرَنْ خَيرَ قَيْسٍ ،كُلِّها ،حسباً وخَيرَها نائلاً ،وخَيرَها خُلُقـــا (٤)

وقولـــه :

رَحْبُ الفِناءِ ،لو أنّ النّاسَ كلّهـمُ حلّوا إليه ،إلى أن ينقضي الأبَدُ (٥)

وقولـــه :

هَلّا سألتَ بَني الصَّيداءِ ،كلّهمُ: بأيِّ حَبْلِ جِوارٍ ،كنتُ أمتَسِكُ ؟ (٦)

---

(١) ٣ : ٢٨ ، ٦٥ .

(٢) ٣ : ٦٦ ،ص ٧٤ .

(٣) ٢٢ : ١٩ ، ص ٢٠٣ .

(٤) ٢ : ١٧ ، ص ٤٦ .

(٥) ٢٢ : ٢٣ ، ص ٢٠٣ .

(٦) ٩ : ٢٥ ،ص ١٣٥ .

وقوله :

فذلِكُمُ مقاطِعُ كُلِّ حَقٍّ ثلاثٌ ،كلُّهنَّ لكُم شِفاءُ(١)

ومن صور الإضافة في شعر زهير الإضافة إلى المصادر ،وهذه المصادر المضافة ـ غالباً ـ ما تقع والمراد التشبيه بها على حد ما في قوله تعالى ﴿ وترى الجِبالَ تَحسَبُها جامدةً وهي تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ ﴾(٢) ، أي : وهي تمرّ مرّاً كمرِّ السّحاب . وإجراء الإضافة هذا المجرى من الأساليب العالية الجزلة لأنّها تتضمن ـ غالباً ـ إيجازاً ، إذ المشبه ـ في الأكثر ـ يكون مصدراً محذوفاً مدلولاً عليه بالفعل . ثم هي من باب تشبيه المصدر بالمصدر ،أي مصدر الفعل بمصدر الفعل نفسه ، وكأنها من باب تشبيه الشيء بنفسه ، لولا هذه الإضافة التي تجعل المصدر المشبّه به نوعاً من مصدر الفعل قائماً بنفسه ،وتأمّل هذه الشواهد في قوله :

دَعْها ،وسل الهَمَّ عَنْك ، بجَسْرةٍ تنجو نَجاءَ الأخْدَرِيِّ ،المُفْرِدِ(٣)

وقولــه :

فشجَّ بها الأماعِزَ ،وهي تَهوِي هُوِيَّ الدَّلْوِ ،أَسْلَمها الرِّشاءُ(٤)

وقولــه :

يُحِيلُ،في جَدْولٍ ،تَحبُو ضَفادِعُهُ حَبْوَ الجَواري ،تَرَى في مائِهِ نُطُقا(٥)

---

(١) ٣ : ٤٣ ، ص ٦٧ .
(٢) النمل : ٨٨ .
(٣) ٢١ : ٥ ،ص ١٩٥ .
(٤) ٣ : ٢٢ ،ص ٦٠ .
(٥) ٢ : ١٥ ، ص ٤٣ .

وقولـــه :

فَتَمرُكُمْ عَرْكَ الرَّحا ،بِثقالِهـــا وَتلقَحْ كِشافاً ،ثمَّ تُنتَج ،فتُتئِـــمِ (١)

ومن صور الإِضافـة الشائعة عند زهير ، الإِضافةإِلى الأُم والأَب وما في حكمهما كالابن والأَهل ،كما في قوله :

أَمِنْ أُمِّ أَوفى دِمْنَةٌ ،لم تَكَلَّـــمِ بحَوماتةِ الدَّرّاجِ ،فالمُتَثلَّــــــمِ؟ (٢)

وقولـــه :

فَشَدَّ ،ولم يُفزِعْ بيوتاً ،كثيـــرةً لَدى حَيثُ أَلقَتْ رَحلَها أُمُّ قَشعَمِ (٣)

وقولـــه :

ولولا أَن يَنالَ أَبا طَريــــفٍ أَثامٌ ،مِنْ مَليكٍ ،أَولِحــــــــاءُ (٤)

وقولـــه :

وأَخلَفَتْكَ ابنةُ البَكريِّ ما وَعدَتْ فأَصبحَ الحبلُ ، مِنها ،واهياً خَلَقا (٥)

وقولـــه :

لَعَمرُكَ ،ما جَرَّتْ عَليهِم رِماحُهُم دَمَ ابنِ نَهيكٍ ،أَو قَتيلِ المُثلَّـــمِ (٦)

ولا شارَكَتْ ،في المَوتِ ،في دَمِ نَوفلٍ ولا وَهَبٍ ،مِنها ،ولا ابنِ المُحزَّمِ

---

(١) ١ : ٣١ ،ص ٢٧ .
(٢) ١ : ١ ،ص ١٦ .
(٣) ١ : ٣٧ ، ص ٢٩ .
(٤) ٣ : ٥١ ،ص ٦٩ .
(٥) ٢ : ٣ ،ص ٣٩ .
(٦) ١ : ٤٢ - ٤٣ ،ص ٣٢ .

وقولـه :

قلمّا أنْ تحمّلَ أهلُ ليلَـــى جَرتْ ، بَيني ،وبينَهمُ الظِّبــاءُ(١)

ومن الإِضافةالشائعة ، الإِضافةإلى الأماكن ،كما في قوله :

دانيةً من شَرَوْرَى ،أوقَفا أُدمٍ تَسعَى الحُداةُ ،علىآثارِهِم ،حِزَقا(٢)

وقولـه :

فأوردَها حِياضَ صُنَيبِعـــاتٍ فألفاهُنَّ ليسَ بِهِنَّ مــــاءُ(٣)

وقوله :

شَجَّ السُّقاةُ ،على ناجُودِها ،شَبِماً مِن ماءِ لينةَ ،لا طَرْقاً ،ولا رَنَقـا(٤)

وقولـه :

وعَرَّسُواساعـةً ،في كُثْبِأَسنُمَـةٍ ومِنهُمُ ، بالقَسُومِيّاتِ ،مُعتَـرَكُ(٥)

ومن الإِضافات : استعمال الموصوف مضافاً إلى صفته ،وقد وقع كثيراً في شعره ،وتأمّل قوله :

يَسيرون ،حتّى حَبَّسُوا ،عِندَبابِه ثِقالَ الرَّوايا ،والهِجانَ المَتالِيا(٦)

---

(١) ٣ : ٦ ، ص ٥٤ .

(٢) ٢ : ٩ ، ص ٤١ .

(٣) ٣ : ٢١ ،ص ٦٠ .

(٤) ٢ : ٧ ،ص ٤٠ .

(٥) ٩ : ٤ ،ص ١٢٨ .

(٦) ٢٣ : ٢٥ ،ص ٢١٢ .

وقولـه :

كأنَّ رِيقَتَها ،بَعدَ الكَرَى ،اغتَبَقَتْ مِن طَيِّبِ الرّاحِ ،لمّا يَعْدُ أنْ عَتُقا (١)

وقولـه :

وَمَن يَلْتَمِس حُسْنَ الثَّناءِ ،بمالِهِ يَصُن عِرضَهُ ،من كُلِّ شَنعاءَ،مُوبِقِ (٢)

وقولـه :

وَمَن يُوفِ لا يُذْمَمْ ،ومن يُفْضِ قَلبُهُ إلى مُطمَئِنِّ البِرِّ لا يَتَجمْجَـــمِ (٣)

وقولـه :

فذَرْوةٌ ،فالجِنابُ كأنّ خُنَّسَ الذّ ـعاجِ الطّاوياتِ ،بها ،المُلاءُ (٤)

وقوله :

في عانَةٍ ،بَذَلَ المِهادُ لَهـا وَسْمِيَّ غَيثٍ ،صادِقِ النَّجْـــمِ (٥)

وقولـه :

ولولا حَبْلُهُ لَنَزَلتُ أرضـــــاً عذابَ الماءِ ، طَيِّبَةً ثُراهـــــا (٦)

فقوله : " ثقال الروايا " أي : " الروايا الثقال " ،و " طيِّب الراح " أي : " الرّاح الطيب " ، و " حُسْن الثّناء " أيِ " الثناء الحسن " ،

---

(١) ٢ : ٦، ص ٤٠ .

(٢) ١٦ : ١٨، ص ١٨٠ .

(٣) ١ : ٥٤، ص ٣٦ .

(٤) ٣ : ٣ ، ص ٥٣ .

(٥) ٥٥ : ٤ ، ص ٢٨١ .

(٦) ٣٤ : ٥ ، ص ٢٤٣ .

و " مطمئن البر " أي : " البر المطمئن " ، و " خنس النّعاج " ، أي " النّعاج الخنس " ، و " وسِمِيّ غيث " ، أي : " غيث وسمي " ، و " صادق النجم " أي : " النجم الصادق " ، و " عذاب الماء " أي : " الماء العذب " .

ومزية ما جاء عليه التركيب في كلام زهير هو الإشارة إلى مزيد عنايته بالصفة ، وكأنّه عندما يقال " عذاب الماء " بدل قول " الماء العذاب " - تُولَى المذوبة فضل عناية ، وهكذا لو استقريت جميع الصور : " حُسن الثّناء " ، " مطمئن البر " ... الخ ، تجد مزيد عناية بالصفة ، ثم إن الإضافة هنا هي التي مكّنت من بيان مزيد العناية بالصفة ، ومزيد العناية بالصفة إنما كان بالتقديم ، إذ هم يقدّمون الذي بيانه أهم وهم بشأنه أعنى (١) ، وتقديم الصفة على الموصوف مما يأباه نظام العربية ، فليس منها أن يقال : " كأنّ الخنس النعاج " وكانت إضافة الصفة إلى الموصوف سبيلاً إلى المراد أعني مزيد العناية بالصفة ، ولعل هذه الحيلة الأسلوبية التي سوّغت بها العربية هذا الضرب من التركيب هي التي منحته قدراً من الجزالة ، وحسب المرء في ذلك أن يقدّم شيئاً على غيره لا يتقدم عليه البتة ، لأنّ الصفة تابعة للموصوف ومتأخرة عنه أبداً ، وإنما يؤتى بالصفة لأجل الموصوف ، وهذا الأسلوب يقدم الصفة ويجعلها بالعناية أولى فتطرق النفس بها قبل موصوفها .

---

(١) سيبويه (الكتاب) ١ : ١٤ - ١٥ .

ومن أنماط الإضافة الجارية في شعره ،الإضافة بـ " ذو " ،
وهي كلمة يُتوصّل بها إلى الوصف بالأجناس ،وقد وظّفها زهير توظيفاً
حسناً حين أراد بها العاقل ، وأضافها إلى معان غالباً ما تكون
مصادر ،مثل قوله :

وذِي خَطَلٍ ،في القَولِ ،يَحسِبُ أنَّه مُصيبٌ ،فما يَلمِمْ به فهْوَ قائلُهْ (١)

فـ " ذي خطل " ـ والخَطَلُ : كثرة الكلام وخطؤه ـ غير قولك
" رجل خَطَل " ؛ لأنّه في " ذي خطل " كأنّه جعل الخطل مصاحباً
له ملازماً وكأنه من سجاياه ؛ فالصفة التي تضاف إلى " ذي " صفة
ثابتة راسخة في المذكور ،وتأمّل الإضافة بطريق آخر مع " أخ " في
قوله :

أَخِي ثِقَةٍ ،لا تُهلِكُ الخَمرُ مالَهُ ولكنّهُ قد يُهْلِكُ المالَ نائلُهُ (٢)

فـ " أخي ثقة " غير قولك " ذو ثقة " على الرغم من أنّ الأسلوب
بالإضافة في القولين ، وهما غير قولك : " واثق " أو " موثوق به "
لأنّ " أخي ثقة " جعلت آصرة ورحماً بين من يتحدث عنه والثقة ،
وهذا طريق آخر لأداء المعنى ،وإذا كان " ذي خطل " يفيد الصحبة
والملازمة فإنّ الأخوة تفيد نسباً وصهراً .

---

(١) ٧ : ٣٢ ،ص ١١١ .
(٢) ٧ : ٣٨ ،ص ١١٣ .

وقولـه :

وذِي نَسَبٍ ناءٍ ، بَعيدٍ ،وَصَلْتَهُ بمالٍ ،وما يَدْري بأنَّك واصِلُـه (١)

وقولـه :

ولَيسَ مانِعَ ذي قُرْبَى ،ولا نَسبٍ يوماً ،ولا مُعْدِماً من خابطٍ،وَرَقا (٢)

وقولـه :

ولا تُكْثِر ،على ذي الضِّغن ،عَتْباً ولا ذِكْرَ التَّجَرُّمِ ،للذُّنُـوبِ (٣)

فـ " ذي الضِّغن " (٤) هو الملازم للضِّغن المصاحب له ، وفرق بين قولك : " هو ضِغْن " وقولك " هو ذو ضغن " كالفرق بين " هو عدل " و " هو ذو عدل ".

وقد يراد بـ " ذي " غير العاقل ،فتضاف إلى ما هو من صفته ،مثل قـوله :

بِذي مَيعةٍ ،لا موضع الرُّمحِ مُسْلِمٌ لبُطْءٍ ،ولا ما خَلفَ ذلكَ خاذِلُهْ (٥)

وقد يراد بها الأماكن ،فتضاف إلى أسمائها ،كما في قوله :

---

(١) ٧ : ٤٠ ،ص ١١٣.

(٢) ٢ : ٢٩ ،ص ٥٠ .

(٣) ٣٦ : ١ ، ص ٢٤٦.

(٤) " ضغن : يدل على تغطية شيءٍ في ميل واعوجاج ،ولا يدلُّ على خير. من ذلك الضِّغن والضَّغن : الحقد . وفرس ضاغن ، إذا كان لا يُعطي ما عنده من الجرى إلا بالضَّرب . ويقال : ضَغِن صدر فلانٍ ضِغْناً وضَغَناً . " ابن فارس (معجم مقاييس اللغة) ٣ : ٣٦٤.

(٥) ٧ : ٢٩ ،ص ١١٠.

" المَيْعَةُ : النّشاط . والمَيعةُ هـهنا : الدّفعة من السَّـيرِ ...

===

قامت ،تبدّى بذي ضالٍ ،لتحزُنَني ولا مَحالةَ أنْ يَشتاقَ مَن عَشِقا (١)

وقوله :

أمن آلِ لَيلَى عَرفْتَ الطُّلُولا بذى حُرُضٍ ،ماثِلاتٍ ،مُثُولا ؟ (٢)

وقوله :

إنّي،لِما استودَعْتني، يوم ذِي غَدَمٍ راعٍ ،إذا طالَ بالمُستودَعِ الأمَدُ (٣)

وتجدر الإشارةإلى أنّ بعض قوافي زهير كانت تلتزم الإضافة ،

مثل قافيته :

صَحا القلبُ عن سلمى ،وأقصَر باطِلُهْ وعُرِّي أفراسُ الصِّبا ،ورَواحِلُه (٤)

وقافيته :

وبَلْدَةٍ ،لا تُرامُ ، خائفةٍ زَوراءَ ،مُغْبَرَّةٍ جَوانِبُها (٥)

=== لا موضع الرمح ، يعني : الكاثبة ، وهي موضع الرمح قدام القَرَبُوسِ ... وقال أبو عبيدة : " لا موضع الرمح مُسْلِمُ " يعني : الطريدة التي يطلبها من الوحش لا تفوته" ص ١١٠ .

(١) ٢ : ٤ ، ص ٣٩ .

(٢) ١١ : ١ ، ص ١٤٦ .

(٣) ٢٢ : ٦ ، ص ٢٠٢ .

(٤) ٧ : ١ ، ص ١٠١ .

(٥) ٢٠ : ١ ، ص ١٩١ .

إنّ العرض السابق ، وإنْ لم تبرز دلالة الإضافة على التعريف فيه فإنّه أدرج بياناً لطبيعة تتابع الإضافة عنده من غير نظر إلى تعريف ، وقد بيّنت الدّراسة تكاثر استعمال لفظة " كل " مضافة إلى النكرات خاصة ، ووضعت الدراسة ما يشبه الضابط الغالب الذي يحكم استعمالها وهو : اقتناص الحقيقة العامة من المواقف الجزئية الخاصة ،ثم كانت الإضافة بها إلى الضمير خاصة من المعارف ، وكانت دلالتها على التوكيد في ذلك واضحة ،كما ذكرت الدّراسة أنماطاً أُخرى من الإضافات الشائعة عنده كإضافة الصفة إلى الموصوف ، وهي طريقة عالية في أداء المعاني لمزيد العناية بالصفة ،والإضافة إلى المصادر المراد بها التشبيه في الغالب ، والإضافة إلى الأُم والأب وما في حكمهما كالابن والأهل ،والاضافة بـ " ذو " إلى معانٍ تكون في الغالب مصادر ،أوإضافتها إلى غير العاقل ،أو إلى الأماكن . كما التزمت بعض قوافي زهير - على قلة - الإضافة .

خامساً : التنكيـــر :

حملت النكرات عند زهير معاني إضافية ،بيد أنّه في استعمالاته لها لم يصل بها في كثير من الحالات إلى مستوى الشواهد التي ساقها البلاغيون لهذه الخصوصية ، وهي في كتب البلاغة قليلة معدودة ،ولكنّها ظاهرة الدلالة .

لحظ تكاثر التنكير عنده حين يتحدث عن الناقة والبعير ، في مثل قوله :

هل تُبلِغَنّي ،إلى الأخيارِ ،ناجيةٌ تخدى كوَخْد ظليمٍ ،خاضبٍ ،زَعِرِ؟ (١)

فالبيت يكاد يكون مبنياً كلّه على التنكير ،والمراد ناقته التي يعرفها ، وإنّما نكّرها ليشير من وراء هذا التنكير إلى تعظيم هذه الناقة ، وأنّها في بابها ذات صفة توشك ألاّ يُحاط بها ،وتنكير " ظليم " - وهو ذكر النعام - أراد به ظليماً ذا وصف خاص أنّه خاضب زعر .

وقولـــه :

كَلَّفْتُها عِرِساً ،عُذافِـــرةً ذاتَ هِبابٍ ،فَعْماً مَناكِبُهـــا (٢)

تأمل فيه النكرات : " عِرساً " أي : ناقةً شديدة ، و " عُذافِرة " أي : ضخمة شديدة الخلق ، و " ذات هِباب " أي : ذات نشاط،

---

(١) ٢٩ : ١ ، ص ٢٣٢ .

(٢) ٢٠ : ٤ ، ص ١٩١ .

و " فعماً مناكبها " يريد : ضخمة المناكب(١) .

وقولـه :

إنّي لتُمدِيني ،على الهَمّ ،جَسْرةٌ تَخُبُّ بوصّالٍ ،صَرُومٍ ،وتُعنِـقُ(٢)

التنكير في " جسرة " وهي : الناقة الجسور على السفر ، و " وصّال " أي : برجل يصل في موضع الوصل ،ويصرم في موضـع الصّرم (٣) ، و " صروم " ،أراد به نفسه ، وقد بنى الكلام على التجريد ، وأراد شخصاً مبهماً أمره في هذه الصفة ، مع التعظيم والتفخيم لأمر هذه الجَسْرة .

وقولـه :

فلمّا رأيتُ أنّها لا تُجِيبُنِـي نَهضتُ إلى وَجناءَ ،كالفَحلِ ،جَلْعَدِ(٤)

« وجناءُ : ناقةٌ غليظةٌ ضخمة الوجنات. وَجلعدٌ : شديدةٌ »(٥) .

والتنكير فيها منبئ عن تعظيم وتفخيم هذه الناقة ، وأنها ذات صفـة عظيمة في بابها .

وقولـه :

وهَمٍّ قد نَفَيتُ ،بأَرْحَبِـيٍّ هِجانِ اللّونِ ،مِن سِرٍّ ،هِجانِ(٦)

التنكير في " أرحبي " ـ وهو البعير النجيب ـ المراد به تعظيمه .

---

(١) ص ١٩١ .
(٢) ١٨ : ١ ، ص ١٨٣ .
(٣) ص ١٨٣ - ١٨٤ .
(٤) ١٤ : ٥ ،ص ١٦١ .
(٥) ص ١٦١ .
(٦) ٤٨ : ١٠ ، ص ٢٦٤ .

كما نلحظ تكاثر التنكير حين يتحدث عن الفرس ، كما في قوله :

ولقد غَدَوتُ ،على القَنيصِ ، بسابحٍ مِثلِ الوَذِيلةِ ،جُرشُعٍ ، لأمِ (١)

قال : " سابحٌ " - وهو فرس جوادٌ خفيف - وفي التنكير تعظيم له ،ومثله " جُرشع " وهو : الضخم الجبين ، و " لأمِ " وهو: الملتئم الشديد .

وقوله :

صَبَحتُ ،بممسُودِ النَّواشِرِ، سابحٍ مُمَرٍّ ،أسِيلِ الخَدِّ ،نَهْدٍ مَراكِلُهْ (٢)

تكرّر لفظ "سابح " مُنكّرا . وهو كذلك في كل المواطن التي استخدمه فيها زهير .

وقوله :

وشُمْثٍ ،مُعطّلةٍ ،كالقِداحِ غَزَوْنَ مَخاضاً ،وأُدِّينَ حُولا (٣)

نكّرها ، أراد بذلك أنها ذات صفة عظيمة أو ذات صفة توشك ألا يحاط بها ، ومثلها " مُعَطّلةٍ " .

---

(١) ١٧ : ٦ ، ص ١٨٢ .

(٢) ٧ : ٩ ، ص ١٠٤ .

(٣) ١١ : ٦ ، ص ١٤٧ .

وهكذا فالتنكير فيما سبق يفيد شيئاً زائداً عن أصل الوضع ، ربما لا يواتى إلا إذا أعيد النظر وحقق .

وثمة ملحظ مهم ، وهو أن الكلمة الواحدة قد تتصرف في أبيات متتالية أو متفرقة بالتعريف والتنكير ، وتكاد هذه الظاهرة تكون محصورة في ألفاظ " الطلل " و " المنازل " و " الدّيار " . انظر قوله في وصف الدّيار :

لِمَن الدِّيارُ ،غَشِيتَها ،بالفَدْفَدِ ؟ كالوَحيِ ،في حَجَرِ المَسِيلِ ،المُخْلِدِ (١)

دارٌ ،لسلمى ،إِذْ هُمُ لكَ جيرةٌ وإخالُ أنْ قد أَخْلَفَتْني مَوعِدِي

حيث عرّفها ،لأنه غشيها وعهدها ،ولما وصفها بالوحي رجع فنكّرها في قوله : " دار لسلمى " .

وقوله :

ديارٌ لَها ، بالرَّقْمَتَينِ ،كأنَّها مَراجِعُ وَشْمٍ ،في نَواشِرِ مِعصَمِ (٢)

---

(١) ٢١ : ١-٢ ،ص ١٩٤ .

(٢) ١ : ٢-٦ ،ص ١٦-١٩ .

بِها العينُ والآرامُ ، يَمشِينَ خِلفَةً   وأطلاؤُها يَنهَضْنَ ،من كلِّ مَجثَمِ

وَقفتُ بها ،من بَعدِ عِشرينَ حِجَّـةً   فلأْياً عَرفتُ الدّارَ ،بَعدَ تَوهُّمِ

أَثافِيَّ سُفْعاً ،في مُعَرَّسِ مِرجَـلٍ   ونُؤْياً ،كَحوضِ الجُدِّ ،لم يتثلّمِ

فلمّا عَرفتُ الدّارَ قُلتُ لِرَبْعِها :   ألا انعِمْ صباحاً ،أيُّها الرَّبْعُ ،واسلَمِ

«النواشر : عَصَبُ الذّراع . الواحدة ناشِرةٌ . والمِعصَمُ : موضع السّوار ... ولأْياً : بعد جُهدٍ وبُطءٍ ... والمِرجلُ : كلّ قدرٍ يُطبخ فيها ،من حجارةٍ أو خزفٍ أو حديدٍ أو نحاس . والسُّفعةُ : ســوادٌ تخلطه حُمرةٌ . والنُّؤْيُ : حاجز يُرفع حول البيت من تراب ،لئلّا يدخل البيتَ الماءُ من خارجٍ . لم يتثلّم ، يعني : النُّؤيَ قد ذَهب أعلاه ولم يتثلّم ما بقي منه .» (١)

نكّر الدار أولاً، لأنّه أول ذكر لها وهي كمراجع وشـم ،فلمّـا وقـف عليها وتأملها عرفها " فلأْياً عرفت الدار " وهكذا جاءت معرفة. وهنا ملحظ دقيق ،وهو أنّه لما وصف الدار المنكرة في " ديارٌ لها " وشبهها بمراجع الوشم - جاء بالمشبّه به كله نكرات " مراجع وشـم في نواشر معصم " ،وكأنّه يوحي بأنّه وشم تائه في نواشر معصـم تائه .

وقـولـه :

قِفْ بالدِّيارِ التّي ،لم يَعْفُها القِدَمُ   بَلَى ،وغَيَّرها الأرواحُ ، والدِّيَمُ (٢)

---

(١) ص ١٦-١٨ .

(٢) ٨ : ١-٣ ، ص ١١٦ .

لا الدّارَ غيَّرَها بُعدُ الأنيس ،ولا بالدّارِ ،لو كلّمَتْ ذا حاجةٍ ،صَمَمُ

دارٌ لأسماءَ ، بالغَمْرَينِ ،ماثلةٌ كالوَحي ،لَيسَ بها من أهلِها أرِمُ

" لم يَعفُها : لم يَدرُسْها ... والدِّيَمُ : جمع ديمةٍ :مطر يدوم مع سكونٍ يوماً أو يومين ... والماثلُ : المنتصب . والماثلُ : اللاطئ ، وهو الذاهب الذي لا يُرَى له شَخصٌ ... والوحي : الكتابُ".(١)

تأمّل حكمة زهير : لمّا ذكر أنّ الديار لم يعفها القدم جاء بها مُعرَّفةً ، وكأنّه يُشعِرُ بذلك أنّها معلومة له ،ولا يصور رجوعه بقوله :

* بلى ،وغيّرها الأرواح ،والدِّيم *

فذلك مذهب آخر ،ثم إنه قال : " وغيّرها الأرواح والدِّيم " والتغير غير العفاء ، وعليه جاء قوله في البيت الثاني : " لا الدار غيّرها .. " ،فإذا كانت - أي الدار - لم يغيرها بُعد الأنيس فالأشبه بها أن تكون معلومة ، ثم في البيت الثالث رجع إلى الطريقة الغالبة وهي تنكير الدار حين يشبهها بالوحي .

وقوله في حديث الطلل ،بالتنكير :

لمن طَلَلٌ ، بِرامةَ ،لا يَريمُ ؟ عَفَا ، وخلالهُ عهدٌ ،قديمُ(٢)

وهو مناسب جداً ،فالطلل قد عفا وخلاله عهد قديم .

---

(١) ص ١١٦ .

(٢) ١:١٢ ، ص ١٥٢ .

وقولـه :

لِمَنْ طَلَلٌ ،كالوَحْيِ ، عافٍ مَنازِلُه ؟ عَفا الرَّسُّ مِنهُ ،فالرَّسيسُ ، فعاقِلُه (١)

وهو نفس المذهب السابق حين يشبه الطلل بالوحي .

وقوله - من قصيدة زعم الأصمعيّ أنّها مُولّدة - مُعرَّفاً :

أَمِن آلِ لَيلَى ،عَرَفتَ الطُّلُـــولا بذِي حُرُضٍ ،ماثلاتٍ ،مُثُـــولا ؟ (٢)

"الطلل : ما شَخَصَ . ماثلاتٍ : مُنتصباتٌ . ومثولا : انتصاباً ." (٣)

ناسب التعريف ،لقوله : " ماثلاتٍ " مثولا " و "عرفت " ، فضـلاً

عن أنّه يسأل عن الطلول التي يريد السوءال عنها .

وقوله ، في حديث المنازل مُعرّفاً :

كم للمَنازِلِ ،من عامٍ ،ومِن زَمَنِ ؟ لآلِ أسماءَ ، بالقُفَّينِ ، فالرُّكُنِ (٤)

ثم قوله ، مُنكّراً في موضع آخر:

لِسَلمَى ،بشَرقيّ القَنانِ ،مَنـــازِلُ ورَسْمٌ ،بصَحراءِ اللُّبَيَّينِ ،حائـلُ (٥)

فالدار والطلل والمنازل ،ألفاظ وردت معرّفة في موضع ،منكّرة

في آخر ،وحين تكون نكرة تجد في الكلام ما يدل على أنّ الشاعر يعرفها

---

(١) ٧ : ٥ ، ص ١٠٢ .

(٢) ١١ : ١ ، ص ١٤٦ .

(٣) ص ١٤٦

(٤) ٦ : ١ ، ص ٩٦ .

(٥) ٢٤ : ١ ، ص ٢١٣ .

مع ذكره لها مُنكَّرةً ، وذلك بالإشارة إلى صاحبته ، مثل قوله : " دار لسلمى " و " دار لأسماء " و " ديار لها " و " لسلمى منازل " . وقد آثر الشاعر بقاء مثل هذه الألفاظ نكرات في مثل هذه السياقات ، لأنَّ وراء التنكير إشارة إلى خفائها ، ولذلك تراه يشبهها مرة بمراجع الوشم وأخرى بالوحي .

ومن لطيف ما ورد فيه اللفظ مُعرّفاً مُنكّراً في البيت الواحد ، قوله :

عَفا عَامَ حَلَّتْ : صَيفُهُ ، ورَبِيعُهُ وعامٌ وعامٌ ، يَتبعُ العامَ ، قابِلُ (١)

التنكير في " عام وعام " المراد به تكثير الأعوام ، فهو يتحدث عن تتابع السنين والحقب على هذا الطلل ، وتعريف " العام " راجعٌ إلى أصل لغوي ، وهو أنَّ هذا العام الذي مضى يتبعه عام صار بعد ما مضى معروفاً ، أي : اكتسب التعريف بهذا المعنى ، وهذه هي سليقة اللغة في أداء التعريف بعد التنكير ، لأنَّ اللفظ إذا جاء نكرة ثم جاء معرفة كان المراد بالمعرف هو المنكر قبله ، كما في قوله تعالى ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِليكُم رَسُولاً شَاهِداً عَليكُم كَمَا أَرْسَلْنَا إِلى فِرعَونَ رَسُولاً ﴾ فَعَصَى فِرعَونُ الرّسولَ فأَخَذنَاه أَخْذاً وبِيلاً ﴾ (٢) ، فالرسول المعرَّف في قوله تعالى ﴿ فَعَصَى فِرعونُ الرَّسُولَ ﴾ هو الرسول المنكَّر في قوله تعالى ﴿ أَرْسَلنَا إِلى فِرعَونَ رَسُولاً ﴾ . وكذلك العام المعرّف في قوله : " يتبع العام قابل " ، هو العام المنكّر في قوله : " وعامٌ وعامٌ " .

---

(١) ٢٤ : ٢ ، ص ٢١٣ .

(٢) المزمل : ١٥ - ١٦ .

ولعلّه قد ظهر في استخدام زهير لطريقة التنكير أنّها لم تكن في مستوى الشواهد التي ساقها البلاغيون في هذا الباب على قلّتها ، إلا أن الدراسة لحظت تكرر بعض الكلمات منكّرة في موضع معرّفة في آخر تكرّراً متتابعاً أو متفرّقاً في سياق واحد ، والكلمات هي : " الطّلل " ، و " الدّيار " ، و " المنازل " ، وقد تلمست ما يشبه الضابط الذي يحكم مجيئها معرفة منكرة ، وهو ذكر الشاعر عند تنكيرها ما يعرفها وهو اسم الصاحبة ، فضلاً عن أنّه يُنكّرها مشيراً إلى خفائها . كما لحظت الدراسة تكاثر التنكير حين يصف الناقة والجمل والفرس غالباً .

الفصل الثاني

التوكيد

طرائقه ودواعيه في شعره

- التوكيد بإنّ
- التوكيد بإنما
- التوكيد بالنفي والاستثناء
- التوكيد بقد
- التوكيد بالحروف الزائدة
- التوكيد بأمّا
- التوكيد بحرف التنبيه « ألا »

التوكيـــــد

طرائقـه ودواعيـه في شـــعره

بحث أساليب التوكيد ودواعيه من الموضوعات التي تحتاج إلى مراجعة ونظر ؛ ذلك أنّ مقررات الدّراسة البلاغية حول دواعي التوكيـــد المثّلة في كتاب (الإيضاح) وفي بعض الشروح تميّزت بالتعميـم ، ثم إنّها تحدثت عن التوكيد في إطار أحوال المخاطب المنكّر وغير المنكّر التحقيقي والتنزيلي كثيراً ،وهي أشيع مقررات هذا الباب الذي فتحـه الشيخ عبدالقاهر (١) حين ذكر قصة الكندي المتفلسف مع أبي العباس إلا أن ارتباط التوكيد بالإنكار ليس ارتباطاً دائماً - كما قد يبدو - عند البلاغيين ،ففي كلام بعضهم إشارات إلى أنّ للتوكيد مقامات ليس لها صلة بالإنكار البتة ، ومن ذلك ما قاله الخطيب القزويني في باب الإطناب بالإيضاح بعد الإبهام حين عقّب على قوله تعالى ﴿ويَسِّر لي أمْري﴾ (٢) : " والمقام مقتضٍ للتأكيد ،للارسال المؤذِن بتلقي المكاره والشدائد " (٣) فالمقام مقام تأكيد لصعوبة الأمر ولشدته وقد كُلِّف موسى عليه السلام بالرسالة ،وهكذا ،ومن مثل هذه القبسات توصل الدراسة لكشف الاقنعة عن زواياها المحجبة . كما أشار البلاغيون إلى التوكيد الناظر إلى أحوال المتكلم حين يجيء الخبر على غير ما يعتقده ، فإنّ أداة التوكيد " قد تدخل للدلالة على أنّ الظّن قد كان منك أيها المتكلم في الذي كان أنّه لا يكون " (٤) ،وقد ذكروا قوله تعالى حكاية عن أمّ مريم رضي اللّه عنها ﴿ قالت ربِّ إنِّي وضَعْتُها أُنثى واللّه أَعْلم بما وَضَعَتْ ﴾ (٥) ،

---

(١) (دلائل الإعجاز) ٣١٥ .

(٢) طه : ٢٦ . (٣) (الإيضاح) ١ : ٣٠٢ .

(٤) عبد القاهر الجرجاني (دلائل الإعجاز) ص ٣٢٧ .

(٥) آل عمران : ٣٦ .

وقد شرح العلاّمة سعد الدين التفتازاني داعية التوكيد في هذه الآية بأنه كان " إظهاراً للتحسر على خيبة رجائها و عكس تقديرها والتحزن إلى ربها لأنها كانت ترجو وتقدّر أن تلد ذكراً "(١) .

وهذا الكلام معتبر فيه حال المتكلم ، كما ترى .

إلا أنّ التوكيد يأتي لأغراض كثيرة جداً ؛ فقد يكون لتقرير المعنى في نفس المخاطب وتثبيته وإن كانت خالية من كل أثر للإنكار أو الشك ، وقد يكون لتحقيق المعنى عند المتكلم وهو يريد أن يُوطّن نفس المخاطب لتلقيه وقبوله ، وقد يكون مظهراً لتعلق النفس بالخبر واهتمامها به وأنّه جدير عندها بالتقوية والتقرير وأنّ المخاطب متقبل له غير منكر ولا مدافع ، وقد يكون لمواجهة تطلّعات النفس وحسم آمالها وأطماعها ، كما قد يكون لتقرير وعد الله ، وقد يكون إظهاراً لمعتقد النفس وإبرازاً له لتزداد النفس يقيناً به (٢) . وفي كتب التفسير إشارات جيّدة لأغراض دقيقة ومتنوعة للتوكيد .

ثم إن بحث التوكيد يقتضي الحديث عن مسألة أخرى تتعلق بمعرفة الأدوات اللغوية أو الطرائق اللغوية التي تفيد التوكيد .

ولذا ، فالبحث يتجه إلى تجلية أمور ثلاثة ، هي :

١ - الأسرار المعنوية لطرائق التوكيد عند زهير .

----

(١) (المطول) ص ٤٣ .

(٢) انظر : د . محمد أبو موسى (البلاغة القرآنية في تفسير الزّمخشري وأثرها في الدراسة البلاغية) ص ٣٤٢ - ٣٤٤ ، (خصائص التراكيب) ص ٥٧ - ٦٤ .

٢ - تفصيل ما أجمله البلاغيون في دواعي التوكيد من خلال نماذج شعره .

٣ - تلمس دواعٍ للتوكيد في شعره ليست في مقررات البلاغيين .

وسوف تدمج في هذه النقاط دراسة الوسائل اللغوية التي استعملها زهير في هذا الباب .

التوكيد بإنَّ

مواقعها - دواعيها

هناك معان وأسرار متعددة ومتنوعة ترتبط بـ" إنَّ " ، وقد ذكر عبد القاهر : "وليس الذي يعرض بسبب هذا الحرف من الدقائق والأمور الخفية، بالشيء يُدْرك بالهوينا " (١).

وقد وقعت " إنَّ " في شعر زهير مواقع مختلفة ،وكانت أقرب مواقعها وأقلّها تركيباً حين تراها مفردة في الجملة ،كما أتت - في الغالب - مقترنة بخصوصيات أسلوبية أخرى ، منها مجيئها مصحوبة بالمسند إليه المقدّم على الخبر الفعلي ،كما في قوله :

إنَّ الخَلِيطَ أَجَدَّ البَينَ ،فانفَرَقا   وعُلِّق القَلبُ ،من أسماءَ ،ما عَلِقا (٢)

" الخليط ههنا : المخالط لهم في الدار ،وهم الذين يخالطونك . ويقال : قد جدَّ فلان في أمره وأَجَدَّ ، إذا أخذ فيه ، فهو جادٌّ ومُجِدٌّ . وانفرقَ : انقطع . ويقال : صَدَرت فِرْقتُه عن فرقتنا . والخليط يكون واحداً وجمعاً . وعُلِّق العَلاقة التي عَلِق ، فقد نَشِب . ويقال : بفُلانٍ عَلاقةٌ من فلانة ،وعَلَقٌ من فلانة (٣)."

والشاعر يتوجع ويظهر الشجى ،لأنّ مفارقة المخالطين جاءت على خلاف ما يتوقع ،وكأنَّ نفسه تنكر هذا الأمر ،وهذا التوكيد منبىء في ذات الوقت عن قوة إحساسه بهذا الفراق فأكّده بعنصرين من عناصر التوكيد : " إنَّ " والمسند إليه المقدّم على الخبر الفعلي " إنّ الخليط أجَدَّ البين ".

---

(١) (دلائل الإعجاز) ص ٣٢٧ .

(٢) ١ : ٢ ، ص ٣٨ .   (٣) ص ٣٨ .

وجاءت مصحوبة بلام التوكيد ،كما في قوله يمدح سنان بن أبي حارثة المُرّيّ :

وإنّي لمُهْدٍ ،مِن ثَناءٍ ،ومِدْحَةٍ إلى ماجِدٍ ،تُبْغَى إليه الفَواضِلُ(١)

أتى التوكيد في مقام المدح ،وهوما يكثر فيه ،بإن ولام التوكيد مفيداً تأكيد عزمه على إهداء ثنائه ومدحه إلى سنان ، ووراء تأكيد العزم هذا إشعارٌ بأحقية الممدوح بهذا المدح ،وقد أومأ إلى ذلك بقوله " تبغى إليه الفواضل " أي : تتطلب وتقصد إليه الصنائع الجسام الفاضلة ،وفيه أيضاً دلالة على تعظيم وتفخيم مدائحه ،بقوله "من ثناء ، ومدحة " منكّرا في الأمرين ،فهو ثناء أي ثناء ،ومدح أي مدح .

وقوله :

وما الفَضلِ إلالامرىءٍ ، ذِي حَفيظَةٍ مَتَى تَعْفُ عن ذَنب امرىءِ السَّوءِ يَلْجَجِ(٢)

وإنّي لطَلاّبُ الرِّجالِ ،مُطَلَّبُ ولَستُ بِمَثْلُوجٍ ،ولا بِمُعَلْهَجِ

" الحفيظةُ : الغَضبُ... المثلوجُ : يقال : ثُلِجَ فوءادُه ، إذا كان بليداً . وثُلِجَ بخيرٍ أتاه . والمُعلهَجُ : الأحمق ،ويقال : ابنُ الأَمة ، ويقال : الدَّعِيُّ(٣) . "

يذكر أن ذا الحفيظة لا يعفو عن ذنب امرىء السُّوء الذي ينبغي أن يعاقب ، قال هذا وقد أحس أنّه استهن واعتدي عليه وجرح في كبريائه وخلقه من قبل عُبيد بن أزنم وقال قبل ذلك :

---

(١) ٢٤ : ١١ ،ص ٢١٦ .

(٢) ٣٢ : ١٧-١٨ ، ص ٢٢٨ .

(٣) ص ٢٢٨ .

فلا تَحسَبَنّي ،يا ابنَ أَزْتَمَ ،شَحْمةً تَعجَّلها طاوٍ ،بشيٍّ مُلَهْوَجِ

ولذا أكد أنه طلّاب ثأر عند الرجال بإن واللام ومعهما صيغة المبالغة " طلّاب " لتأكيد هذا المعنى وأنّه ذو ترَةٍ عندهم ، وقال : " مُطلّب " أي: له نكاية في إعدائه وسطوة عليهم فهو يطلبهم وهم يطلبونه .

وقولـه :

إنّي لَمُرتَحِلٌ ،بالفَجر ، يُنصِبُني حتّى يُفرِّجَ ،عنّي ،هَمَّ ما أَجِدُ (١)

وفيه معنى الضيق ، فقد ألمَّ به ما ألمّ حتى عزم على الرحلة ليفرِّج عن نفسه همَّ ما يجد ، فأتت " إنّ " لتوكيد هذا المعنى ،وهو عَقْد عزيمته على الرحلة بسبب ضيقه وإحساسه بالكرب والضجر من الهم الجاثم على صدره ،وهكذا فإنَّ الرحلة كائنة منه لا محالة وهو عازم عليها عزماً لا ينحل .

ومثلها قوله :

إنّي لتُعدِيني ،على الهَمِّ ،جَسْرةٌ تَخُبُّ بوَصّالٍ ،صَرومٍ ،وتُعنِقُ (٢)

وجاءت " إنّ " واقعة في جواب الشرط ، كما في قوله :

أَكُفُّ لِساني ،عن صَديقي ،وإن أُجأْ إليه فإنّي عارِقٌ ،كُلَّ مَعرَقِ (٣)

" يقول : أتَعَرَّقه في الهجاء ،كما يتعرّق اللحمُ عن العظم (٤) . "

---

(١) ٢٢ : ٢٦ ،ص ٢٠٤ .

(٢) ١٨ : ١ ،ص ١٨٣ .

(٣) ١٦ : ١٣ ،ص ١٧٨ .

(٤) ص ١٧٩ .

والبيت قوامه مراعاة لحرمة الصاحب ،وهذا خلق رجل كريم حكيم كزهير، إلا اذا أُلجيء إلى ذلك فإنه حينئذ يُعرِّى عظمه ويمزق لحمه ، أراد الهجاء المقذع ،ويلحظ استعماله لأداة الشرط " إنْ " التي هي للأمر غير المتوقع وكأنّه يستبعد اللحظة التي يُلجأ فيها إلى أن يُعْمِل لسانه في الصاحب ،والتوكيد في " فإنِّي عارق كل مَعرَقٍ " ليس عن طريق استعمال الأداة فحسب ،وإنّما معه استعمال الألفاظ ، فـ "عارق" تعني تعرّق اللحم عن العظم ،وهو كلام دال على فرط الهجاء و على شدة إقذاعه وأنّه ينال من صاحبه ما كان يكره نواله . جاء الكلام إذاً ليؤكد إصابته من الصاحب و يحقق به أمراً ربما ظنَّ أنّه لا يكون منه ،لأنّه قال أولاً : " أكُفُّ لساني " ولم يقل ـ مثلاً ـ "أسكت عن الصاحب " إشارة إلى أنَّ بين فكّيه لساناً قادراً على أن ينال ما يريد أن يناله ولكنه يكفه ويجبه .

وجاءت " إنَّ " مسبوقة بعناصر تشويق وإثارة ولفت وانتباه ، وقد تباينت عناصر الإثارة والتشويق هذه ، فمنها : اجتماع الأمر والنهي معاً ،كما في قوله :

فارْدُدْ يَساراً ،ولا تَعْنُفْ عليَّ ،ولا تَمعَكْ بِعرضِكَ ، إنَّ الغادِرَ المَعِكُ (١)

يريد : أنَّ الماطل غادِرٌ (٢) . وقوام البيت رد يسار ، فقوله : " لا تعْنُف عليَّ " بعدم ردِّ يسار ، و " لا تمعك بعرضك " بعدم ردّ يسار أيضاً ، وقد كان الطلب بلغة تتعالى ،فقوله : " اردد يساراً " مطلب عادي ، و " لا تعنف عليّ " فيه نفثة من غضب زهير على مخاطبه

---

(١) ٩ : ٢٨ ، ص١٣٦ .

(٢) ص ١٣٦ .

وأنه يرفض إساءته ، و " لا تمعك بمرضك " يعني أنَّ الذي كان منك ليس عنفاً عليَّ فحسب ،وإنّما هو أيضا اساءة منك إلى نفسك ، ثم قال : " إن الغادر المعك " توكيد لعلّة النهي الذي أثار تساؤلاً في النفس المتلقية عن علته فأتت الجملة المؤكدة لترد على هذا التساؤل مصدّرة ب " إنَّ " زيادةً في توكيد العبارة ، مضافاً معها اسمية الجملة .
وقد نبّه البلاغيون إلى مثل هذا التوكيد ، وأنَّه يكون عقب الأوامر والنواهي ، وأنّه كثير في التنزيل جداً (١) ،وأنّه يقتضي سوء الأقدّراً قبله عن علته . (٢)

ومن عناصر التشويق السابقة لإنَّ : الأمر ـ فقط ـ كما في قوله :

فحُلّي ،في ديارِك ،إنَّ قوماً   متى يَدَعُوا دِيارَهُمْ يَهُونُوا (٣)

يأمر بني تميم بأن يبقوا في ديارهم ،والحلول يعني القرارة ، وأمر كهذا يخالف ما همَّ به القوم ،فأتى التوكيد يؤكّد علة هذا النصح وهو أنه ليس كل قوم بقادرين على الاحتفاظ بهيبتهم وكرامتهم إذا غادروا ديارهم ، وإنّما تبقى عزة الأقوام مع تنقلهم إذا كانوا ذوي بأس وقوة ، وتميم ليست كذلك . تأمّل قوله : " فإنَّ قوما " حيث جعل ذلك خاصاً بقوم ،وليس عاماً كقوله : " إنَّ الغادر المعك ".

وقوله :

أفيقا ،بَعضَ لومِكُما ،وقُولا   قصيدكما ،بما قد تعلَمانِ (٤)

---

(١) سعد الدين التفتازاني (المطول) ص ٥٠ .
(٢) (المصدر السابق) ص ٢٥٩ .
(٣) ١٠ : ١٣ ، ص ١٤٣ .
(٤) ٤٨ : ٥- ٧ ،ص ٢٦٣ - ٢٦٤ .

فإنّي لا يَغُولُ النّـأْيُ وُدّي ولا ما جاءَ ،من حَدَث الزّمانِ
وإنّي في الحُروبِ ،إذا تَلَظّتْ أُجِيبُ المُستَغِيثَ ،إذا دَعاني

وجاء التوكيد لبيان علة الأمر،
ويلحظ دخول الفاء على " إنّ " المؤكدة
للجملة الواقعة جواباً لسؤال عن سبب خاص ، ثم إنّ التوكيد في :
" فإنّي لا يغول ... " يحمل داعياً آخر ؛ ذلك أن النأي السحيق
وحدث الزمان الشأن فيهما أن يغتالا ما في النفوس من ودّ ،إلا أنهما
لا يغتالان ود الشاعر ،وذلك لما تميّزبه من صحة الطبع وصدق الود
ونقاء الفطرة ،وهذا أمر على خلاف العادة ؛فالبعد يغتال الودّ الذي
في الحنايا الضعيفة أمّا صحيح الطبع صادق الود فليس البعد
يوهن له ودّاً ،وهذا ما أراد زهير وصف نفسه به ،وأمّا العادة - في
الغالب - فقد جرت على أن المرء إذا ابتُلي بهذا النأي وفارق أصحابه
سلاهم ،وإذا ابتلي بهذه الأحداث ذهب ودُّه . وتأمّل استخدام
لفظ " يغول " وما فيه من معنى اغتيال النفوس وانتزاعها انتزاعاً وأن
هذا النأي وإن كان عند غير الشاعر غولاً يغتال فليس هو بفاعل له
ودّاً . ثم التعبير عن حوادث الدهر بـ " ما جاء من حدث الزمان "
وما فيه من إشارة إلى أن ثمة طوارق تطرق ونوائب تجيء . وكذا التوكيد
في " وإنّي في الحروب .. " يقول : إذا اشتدت الحرب وتلهّبت
وبلغت الذروة وصارت تحرق الناس - أجبت المستغيث إذا دعاني ،

وهذا معناه أنه ليس بمشغول بدفع الموت الزاحف عن نفسه فحسب ، وإنّما هو في فسحة من قوته وشجاعته حتّى أنَّه يجيب المستغيث إذا دعاه وقد كربه الرجال والفوارس . وهذا خروج عن المألوف كما ترى ، فالمرء إذا كربه أمر انصرف إلى نفسه وانشغل بها .

ومن العناصر ذات الاعتبار والتي تسبق التوكيد بإنَّ ،الاستفهام ، كما في قوله يعاتب أم كعب امرأته - من قصيدة لم يروها المفضّل:-

فِيمَ لَحَتْ ؟ إِنَّ لَوْمَها ذُعُـــرُ أَحميْتِ لوماً ،كأنَّه الإِ بَـــرُ (١)

" لَحتْ : لامت... أحميتِ ،يقول : لُمتِ لوماً كأنّه الإبرُ في الصّدر . ذُعرٌ : مُفْزِعٌ . وأحميتِ أي : جعلتِه حارّاً . (٢) "

هيّأ الاستفهام في " فيم لحت " للتوكيد في الجملة التالية ، والاستفهام إثارة وانتباه ،ثم هو سؤال عن سبب أن لحته . والتوكيد يشير إلى أنّ اللوم - الذي لا يعرف له علة - مُفزع إلى حدّ الذعر ، وهو تأكيد لإحساسه بهذا الأثر ورفضه وتبرّمه منه ،والاستفهام الانكاري المتقدم عن علة هذا اللوم هو المنبىء عن التبرم والضيق به . وتأمّل كيف قطع الكلامَ والتفت في قوله " أحميتِ لوماً " وكأنَّ ضجره قد بلغ الغاية فاتجه إلى هذه الصاحبة اللائمة لائماً ومعاتباً وملايناً ومخاشناً . كلّ ذلك تومىء به ولا تصرح هذه الجملة التي قطع عندها والتفت .

---

(١) ١:٢٨ ،ص٢٢٩ .

(٢) ص٢٢٩ .

ومن عناصر التشويق السابقة إنّ كلمة " بدا لي " ، وهي واضحة في الدلالة على كشف أمر كان قد غمض ، وهذا من مظان التوكيد لأنّ الجملة الآتية بعده لا بدّ أن يكون لمعناها خصوصية من العناية والاهتمام والحفاوة فليس من كلامهم أن تقول - مثلاً - : " بدا لي أنّ السماء فوقنا والأرض تحتنا " ، وإنّما تقول : " بدا لي أن السّعادة في الرّضا " ، و " بدا لي أنّ الأمر على خلاف ما توقعته " وهكذا . وقد أتت هذه الكلمة في قصيدة واحدة عند زهير - زعم بعض الناس أنّها لصرمة بن أبي أنس الأنصاري - عند قوله :-

بدا لي أنّ الناس تفنى نُفُوسُهُمْ وأموالُهُمْ ، ولا أرى الدّهرَ فانيا (١)

قدّم بقوله " بدا لي " للجملة المؤكدة ، وهذا دليل على مزيد عنايته بها ، وكأنّه تهيئة لأمر مهم لا بدّ من سماعه ، وربما كان ذلك عائداً إلى طبيعة زهير التأملية التي جبل عليها فهو شاعر الحكمة ، ولا يكون شاعر الحكمة إلا إذا تأمل وفكّر في الأشياء بعقل المتفلسف ، يتأمل معانيه ويستخرجها وينظر في عواقب الأمور ويتغلغل في حقائق الأشياء . وعبارة "بدا لي " دالة على مراجعة وتأمل وهو يتحدث عن فناء النفوس والأموال ، وهي بديهة من البدائه وحقيقة من الحقائق لا ينكرها أحد ، إلا أنّ زهيراً أكّدها ، وعلة ذلك أنّ الناس يغفلون عن هذه الحقيقة التي لا ريب فيها وكأنّها غائبة عنهم ، فكان توكيدها لفتاً للنفوس التي هي ذاهلة عنها .

وقوله بعده :

وأنّي متى أهبِطْ من الأرضِ تَلْعةً أجِدْ أثراً قبلي ، جَديداً وعافِيا (١)

---

(١) ٢٣ : ٢-٣ ، ص ٢٠٧ .

" التّلعةُ : مجرى الماءِ من الجبلِ إلى الأرض . عافٍ ، دارسٌ. "(١)

أراد : أنّ الأرض عامرة بآثار من عمروها وهي إمّا آثار قديمة وإمّا آثار جديدة ،وأنّه سائر من السائرين وهالك من الهالكين فالكل إلى طريق واحد ،وأنّ هذه الشواهد الكائنة على الأرض تدل دلالة قاطعة على أنّه هو -أيضاً -صائر إلى أن يكون أثراً كهذه الآثار ،فالتوكيد لهذا المعنى ، وهو معنًى توشك النفس أن تنفلت منه وألا تواجهه مواجهة صريحة لأنّ فيه ما يفزعها ويقطع آمالها ،فأكّده ليقرره في نفسه ويواجهها به . وهو كلام يشبه كلام أهل الموعظة كما ترى .

وكرّر كلمة "بدالي "هذه بعد ذلك في قوله :-

بدا لي أنّي عِشْتُ تِسعينَ حِجَّةً   تِباعاً ،وعَشْراً عِشتُها ،وثَمانِيا (٢)

وفي ذكرها قبل التوكيد -كما ذكر تهيئة لنفس السامع ،والتوكيد هنا لإحساسه باستطالة الزمن وتراخيه ،وإحساسه بالضيق والضجر والتبرم من هذا الزمن المتزاحم بالأحداث والأحوال ،فهو يمثّل نوعاً من غرابة الخبر. وانظر كيف قسّم بيان جملة السنين التي عاشها على تسعين وعشر وثمانية ،وكان يمكنه أن يقول : " بدا لي أنّي عشت مائة سنة وثمانيا" ، ولكنّه جعلها كما ترى إمعاناً في الدلالة على الاستطالة ،ثم إن هذا الذي بدا له أمر ليس غامضاً لأنّه حساب زمن العمر ،والأمر ليس كذلك ، وإنّما هو الإحساس بالتراخي والضجر من هذه الاستطالة واستهوال هذا المدد .

---

(١) ص ٢٠٧ .

(٢) ٢٣ : ٧ ،ص ٢٠٨ .

وقولـه :

بدا لي أنَّ اللّه حقٌ ،فزادني   إلى الحق ،تقوى اللّه ،ما قدبَدا لِيا(١)

تأكيد لهذه الحقيقة العظيمة في نفسه ،ورمي بها في وجه من ينكرها .

وقولـه :

بدا لي أنّي لستُ مُدْرِك مامضى   ولا سابقي شيءٌ ، إذا كان جائيا(١)

المعنى مألوف معروف ،لكن زهيراً أخذه وأحاله وجعله ذا بهاء لا يُنال إلا بالمراجعة والتأمل والتبيّن . وهنا سؤال عن الذي دعا هذا الشاعر الحكيم إلى توكيد هذه الحقيقة التي لا ريب فيها والتي هي بديهة من البداهة ،إنه توكيد لكف النفس حين يعتريها الندم على ما مضى وتبديد الطاقة في التعلق بما لا يدرك مرّة ثانية ،وكذلك توكيد كف النفس في الطمع الطالح إلى ما في الغد وتحمل المشقة في سبيل استخلاص ما في الغد قبل أوان مجيئه . نعم ،إنّ عدم إدراك ما مضى وعدم سبق ما هو آت حقائق مقررة لا ينكرها أحد ،ولكن نزوع النفس وتعلّقها بما فات وذهابها حسرات على ما فرطت في شئون كان ينبغي أن يؤخذ بالحزم ، ثم توقها إلى ما في الغد وكدّها في تحصيل ما يشق عليها تحصيله . كل ذلك كان داعية توكيد كف النفس عن هاتين الحقيقتين : إدراك ما مضى ،وسبق ما هو آت .

ومن صور التوكيد بـ " إنّ " المصاحبة بخصوصيات أسلوبية : التوكيد المسبوق بأفعال قلبية ذات علقة أكيدة بجملة التوكيد ،كما في قوله :

---

(١) ٢٣ : ٨-٩ ،ص٢٠٨ .

تعلّم أنَّ شرَّ النّاسِ حيٌّ ينادي ،في شعارِهمُ : يَسارُ (١)

وقولـه :

وقُلتُ : تَعَلَّمْ أنَّ للصَّيدِ غِرَّةً وإلّا تُضَيِّعْه فإنّك قاتِلُه (٢)

انظر إلى الأمر " تعلّم " ،ثم توكيد الجملة بعده وكيف احتفل بتوكيد أن شر الناس هذا الحي الذي ينادي في شعارهم يسار ، أي صار أهل الحي يعرفون بيسار لأنّ أمره صار عيباً لازماً لهم. وكيف احتفل ببيان الحقيقة الثانية وهي أنَّ للصيد غِرّة .

وقد تجد التوكيد المسبوق بمثل هذه العناصر المهيّئة في أمر هو مظنة الشك ثم ترجّح ،وكأنَّ الشاعر كان يعالج التفكير فيه ثم رأى شيئاً انقدح له ، فأكد لذلك ،كما في قوله :

فأنقذَها ،مِنْ غَمرةِ الموتِ ،أنَّها رأت أنَّها إنْ تَنظُرِ النَّبْلَ تُقْصَدِ (٣)

وقولـه :

ورأيتَها نَكباءَ ،تَحسِبُ أنَّها طُلِيَتْ بقارٍ ،أو كُحَيلٍ ،مُعْقَدِ (٤)

" رأيتَها : يعني البقرةَ. نكباءُ : متنكِّبةٌ مائلةٌ عن الطريقِ . والقارُ : مِن هناءِ الإبل رقيق ،... والكُحيلُ : الخضخاضُ الرَّقيقُ يخرجُ من عينٍ من الأرض مثلما يخرُجُ النِّفطُ. ومُعْقَدٌ : يُعقَدُ بالنّار (٥) "

---

(١) ٢٥ : ١ ، ص ٢٢٠ .

(٢) ٧ : ٢٣ ،ص ١٠٨ .

(٣) ١٤ : ٢٥ ، ص ١٦٦ .

" إن تَنظُرْ: إن تَنتظِرْ أصحابَ النَّبلِ أن يجيئوا . تُقصَدْ : تُقتلْ " ص ١٦٦ .

(٤) ٢١ : ١٦ ، ص ١٩٧ . (٥) ص ١٩٧ - ١٩٨ .

وقولـه :

فلمّا رأيتُ أنَّها لا تُجِيبُنـــي نَهضتُ إلى وَجناءَ ،كالفَحلِ ،جَلعَدِ (١)

وقولــه :

هُمُ وَلَدُوا ابَنَيَّ ،وخِلتُ أَنَّــي إلى أُرْبيَّةٍ ،عَمِدٍ ثَراهـــا (٢)

السياق فيه أن ما بعد " إنَّ " " رأت " و "تحسب " و "رأيت " و " خِلت " ،وما يشبهه كان شيئاً موضع نظر و تردد ،كما تقول ـ مثلاً ـ : "رأيت أنّه الصواب " ومعناه أنك وصلت إلى هذا بعد شك ومراجعة . وهذا من مظانّ التوكيد ،وربما كان من حاق مواقعه ، و هكذا تأمّل :

رأت أنَّها إن تنظر النبل تُقْصَـد
، تحسب أنَّها طُليت بقار
، رأيت أنَّها لا تُجيبني
، خِلْتُ أنّي إلى أُرْبيّــةٍ

تعم ، إن الشاهد الأخير لا يدل ظاهره على أنَّ مدخــول أداة التوكيد كان موضع مراجعة و نظر ، لأنّ الشاعر لا يراجع أمَرَكونـه من رجال ذوي شرف ، ولكن الحقيقة أنهيئة الكلام تقوم على هذا ليؤكد من خلال هذه الهيئة ما أراده ،وهو : انتسابه إلى هذه الأربيــة العَمِد ثراها ،أي: الرجال ذوي الشرف الراسخ ،وإلّا فما الذي ألجأه

---

(١) ١٤ : ٥ ،ص١٦١ .
(٢) ٣٤ : ٢ ،ص ٢٤٣ .

إلى استعمال لفظ " خلت " ؟ ولماذا لم يقل " هم ولدو ابنـــي وإني لمن معشر ذوي مجدٍ " ؟ . قال " خلت أنّي .. " ؟ أراد الوصول إلى قمة المبالغة في تأكيد المعنى بلغة تخلو في ظاهرها من نغمة المبالغة .

وفي قولـــه :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الناس تَخلُدُ بَعدَهُم أَحادِيثُهُم ، والمَرْءُ لَيسَ بِخالِـدِ (١)

يلحظ أنّ الذي مضى غير الذي هنا "ألم تر .. " فالهمــزة للإنكار ، والإنكار نفي ، ونفي النفي إثبات . أو للتقرير ؛ تقرير المخاطب بما يعلمه من مضمون هذا الحكم . وهذا الأسلوب مما يقوى به الكـــلام وما يساق في المعاني التي لا يدخلها ريب ، فهو لا يسوق الخبر مساق التقرير والإخبار ، وإنما مساق الاستخبار ثقة بأن السامع سيقول "بلى ". وعليه ، فقد تضامت " ألم تر " مع "أنَّ " في توكيد المعنى . والمعنى الذي عني به زهير واحتفل وكثّف له وسائل التوكيد معنًى ظاهر معروف ، وهو : أنَّ الناس تخلد بعدهم أحاديثهم ، إلا أنه أراد توكيد هذه الحقيقة في نفوس الناس واللفت إليها والتنبيه والإشارة إلى العناية بها حفــاوةً بالمعنى ، ولأنّها حقيقة من الحقائق التي إن استحكمت في النفــوس أوجبت لا محالة سلوكاً ملائماً لهايطلب فيـــــه حسن الذكر وجمــــال الأحدوثة . والظّن في مواقع " إنَّ " في مثل سياقات المعاني هذه أنّها مما أشار إليه الشيخ عبد القاهر في قيمة هذه الحرف المعنوية وسرائره اللطيفة والتي لا تكاد تتناهى .

---

(١) ٣٣ : ٨ ، ص ٢٤٢ .

ومن عناصر التشويق المصاحبة لأسلوب التوكيد بـ " ان " :
استعمال صيغة " أبلغ " ، وقد تكرّرت في الديوان عدة مرّات ، وهي دالة على أن موضوع البلاغ - وهو مدخول " إنَّ " موضع عناية وحفاوة. انظر إلى قوله :

أَبْلغ لَديكَ بَني الصَّيداءِ ، كُلَّهُمُ أنّ يسارًا أتانا ، غَيرَ مَغلُولِ (١)

مجيء " أبلغ " في صدر الكلام مشير إلى أهمية البلاغ فيلتفت السامع ليسمع مضمونه ، ولذا كانت عنصراً من عناصر العناية وإحضار السامع وإيقاظه ولفته وتنبيهه إلى أنَّ البلاغ يطوي خبراً مهماً ، وبذلك يكون الكلام قد هيّيء قبل ذكر الأداة.

والظنّ في هذا ، أنه يدخل فيما قاله العلماء من أن الكلام السابق لـ " إنَّ " قد يتضمن تشويقاً إلى الخبر تُعدُّ النفس له ، وإن كان كلامهم وقف عند الجملة التي تكون جواب سوءال متضمّن في الكلام السابق ، والذي هنا ليس كذلك ، وإنّما هناك عناصر دالة على الحفاوة بمضمون الجملة أو عناصر دالة على أنَّ مضمون الجملة مظنّة التوكيد - كما قيل في " تحسب " و " خلت " .. الخ ، والظّن - أيضاً - في هذا ، أنه يُكشَفُ به بعض استعمالات " إنَّ " التي قال عبد القاهر فيها أنّها لا تتناهى دقائقها.

وقوله

أَبْلِغْ بَني نَوفلٍ عنّي ، فقَد بَلَغَتْ مِنّي الحَفيظةُ ، لمَّا جاء ني الخَبَرُ (٢)
القائلينَ يساراً ، لا تُناظِرُوهُ غِشّاً لسَيّدِهِم ، في الأمرِ ، إذ أمرُوا

---

(١) ٢٧ : ١ ، ص ٢٢٦.
(٢) ٢٦ : ١-٣ ، ص ٢٢٤.

إِنّ ابنَ ورقاءَ لا تُخشَى غَوائِلُهُ   لكنْ وقائعُهُ ، في الحَربِ ، تُنتَظَرُ

" يريد : أمروه بفشٍّ لا تُناظِر يساراً ، اقتله ... غوائله : خبائثه . غوائل : ما غاله من شر أو نميمة أو فساد يدخل عليه[١] . "

جاء التوكيد وفق ظنّ القوم في ابن ورقاء ، فهم لا ينكرون أنّه سيّدهم وأنّه لا تُخشى غوائله ، وأكّد حفاوة بهذا المعنى وتقبلاً له وإعلاءً لما يتضمنه من قيم ، وتقريرَ ذلك كله في نفس من يسمع وإن كان لا ينكره ؛ فقد يقرر المعنى في نفس السامع وإن كان لا ينكره ، وإنما لإشعاره بأنَّ هذا المعنى معنًى ينبغي أن يكون مقرراً عنده وأن يكون موضع العناية . ثم لا ينبغي أن يغفل هذا التركيب في قوله : " لا تُخشى غَوائِلُهُ " فمعناه العام القريب أنه ليس غادراً ، أمّا معناه الأبعد فهو أنه ليست له غوائل فتخشى ، وأدخل النفي على الفعل " تخشى " وأراد نفي الغوائل نفسها ، فهو لا يريد أنَّ له غوائل ولكنّها لا تخشى ، وإنما أنَّه ليست له غوائل البتة . وهذا مسلك آخر للتوكيد عن طريق لغة الكناية هذه ، وهي عنصر توكيد غامض ولطيف ينضاف إلى " إنَّ " .

وكون مجيء التوكيد هنا وفق اعتقاد المخاطبين مما لا يطرد مع قول عبد القاهر[٢] في أنك لا تحتاج إلى " إنَّ " إذا كان الخبر بأمرٍ ليس للمخاطب ظنّ في خلافه البتة . وقول عبد القاهر هذا لا يطرد مع ما جاء في القرآن الكريم عند التوكيد في الدعاء ، كما في قوله تعالى : * ربنا إنّي أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم *[٣] ، فهو مما لا ينطبق عليه كلام عبد القاهر البتة .

---

(١) ص ٢٢٤ .   (٢) (دلائل الإعجاز) ص ٣٢٥ .

(٣) ابراهيم : ٣٧ .

وقوله :

ألا أَبلغْ لديك بَني تَميمٍ ... وقد يأتيكَ بالنُّصحِ الظَّنونُ (١)

بأَنَّ بُيُوتَنا بمَحلِّ حَجْرٍ ... بكُلِّ قَرارةٍ منها تكونُ

" الظَّنونُ : الذي لا يُوثق بما عنده ، ولا يكاد يَصدُق في خبرٍ ، وربما صدق فأتى بالخبر . ومعنى هذا أنه يقول : نحن ببلدةٍ ، ولا أدري أيبلغهم اليقينُ مما أقول أم لا . فعسى أن يبلغهم قولي كما يصدق الظَّنون أحياناً . ويقال : بئرٌ ظَنونٌ ، أي : قليلةُ الماء .... حَجْرٌ : في شِقِّ الحجاز . والقَرارةُ : مستقرُّ الماء في الوادي . وقرارةُ الرّوض : وسَطُه حيث يستقرّ فيه الماء . منها نكون أي : هي دارُنا (٢) . "

" ألا " الاستفتاحية لا تأتي إلا قبل كلام له خطر وبال ، ثم إنّها سبقت الفعل " أبلغ " وهو دال على أن المبلَّغ أمر مهم ، فهذان عنصران تضافرا لإثارة الانتباه . والكلام موجَّه إلى بني تميم بهذه الحفاوة لأنَّه يريد تقرير حقيقة في نفوسهم يزيل بها كل وهم وشك حولها ، وهي : أنَّ غطفان - قوم زهير - آمنون في بيوت آمنة ، وأنَّ لهم من نفوذهم وقوتهم منعة تحميهم ؛ فاجتماع بني تميم وقصدهم محاربة غطفان دال على إنكارهم لهذه الحقائق أو كأنهم يُنَزَّلون منزلة المُنْكِر لها .

وجاءت " إنَّ " في صدر جملة مقول القول ، كما في قوله :

رأيتُ بَني آلِ امرىءِ القَيسِ أصفَقُوا ... علَينا وقالُوا : إنّنا نَحنُ أكثرُ (٣)

---

(١) ١٠ : ١-٢ ، ص ١٣٩ .

(٢) ص ١٣٩ .

(٣) ١٣ : ١ ، ص ١٥٧ .

" أصفقوا : اجتمعوا علينا . يقال : قد أصفق بنو فلانٍ على كذا وكذا ،أي : اجتمعوا عليه . وبنو آل امرئ القيس يريد : هوازن وسليما "(١) .

توكيد الخطاب في "إنّنا نحن أكثر " لأنّ آل امرئ القيس يخاطبون من ينكر كثرتهم ،وليس المراد الإخبار بالكثرة فقط ،وإنما المراد ما وراء ذلك من تهديد قوم زهير ووعيدهم وأنّ آل امرئ القيس قاهروهم وغالبوهم . ولعلّك تلحظ تكاثف عناصر التوكيد في البيت بـ " إنّ " و "نحن " وكلمة " أكثر " وما تحمله من معنى أنهم أكثر وكلمة "أصفقوا " وما فيها من معنى التكاثر والاجتماع .

وهذا التوكيد - مع إنّ " خاصة -والذي قبله يعطي داعياً للتوكيد نادراً في شعر زهير ،وهو التوكيد الذي جيء به لمواجهة إنكار المخاطب . وهذا مفيد أنّ مواجهة إنكار المخاطب بالتوكيد ليس محصوراً في الأساليب الخطابية وإنما هو أيضاً في المقامات الشعرية ، وإن ورد نادراً في شعرزهير ،ومثله قوله بعد ذلك راداً على آل امرئ القيس :

وإنّا وإيّاكم ،إلى ما نَسُومُكُم لَمِثلانِ ،أو أنتُمْ إلى الصُّلْحِ أَفْقَرُ(٢)

" نَسُومُكم : نعرض عليكم ونُريدُكم عليه . ويقال : سامَني الخَسْفَ ، أي : طلب منّي غير الحقِّ "(٣) .

---

(١) ص ١٥٧ .

(٢) ٤ : ١٣ ،ص ١٥٨ .

(٣) ص ١٥٨ .

الحديث بينهم وبين الشاعر متثاقل ، فهم يقولون نحن أكثر ، والشاعر يقول : أنتم إلى الصلح أفقر ، فهو خطاب فيه مراعاة لمخاطب منكر ، ومعه إظهار الاعتداد والثقة ورفض التهديد والوعيد . والتوكيد بـ " إنّ " كما ترى مضاف معه عنصر آخر هو لام التوكيد في " لمثلان " . ويمضي زهير هنا على طريق غير طريق آل امرئ القيس الذين اجتمعوا وقالوا : نحن أكثر ، فقد قال : إنّا وأنتم لمثلان ، فوضعهم على مرتبة واحدة مع قومه ولم يزعم من أول الأمر أن قومه أكثر ، كما فعلوا هم ، ثم قال : " أوأنتم إلى الصُّلح أفقر " . وفي هذا الرد شيء من حكمة زهير في جعله الخصم مساوياً له ثم جعله مفتقراً للصلح ، فأغنى هذا التّلميح بأنهم مهزومون عن التصريح .

وبعد ، فإن العرض السابق حاول أن يبين طبيعة استخدام زهير لهذه الأداة ، فقد وردت مفردة ، ومعها اللام التي للتوكيد ، وواقعةً في جواب الشرط ، ومسبوقة بعناصر تشويق وإثارة ، وقد تباينت عناصر التشويق هذه بين مجيء الأمر والنهي معاً ، والأمر مفرداً ، والاستفهام ، وكلمة " بدا لي " و " أبلغ " وهما الأظهر في هذا الباب ، وبعض الأفعال القلبيّة ، وواقعة في صدر جملة مقول القول .

وكذا ، تنوعت طبيعة المعاني التي أفادها التوكيد بـ " إنّ " حسب السياقات التي حكتها ، وكانت أكثر المعاني تردّداً ما كان لتقرير المعنى وتحقيقه ، أو لتوكيد علّة الكلام السابق بما أثاره من جملة تساؤلات ويدخل فيه التوكيد لأمور كانت مظنّة الشك قبل التوكيد . كما أتى التوكيد في الكلام والمعنى على وفق اعتقاد المخاطب أو على خلاف اعتقاده حسب

السّياق ،أو لأنه خلاف ما يتوقع المتكلم ،أو خلاف العادة ،أو لمواجهة إنكار المخاطب ،أو لتقرير بعض الحقائق التي قد يشك فيها ،أو لغرابة الخبر . . ومن المعاني الجيّدة في شعر زهير : لفت النفس حين تذهل عن بعض الحقائق ، أو كفّ النفس حين يعتريها الندم على مافات وتبديدِ الطاقة في التعلق بما لا يُدرك ثانية . وقد يتزاحم أكثر من داعٍ في البيت الواحد ،ولا حرج ،لأنه دال على توافر المعاني وتزاحمها .

التوكيد بإنّما

مواقعها

لم تقع "إنّما" في شعر زهير إلا قليلاً جداً ،وهي من الأدوات اللغوية التي لها احتياطات في سياقها ،وإذا وقعت على الوجه الأنسب أصابت ،ولذا فإنك تراها تقل في الكلام ،وتتكاثر في القرآن الكريم الذي عرض الطرائق اللغوية العصيّة وأجراها على حرّ سليقتها .

وقد جرت في شعر زهير على ما قرّره البلاغيون فيها من أنّها تستعمل في الخبر لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحته (١) ، وتأمّل قوله :

صَحَا القَلبُ ،عن سَلمَى ،وأَقصرَ باطِلُهْ وعُرِّيَ أفراسُ الصِّبا ،ورَواحِلُهْ (٢)

وأَقصَرَ ،عمَّا تَعلَمِينَ ،وسُدِّدَتْ عليَّ ، سِوَى قَصْدِ السَّبيلِ ،مَعادِلُهْ

وقال العَذارَى: إنّما أنت عمُّنا وكان الشَّبابُ كالخَليطِ ،نُزايِلُهْ

" قوله " عُرِّيَ أفراس الصِّبا " مَثلٌ ،يقول : تُرِكَ الصِّبا وتُرِكَ الركوب فيه . وقال الأصمعي : عُرِّيَ أفراسٌ قد كنت أركبها في الصِّبا ... أبو عمرو : "وأَقصَرْتُ " أي: كففت عمَّا تعلمين من الباطل . ومعادِلُهُ: كُلُّ مَعدِلٍ كنتُ أعدِلُ فيه من الباطل فقد سُدَّ ، سوى قصد السبيل . وكلُّ ما عدل فيه فهو مَعدِلٌ . يقول : مَعادِلي التي كنت أعدلُ فيها سُدِّدتْ عليّ ... والخليط : الصاحب . نزايله : نفارقه . جمل

---

(١) عبد القاهر الجرجاني (دلائل الإعجاز) ص ٣٣٠ .

(٢) ٧ : ١-٣ ، ص ١٠١-١٠٢ .

الشباب ، حين ولّى ، بمنزلة الخليط الذي فارقه (١) ".

قال المذارى : " إنّما أنت عنّا " بالقصر ، ومعناه : أنّك فرغت من كلّ ما تلتفت إليه العذراء في الرجل تنظر إليه ، فأنت عمّ لا أرب فيك ، وليس فيك ما يثير صبوة ، وليس فيك بقية أو أثارة من شباب. واستعمال " إنّما " أشار إلى معنًى جليل ؛ وهو : أنّ هذا الأمر فيك ظاهر بيّن ، وأنّ فراغك وخلوصك من كل ما تنظر إليه المرأة في الرجل كالشمس ساطعة ، وفي هذا إلقاء للأضواء الكاشفة عن حقيقته ، وكأنهنّ يقلن له : إنّ هذه حقيقة ظاهرة ، وهذا المعنى جارٍ كما ترى مع ما قرّره البلاغيون فيها ، ويؤيد ذلك قوله : " صحا القلب " و " سدّدت عليّ سوى قصد السبيل " فلم تكن من الشيخ معاندة لهن أو إنكار لهذه الحقيقة حتّى يُنزّل منزلة المنكر ، فقد صحا قلبه ولم يعد يرى إلا طريقاً واحداً هو قصد السبيل .

وقوله يرثي سنان بن أبي حارثة :

أُحابِي به مَن ، لو سئلت مكانَهُ   يميني ، ولولا مَتْ عليه العَواذِلُ (٢)
لَعِشْنا ذوي ، أيدٍ ، ثلاثٍ ، وإنّما الـ   حياةُ قليلٌ ، والصّفاءُ التّباذُلُ

" مكانه : مكان الميّت . والعواذل : اللّوائمُ . ولولا مت على أن أجعل يدى فِداه من الموت ... لعشنا ذوي ، يعني نفسه وسِناناً . يد زهير ويَدَي سنان ، فذلك ثلاثُ أيدٍ . والصّفاء التباذل ، يقول :

---

(١) ص ١٠١-١٠٢ .

(٢) ٢٤ : ٢١-٢٢ ، ص ٢١٨ .

من أصفى لك ودّه ابتذل لك نفسه والصّفاء : المودّة . يقول : لا أعطيتُ يميني ،فبقيت لي يد واحدة.
والصفاء من الإخاء : الخالصُ ، ومن كلّ شيء خَلَص ،ممدودٌ.(١)

مراد الشاعر بقصر الحياة على القليل : أنّها ليست دار متاع ، فأمرها ضئيل جداً ، ولذا فإنّه يعيش فيها مخلصاً لمن يحب ، ويعيش فيها صادقاً مع نفسه ، ومخلصاً لقيه ومشاعره . وكأنّ الشاعر أراد التذكير بهذا الأمر الذي هوحقيقة معلومة ،ومعنىً مأنوس لا مشاحةفيه . وكذا الصفاء مقصور على البذل والعطاء والمودة والصداقة .. وكلّها معان مألوفة مأنوسة كما ترى .

وأتت " إنما " في سياق الخبر المجهول المنكّر المنزّل منزلة المعلوم ،وهو تمام الأصل السابق الذي ذكره البلاغيون من حيث إنها للخبر المعلوم أو المنزّل هذه المنزلة ،ويتمثّل ذلك في قوله يرثي ابنه سالماً :

فأصبحَ محبُوراً ،يُنظّرُ حولَهُ بمغْبَطةٍ ، لوأنّ ذلك دائمُ!(٢)
وعندي ،من الأيّامِ ،ماليس عِندَهُ فقلتُ : تَعلّم أنّما أنتَ حالمُ

" المحبورُ: المنعّم ،من قوله تعالى ﴿ فهُم في روضةٍ يُحْبَرُونَ ﴾

---

(١) ص٢١٨ .
(٢) ٤٢ : ٣-٤ ، ص ٢٥٥ .

أي ينعمون ،يُنظَّر حوله : أي ينظُر حولَه يميناً وشمالاً من الخُيلاء .
يخاطب ابنه ،يقول : ما أنت فيه من السرور والشباب بمنزلة الحلم.(١)"

لكي يتحدد المراد من القصر بإنما يتعين استلهام الكلام الماضي لتحديد السياق والموقف ،فزهير هنا يخاطب ابنه وقد أخذه السرور والشباب إلى آماد بمنزلة الحلم ، والمرء متى أخذته الدنيا وأخذه الاغترار بها وببهجتها صار حالماً ، ولذا كان يقول له : إنَّ ما أنت فيه من حبورٍ حَسَنٌ لو كان دائماً ،إلا أنه من شأن الفتى المغرور الذاهب في هذه الأوهام أن ينكر انغماسه في الحلم ، وإنما يعتقد أنَّ هذه هي حقيقة الحياة ،فنزّل هذا الأمر المجهول المنكّر منزلة الأمر المعلوم ،وكأنَّ زهيراً يدّعي أنَّ كون ابنه حالماً هو أمرٌ ظاهر يجب أن يكون معلوماً له . وهذا من باب :

إنَّما مُصْعَبٌ شِهابٌ من اللّـ ـه تجلَّتْ عن وَجْهِهِ الظَّلْماءُ

في عادة الشعراء " إذا مدحوا أن يدّعوا في الأوصاف التي يذكرون بها الممدوحين أنَّها ثابتة لهم وأنَّهم قد شُهِروا بها وأنَّهم لم يصفوا إلا بالمعلوم الظاهر الذي لا يدفعه أحد " (٢) . وهذا - أيضاً - قريب جداً من قول زهير في هرم بن سنان والحارث بن عوف :

فما كانَ من خيرٍ أتَوه فإنَّما توارَثَه آباءُ آبائِهِم قَبْلُ (٣)

---

(١) ص ٢٥٥ .
(٢) عبد القاهر الجرجاني (دلائل الإعجاز) ص ٣٣١ .
(٣) ٥ : ٤٠ ، ص ٩٥ .

إنّ معاني الخير متوارثة وجارية مع أنسابهم . وقوله : " توارثه ، يعني : ورثه كابر عن كابر "(١) . وقوله : " آباء آبائهم " يعني أنّها ضاربة في العتاقة والقدم. وذكر " إنّما " هنا على حد " إنّما مصعب شهاب .. " ليزعم أنّها حقيقة ظاهرة ،فالناس لا يُسلّمون للمدوحين بهذا لأنّ فيهم من يهجو الممدوحين ويحاربهم ،وإنّما مدحهم الشاعر بالشيء الذي قد عُلم وشُهر . ومثل هذا المدح مما ينكره الناس ، فأكد . ويلحظ ارتباط " إنّما " بالفاء السببية ،وكأنّ الجملة الثانية علّة للجملة الأولى ، تبيّن علّة هذا الخير الذي أتوه ،وأنّه إنما توارثوه عن آباء آبائهم ، فهذا دال على أنّ خلال الخير هذه قديمة عريقة فيهم.

---

(١) ص ٩٥ .

التوكيد بالنفي والاستثناء

دواعيه

ليس التوكيد بالنفي والاستثناء كالتوكيد بـ " إنّ " ، فلكل مغزاه ، لأنّ التوكيد بـ " إنّ " منصبٌ على النسبة ، وهو في النفي والاستثناء منصبٌّ على معنى القصر ، لأنّك حين تقول : " ما فعل إلا فلان " ، يكون التوكيد منصباً على قصر الفعل على فلان ، أي : توكيد القصر .

وهذا البحث يتلمس داعية التوكيد بـ " ما وإلا " ، وقد وظّف زهير هذه الأداة في شعره توظيفاً رائعاً أنبأت عنه طبيعة المعاني و مجاري السياقات التي استعملت فيها هذه الأداة ، والتي أتت على نحو متباين ، فيما ظهر .

أتى التوكيد بالنفي والاستثناء لأنّ المعنى على خلاف ما يتوقعه المتكلم ، كما في قوله :

غَشِيتُ الدِّيار ، بالبَقيع ، فثَهمَدِ   دَوارِسَ ، قد أَقوَيْنَ من أمِّ معبَدِ (١)

أَرَبَّتْ بها الأرواحُ ، كُلَّ عشيّةٍ   فلم يَبقَ إلا آلُ خَيمٍ ، مُنَضَّدِ

وغيرُ ثلاثٍ ، كالحَمام ، خَوالدٍ   وهابٍ محيل ، هامدٍ ، مُتلبِّدِ

" أقوى وأقفر : ذهب منه أهلُه . والبقيع وثهمدُ : مكانان .

أربّت : أقامت ، والمُرِبّ : المقيم ، والإرباب : الإقامة واللزوم .

---

(١) ١٤ : ١-٣ ، ص ١٦٠ .

وآلُ : جمعٌ . والواحدة آلةٌ . وهو عُودٌ له شعبتان يُعرَّض عليه عودٌ آخر، ثم يُلقى عليه ثُمامٌ ، يستظلُّ به . ويقال : آلٌ : شخصٌ . وشخصُ كلِّ شيءٍ آلُــه . . . ثلاث يعني : الأثافيَّ . وخوالدُ : مقيماتٌ بواقٍ . وهابٍ : رمادٌ عليه هَبوةٌ ، أي غُبْرةٌ ، مع طول القدم . ومُحيلٌ : قــد أتى عليه الحول . وهامدٌ : خامدٌ . ويقال : همدتِ النّار إذا ذهب التهابها ، وخمدت إذا طفئت، وتلبّدُ : من الأمطار .(١)

أجال الشاعر النظر فيما حوله من الديار، فلم يجد إلا بقايا مــن آل خيم ، وبقايا من أثافي ، وبقايا من رماد ، فهاله هذا العفاء ، وهالــه أن يقع بصره على خلاف ما كان يتمنى أن يرى ، فأكّد ، لأنّ هذا العفاء جاء على غير ما كان يتوقع ويتمنى ، ووراء ذلك ما وراءه من فرط التّملّــق المجيب بالمكان وساكنيه الذين رحلوا عنه . داعية التوكيد إذاً فــي هذا الموقف : أنّ الشاعر رأى ما يكره وخلاف ما يتوقع ، فنبت عنــه نفسه وأكذبته ، فأكّد لها هذه الحقيقة التي تهرب منها .

وتأمّل داعي التوكيد في البيت التالي :

طَرِبتَ ، وقالَ القلبُ : هل دُونَ أهلِها لمن جاوَرتْ ، إلا ليالٍ ، قلائلُ ؟(٢)

لمّا رأى الشاعر أنه قارب المنازل طَرب ، وقال مؤكّداً بالنفــي والاستثناء : ليس دون أهلها إلا ليال قلائل . وحفل بتوكيد هذا المعنى ، لأنه يمثل شيئاً مرغوباً فيه وأمراً تعلّق به وأحبه فأكّــده ،

---

(١) ص ١٦٠ .

(٢) ٢٤ : ٨ ، ص ٢١٥ .

وكأنّ في التوكيد لنفسه زيادة في إدخال المسرة عليها . وهذا الموقف النفسي المؤكَّد لأمر أحبته نفس الشاعر مباين للموقف النفسي السابق المؤكَّد لأمر نبت عنه نفسه - وإن استعملت فيهما أداة واحدة - وهذا التباين المعنوي مع استعمال الأداة اللغوية الواحدة هو مظهر من مظاهر قابلية الأدوات اللغوية الواحدة للتعبير عن معانٍ مختلفة ومتباينة تعبيراً يأتي وفق أحوال النفس واختلاف السِّياقات.

وأتى التوكيد بـ " ما وإلا " لغرابة المعنى الذي سيقت فيه ، وتمثّل ذلك في أبيات عديدة ، منها قوله - من قصيدة نُسبت للنابغة الذبياني :

حِياضُ المَنايا لَيس عنها مُزَحزَحٌ ... فَمُنْتَظِرٌ ، ظِمئاً كآخَرَ ، وارِدِ (١)

خَبالٌ ، وسُقْمٌ مُضْنيٌ ، ومَنيَّةٌ ... وما غائبٌ إلاّ كآخَرَ ، شاهِدِ

« المزحزح : التّنحية والإبعاد . والظمء : حبس الإبل عن الماء إلى غاية الورود . والخبال : الفساد . والمضني : الذي يهد الانسان ويضعفه » (٢) .

أراد أنّ حياض المنايا الكلّ فيها سواء ، فمنتظر ظِمئاً إلى غاية الورود كآخر وارد ، والغائب عن ورد المنية كالشاهد الذي يشهدها وقد شارف الموت ، في أنه - أي : الغائب - سوف يشهدها لا محالة ،

---

(١) ٣٢ : ٤-٥ ، ص ٢٤١ .

(٢) ص ٢٤١ ، حاشية (٩ ، ١٠) .

فقصر الغائب الذي هو بعيد عن المنيّة على الشاهد ، أي : الحاضر لحظة المنية . يعني أنّ الغائب ليس له حال ولا وصفٌ يميزه عن الشاهد ، وإنّما الغائب هو الشاهد . ومعنى القصر هنا فيه قدر من الغموض لدقة المعنى ، فالغائب ينزل غيابه هذا منزلة العدم وأنّه شاهد لحظة المنية ، وليس هناك غائب وإنما الكلّ في حالة شهود ، والموت على أعناقهم . وهذا من أدقّ المعاني التي قيلت في الموت باستخدام هذه اللغة وهذه الأداة . فيما يظهر .

ومن التوكيد لغرابة المعنى - أيضاً - قوله :

وقال العذارى : إنّما أنت عمّنا ... وكان الشّبابُ كالخليطِ ، نُزايِلُهْ (١)

فأَصبحْنَ ما يَعرفْنَ إلا خَلِيقَتِي ... وإلا سوادَ الرّأسِ ، والشّيبُ شامِلُهْ

" أي : كبرتُ ، وكُنّ يدعونني أخاً ، فصرت يدعونني عمّاً . وهذا مثل قول الأخطل :

وإذا دَعَونَكَ عمهن فإنّه ... نَسبٌ يزيدك عِندَهُنّ خَبالا

... خليقته : طبيعته وشِيمتُه . يقول : ما يَعْرِفْنَ إلا خليقتي ، وأنا شابٌ كنت أميل إليهنّ وأواصِلُهنّ ، ويَعْرِفْنَ سوادَ الرّأس والشّيبُ قد شَمِله ، أي : عمّه (٢) " .

حقيقة عبارة زهير تنبئ عن أنّ هؤلاء العذارى قد صعّدن فيه النظر وصوّبنه فلم يجدن فيه شيئاً يدل عليه إلا خليقته ،

---

(١) ٧ : ٣-٤ ، ص ١٠٢ .

(٢) ص ١٠٢ .

وهذا معنىً غريب ،فذهاب الكِبر بكل ملامح الشيخ التي عُرِف بها والتي برزت في شبابه ليس بالمسألة المطردة ،وإنّما قد تبقى علامات معروفة تدل عليه ؛ولذا حَسُن التوكيد بالنفي والاستثناء.

وقوله في هرم بن سنان ،والحارث بن عوف :

وَلَستُ بلاقٍ ،بالحِجازِ ،مُجاوِراً ولا سَفَراً ،إلا له مِنهُمُ حَبْلُ (١)

" يقول : كُلّ من جاور بالحجاز ،أو سافر إليها ، فله من هؤلاء القوم عهدٌ وذمّةٌ . وقوله " ولا سفراً " أراد : ولا صاحب سفرٍ ،فحذف لعلم السامع ... " والحبل " : العهد والذّمة (٢) . "

لا يريد أن المجاورين بالحجاز لهم عندهم عهد وذمة ،وإنّما يريد أنّك لا تجد حجازياً مجاوراً إلا وله بهؤلاء القوم الممدوحين حبال مكرمة وفضائل . وبعبارة أخرى: إنّ هذا الحبل قد استوعب كلّ من بالحجاز مجاوراً ، وهذا معنىً غريب كما ترى ،و محتاج إلى توكيد لتثبيته في النفوس و تقريره لأنّها قد تنبو عنه . ولعلّك تلحظ التحديد الصارم الدقيق للمعنى ؛ فقد أكّد النفي بالباء ، واستقصى بعطف السفر على المجاور.

وقوله ، يذكر قصة حمار الوحش مع الطرّاد :

وقد خَرَّمَ الطُّرّادُ ،عَنهُ ،جِحاشَهُ فلم يَبْقَ إلا نَفْسُهُ ،وحَلائلُهُ (٣)

---

(١) ٥ : ٢٥ ،ص ٩٠ .

(٢) الأعلم الشنتمري (شعر زهير بن أبي سلمى) ص ٣٩ .

(٣) ٧ : ١٦ ، ص ١٠٦ .

" خَرَّموا : فرّقوا . وإنما يُريد : أخذوا واحداً واحداً . وذلك أنهم يطردونه ،فيدعُ جِحاشَه ، فيأخذونها . وحَلائلُه : أتُنُه . والطُّرّادُ : الصيّادونَ " ص ١٠٦ .

أخذ الطُّراد جِحاش حمار الوحش هذا الذي كانوا يطاردونه ، ويجدّون في اقتناصه ،فأفلت منهم تاركاً جحاشه . والموقف غريب : ألجأه الطُّراد لترك جحاشه ،ولا ريب في أنَّ اللحظة التي يضطـــر فيها إلى الانفلات بنفسه وحلائله كانت في غاية القوة والهجمة الضاريـــة من هوءلاء الصيادين ،فأتى قوله :

* فلم يَبْقَ إلا نفسُه ،وحلائلُهْ *

تأكيداً لـ " خرّم الطُّراد ، عنه ،جِحاشه " ،وأكّد لأنَّ الموقف صعب شديد ،وكأنّه لصعوبته صار غريباً .

وقد يأتي التوكيد بالنفي والاستثناء،لأنّ الأمر على غير الغالـــب في مثله ، كما في قوله :

هَلْ تُلحِقَنّي وأصحابي ،بهم ،قُلصٌ؟ يُزجي أوائلَها التّبغيلُ ، والرَّتَكُ (١)

مُقوَّرَةٌ ،تَتَبارَى ،لا شَوارَ لهـــــا إلا القُطُوعُ ،على الأكوارِ ،والوُرُكُ

يصف الناقة التي يتمنى أن تلحقه بمن يريد اللحاق بهم بالضمور والسرعة ، وأنّها خفيفة نشطة لم يثقل عليها بالمتاع مما يثقل المرتحل نوقه به . وهذا أمر على غير الغالب ، فالأكثر أن يكون المرتحل ذا متاع، أمّا هذا المرتحل وأصحابه فلا متاع لهم البتة ،ووراء ذلك هذه الرغبة الملحة في اللحاق ، وخفة النفس والنشاط وإلقاء كل ما يمكن أن يثقل هذه النفس ويُعوّق عن الرحلة ،وكأنَّ النفي والاستثناء أتى ليوءكد أمراً هو على غير الغالب الشائع ،أراد الشاعر به أن يدل على خفة نفسه وشدة

---

(١) ٩ : ٧-٨ ،ص١٢٩ .

نشاطه ، وأنّه مُسْرِعٌ ماضٍ في رحلته مضاءً لا ينقطع .

وقد يأتي التوكيد بـ " ما وإلا " حفاوة بمن يتحدث عنهم ، وتنويهاً بالمعاني والصفات التي فيهم ؛ وهم : إمّا الممدوحون في مقامات المدح ، كما في قوله يمدح هرم بن سنان - من قصيدة قيل : إنها لكعب - :

فَتًى ، لا يُلاقي القِرْنَ ، إلا بصَدرِهِ إذا أُرعِشَتْ أحشاءُ كلِّ جَبانِ (١)

" قِرْنُكَ : المقاوم لك في أيِّ شيءٍ كان ، وقيل : هو المقاوم لك في شدة البأس فقط . والقِرن ، بالكسر : كُفْؤُك في الشَّجاعة ... القِرْنُ ، بالكسر : الكُفءُ والنَّظيـر في الشجاعة والحرب ، ويجمع على أقرانٍ . (٢)

استعمل زهير النفي والاستثناء ليؤكد به المعنى الذي أراده ، وهذا التوكيد منصب على معنى القصر ، فهو لا يؤكِّد أن الفتى يلقى القِرْن بصدره ، وإنّما يؤكد قصر لقائه القِرْن على أنه يلقاه بصدره في الوقت الصعب جداً إذا أُرعِشتْ أحشاءُ كلِّ جبان . وهو معنىً غير مُنكرٍ وإلا كان غير لائق بمدح الرجل ، وإنما أكّده حفاوة بالممدوح والمدح ، ويمكن أن يُقال فيه : إنّه مشعر بغرابة هذا المعنى ، فهي أعمال فئة قليلة ونادرة من الأبطال في ملاقاة الأعداء بالصدر في هذه اللحظة الحرجة . والبيت من حيث تأملته وجدت فيه شيئاً ؛ فقوله : " فتًى " مبني على القطع والاستئناف ، أي : هو فتًى ، واستأنف كلاماً جديداً عنه وقت الحرب مع الأعداء . وقال : " أُرعِشتْ " " من الاضطراب

---

(١) ٤٩ : ٢٦ ، ص ٢٧٠ .

(٢) ابن منظور (لسان العرب) ٥ : ٣٦١١ . (مادة : قرن) .

والارتعاد " (١) ،أي : أصابه من الاضطراب ما أصابه وهزّ بنيانه ، ولم تقتصر الرعشة على يده فبلغت الأحشاء ، وكله داخل في غرض استعمال النفي والاستثناء من حيث الحفاوة بهذا الممدوح والإشادة بشجاعته .

وقوله ، في مقام الحديث عن فتية شجعان :

بفتيةٍ ،كسُيوفِ الهِندِ ،يَبعَثُهُم هَمٌّ ، فكلُّهُمُ ذو حاجةٍ يَقِدُ (٢)

مَنَّهُمُ السَّيرُ ، فانآدتْ سَوالِفُهُمُ وما بأعناقِهِم ،إلا الكَرَى ،أَوَدُ

إنّي لأَبعَثُهُم ،والليلُ مُطَّرِقٌ ولم يَناموا سِوى أنْ قُلتُ :قدهَجَدُوا

" يقد " " الوَقْدُ : نفْسُ النّار " (٣) أراد أنهم ماضون في حاجتهم متوقدين متلهفين . "مَنَّهم " " المنّ : الإعياء والفترة " (٤) . " فانآدت " : " الانئياد : الانحناء " (٥) . "أَوَدٌ " : " الأوْدُ : العِوج " (٥) . "مُطَّرِقٌ " " الطَرَق في الرِّيش : أن يكون بعضها فوق بعض " (٦) ،أراد ليلاً ظلمته بعضها فوق بعض . "هجدوا " " ابن الاعرابي : هجّد الرجل إذا صلّى بالليل ،وهجد إذا نام بالليل . وقال غيرُه : وهجد إذا نام وذلك كله في آخر الليل " (٧) .

---

(١) ابن فارس (معجم مقاييس اللغة) ٢:٤١٢ .

(٢) ٢٢:١٤-١٦ ، ص ٢٠٢-٢٠٣ .

(٣) ابن منظور (لسان العرب)٦:٤٨٨٨ .(مادة : وقد) .

(٤) (المصدر السابق)٦: ٤٢٧٧ .(مادة : منن) .

(٥) (المصدر السابق) ١:١٦٨ . (مادة : أود) .

(٦) (المصدر السابق) ٤:٢٦٦٣ . (مادة : طرق) .

(٧) (المصدر السابق) ٦:٤٦١٦ .(مادة : هجد) .

أراد بقوله :

* وما بأعناقهم ، إلا الكرى ، أَوَدُ *

أنّ انحناء أعناقهم كان من النعاس لا غير ، وقد أكّد هذا المعنى عن طريق استعمال النفي والاستثناء ، فقصر ما بأعناقهم من الأود على الكرى ، ونفى أن يكون الأود لغير الكرى كالضعف والتخاذل . وفيه توكيد معنى قوتهم وأنّهم لا ينالهم ذل ولا ضعف . وميل الأعناق وطأطأة الرؤوس لهما دلالات يحرص الشاعر حرصاً أكيداً على كفّها في سياقه هذا ، لأنّها من رموز التّطامن والخضوع والضعف والقهر . وقد جرت في الذكر الحكيم دالة على مطلق الاستسلام والخضوع . قال تعالى * إن نشأ ننزّل عليهم من السماء آية فظلّت أعناقهم لها خاضعين * (١) ثم إنّ هذا الكرى لم يغلبهم ، وإنّما اعتراهم منه شوبٌ أمال أعناقهم ، فهبَّ الشاعر يبعثهم ويهيجهم في قوله : " إنّي لابعثهم " وانظر التوكيد به ، وقد دلّ بذلك على أنه أوفرهم نشاطاً وأشدهم عزمة . والذي يبدو أن زهيراً كرّر شيئاً من هذا المعنى الذي في قوله " وما بأعناقهم .. " بقوله :

* ولم يناموا سوى أن قلتُ : قد هجدوا *

ذلك أنّ طريقة بناء الكلام في هذا التكرار هي طريقته فيما ذكره أولاً ، أي : مصوغ من أسلوب النفي والاستثناء ، ليؤكّد هنا : نفي النوم ، ويثبت لهم فقط أنهم قد هجدوا ، والهجود هنا غير النوم ، وإنّما هو حالة من الركود والمفالهة وتفتر الأعضاء ، إذ " هجد " : بدل

---

(١) الشعراء : ٤ .

على ركود في مكان "[١]، فضلاً عن أنه ظن ظنّه الشاعر بهم "قلت : قد هجدوا " .واستعمال "قد " والتي هي للتحقيق غريب وكأنّها تومئ إلى أمر آخر ،وهو : أنّ الشاعر الذي يبعث القوم وقد كدّهم السير وانآدت سوالفهم - كان مقْبلاً على هرم إقبالاً امتلأ به نشاطاً وحماساً ، فقد تحقق لديه أنّ القوم قد هجدوا وهم لم يناموا ، وفي ذلك إشارة إلى إعناته وإرهاقه لهؤلاء الرّفاق من جانب ،وإشارة إلى وفرة نشاطه وإقباله على ممدوحه من جانب آخر بقوله " قلت " وهي هنا تشبه أن تكون بمعنى الظن .

ذُكر أنّ التوكيد بـ " ما وإلا " قد يأتي حفاوة بمن يتحدث عنهم ،وهم : إما الممدوحون ، على حد ما بيّنا ،وإمّا الأحبة ، كما في قوله :

إن تُمْسِ دارُهُمُ ،عنّا ،مُباعَدةً فما الأحِبَّةُ إلا هُمْ ،وإن بَعُدُوا[٢]

يشير الشاعر إلى معنًى نفسي عنده ،وهو تذكره لهؤلاء الأحبة وإن بعدت ديارهم ، فمباعدتهم لا تنال شيئاً من هذه المحبة التي انعقدت في القلوب ، وهم مع مباعدتهم لا أحِبّة إلا هم . والذي أكّده الشاعر هنا ليس أنهم أحبة ، وإنّما قصر الأحبة عليهم ،والفرق كبير ؛ لأنّ المعنى في الأول : أنّ محبتهم باقيةٌ في القلب وإن أمست دارهم مباعدة . والمعنى في الثاني : ليس ثمة محبة باقية في القلب إلا محبتهم وإن أمست دارهم مباعدة ،وليس ثمة شوق يغلب الشوق إليهم ،وبعبارة أخرى : إنّ لهم منزلة من الحب لا يزاحمهم فيها غيرهم ،وهو بذلك

---

(١) ابن فارس (معجم مقاييس اللغة) ٦ : ٣٤ .

(٢) ٢٢ : ٧ ،ص ٢٠٢ .

تعبير عن موقف نفسي خاص به يدل من خلاله على عدم تحوّله وتغيّره مهما تباعد الزمن وتفرّق الأحبة . وهذه هي الصبوة ،وهذا هو الغناء الذي يتغنى به شاعر يحدو الركب إلى هرم. وهذا الشرط الذي يذكر مباعدة الديار، قد يوقع في الوهم فتور الشوق إليهم ونسيان أيامهم، فناسب ذلك أن يؤكّد ما يدل على عكس ما يتوهم ،وهو " فما الأحبة إلا هم " . والذي أصاب فيه زهير هنا جاء على وجه يخالف ما ذهب إليه عبدة بن الطبيب وأخذ عليه ،حين قال (١) :

إنّ التي ضربت بيتاً مهاجرةً ... بكوفة الجند غالت وُدَّها غول

جعل السكاكي استعمال اسم الموصول ذريعة إلى تحقيق الخبر .

ولك أن تلحظ هذه الحفاوة في حديثه عمّن يحب منذ بدء القصيدة ،فهي حديث عن مشاعر خاصة تدور حول الوفاء والاحتفاظ بعهود المحبة ،ومخاطبة من يلومه على تذكّر أيام الصّبا ،وكان الكلام صادراً من نبع خاص :

هل في تَذكُّرِ أيّامِ الصِّبا فَنَدُ ؟ ... أم هل لِمَا فاتَ ،مِنْ أيّامِهِ ،رَدَدُ ؟ (٢)

أم هل يُلامَنَّ باكٍ ،هاجَ عَبْرَتَهُ ... بالحِجْرِ ،إذ شَفَّهُ الوَجْدُ الذي يَجِدُ ؟

---

(١) السكاكي (مفتاح العلوم) ص٧٩ .

(٢) ٢٢ : ١-٦ ، ص ٢٠١-٢٠٢ .

" الصِّبا : اللهو من الغزل.والفند : الخطأ .والرَدَد : جمع رَدّة . وهي الارتجاع.أوفى : أشرف . والشرف : المكان العالي . والنشْز: المرتفع .والتائق : المشتاق . والكمِد : الحزين ذو الغم الشديد ."

ص ٢٠١ ، حاشية (٢ ، ٤) .

أوفىٰ على شَرَفٍ ، نشْزٍ ، فأزعَجَهُ قلبٌ ، إلى آل سَلمَى ، تائقٌ كَمِدُ

متى تُرى دارُ حيٍّ ، عَهِدْنا بِهِمُ حيثُ التقى الغَورُ من نَعمانَ ، والنُّجُدُ

لهُمْ هَوًى ، مِن هَوانا ، ما يُقرِّبُنا ماتَتْ ، على قُرْبِهِ ، الأحشاءُ والكَبِدُ

إنِّي ، لِما استودَعَتْني ، يومَ ذي غَذَمٍ راعٍ ، إذا طالَ بالمُستَودَعِ الأمَدُ

وتأمّل صور النفي التي تتابعت بأسلوب الاستفهام : " هل في تذكر .. " ، والمعنى نفي ذلك وإنكاره واستجهال من يقول به . " أم هل لما فات .. " ، وفي هذا من الحسرة واللهفة ما فيه . " أم هل يلامن .. " ، وفيه نفي توجيه اللوم . وتفقّد حال هذا التائق الذي أوفى على نشز . وهكذا تجد الأبيات السابقة مفعمة بمعاني التشوق والتحرق ، وهو المعنى الذي أكّده بالنفي والاستثناء في قوله : " وما الأحبة إلا هم " ، وكأنَّ هذه الجملة تلخيص للموقف وتركيز له . ويلحظ في البيت الذي بعد ذلك :

ياصاحِبَيَّ ، انظُرا ، والغَورُ دُونَكُما : هلْ تَبدُرَنَّ لنا ، فيما نَرَى ، الجُمُدُ (١)

أنّ الشاعر لا يزال مغلوباً بوجده وشجنه . ثم قال :

هيهاتَ ، هيهاتَ ، من نَجْدٍ وساكنِهِ مَن قد أتَى دُونَهُ الهَفْتاءُ ، والثَّمَدُ (٢)

وهو هنا قد انكشف عنه وجده ، واتجه إلى صاحبه بقوله بعد ذلك :

إلى ابن سلمى ، سنانٍ ، وابنهِ هَرِمٍ تَنجُو ، بأقتادِها ، عِيديَّةٌ تَخِدُ (٣)

---

(١) ٢٢ : ٨ ، ص ٢٠٢ .

(٢) ٢٢ : ٩ ، ص ٢٠٢ .

(٣) ٢٢ : ١٠ ، ص ٢٠٢ .

وقد أتى التوكيد بالنفي والاستثناء لمحض التوكيد والتقرير، كما في قوله مخاطباً بني عُليم:

فإنّ الحقّ مَقطَعُهُ ثَلاثٌ ... يَمينٌ ،أو نِفارٌ ،أو جِلاءُ(١)

فذلِكُمْ مَقاطِعُ كلِّ حَقٍّ ... ثَلاثٌ ، كُلُّهُنَّ لكُمْ شِفاءُ

فلا مُستكرَهُونَ ،لِما مَنَعتُمْ ... ولا مُعطُونَ ،إلا أنْ تَشاؤوا

جِوارٌ شاهِدٌ ، عَدْلٌ ،عليكُم ... وسِيّانِ الكَفالةُ ،والتَّلاءُ

بأيِّ الجِيرَتينِ ،أجَرتُمُوهُ ... فلم يَصلُحْ ،لكُم ، إلا الأداءُ

" النِّفارُ : أن يتنافروا إلى الحاكم ، رجلٍ يحكم بينهم . والجِلاء: أن ينكشف الأمر وينجلي ..."(٢) وقوله : " جوار شاهد ..." أي : قد كان جاراً لكم ،وجوارُه بيِّنٌ ، فهو شاهد عليكم أنّكم أصحابه . والتَّلاء : الحوالة . يقال : قد أَتْليتُ فلاناً على فلانٍ بما كان لي عليه ،أي : أحلتُه ... وقال أبو عبيدة : التَّلاءُ : أن يُكتب على سهمٍ أو قدحٍ : فلانٌ جار فلانٍ ... وسِيّانِ : مُستويانِ "(٣) وقوله : "بأيِّ الجيرتين .." إن كنتم أجرتموه و عقدتُم له فقد وجب حقُّه عليكم ،وإن كان اختياركم من قبل نفسه وجاوركم فهو واجب الحقّ أيضاً . وفسّره أيضاً فقال : الكفالةُ جِوارٌ والتَّلاءُ جوارٌ ، فأيّ الأمرينِ كانَ فلا يصلح إلا الأداء"(٤).

---

(١) ٣ : ٤٢-٤٦ ، ص ٦٦-٦٨.

(٢) ص ٦٧.   (٣) ص ٦٧ - ٦٨.   (٤) ص ٦٨.

ترك زهير في هذا المقطع سبيل الهجاء وسبيل التهديد ،ودعا القوم إلى التي هي أحسن ، فبسط وجوه الحق ومقاطعه ومداخله ومخارجه أحسن ما يكون البسط ،وقد أعجب عمر رضي الله عنه بقول زهير : " فإنّ الحق ..." ، قال : " لو أدركت زهيراً لوليته القضاء لمعرفته به "(١) ، كما سُمّي زهير به " قاضي الشعراء "(٢) .

ثم ذكر : أنّ هذه المقاطع الثلاث يمكنهم أن يسلكوا منها ما يشاؤون : يمين ، أو نفار ،أو جلاء . وأنّهم إذا دخلوا في هذا الباب الذي هو أشبه بذوي المكرمة والفضيلة - فهم غير مستكرهين لما منعوا ولا معطون إلا أن يشاؤوا ، وأتى النفي والاستثناء ليؤكد قصر عطائهم على ما يشاؤون هم ،وهو يعني من طرف خفي أنّه إنّما هجاهم لسلوكهم غير هذا الطريق . إنّ المعنى المستتر وراء القصر هو نفي أن يكون منه هجاء أو تهديد أو ما شئت من الوسائل التي تنتزع بها الحقوق من أيدي غاصبيها ،وكلّ ذلك مكفوف عنهم كفّاً صارماً حاسماً إن هم سلكوا واحداً من هذه الثلاثة التي كلّها لهم شفاء .

وعبّر عن ضرورة أداء المال لهذا الرجل من بني عبدالله بن غطفان كاملاً بالنفي والاستثناء بقصر ما يصلح لهم على الأداء .والتأكيد هنا لتحقيق هذا المعنى ، ومحاولة إقناعهم به ،لأنّه لا يزال يلين لهم القول ويعرض عليهم ما يصلح لهم ،أراد ما هو أشبه بهم ،وهو الوفاء والأداء ،وما عدا هذا فهو نقيصة لا صلاح معها ولا كرامة .

---

(١) أبو هلال العسكري (الصناعتين) ص ٣٥١ .

(٢) ابن رشيق (العمدة) ١ : ٥٥ .

وقوله - من قصيدة نسبها أبو عمر الشيباني إلى كعب بن زهير :-

وتَنُوفةٍ ،عَمياءَ ،لا يَجتازُها إلا المُشَيَّعُ ،ذو الفُؤادِ الهادِي (١)

" التَّنُوفةِ : القَفر . يَجتازُها : يُجاوزُها . عمياءُ : لا طريقَ بها . المشيَّعُ : الجريءُ الشُّجاع الذي كأنَّ معه من يُشيِّعه ،أي لجُرأتِه ." (٢)

أفاد القصر تحقيق المعنى وتأكيده ؛ فهذه صحراء مخوفة لا يطرقها طارق عمياء ، فقصر اجتيازها على المشيّع الذي له قلب شجاع يشيّعه دون غيره .

وقد أتى النفي والاستثناء لتوكيد إحساس المتكلم بالمعنى وأنّه إحساس قوي . وهو ضرب أغفله الشيخ عبد القاهر والبلاغيّون ،وذكر الدكتور محمد أبو موسى -وهو مستلهم من كلام الزّمخشري - بأنّه " خصوصية تفسّر شيئاً في داخل المتكلم ذلك هو إحساسه بهذا المعنى إحساساً عميقاً ،وتعبيره عنه كذلك تعبيراً عميقاً ،كما أحسّه والكلام تجسيد لحقائق نفسية ،وبناء صوتي لأحوال شعورية ، وملامح هذه الحقيقة في النفس هي ملامح هذه الصورة الكلامية " (٣) ،كما في قول زهير :

أَلَا لا أرَى ،على الحَوادثِ ،باقيا ولا خالداً ،إلا الجبالَ ،الرَّواسِيا (٤)

وإلا السَّماءَ ،والبِلادَ ،وربَّنا وأيّامَنا ،معدُودةً ،واللَّياليا

---

(١) ٣٥ : ٢ ، ص ٢٤٤ .

(٢) ص ٢٤٤ .

(٣) (دلالات التراكيب) ص ١٠٢ .

(٤) ٢٣ : ١١ - ١٢ ، ص ٢٠٩ .

يذكر الشاعر ما ينبعث في نفسه من أفكار وخواطر وآراء حول الحياة والأحياء ،وكأنّه يؤكّد انبعاثها في نفسه واستحكامها عنده ، فقصر البقاء على ما ذكر من الجبال الرواسي والسماء والبلاد والرب.

وقد أتى التوكيد بالنفي والاستثناء لجملة حقائق كما يتصورها المتكلم في المخاطب وقد غفل عنها واطّرحها وذهل عنها ،وهو أصل أشار إليه الشيخ عبد القاهر في قوله : " وجملة الأمر أنّك متى رأيت شيئاً هو من المعلوم الذي لا يُشك فيه . قد جاء بالنفي ، فذلك لتقدير معنًى صار به في حكم المشكوك فيه "[1] ، كما في قول زهير :

وما الحَربُ إلّا ما عَلِمتُم وذُقْتُمُ وماهو عنها بالحَديثِ ،المُرَجَّمِ[2]

وهو مفصح عن المعنى الذي ذكره عبد القاهر ،لأنّ المعنى الذي ساق زهير لأجله النفي والاستثناء معلوم ،بدليل قوله : " ما علمتم " ، ثم إنّ الحديث عن الحرب ليس بالمُرَجَّم يرمى بالظنون ،وإنما هو حقيقة معروفة ،وأتى النفى والاستثناء لا لتوكيد معنى أنّ الحرب هي هذا ،وإنما لتوكيد أنّ الحرب ليست إلا هذا ،فليس من ورائها نصر أو فوز أو ذكر . إذاً ، فالقوم يعلمون ويلات الحرب وما تجرّه من أخطار، وهي معتقدات راسخات في قلوبهم وعقولهم ،إلا أنّ تماديهم وانغماسهم وما قام في النفوس حول هذه الحرب بما يُغري كحب الثأر والغلبة والذكر والنصر - دفعهم لإغفال حقيقتها التي لا ينكرونها ،فأكّد الشاعر ما يعلمونه من أمرها وأنّه ليس وراءها شيء مما قد يتوهمونه ،وكأنّ ماهم

---

(١) (دلائل الإعجاز) ص ٣٣٣-٣٣٤.

(٢) ١ : ٢٩ ، ص ٢٦.

فيه بسببٍ منها أذهلهم عنها ، وصاروا لا يعلمون حقيقتها . وهكذا مضى التركيب لافتاً إياهم لما تغافلوه وتجاهلوه .

وقد يأتي النفي والاستثناء لتوكيد أكثر من معنًى ،كما في قوله :

لِذي الفَضْل ،من ذُبْيانَ ،عِندي مودّةٌ وحِفظٌ ،ومن يُلحِم إلى الشَّرِّ أنسجِ (١)

وما الفَضلُ إلا لامرئٍ ،ذي حفيظةٍ متى تَعْفُ عن ذَنبِ امرئِ السُّوءِ يَلجَجِ

مقصود الشاعر أن يحدّد أهل مودته وأنهم ذوو الفضل من ذبيان فحسب ،فمن ذبيان من هم ليسوا أهل مودته ،لأنّهم يلحمون إلى الشّرّ، ولأنهم أهل السوء. والعفو عن أهل السوء يؤدّي إلى لجاجتهم فيه ، وهذا المقصود الذي حدد فيه الشاعر مراده تحديداً صارماً يخلصه مما يلتبس به - هو الذي دعاه إلى توكيد لبِّ هذا المعنى وخلاصته في قوله : "وما الفضل إلا . . " ، وفي هذا التوكيد -أيضاً- بيان لقوة إحساس الشاعر بمعناه وأنّه أكّده في لفظه كما وجده في نفسه .

وقوله يمدح سنان بن أبي حارثة المُرّيّ :

وإذا يُلاقي نجْدةً ،مَعلومةً يَصْلَى الكُماةُ ،بحَرِّها ،لم يَبْلُدِ (٢)

لم يَلْقَها ،إلا بِشكّةِ حازمٍ يَخشَى الحوادِثَ ،عازمٍ ،مُسْتَعْدِدِ

" نجدةٌ : شدّة وشجاعة . والكماةُ : الأشدّاء . وذلك أنه يَكمي عدوّه ،أي : يقمعُه . ومنه : كَمَيتُ الشَّهادةَ أي : كتمتُها . ولم يبلُدْ : لم يتبلّد ،من البَلادة ، أي : يضعفْ ... الشّكّةُ : السّلاح أجمع . ومُسْتَعْدِدٌ أراد : مستعدّاً متهيّئاً ،فأظهر الإدغامَ. (٣) "

---

(١) ٣٢ : ١٦-١٧ ، ص٢٢٨ .

(٢) ٢١ : ٢٤ - ٢٥ ، ص١٩٩ . (٣) ص١٩٩ .

أكد قصر لقائه النجدة على سلاح الحزم ،فهو لا يلقى النجدة إلا بسلاح حازم ، وفي وصفه بأنه لا يلاقي الشكّة إلا وقد أخذ كل عدة الحرب - معنىً يوشك أن يكون وصفاً له بالخوف أو الفزع ، فهم يمدحون من يلاقي الأعداء حاسراً من غير درع وعُدّة ،ففطن زهير إلى هذا وأضاف الشّكّة إلى الحزم ،لأنّ أخذ العدة من الحزم لا من الهلع والجبن والخوف . والمعنى الذي جاء بطريق النفي والاستثناء معنىً يبرز في الممدوح الحكمة والشدة والسداد والشجاعة والحزم والاحتياط ،فهو لا يلقى الأمر الصعب إلا وقد أعدّ له عدّته ، فكان لا بد من تأكيده لأهميته في باب المدح حفاوة من الشاعر بتقرير هذه الصفات في الممدوح ،وحفاوة بهذه المعاني العظيمة التي يتمثّلها ،ولأنّها - أيضاً - مما يمكن أن يستغرب فهي من الصفات التي لا يلتزم بها الناس التزاماً صارماً . وتأمّل الكلام تجده كله قد بُني على التوكيد والتحقيق ، فالحرب " نجدة معلومة " أي : شدّة مشهور أمرها ، ثم بقوله " يصلى الكماة بِحرِّها " فجعل لها ناراً يتلظّى بها رجال الحرب الأشداء ،وتأمّل تكرار النغم الذي في لفظ " عازم " بعد لفظ " حازم " ،ثم تأمّل : " شِكّة حازم " ،وكأنّه يعني بها القطع والحزم والعزم .

لقد استطاع زهير أن يقيم هذه الأداة اللغوية العالية على سرائر معنوية خصبة كان المعنى في بعضها غائراً ،وقد تمثّل ذلك عند التوكيد بها لغرابة المعنى ،وقد تنوعت دواعي التوكيد بها في معانٍ عديدة هي : أن الأمر على خلاف ما يتوقعه المتكلم ، أو وفق

ما يجبّ ويتمنى ،أو لأنّ الأمر على غير الغالب في مثله ،أو حفاوة بمن يُحدّث عنهم وهم : إما الممدوحون وإما الأحبة ،أو لمحض التوكيد ، أو لإحساس المتكلم بالمعنى إحساساً قوياً ، أو لتوكيد جملة حقائق كما يتصورها المتكلم في المخاطب وقد غفل عنها واطّرحها .

وجميع ما مضى يؤكد مسألة مهمة ، وهي : أنّ فكرة الإنكار لا بد أن تُؤخذ وتفهم على أساس أنها معنىً متسع جداً ، أوسع من مسألة المخاطب وإنكاره التحقيقي والتنزيلي ،وأوسع من إنكار المتكلم وأنه كان يكذب نفسه . وهذا المعنى هو شيء قد يكون لخصوصية في المعنى نفسه أو لأمرٍ ما آخر ،وها أنت مع النفي والاستثناء كأداة للتوكيد ترى الإنكار فيها بعيداً غائراً في باطن العبارة وجذور المعنى .

التوكيد بقد

مواقعها

تختلف دلالة " قد " على التوكيد عن غيرها من أدوات التوكيد ؛ لأنها تحقق الحدث في الماضي والمضارع ،وتقرّبه من الحال في الماضي ،وهذا التحقيق أحد معانيها التي ذكرها ابن هشام (١) ،كما ذكر الرّضي (٢) في شرحه على كافية ابن الحاجب أنّها : "إذا دخلت على الماضي أو المضارع فلا بدّ فيها من معنى التحقيق ثم إنه مضاف في بعض المواضع إلى هذا المعنى في الماضي التقريب من الحال مع التوقع ... وقد يكون مع التحقق التقريب فقط ".

والظاهر أنّ زهيراً استثمر هذه الأداة فيما وقعت عليه استثماراً جيداً ، فقد وقعت قبل الماضي كثيراً ،وقبل المضارع قليلاً إذا قيس بالماضي ،والعرض التالي يحاول تبيّن مواقعها التي تكاثرت فيها وسياقاتها .

أولاً : " قد " الداخلة على الماضي :

وقد أتت في صور متعددة ؛ هي :

١ - " قد " الواقعة في حيّز القسم :

وقد يكون القسم مصرّحاً فيه بالمقسم به ،مثل قول زهير:

---

(١) (مغني اللبيب عن كتب الأعاريب) ١ : ١٧٤ .
(٢) (الكافية في النحو) ٢ : ٣٨٧-٣٨٨ .

تاللّهِ ذا قَسَماً ، لقد عَلِمَـــت ذُبيانُ ، عامَ الحَبْسِ ،والاصْــرِ (١)

وقولــه :

لعَمرُك ،والخُطُوبُ مُغيـّــراتٌ ، وفي طُولِ المُعاشرةِ التَّقالِـــي (٢)

لقَد بالَيتُ مَظْعَنَ أُمِّ أوفَـــى ولكنْ أُمُّ أوفَى لاتُبالِــــي

وقولـــه :

تاللّهِ ،قد عَلِمَتْ قَيسٌ ،إذا قَذَفَتْ رِيحُ الشِّتاءِ بُيوتَ الحَيِّ ،بالعُنَنِ (٣)

العُنَنُ : جمع عُنَّةٍ . وهي حظيرةٌ من شجر ، تُعْمَلُ حول البيتِ لتردَّ الريح عنهم ، فإذا اشتدّت الريح قَلَعتْها فرمت بها على البيت (٤).

وقد يكون المقسم به محذوفاً ،ومدلولاً عليه باللام التي يُسمِّيهـــا العلماء لام القسم ،مثل قوله :

ولقد غَدَوتُ ،على القَنيص ،بسابحٍ مِثلِ الوَذيلةِ ،جُرْشُعٍ ، لأمِ (٥)

وقولـه :

لقد أَورَثَ العَبسِيُّ مَجْداً ،مُؤثَّلاً ومَحمَدةً ،من باقياتِ المَحامِــدِ (٦)

---

(١) ٤ : ٥ ،ص ٧٧ .
"الحبس والأصر والأزْلُ واحدٌ . ويقال : نَعَمٌ مأصورٌ ومحبوسٌ ومأزولٌ ، اذا أحدقَ بهم العدوُّ فحبَسوا مالهم أن يخرج إلى الرعي خشية أن يُغار عليه ."ص ٧٧ .

(٢) ٤٣ : ١-٢ ، ص ٢٥٧ .
" التقالي : التباغض . . . والخطوب : الأمور . مغيّرات:من حال الى حال . المعاشرة : المصاحبة والمخالطة...باليت : من المبالاة . مظعنُها : مسيرُها ،من قولك : ظَعَنتْ تظعَنُ ظَعْناً ،"ص ٢٥٧ .

(٣) ٦ : ١٤ ، ص ٩٩ . (٤) ص ٩٩ . (٥) ١٧ : ٦ ، ص ١٨٢ .

(٦) ٣٣ : ١ ،ص ٢٤١ .
"مؤثل" : "وكُلُّ شيءٍ قديم مؤصَّل : أثيلٌ ومؤثّلٌ ومتأثّلٌ . . . ومجد مؤثّلٌ : أي مجموع ذو أصل." ابن منظور (لسان العرب) ١ : ٢٨ (مادة : أثل) .

وقوله :

لقد لَحِقتُ ،بأُولَى الخَيلِ ،تَحمِلُني لمّا تذاءَبَ ،لِلمَشبُوبةِ ، الفَزَعُ(١)

وقعت "قد " في كلّ هذه المواقع عنصراً من عناصر التوكيد ينضمّ إلى غيره من عناصر تقوم عليها جملة القسم كلّها (المقسم به والمقسم عليه) ، وقد نقل ابن هشام(٢) عن غيره : " قد في الجملة الفعلية المجاب بها القسم مثل إنّ واللام في الجملة الاسمية المجاب بها في إفادة التوكيد " .

و ترى الأسلوب الواقعة فيه قد يكون مبنياً كلّه من هذه العناصر التوكيدية ، كما في قوله " تالله ذا قسماً ،..." . تأمّل القسم ، واسم الإشارة المشار به إليه ، والتصريح بلفظ القسم ،ثم اللام الداخلة على قد ، ثم قد ،ثم إنّ ذبيان علمت علماً ليس بالظن .

وأقل من هذا تكاثفاً ، قوله : " تالله ، قد علمت ..." ، فقد خلا هذا القسم من الإشارة و لفظ القسم " ذا قسماً " ،ويلحظ استعمال القسم وهو لفظ الجلالة في قضايا مع قبائل ها هنا " ذبيان " و " قيس " ، أمّا في قوله :" لعمرك " فالقسم على معنىً نفسي عنده خاص به .

وفي المرتبة التالية ،ما تجد فيه " قد " مع لام القسم من غير ذكر المقسم به ،مثل :" لقد أورث .." و "لقد لحقت .. " و " لقد غدوت..".

---

(١) ١٥ : ١ ،ص ١٧١ .
" تذاءب : جاء من كل وجهٍ . ومنه : تذاءبت الرِّيح إذا جاءت من كلِّ مكانٍ . قال الأصمعيُّ : وهو مُشتقٌّ من الذئبِ، لأنه يأتي من كل وجه ... والمشبوبة : الحرب المُضرَمةُ. يقول : جاء الفَزَعُ من كل وجهٍ . شَبَّ النارَ يشُبُّها شَبّاً "ص ١٧١ .

(٢) (المغني) ١: ١٧٤ - ١٧٥ .

٢ - " قد " الواقعة في الجملة الحاليّة :

وهي كثيرة جداً ،والجمل الحالية قيود يزيد المعنى بها سخاء ودقة ،وهي من محاسن الكلام. تأمّل قوله :

وكأنّها ،يوم الرَّحيل ،وقد بدا　　منها البَنانُ ، يَزِينُهُ الحِنّاءُ(١)

وقولــه :

يَجُرُّونَ البُرودَ ،وقد تَمشَّتْ　　حُمَيّا الكأسِ ،فِيهِمْ ،والغِناءُ(٢)

وقولــه :

أقُولُ للقَومِ ،والأنفاسُ قد بَلَغَتْ　　دون اللَّها ،غيرَ أنْ لم يَنقُصِ العَدَدُ(٣)

وقوله :

ولم تَدرِ وَشْكَ البَينِ ، حتّى رأتْهُمُ　　وقد قَعَدُوا أنفاقَها ،كُلَّ مَقعَدِ(٤)

وقوله : في وصف ناقة :

حتّى تَحُلَّ بهم ،يَوماً ،وقد ذَبَلَتْ　　من سَيرِها جرةٍ ،أودُلجةِ السَّحَرِ(٥)

---

(١) ٤١ : ٦ ، ص ٢٥٤ .

(٢) ٣ : ٣٦ ، ص ٦٥ .
« حُمَيّا الكأس : سَورتُها . يجُرّون ،يعني : من السُّكرِ . وقد تمشّتْ أي: مَشى صلابتُها في مفاصِلِهم . والغِناء ممدوداً : من الصوتِ . والغِنى من المال مقصورٌ ».ص ٦٥ . البُرود : « والبُرْدُ من الثياب ،قال ابن سيدة: ثَوبٌ فيه خُطُوطٌ ، وخص بعْضُهُمْ به الوشْي ،والجمع أبْرادٌ وأبْرُدٌ وبُرُودٌ » ابن منظور (لسان العرب) ١ : ٢٥٠ . (مادة : برد).

(٣) ٢٢ : ١٨ ، ص ٢٠٣ .
« ابنُ سيدة : واللَّهاةُ من كل ذى حلْقٍ : اللَّحْمةُ المُشْرِفَةُ على الحَلْقِ » (المصدر السابق) ٥ : ٤٠٩١ . (مادة : لها).

(٤) ٢٢-١٤ ، ص ١٦٥ .
« وشكُ البَين : سُرعتُه . يعني : مُفارقةُ ولدِها . رأت الرُّماةَ قد قعدوا أنفاقَها : مَخارِجَها وطُرُقها ».ص ١٦٥ .

(٥) ٢٩ : ٣ ، ص ٢٣٢ .
" ذبلت " : « وذبل الفرس : ضمر » ابن منظور (لسان العرب) ٣ : ١٤٨٨ . (مادة : ذبل).

===

وغيره كثير ، تجد سرو المعنى و محضه يكمن في هذه الجمل ، وتأمّل المعاني التي دخلت عليها " قد " ،تجدها هي لُبّ الغرض، فجواب القسم - مثلاً - هو المقصود بالقسم ، وهذه الجمل الحالية قيود ينصبّ فيها أكثر الغرض . انظر إلى قوله " وقد ذبلت . . " تجد أنّ هذا هو المقصود ،فهي رحلة شاقة بهذه الناقة التي ضمرت من الهاجرة والدّلجة ،وهذا لا يكون إلا إذا كانت الرحلة لماجدٍ قد لُزّ عِزّه بالقمر . وفي قوله : " وقد بدا منها البنان " ترى هذا البنان الذي يزينه الحناء والمعنى المنصبّ فيه هو دلالتــه على النعمـــة والصون والنضارة وما هومن هذا الباب .

٣ - " قد " الواقعة في جملة الصفة :

كما في قوله :

أُمَشّي ، بَينَ قَتلَى ،قد أُصِيبَتْ نُفوسُهُمُ ،ولم تَقطُرْ دِمــــاءُ (١)

« أُمشّي ،يريد : أَمْشي . يقول : هم قَتلَى الخمرِ والسُّكرِ ،ولم تَسِلْ دِماؤهم (٢) . »

وقولـه :

وهَمٍّ قد نَفَيتُ ، بأَرْحَبِــــيٍّ هِجانِ اللَّونِ ،مِن سِرٍّ ،هِجانِ (٣)

=== " هاجرة " : « والهجير والهجيرةُ والهَجْرُ والهاجِرَةُ : نِصْفُ النَّهار عند زوال الشَّمس إلى العصر ،وقيل في كل ذلك : إنّه شدة الحر . » (المصدر السابق) ٦ : ٤٦١٩ (مادة : هجر) .
" دلجة " : « الدلجة : سير السحر » (المصدر السابق) ٢ : ١٤٠٧ . (مادة : دلج) .
" السحر" : « السحر والسحر : آخر الليل قبيل الصبح » (المصدر السابق) ٣ : ١٩٥٢ . (مادة:سحر) .

(١) ٣ : ٣٥ ، ص ٦٥ .
(٢) ص ٦٥ .
(٣) ٤٨ : ١٠ ، ص ٢٦٤ .

"أرحبيٍّ" : "أرحبُ حيٌّ ، أو موضعٌ يُنسبُ إليه النجائب الأرحبيّةُ ، قال الأزهريُّ : ويحتمل أن يكون أرحبُ فحلاً تُنسَبُ إليه النّجائب ، لأنّها من نَسْلِهِ ".(١) و "هجان" : "والهجانُ الكريم مأخوذٌ من الهِجانِ ، وهو الأبيضُ . والهِجانُ : البيضُ ، وهو أحسَنُ البياض وأعتقُه في الإبلِ والرِّجالِ والنِّساءِ ".(٢) و "سِر" : "السِّرُّ: الأصل ".(٣) و "هجان" الثانية : "وبعيرٌ هِجانٌ : كريم ".(٤)

وقولـه :

وأشعثَ ، قد طارتْ قَنازِعُ رأسِهِ ، دَعوتُ ، على طُولِ الكرَى ، ودَعانِي (٥)

" أشعثٌ : رجلٌ يسير معه . و القَنازِعُ : شعرُ رأسِه . وكلّ خُصْلةٍ مجتمعةٍ هي قُنْزُعةٌ ".(٦)

وقولـه :

ومُستَنبهٍ ، من نومِهِ ، قد أجابَني بِرَجعَينِ ، من ثِنيَيْ لسانٍ ، مُلَجلِجِ (٧)

" أي : لم يُبيِّن الكلام ".(٨)

وهي مثل الحالية في أنّها قيودٌ ينصبُّ فيها أكثر الغرض ، ففي قوله : " وهمٍّ قد نفيتُ .." تجد أنه قد نفى همه بهذا الأرحبي

---

(١) ابن منظور (لسان العرب) ٣: ١٦٠٧ (مادة : رحب) .

(٢) (المصدر السابق) ٦: ٤٦٢٦ (مادة : هجن) .

(٣) (المصدر السابق) ٣: ١٩٩٠ . (مادة : سرر) .

(٤) (المصدر السابق) ٦: ٤٦٢٦ . (مادة : هجن) .

(٥) ٤٩: ١٧ ، ص٢٦٩ .

(٦) ص ٢٦٩ .

(٧) ٣٢: ١٣ ، ص٢٢٧ .

(٨) ص٢٢٨ .

الذي هذا وصفه ،ولا يكون النفي بهذا الأرحبي إلا لهم له خطر وبال ، وهكذا ،ترى " قد " تُضفي على الجملة التي وقعت فيها معنى التحقيق والتوكيد .

٤ ـ مواقع أخرى تحتاج إلى فضل التوكيد :

ومن ذلك قوله :

غَدَتْ عذّالتايَ ،فَقُلْتُ : مهلاً	أفي وَجْدٍ ،بِسَلْمَى ،تَعْذُلاني ؟ (١)
فَقَدْ أَبقَتْ صروفُ الدّهرِ ،منّي	عروقَ العُرْفِ ،تَرّاكَ الهَوانِ

" فقد أبقت " ردٌّ على عذل عاذلتيه في وجده بسلمى ،أو هو تحليل وعلة لهذا الرد الذي ذكره إنكاراً مبهماً غير مُعلّل في قوله : "أفي وَجْدٍ بسلمى تعذُلاني ؟ ". وقد نوّه في هذا البيت بحقيقة مهمة ،وهي أنّ صروف الدهر - أي نوائبه - التي سحقت نفسه لم تستطع أن تنال شيئاً من خليقتين ثابتتين عنده ،وهما : معرفة العرف ،وترك الهوان ، فهو ذو أريحية تعرف العرف وترتاح له وتسعى فيه ،ثم هو أبيٌّ يرفض الهوان ،وهذا المعنى الجليل محتاج إلى فضل توكيد وحفاوة .

إنّ هذه الخلائق المحمودة مما يحتج به هذا الشاعر الحكيم على عاذلتيه في وجده بسلمى ؛ فهو وجد من يعرف العرف وفضائل النفوس وعفّة الضمير . والنظر القاصر يتساءل عن الصلة بين وجده بسلمى وهذه الخلائق، والأمر في الشعر عند أهل العلم والبصر به ليس كذلك ؟ ،لأنّ ذكر المرأة والصبوة في معظم شعر الجاهليين يعني معاني كثيرة لعلّ

---

(١) ٤٨ : ١-٢ ،ص ٢٦٢ .

أقلّها شأناً هو ما يدل عليه ظاهر اللفظ.

وقراءة بقية القصيدة (١) يظهرك فيها تغنّي الشاعربمحمود الخلائق ، وهو يُوجّه كلّ ذلك إلى عذّالتيه في وجده بسلمى ،وكأنّ من كان كذلك من معرفة العرف ،وترك الهوان ،والمحافظة على الجلّو ، ووفرة العرض ،وبذل المال للخلّ ،وصبرالنفس إذا ما أُرعدت رئة الجبان ،وحفظه للأمانة ،واصطباره على ما كان من ريب الزمان ،وذبّه عن مآثر صالحات ،وكفّه نفسه من أذى الجيران -لا يلام في وجده بسلمى. وكأنّ سلمى رمز لمجموعة خلال ،وكأنّ من يعذل الشاعر في سلمى إنّما يكفه عن مجموعة هذه الخلال التي تغنّى بها ويسلبها منه ؛فهي بطولة وعفاف وسخاء وسمو وصون وجملة الخلال التي حرص الإنسان عليها ولا يزال .

وقوله في الفرس :

وخَرَّجَها صَوارِخُ كُلِّ يـــومٍ فقد جَعَلتْ عَرائكُها تَلِيـــنُ (٢)

" خرّجها : درّبها وعوّدها . أي : كانت في أول عَدْوِها نِشاطاً لا تُواتِي ، فما زالت تُجيب الدّاعيَ والمستغيثَ ، حتى لا نتْ عرائكُها . "والعرِيكةُ" : الطّبيعة. و في موضع آخر ،" العرائكُ " : الأسنمة . ويقال للرّجل ، إذا كان فيه اعتراض : فيه عريكةٌ . فإذا ذلّ قيل : لا نت عريكتُه (٣) . "

تأمّل قوله : " فقد جعلت .." تجده هو المقصود من

---

(١) الأعلم الشنتمري (شعر زهير بن أبي سلمى) ١٥: ٤-٨ ، ص ٢٨٣- ٢٨٤ .

(٢) ١٠: ٩ ،ص ١٤١ .

(٣) ص ١٤١- ١٤٢ .

البيت ، فإجابة الصوارخ والمنادين بالغوث بهذه الخيل ليس إلا تذليلاً وترويضاً لها وهي النّافرة ، والمقصود أنّها لانت عرائكها وذُلّلت ظهورها لفرسانها وراكبيها .

وقوله :

دارٌ لِسَلمَى ، إذ هُمُ لكَ جِيرةٌ وإخالُ أنْ قد أَخلفَتْني مَوعِدي (١)

وفيه ، تبدو العناصر اللغوية متدافعة ، فـ " إخال " فيها معنى الظن وعدم التّيقن ، ثم ذكر " قد " وهذا يعني التّحقق . وهذا الذي يشبه تدافعاً في سياق العبارة إنّما هو إبانة عن التدافع الكائن في نفس الشاعر ، فهو يخال أنّها قد أخلفته موعده ، ثم يشير إلى أنّ هذا الظن والشك فيه شوب من التوكيد عن طريق " أن " وعن طريق " قد " ، فهما لتوكيد الشك ، والنظرة القاصرة تدفع توكيد الشك لأنّه ما دام قد تأكّد لم يعد شكاً ، فانتقل بذلك من مرحلة الشك إلى العلم والقطع ، إلا أنّ زهيراً يلتقط المعنى كما هو عليه في نفسه ويفرغه في العبارة الدالة عليه بحالته التي قام عليها في نفسه ، فهو شكٌ مؤكّدٌ ، وهو غير العلم ، وغير اليقين . وهكذا تمضي اللغة على نمط دقيق وفق الإحساس بالمعنى وقيامه في النفس .

وقوله يمدح هرم بن سنانٍ :

ولَنِعْمَ مأْوَى القَومِ ، قد عَلِمُوا إنْ عَضَّهُم جُلٌّ ، مِنَ الأمْرِ (٢)

" جُلٌّ وجَليلٌ : عظيمٌ (٣) " .

---

(١) ٢١ : ٢ ، ص ١٩٤ .

(٢) ٤ : ٨ ، ص ٧٨ .

(٣) ص ٧٨ .

" قد علموا " ،جملة معترضة ،والاعتراض يُؤتى به - أحياناً - للتوكيد ،أي أنّ هذا المعنى وهوكون الممدوح مأوى القوم في الأمر الشديد أمرٌ معلوم للقوم ،ثم إنّ إسناد العلم " إلى القوم " الذي هو مأواهم إن عضّهم أمرٌ جليل - فيه أنّ ذلك أمرٌ ثابت له والجميع يعلمونه ،وهذه المعرفة وهذا العلم بالأمر الثابت يجعلهم في مأمنٍ من الكروب وما يرمي به الزّمان .

وقوله في صاحبٍ له :

قد أورثَ السَّيرُ وَقراً ، في مَسامِعِهِ وفي اللّسانِ ،إذا استَفهَمْتَهُ ،لَفَفا (١)

" الوَقرُ : الصَّمَمْ . واللَّفَفُ : ثِقَلٌ في اللسان . يقال : في لسانه لفف ،أي : ثِقَلٌ . والألَفُّ من الرجال : الذي إذا ضرب لم يدر كيف يضربُ . والألَفُ : الذي لا يُبالي ما يخرُجُ من فيه ." (٢)

وهوقريب من قوله السابق (٣) : " مِنْ شِنْيَيْ لسان مُلَجلِجِ " ، والمعنيان محتاجان إلى فضل توكيد ، فالشاعر يريد بيان ما يتجشّمه هو ورفاقه من عناء السفر ،فالسير هنا أورث رفيقه ثقلاً في لسانه ، وهناك أخذ زهير يوقظه وهو متثاقل لم يبين كلامه متلجلج اللسان .

---

(١) ٤٧ : ٢ ،ص ٢٦١ .
(٢) ص ٢٦١ .
(٣) انظرقبل ص ١٨٠ .

ثانياً : " قـد " الداخلة على المضارع :

ويلحظ ابتداء الشاعر بها بمعانٍ يخبر فيها عن أحواله وعوائده ، وأنها أفعال تتكرر - غالباً - فقوله :

وقد أَرُوحُ ،أمامَ الحَيِّ ،مُقتنصاً قُمْراً ،مَراتِعُها القِيعانُ ،والنَّبَكُ (١)

وقد أَرانِي ،أمامَ الحَيِّ ،تَحمِلُني جَرداءُ ،لا فَحَجٌ فيها ،ولا صَكَكُ

يعني : أنه من عادته فعل ذلك ، فهو سلوك من سلوكه ، وشيءٌ يألفه من خلقه .

ومثله كذلك قوله :

وقد أَغدُو ،على شَرْبٍ ،كِرامٍ نَشاوَى واجِدينَ لِما نَشاءُ (٢)

" نشاوى " : " النَّشوة : من السُّكْرِ . والنَّشوةُ : من الخَبَرِ . (٣) "

وقوله :

قد أَشهَدُ الشّارِبَ المُعَذَّلَ ، لا مَعرُوفُهُ مُنْكَرٌ ،ولا حَصِرُ (٤)

" المعذَّل : المُلَوَّم . حَصِرٌ : ضَيِّقٌ . (٥) "

---

(١) ٩ : ١٠-١١ ، ص ١٣٠ .

(٢) ٣ : ٣٢ ، ص ٦٤ .

(٣) ص ٦٤ .

(٤) ٢٨ : ١٠ ، ص ٢٣٠ .

(٥) ص ٢٣٠ .

وقُيّدت هذه الأفعال التي تتكرر ،والتي هي ابتداء معنًى بأنّها هي الاستعمال الغالب ، فهناك استعمال تدخل فيه " قـد " على المضارع ولا تدل على هذا التكرر ،كقوله :

بَلْ قَد أَراها ،جَميعاً ،غَيرَ مُقْوِيـةٍ السِّرُّ فيها ،فوادِي الجَفْرِ ،فالهِدَمُ (١)

" بل قد أراها : يريد : الأَرضِينَ . و مُقويةٌ ومُقفِرةٌ واحدٌ أي : خاليةٌ . ويُروى : " سُرّاءُ " وهي أرضٌ . و الجفرُ : أرضٌ . و الهِدَمُ : أرضٌ . ويقال : " سُرّاءُ منها " يقول : سُرّاءُ ممّا أذكر. ويُقال : سُرّاء من هذه الأَرضِينَ ،أي : كانت غير مُقويةٍ منهم .(٢) "

وقد تعتبر " قد " في ابتداء كلام ؛ لأنّ " بل " للإضراب عن كلام سابق ،أي : لابتداء معنًى بعد الإضراب .

---

(١) ٨:٨ ، ص١١٨ .
(٢) ص١١٨ .

التوكيد بالحروف الزائـــــدة

البـاء :

ذكر لها ابن هشام(١) أربعة عشر معنًى ،منها : إفادتهـا التوكيد ،وهي الزائدة ، وزيادتها في ستة مواضع ،أحدها : فـي خبر الناسخ غير الموجب ،وهي الصُّورةالتي وقعت عليها في شعر زهيـر إذ أتت في مواضع عديدة في خبر ليس ،وكانت زيادتها لتأكيـد معنى النفي -في الغالب- ،كما في قوله :

أَلم تَرَ أَنَّ النَّاسَ تَخلُدُ بَعدَهُم أَحادِيثُهُم ،والمَرْءُ لَيسَ بخالِدِ(٢)

أفادت "الباء" الكلام فضل توكيد ، توكيد نفي مابعدها .

وقولـه :

فلو كانَ حَمدُ يُخْلِدُ النَّاسَ لم يَمُتْ ولكنَّ حَمَدَ النَّاسِ لَيسَ بمُخْلِدِ(٣)

وقـوله :

فَليسَ بغافلٍ ،عَنها ،مُضِيـعٍ رَعِيَّتَهُ ، إذا غَفَلَ الرِّعـاءُ(٤)

وقـوله :

ولَستُ بلاقٍ ،بالحِجازِ ،مُجاوِراً ولا سَفَراً ،إلا لهُ مِنهُمُ حَبـلُ(٥)

وقـوله :

فَلستُ بتاركٍ ذِكرى سُلَيمَـى وتَشبِيبي ،بأُخْتِ بَني العِدانِ(٦)

---

(١) (المغني) ١ :١٠٦-١١٠ .

(٢) ٣٣ : ٨ ، ص٢٤٢ .

(٣) ١٤ :٤٤ ،ص ١٧٠ .

(٤) ٣ : ٣١ ،ص ٦٤ .

(٥) ٥ : ٢٥ ،ص ٩٠ .

(٦) ٤٨ : ٣ ،ص٢٦٣ .

وقولــه :

لا فِعْلُه فِعلٌ ، وليس كَقَولِــه قَولٌ ،وليسَ بِمُفْحِشٍ ،كَــزّمِ (١)

وقوله :

تعفى الكُلُومُ ، بالمِئينَ ،فأَصبحَتْ يُنجِّمُها مَن لَيسَ ،فيها ،بمُجْرِمِ (٢)

ولعلك تلحظ فيما مضى دخول الحرف الزائد " الباء " علــى اسم الفاعل وهو الأكثر ، وهي صيغة فيها معنى التوكيد أيضاً " غافل ، تارك .. " ، والأقل : دخوله على صيغة المبالغة " فعّال " خاصــة ، كما في قوله يمدح هرم بن سنان بن أبي حارثة :

أَليسَ بفَيّاضٍ ، يَداهُ غَمامَـــةٌ ثِمالِ اليَتامَى ،في السِّنينَ ،مُحَمَّدِ؟ (٣)

وقوله : - في القصيدة السابقة أيضا :

أليسَ بضَرّابِ الكُماةِ ،بسَيفِــهِ وَفَكّاكِ أغلالِ الأسيرِ ،المقيّــدِ؟ (٤)

أراد توكيد فيضه وتوكيد ضرابه ،وهوفي المدح كما ترى .

ومما وقعت فيه "الباء" في غير خبر ليس ،وهوقليل ، قوله :

وذِي نَسَبٍ ،ناءٍ ،بعيدٍ ،وَصَلتَهُ بِمالٍ ،وما يَدري بأنّكَ واصِلُــهْ (٥)

وقوله :

لَعَمرُ أبيكَ ،ما هَرِمُ بنُ سَلْمَــى بَملْحِيٍّ ،إذا اللّؤمُ ماءُ لِيمُــوا (٦)

---

(١) ٥٥ : ٢٠ ، ص ٢٨٣ .

(٢) ١ : ٢٤ ، ص ٢٥ .

" تعفى : تُمْحى . و الكلومُ : الجِراحاتُ . و المئينَ : الإبل ، تُجعل نُجوما ،ولم تُجرِم فيها وأنت تغرمُها ص ٢٥-٢٦ .

(٣) ١٤ : ٢٧ ، ص ١٦٩ . (٤) ١٤ : ٣٣ ، ص ١٦٨ .

(٥) ٧ : ٤٠ ، ص ١١٣ . (٦) ١٢ : ٦ ، ص ١٥٣ .

" مــا ":

وتزاد بعد أداة الشرط جازمة كانت أو غيرجازمة (١) ، وقـــد وقعت بعد إذا في شعر زهير ،وهي في وقوعها هذا من الكثـــرة بمكان ،كما في قوله :

تَراهُ ،إذا ما جِئتَهُ ،مُتَهَــلِّلاً كأنَّكَ تُعطيهِ الذي ،أنتَ سائلُه (٢)

وقولــه :

إذا ما غَدَونا ،نَبتَغِي الصَّيدَ مَرَّةً مَتَى نَرَهُ فإنّنا لا نُخاتِلُــــه (٣)

وقولـــه :

وكُنتُ إذا ما جِئتُ ،يوماً لحاجةٍ مَضَتْ ،و أجَمَّتْ حاجةُ الغَدِ ما تَخلُو (٤)

وقـو له :

لَها أداةٌ ،وأعوانٌ ، غَدَوْن لَها : قِتْبٌ ، وغَرْبٌ ،إذا ما أُفْرِغَ انسَحَقا (٥)

وقولــه :

حتّى إذا ما هَوَت كَفُّ الغُلامِ لَها طارَتْ ،وفي كَفِّهِ مِن رِيشِها بِتَكُ (٦)

و غيره كثيرٌ جداً ،ووجه التوكيد بـ " ما " هنا ،أنَّ أداة الشرط غير الجازمة قبلها تأتي للربط بين جملتين ،وتأتي " ما " هذا الحرف الزائد دالاً على توكيد هذا الارتباط ،وبعبارة أخرى فإنَّها تؤكـــد مضمون الكلام الذي دخلت عليه ،فإقحامها لفضل توكيد ،فقوله : "تراه إذا ما جئته " غير أنّ يقول : " تراه إذا جئته " . وهكذا .

---

(١) ابن هشام (المغني) ١ : ٣١٤ . (٢) ٧ : ٣٩ ، ص ١١٣ .
(٣) ٧ : ١٢ ، ص ١٠٥ . (٤) ٥ : ٣ ، ص ٨٤ .
(٥) ٣ : ١٢ ، ص ٤٢ .
(٦) ٩ : ١٥ ، ص ١٣٢ . " البِتَكُ : القِطَعُ . واحدُها بِتْكَةٌ " ص ١٣٢ .

" مـــن " :

ذكر ابن هشام(١) أنَّها لتوكيد العموم ،وهي الزائدة. وقد اجتمعت شروط زيادتها في شعر زهير ،كما في قوله :

لِمَنِ الدِّيارُ ،بقُنَّةِ الحِجْـــرِ ؟ أَقْوَيْنَ ،من حِجَجٍ ،ومن دَهْرِ(٢)

ذكر الحريري(٣) أنَّ " مِنْ " "في هذا البيت زائدة على ما رأى الأخفش من زيادتها في الكلام الواجب،فكأنَّه قال : أقوين حِججاً ودهراً." فهذا التركيب كما ترى هو غيره مع سقوط " مِن " ، لأنَّ الحرف الزائد كأنَّه تكرار للجملة ،وبعبارة أخرى توكيد للعموم في الكلمة التي بعد الحرف الزائد .

وقولـــه :

كم للمَنازِلِ ،من عامٍ ،و مِن زَمَنِ ؟ لآلِ أسماءَ ،بالقُفَّينِ ، فالرُّكُنِ(٤)

التوكيد بـ " مِن " ،كأنه تكرار للكلام مرّتين : كم للمنازل عاماً وزمناً .

وقوله :

وقالَتْ أُمُّ كَعْبٍ : لا تَزُرْنـــا فلا ،واللّهِ ،مالَكَ من مَــزارِ(٥)

و قــوله :

تبصَّرْ ،خَلِيلِي ، هل تَرى من ظَعائنٍ كما زالَ في الصُّبحِ ،الأشاءُ الحَوامِلُ(٦)

أكَّدت " مِن " عموم مابعدها ،ومجيء هذا الحرف الزائد أشبه بتكرار الجملة .

---

(١) (المغنى) ١ : ٣٢٢-٣٢٣ .   (٢) ٤ : ١ ،ص ٧٦ .

(٣) (درّة الغواص في أوهام الخواص) (٤) ٦ : ١ ،ص ٩٦ .

(٥) ٣٩ : ١ ،ص ٢٠٠ ص ٢٥٠ .

(٦) ٢٤ : ٥ ،ص ٢١٤ .

" إنْ " :

المكسورة الخفيفة ،وأكثر ما تزاد بعد " ما " النافية[(١)] ، مؤكِّدة لها ، وقد وقعت قليلاً في شعر زهير ،كما في قوله :

ما إنْ يَكادُ يُخلِّيهم ،لوِجهَتِهِم ، تَخالُجُ الأمرِ ،إنَّ الأمرَ مُشتَرَكُ[(٢)]

وقولـه :

وما إن أَرى نَفْسي تَقِيها كَريمتي وما إن تَقِي نَفْسي كَريمةَ مالِيـا[(٣)]

« يقول : الموتُ نازِلٌ بي ، ولا أقدِرُ أن أدفعَه بأكرمِ مالي ،ولا تَقدِرُ نفسي أن تدفع عنْ أكرم مالي[(٤)]. »

وزيادتها لتوكيد النفي الذي قبلها .

" أنْ " :

المفتوحة المخففة ،وزيادتها[(٥)] في الأكثر بعد لمَّا التوقيتية ، وهي في شعر زهير لم ترد ،فيما وقعت عليه،إلا في هذا البيت:

فلمّا أنْ تحمَّلَ أهلُ لَيلَـــى جَرَتْ ، بَيني ،وبَينَهمُ الظِّبـاءُ[(٦)]

وزيادتها لتوكيد وقوع الفعل الثاني عقب الأول وترتّبه عليه .

---

(١) ابن هشام (المغني) ١ : ٢٥ .

(٢) ٩ : ٣ ، ص ١٢٧ .

(٣) ٢٣ : ١٠ ،ص ٢٠٨ .

(٤) ص ٢٠٨ - ٢٠٩ .

(٥) ابن هشام (المغني) ١ : ٣٣ .

(٦) ٣ : ٦ ، ص ٥٤ .

التوكيد بأمّا

" أمّا " بالفتح والتشديد ،حرف شرط وتفصيل وتوكيد .

يقول ابن هشام :" وأمّا التوكيد فقلَّ من ذكره ،ولم أرَ من أحكم شرحه غير الزّمخشري ؛ فإنّه قال : فائدة أمّا في الكلام أن تُعطيه فضل توكيد ، تقول : زيدٌ ذاهبٌ ، فإذا قصدت توكيد ذلك وأنّه لا محالة ذاهبٌ وأنه بصدد الذهاب وأنه منه عزيمةً قلت " أمّا زيدٌ فذاهبٌ " ولذلك قال سيبويه في تفسيره : مهما يكن من شيء فزيد ذاهب ،وهذا التفسير مُدْلٍ بفائدتين : بيان كونه توكيداً ، وأنّه في معنى الشرط"(١).

ولم تتكرر في الديوان سوى مرتين متتابعة في قصيدة واحدة هي الهمزية ، عندما قال :

لقد طالبتُها ،ولكلّ شيءٍ ، إذا طالتْ لجاجتُهُ ،انتهاءُ(٢)

تنازعَها المَها شَبَهاً ، ودُرّالـ بحُور ،وشاكَلَتْ فيها الظّباءُ

فأمّا ما فُويقَ العِقدِ ،مِنها ، فمِن أدْماءَ ،مَرتعُها الخَلاءُ

وأمّا المُقْلتانِ فمِن مَهاةٍ وللدُّرّ المَلاحةُ ،والصّفاءُ

شبّه عنق من يحب بعنق الظّبية ،وسواد عينيها بعين البقرة ، وملاحتها بملاحة الدّرّ وصفائه . وهي تشبيهات أحاطت بمن تصف وجمعت لها صنوف الجمال وضروب الملاحة ؛ فقد تنازعت المهاشبهاً ودُرّ البحور والظّباء ،وكأنّها تنازع هذه الموجودات بأبهى وأجمل مافيها ،أخذت من الظبية شبهاً فحدّد : " فأمّا ما فويق العقد .." ثم أكّده بأنّه من أدماء ،وأخذت من المهاة شبهاً فحدّد وفصّل " وأمّا المقلتان .." ثم أكّدها بأنّها من مهاة ، ثم الدّر أخذت منه الملاحة والصفاء.

---

(١) (المغني) ١:٥٧.　　(٢) ٣ :٩-١٢ ،ص ٥٦-٥٧.

التوكيد بحرف التنبيه " ألا "

ذكر ابن هشام[1] خمسة أوجه لـ " ألا " ، أحدها ؛ أن تكون للتنبيه ، فتدل على تحقق ما بعدها ، وإفادتها التحقيق من جهة تركيبها من الهمزة ولا ، لأنّ همزة الاستفهام إذا دخلت على النفي أفادت التحقيق ، ونقل عن الزمخشري أنّها لكونها بهذا المنصب من التحقيق لا تكاد تقع الجملة بعدها إلا مُصدّرة بنحو ما يُتلَقّى به القسم .

ووجه إفادتها التحقيق كونها حرف استفتاح يُستفتح بها الكلام وتتهيأ بها النفس لتلقّيه فيثبت فيها ، وهكذا ، فطبيعة التوكيد فيها مختلفة تماماً عما مضى ، لأنّها تُهيّء ذهن السامع وتعده لتلقّي ما بعده ووعيه وعياً كاملاً .

انظر إلى قول زهير :

أَلا أَبلِغْ ، لَدَيكَ ، بَنِي تَميمٍ ـ وقد يأتِيكَ ، بالنُّصحِ ، الظُّنونُ ـ[2]

بأنَّ بُيوتَنا بِمَحَلِّ حَجْرٍ بِكُلِّ قَرارةٍ ، مِنها ، نَكُونُ

وقوله :

ألا ، أَبلِغْ لَدَيكَ بَنِي سُبيعٍ وأَيّامُ النَّوائِبِ قد تَدُورُ[3]

فإنْ تكُ صِرمةٌ أُخِذَتْ ، جِهاراً كَغُرْسِ النَّخْلِ ، أَزَّرَهُ الشَّكِيرُ

فإنَّ لكُمْ ماقِطَ ، عاسِياتٍ كَيَومَ أُضَرَّ ، بالرُّوءِ ساءَ ، إِيرُ

---

(١) (المغني) ١ : ٦٨ .

(٢) ١٠ : ١-٢ ، ص١٣٩ .

(٣) ٤٠ : ١-٣ ، ص٢٥١ .

"ألا أَبلغ" في النموذجين السابقين غير قوله : "أبلغ" فقط ، لأنَّ ذكر "ألا" قبل الكلام دال على مزيد حفاوة وعناية بهذا الكلام ، وكأنَّه تمهيد وتوطئة له ،ولا يفعل الشاعر ذلك إلا إذا أراد قول كلام ذي خطر وبال .

وقولـه :

ألا لا أرَى ،على الحَوادثِ ،باقياً ولا خالداً ،إلا الجِبالَ ،الرَّواسِيا (١)

وإلا السَّماءَ ،والبِلادَ ،وربَّنـــا وأيّامَنا ،معدُودةً ،واللّياليـــا

وقوله :

فلمّا عَرَفْتُ الدّارَ قلتُ لرَبْعِها : ألا انعِمْ صباحاً ،أيُّها الرَّبْعُ ،واسلَم (٢)

وهو غير "انعِمْ صباحاً" ، لأنَّ "ألا" تهيء ذهن السامع وتُمدُّه لتلقي مابعدها ، وهذا دال على حفاوة المتكلم بمابعدها ،وهو هنا : الدعاء لهذا الربع بالنعمة والسلامة .

ولعل الدراسة السابقة للتوكيد وطرائقه عند زهير قد أنبـــأت عن الأدوات اللغوية التي اصطنعها في إفراغ معانيه مؤكدة ،وقد تمثل ذلك -فيما ظهر- بسخاء ودقة في التوكيد بالنفي والاستثناء،ثم"إن"،ثـــم "إنما" على قلة مجيء الأخيرة في شعره . أمّا بقية الأدوات اللغوية الأخرى فلم تكن لتحمل الدلالة المعنوية الخصبة إلا ماندر وقد أشارت الدّراســة إليه ،وقد يقع في الوهم أنّه من فضول القول ذكرها ،إلا أنّ دراستها حاولت إبراز طبيعة استعمالها قلة أو كثرة في شعر الرجل وحسبها هذا ،وحسبها محض التوكيد الذي تطويه وإلا فإن تمحّل السرائر لها طريقة غير مجديـــة في فهم الشعر وتحميلٌ لها فوق ما تحتمل .

---

(١) ٢٣ : ١١-١٢ ، ص٢٠٩ .
(٢) ١ : ٦ ، ص١٩ .

الفَصْلُ الثَّالِثُ

أُسْلُوبُ التَّقْدِيمِ فِي شِعْرِهِ

أولاً : التقديم في إطار الجملة

١ ـ تقديم المسند إليه

٢ ـ تقديم المسند

٣ ـ التقديم في المتعلقات

ثانياً : نسق الصفات في شعره

أسلوب التقديم في شعـــــره

يكتسب بحث التقديم قيمته في أنّه يكشف عن ترتيب العناصر اللغوية وألوان التغيير فيها ،ويتعرّف على حركتها في إطار جملتها والجملة المحيطة بها ، و يبين عن النسق البنائي الغالب في تلك العناصر، وهو نسق في الترتيب يخضع لخواطر النفس و ترتيب الأفكار والمرائي في الذهن . ومن هنا تبرز القيمة المعنوية للتقديم في العناصر اللغوية ، ولا يغفل في هذا ارتباط التقديم بموضوع العناية والاهتمام الذي هو عند سيبويه أصل التقديم ،وهو أصلٌ ما برحت عقول المحقِّقين والمحرِّرين من العلماء تناقشه وتجاذبه حتى أخرجت منه جملة مقاصد من أبرزها الاختصاص والتوكيد ،وكانت دلالة التقديم على الاختصاص موضع منازعة عند علماء البلاغة ؛ فمن منكر له إلى قائل به قاطع أو غالب . وهذان هما المحوران اللذان دارت عليهما مناقشات العلماء حول دلالة التقديم ، وكان نصيب الاختصاص أكثر .

وهذا الفصل يتوخى الإجابة عن تساؤلات ،هي : إلى أيِّ مدى طابق كلام زهير مقرّرات البلاغيين في هذا الباب ؟ وهل نجد في شعره ما يثير خلافاً أو يرجِّح رأياً ؟ وأيّ صور التقديم أكثر شيوعاً في منطقه ؟ وهل يستطاع تجلية النسق البنائي الذي يسير عليه التقديم ؟ وأيّ العناصر اللغوية أكثر تغيّراً ؟ وفي أيِّ السياقات تكثر ؟ وما طبيعة معانيها ؟ وهل يستطاع الوصول إلى رؤية عامة تحكم تيار تقديم بعض الصفات على بعض بما يعين على كشف جوهر شعر الرجل وأسرار النسق فيه ؟

وبناء على ما سبق ، فإنّ الحديث عن التقديم يتضمن مسألتين :

إحداهما : التقديم في إطار الجملة ويشمل : تقديم المسند إليه ، وتقديم المسند ، وتقديم متعلّقات الفعل .

وثانيتها : نسق الصفات ، أي : مقاصد تقديم بعض الصفات على بعض ، ويشمل : التقديم في أوصاف المرأة والرجال والحيوان .

أولاً : التقديم في إطار الجملة :

١ - تقديم المسند إليه :

معلوم أنَّ تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي ، إذا كان المسند إليه غير مسبوق بنفي ، يفيد التقوية ، وقد يفيد الاختصاص بمعونة السياق وقرائن الأحوال . وهذا التقديم له مواقع عديدة في شعر زهير ، منها قوله :

بها العِينُ ، والآرامُ ، يَمشِينَ ، خِلفَةً وأطلاؤُها يَنهضْنَ ، من كلِّ مَجثَمِ (١)

حيث قدّم " أطلاؤها " ، مفيداً تقوية الخبر ، فالشاعر بصدد تصوير نهوض هذه الأطلاء وتواثبها من كل مَجثم ، وهذا التقديم للمسند إليه أعطى الخبر وكادة ، وهذه الوكادة مبعثها حفاوة الشاعر بهذا المعنى لأنّه من المشاهد المثيرة الفنيّة والصور الحيّة التي تُرى فيها الأطلاء تنهض وتتواثب هنا وهناك ، وواضحٌ أنّ الحركة التي أشاعها في هذا التصوير تكمن في صيغة المضارع " ينهضن " الذي يطوي قوة تصويرية بوضعه اللغوي لأنّه يدلّ على التّجدد والحدوث ، ثم كان هذا التقديم تنبيهاً للعناية والحفاوة .

وقوله :

إنَّ الخَليطَ أجَدَّ البَينَ ، فانفَرَقا وعُلِّقَ القلبُ ، من أسماءَ ، ماعَلِقا (٢)

عُني زهير بتوكيد فراق هذا الخليط - مع أنّه ليس هناك من ينكر عليه خبره - فقدّم المسند إليه على الخبر الفعلي مضيفاً إلى ذلك

---

(١) ١ : ٣ ، ص ١٧ .

(٢) ٢ : ١ ، ص ٣٨ .

" إنَّ " المؤكِّدة ، فأصبح في التركيب عنصران من عناصر التوكيد ، أراد أن ينبئ به عن قوة إحساسه بهذا الفراق ،وحينما تنبعث المعاني من النفس المرهفة الحساسة المستثارة تنبعث منها جزلة قوية تعكس قوة الإحساس بها ،ولا ريب في ذلك ،فإن نبرة الأسى والشجن تعلوفي هذا البيت مؤكِّدة فراق الخليط ،ويلحظ أن زهيراً قد بنى الجملة الثانية على عكس ما بنى الجملة الأولى عليه ،إذ بنيت الأولى على تقديم المسند إليه مع " إنَّ " ،أمَّا الجملة الثانية فقد أتت مرسلة تماماً ،لأنَّ الفعل فيها هو مدار معنى زهير ورأس الأمر عنده ، لم يقدّم عليه فاعله ،وإنّما قال :

* وعُلِّق القلب من أسماء ما علقا *

لأنَّه معبِّر عن حال تعلّقه وإحساسه ووجده بصاحبته وما عُلِّق به قلبه من ذلك ، ولمَّا اقتضى السياق تقديم الفعل وبناء الجملة هذا البناء المرسل ، ذكر " ما " الموصولة المبهمة التي تشير إلى أن الذي علق بقلبه من أسماء شيء لا يحاط به ، وإنَّما قدَّم الخليط في الأولى ،لأنهم الجيرة والصاحبة ورهطها ، فهو حفيٌّ بهم.

إنَّ مثل هذا البيت ليبين عن خصيصة في بناء الشعر عند زهير ،أنَّه كان يقدّم ويؤخِّر بحساب دقيق منبعث من فطرة صحيحة في الإحساس بالشعر ومعانيه ،وباللغة ووظائفها .

ومن التقديم للتوكيد ،قوله في حمار وحشي :

فَشَجَّ بها الأماعِزَ ،وهي تَهْوي هُوِيَّ الدَّلْوِ ،أَسلَمَها الرِّشاءُ (١)

---

(١) ٣ : ٢٢ ، ص ٦٠ .

شبّه هويّ الأُتن بهُويّ الدّلْو ، وهذه الصورة قريبة من قوله السابق : " وأطلاؤها ينهضن " في هذا المضارع الذي هنا : "تهوى" المُحْضِر لصورة الأُتن ،وكأنّنا نرى هذه الأُتن وهي على هذه الحالة من السرعة والركض ، ثم إنّ الشاعر أكّد معنى تحدرها في سرعتها وانصبابها في سيرها وقوة هُويِّها بهذا التشبيه " هُويِّ الدّلو " وهو امتداد للفعل " تُهوِي " ،وعندما يُمدُّ الشاعر الحديث عن الفعل ويثريه فإنّه بذلك يثري جزءاً أساسياً من الجملة التي فيها التقديم ،وعليه فإنّ هذا الفعل الذي أكّد إسناده للفاعل بتقديم هذا الفاعل عليه - فعل لم يهمله الشاعر . وتأمّل طريقة الإيجاز التي تكثر غالباً في التشبيه عن طريق المصدر ،وليس عن طريق أداة التشبيه ، إذ الأصل : " فشجَّ بها الأماعز وهي تهوى هوياً كهُوِي الدّلْو ..".

وقد جاء التقديم كثيراً في شعر زهير مفيداً التقوية والتوكيد في سياق المديح ، وهو أصل أشار إليه عبد القاهر (١) ،وضرب له أمثلة منها قول زهير :

ولأنت تَفْري ما خلقت وبعـ ـض القوم يخلقُ ثم لا يفري

وذكر علّته في أن من شأن المادح أن يمنع السامعين من الشك فيما يمدح به ،ويباعدهم من الشبهة ،وكذلك المفتخر.

ومنه يمدح هرم بن سنان والحارث بن عوف :

هُمُ ضَرَبُوا ،عن فَرْجِها ،بكَتِيبةٍ كبَيضاءِ حَرْسٍ ،في طَوائِفها الرَّجْلُ (٢)

---

(١) (دلائل الإعجاز) ص ١٣٤.

(٢) ٥ : ٢١ ،ص ٩٠.

" الفَرجُ : موضع المخافة . و الفَرجُ و الثَّغر واحدٌ ... و حرسٌ : جبلٌ . و بيضاءُ حَرسٍ : شِمراخٌ منه . و طوائفُها : نواحيها . و الرَّجلُ : الرَّجّالةُ ."(١)

والبيت في وصف قوتهم واقتدارهم وعلوهم وقهرهم لأعدائهم ،وأنهم يضربون القوم المكتملة عدتهم ،وأنهم يتبعون الأعداء الفارّين منهم ، وهذا السياق يقتضي التوكيد لا محالة ،لأنّه وصف للقوم بالاقتدار والقوة ،والأبيات بعد ذلك يلحظ تكرر الضمير " هم " فيها ،يقول :

مَتَى يَشتجِرْ قومٌ يَقُلْ سَرَواتُهُم : هُمُ بَيننَا ،فهُم رِضاً ،وهُمُ عَدلُ(٢)

هم جدّدُوا أحكام كُلِّ مُضِلَّةٍ من العُقْمِ ،لا يُلفَى لأمثالِها فَصلُ

" يشتجرُ : من المشاجرة ،وهي الخصومة . وسرواتُهم : أشرافهم ... أحكام كلّ مضلّةٍ ،أي : كلّ حرب مضلّةٍ تُضِلّ النّاس ، و لا يُوجَدُ من يفصلُ أمرها . و من العُقْم : لا يُدرى كيف يخرج منها . و العُقْم : جمع عقيم ."(٣)

وهذا التكرار يوجد نوعاً من التآخي في بنية الشعر ،والترابط بين الأبيات من خلال هذا التوحد في البناء ،فالشاعر كَلِفٌ بتكرار ضميرهم والحديث عنهم ،وكأنَّه يجد في ذلك لذة ومتاعاً ،لأنّهم يمثّلون قيماً عند زهير ،وزهير كان شاعر القيم في الجاهلية لأنَّه كان تواقاً إلى مكارم الأخلاق . وفيه معنى الاختصاص ،وأنّهم هم الذين يجددون الأحكام

---

(١) ص ٩٠ .

(٢) ٥ : ٢٢-٢٣ ،ص ٩٠ .

(٣) ص ٩٠ .

لا غيرهم أي : يفصلون أمر الخصومات المضلّة التي تضل عقول الناس ،بدليل قوله : " لا يُلفى لأمثالها فضل " ، أي : لا يوجد من يفصل أمرها ، فهم الفاصلون لا غيرهم ،وبدليل قوله في البيت السابق أيضاً : " متى يشتجر قوم . . " يقل " سرواتهم : " هم بيننا " يعني اختصاصهم بهذا الأمر و شهرتهم به .

ومما أتى للاختصاص وفيه شوب من التوكيد ،قوله لبني سُحيمٍ ابن عبد الله بن غطفان ،قوم امرأته أمّ كعبٍ :

هُمُ وَلَدوا بَنيَّ ،وخِلتُ أنّي إلى أُرْبِيَّةٍ ، عَمدٍ ثَراها (١)

" الأُرْبيّة ههنا : الرِّجالُ . وهو ما ارتفع من الأرض . و عَمِدٌ ثراها ،يريد : شَرَفُهم راسخٌ ذاهبٌ في الأرض لا يُدرك . " (٢)

التقديم للاختصاص قطعاً ،و فيه شوب من التوكيد دالٌ على عناية الشاعر بهذا المعنى ،وإبراز تلك الوشيجة الحميمة التي بينه وبين هؤلاء القوم ،وهو نوع من إثارة الإحساس بالمعنى عند المتلقّي ،ومثله قوله - في قصيدة يقال :إنّها لأوس بن أبي سُلمى - :

قومٌ ،همُ وَلَدُوا أبي ،ولَهُم جُلُّ الحِجازِ ،بُنُوا على الحَزْمِ (٣)

" بُنُوا على الحَزْم أي : خُلِقُوا حَزمةً " (٤)

وهكذا تلحظ أنّ المعاني المتقاربة تجري فيها صيغ متقاربة فقوله : " هُمُ ولدوا بنيَّ " من قوله " همُ ولدوا أبي " .

---

(١) ٣٤ : ٢ ، ص ٢٤٣ . (٢) ص ٢٤٣ .

(٣) ١٧ : ٣ ، ص ١٨١ . (٤) ص ١٨١ .

أمّا المسند إليه المنفي المقدّم على الخبر الفعلي ، فلم يقع في شعره - فيما وقفت عليه - إلا في بيت واحد ، مستقيماً مع قاعدة البلاغيين من حيث إنّه للاختصاص قطعاً ، وهو قوله ، يتحدّث عن حصين بن ضمضم ، وكان أبى الدخول في الصّلح بين عبس وذبيان ، فلمّا اجتمعوا للصّلح شدَّ على رجلٍ منهم فقتله :

وكانَ طَوَى كَشْحاً ، على مُستكِنَّةٍ   فلا هُوَ أَبداها ، ولم يَتَقَدَّمِ (١)

" الكَشْحُ : الخاصرةُ . و مُستكنّة : على أمرٍ أكَنَّه في نفسه . يقال : أكْنَنْتُ الشيءَ في نفسي ، إذا لم أظْهِرْه ، وكَنَنْتُه : صُنْتُه . ومنه قوله تعالى : ﴿ كأنّهُنَّ بَيضٌ مَكنونٌ ﴾ . ويقال : طَوى كشحَه على كذا . وانطوى على كذا ، أي : لم يُظهِرْه . فلا هو أبداها ، أي : فلم يُبْدِها . ولم يتقدَّم في الحرب ". (٢)

المراد في قوله : " فلا هو أبداها " ، أي : الضغينة ، وكأنّ هذه الضغينة التي طواها على مستكنةٍ بدت ، لم يُبْدِها هو ، ولكن أبداها فعله الشرير الأحمق ، وكأنَّ هذا الذي طوى كشحاً على مستكنة كان حريصاً على أن يظل ذلك مطويّاً ، ولكنَّ الأمر انكشف ، وإن كان كشفه بغدره وفعله ، ولم يعمد هو إلى كشف هذه المستكنة .

وهذا التركيب " فلا هو أبداها " من باب : " ما أنا فعلت " ، أي : أنّ الفعل وقع لا محالة ، ولكنّه منفي عن هذا الفاعل خصوصاً . يقول عبد القاهر (٣) : " إذا قلت : " ما فعلتُ " ، كنت نفيت عنك

---

(١) ١ : ٣٥ ، ص ٢٩ .   (٢) ص ٢٩ .

(٣) (دلائل الإعجاز) ص ١٢٤ .

فعلاً لم يثبت أنه مفعول = وإذا قلت " ما أنا فعلت " ، كنت نفيت عنك فعلاً يثبُتُ أنّه مفعول " وهكذا فإنك لا تقول : " ما أنا فعلت " إلا في فعل قد وقع . ومثل هذا التركيب بابه قليل الجريان في اللغة ،وتكاد تكون شواهده في البلاغة متناقلة ،وهي قـــول المتنبي :

وما أنَا أسقمت جِسْمِي بِـــهِ ولا أنا أضْرَمْتُ في القَلْبِ نَـارَا

" المعنى ،كما لا يخفى ،على أنّ السُّقْمَ ثابت موجودٌ ،وليس القصد بالنفي إليه ،ولكن إلى أن يكون هوالجالبَ له ،ويكون قد جَرَّه إلى نفسه .

ومثله في الوضوح قوله :

* وما أنا وحدي قلتُ ذا الشعر كُلَّهُ *

" الشعر " مقولٌ على القطع ،والنّفي لانْ يكون هو وحده القائل له "(١) .

وقول عبد القاهر بالاختصاص قطعاً في مثل هذه التراكيـب مما استدركه الدكتور محمد أبوموسى عليه ، فقد يقدم الفاعل فيها للاهتمام والرغبة في توكيد نفي الفعل عنه ،وساق تراكيب من القرآن الكريـــم من غير أن تكون دالة على الاختصاص كما في قوله تعالى * لو يَعْلَمُ الّذين كَفرُوا حين لا يكُفُّون عن وجُوهِهِمُ النَّارَ ولا عن ظُهُورِهِم ولا هم يُنصَرون * بل تأتيهم بغتةً فتبْهَتُهُمْ فلا يستطيعُون رَدَّها ولا هم يُنظَرون *(٢)

----

(١) (المصدر السابق) ص ١٢٥ .

(٢) الأنبياء : ٣٩ - ٤٠ .

" فقوله * ولا هم ينصرون * ، * ولا هم ينظرون * ، قدّم فيه المسند إليه على الخبر الفعلي وهو مسبوق بحرف النفي ومع هذا يفيد التقوية فقط لأنّ الاختصاص يعني أنَّ غيرهم ينصر من عذاب الله وينظر حين تأتيه الساعة وذلك لا يكون ".(١)

وهكذا ، فإن التقديم في المسند إليه المثبت على الخبر الفعلي وقع في شعر زهير بصورة أكثر عمّا هي عليه في المسند إليه المنفي ،وكانت دلالته على التقوية والتوكيد أكثر من دلالته على الاختصاص ، وقد كثر معنى التقوية هذا في مقامات المديح ،وهو متسق في ذلك مع ما ذكره الشيخ عبد القاهر في أنَّ هذا اللون من التقديم يكثر في المديح ، كما تزاوجت في بعض الأبيات دلالتا الاختصاص والتوكيد معاً ، وقد لحظت تكرّر صيغة تكاد تكون واحدة في هذا الباب ، هي :

هُمُ ضربوا

، هُمُ جددوا

، هُمُ ولدوا بنيَّ

، هُمُ ولدوا أبي

وكما ترى فالمسند إليه ضمير جمع "هُمُ" ، والفعل بعده ماضٍ : " ضربوا ، جددوا ، ولدوا ، ولدوا ".

أما التقديم في المسند إليه المنفي على الخبر الفعلي فلم أقع - فيما تتبعت - إلا على تركيب واحد عند زهير منه يفيد الاختصاص على ما بان .

----

(١) (خصائص التراكيب) ص١٧٩ .

٢ - تقديم المسند :

معلوم أنّ تقديم المسند على المسند إليه يفيد الاختصاص بمعونة السياق ،وقد يكون لمجرّد العناية والاهتمام ،أو لأغراض أخرى[1] كالتنبيه من أول الأمر على أنّه خبر لا نعت ،أو التفاؤل ،أو التشويق إلى ذكر المسند إليه . وهذه المعاني إذا كان المسند غير منفي ، ومثل هذا النوع من التقديم وقع في شعر زهير كثيرا ،وكانت أكثر الصور تردّداً فيه تلك التي تقدم فيها المسند المثبت وهو جار و مجرور على المسند إليه ، إلا أنّ صورة المسند إليه كانت تتشكل مع هذا التركيب على أوجه عدة ؛ أظهرها مجيئه موصوفاً سواء بجملة فعلية أواسمية أو بمفرد ،كما في قوله يصف بعيراً :

لهُ عُنُقٌ ،تُلْوِي بما وُصِلَتْ بِــهِ   ودَفّانِ ،يَشْتَفّانِ كُلَّ ظِعانِ[2]

" له : للبعير . ويُروى : " وُصِلَتْ له " . يريد : يرفعُ عُنقَه بما اتّصل بها . ويقال : " وُصِلَتْ له " : من الحبال . دَفّانِ : جَنبانِ : يَشتفّان : يملآن ويستوفيان . والظِّعانُ واحدٌ ،وجمعُه أظعِنَةٌ ، وهي نِسعةٌ تُشَدُّ بها المرأةُ هودجَها . تُلْوِي : تذهب . يقال : أَلوى فلانٌ بمالِ فلانٍ ،أي : ذهَبَ به ،وهو مَثَلٌ .[3]

قدّم المسند الجار والمجرور " له " على المسند إليه النكرة الموصوفة بالجملة فعلية ،وعطف على المسند إليه "دفّان "ووصفهما بأنهما " : " يشتفان " . فهاتان جملتان فعليتان فعلهما مضارع

---

(١) الخطيب القزويني (الإيضاح) ١ : ١٩٣ .

(٢) ٤٩ : ٦ ،ص ٢٦٧ .   (٣) ص ٢٦٧ .

وقعتا وصفين للمسند إليه شاكل زهير فيهما ،وهذا من استواء النسق عنده وباب من أبواب التثقيف . وداعية التقديم مزيد عناية من الشاعر بمدلول الجار والمجرور ،وأنَّه لهذا البعير الذي يصفه ،وهذا الجار داخل على الضمير العائد على البعير ،وقد وقف عبد القاهر كثيراً عند تقديم هذه الضمائر الداخل عليها حرف الجر في مثل قول سبيع ابن الخطيم التيمي (١) :

سالَتْ عليه شِعَابُ الحيِّ حين دعا أنصارهُ ،بوُجُوهٍ كالدَّنانيــــرِ (٢)

وقول الشاعر (٣) :

تجُوبُ له الظَّلماء عَيْنٌ كأنَّهـــا زُجاجةُ شَرْبٍ غيرُ ملأى ولا صِفْرِ

ومن تقديم المسند المثبت الجار والمجرور ،والمسند إليه موصوف ،قوله في وصف طريق :

له خُلُجٌ ،تَهوِي به ،مُتلئبَّـــةٌ إلى مَنهلٍ ، قاوٍ ،جَدِيبِ المُعَرَّجِ (٤)

" خُلُجٌ : طُرقٌ . متلئبّةٌ : مستقيمة . منهلٌ : ماءٌ . المعرَّجُ : الموضع الذي تنزل فيه فتقيمُ (٥) ".

حيث قدّم المسند الجار والمجرور على المسند إليه النكرة الموصوفة بجملة فعلية فعلها مضارع ،وهو نفس النسق السابق ،وزيد عليه هنا : الوصف الآخر بالمفرد " مُتلئبَّةٌ ".

---

(١) انظر (دلائل الإعجاز) ص ٧٤ تعليق محمود شاكر حاشية رقم (٤).

(٢) (المصدر السابق) ص ٩٩ .

(٣) (المصدر السابق) ص ٢٩٨ - ٢٩٩ .

(٤) ٣٢ : ١٠ ،ص ٢٣٧ .

(٥) ص ٢٣٧ .

وقوله في شَرْب :

لهم راحٌ ،وراوُوقٌ ،ومِسْـكٌ ، تُعلُّ به جُلودُهم ،ومَـاءُ (١)

وأفراسٌ ،تَجاوبُ ،مُلجَمَـاتٌ يُصَبُّ ،على جَحافِلِها ،الطِّـلاءُ

" تُعلُّ : مرّة بعد مرة ، وهو من العَلَل : أوّل الشُّربِ ،أي: تُدَلّكُ جلودُهم مَرّةً بعد مرة . و الرّاحُ : الخمرُ . سُمّيت بذلك لأنّ القلب يَراحُ إليها . و الرّاووقُ : الذي يُرَوَّق فيه ويُصفَّى . وماء أي: ما تُمزجُ به الخَمرةُ (٢)."

قدّم المسند : " لهم " على المسند إليه : " راحٌ ،وراووقٌ ، ومسكٌ ، وماءٌ ،وأفراسٌ " مفيداً الاختصاص بمعنى أنّ لهم راحـاً وراووقاً ومسكاً وماءً وأفراساً ليست لغيرهم ،ولا بد من ملاحظة هـذا التنكير في معنى الاختصاص ،لأنّه تنكير مفيد النوع ، أي : أنّ لهم أنواعاً من هذه المذكورات ليست لغيرهم ،وهذا يعني تميّزهـم بملكية هذه الأشياء بين الأقوام الأثرياء ، والتي هي دليل النعمة والترف. وهذا الاختصاص الأول يغذي الاختصاص الثاني في " تُعلُّ بـه جلودهم " حيث قدّم الجار والمجرور على نائب الفاعل " جلودهم "، أي : أنّ لهم مسكاً تُعلُّ به جلودهم خصوصاً دون سواهم من الناس. ويلحظ هنا العطف على المسند إليه الذي وصف مرتين بالجملـة الفعلية ، في " مسك تُعلُّ به جلودهم " و " أفراس تَجاوبُ " ، وما يعنينا الوصف للمسند إليه بالفعلية والمسند جار ومجرور ، وهـو نمط بنائي تكرّر ،وهذا مما تحرص الدّراسة على الإشارة إليه ،لأنّـه

---

(١) ٣: ٢٣- ٢٤ ،ص ٦٤.

(٢) ص ٦٤ - ٦٥.

يوشك أن نطل منه خصوصيات البناء عند زهير ،وهذا حين ينجلي يكون نفيساً جداً ، وإن كنّا نعلم أنّه لن ينكشف لنا جوهره ،وإنّما حسبنا أن تطالعنا منه بعض ملامحه .

ومثله - أيضاً - قوله ، في وصف ناقة :

لَها أداةٌ ،وأعوانٌ ،غَدَوْنَ لها :   قِتْبٌ ،وغَرْبٌ ،إذا ما أُفرِغَ انسَحَقا (١)

" لها ،يعني : لهذه الناقة . وغدون : مؤنث ،وإن كان للأعوانِ ،كما تقول : هذه الرِّجالُ . والقِتْبُ : قِتبُ السانيةِ . والقَتَبُ : للأحمالِ ... و انسحق : انصبَّ ما فيه ،ويقال : انسحقَ : بعد ما ذهب الماءُ . و السانيةُ هو : البعير الذي يَستقي الماءَ . و الغَرْبُ : الدَّلْو . و سنا يَسنُو : استقى على السانية . " (٢)

يلحظ تقدّم الجار والمجرور " له " على المسند إليه "أداة " والعطف عليه ب " أعوان " ،ووصف الأعوان بأنّهم " غدون لها " بالجملة الفعلية المبدوءة بالماضي . والتقديم للاختصاص ،أي : أنَّ أداة وأعواناً مختصين غدون لها دون سواها .

وقولــه :

لَهُمْ هوًى ،مِن هوانا ،ما يُفَرِّقُنا   ماتَتْ ،على قُربِهِ ،الأحشاءُ والكَبِدُ (٣)

---

(١) ٢ : ١٢ ، ص ٤٢ .

(٢) ص ٤٢-٤٣ .

(٣) ٢٢ : ٥ ، ص ٢٠٢ .

التقديم يحقّق معنى الاختصاص ،أي : أنّ هوًى خاصاً لهم دون سواهم من الناس ،وأنّ هذا الهوى ليس لأحد إلا لهم ، وفيه تمييز هؤلاء المتحدّث عنهم. ويلحظ وصف المسند إليه بالفعلية " ماتت على قربه الأحشاء والكبد ".

ومنه ،ولكن المسند إليه موصوف بمفرد ،قوله :

إذا فزعوا طاروا ،إلى مُستَغيثهم   طِوالَ الرِّماحِ ،لا قِصارٌ ،ولا عُزْلُ (٢)

بِخيلٍ ،عليها جِنَّةٌ ،عبقريَّةٌ   جَديرون يوماً ،أن ينالوا ،ويَستَعلُوا

وإن يُقتَلُوا فيُشتَفَى بدِمائِهم   وكانوا ،قديماً ،من مناياهُمُ القَتْلُ

عليها أُسودٌ ، ضارياتٌ ،لَبُوسُهُم   سَوابغُ بيضٌ ،لا يُخَرِّقُها النَّبلُ

" مُستغيثُهم : من استغاثَ بهم . و الأعزَلُ : الذي لا سلاح معه ...و طاروا : أسرعوا . و فزعوا : أغاثوا ... جِنَّةٌ : جمع جِنٍّ . وقوله " عبقريّةٌ " أراد : من جِنّ عَبقر. وعبقرُ : أرض ... يريد : كأنّهم في خبثهم جِنُّ عَبقرٍ . و يستعلوا : يظفروا ويعلوا . وجديرون : خليقون ... يقول : هم أشرافٌ ، إذا قُتلُوا رَضِيَ بهم من قَتَلهم ، بهم يُدرِكُ ثأره ويَشتفِي . ومن مناياهم القتلُ ، أي : لا يموتون على فُرشِهم ... ضارياتٌ : أي : متعوّداتٌ للحرب ، يعني الفرسان . و السّوابغ : الدُّروعُ الواسعةُ . لا ينفُذُها النّبل (٣) ".

---

(١) ٥ : ١٢-١٥ ، ص ٨٧- ٨٨ .

(٢) ص ٨٧ - ٨٨ .

فـ " عليها " ، جار و مجرور تقدم على المسند إليه " جِنَّةٌ " ، وقد وصف المسند إليه بمفرد بعده وهوقوله : "عبقرية " ،ثم بجملة ،ولكنها جملة اسمية " جديرون يوماً أن ينالوا ويستعلوا " .

وكذلك قوله : " عليها أسود " ،قدم المسند على المسند إليه ، ثم وصف المسند إليه بمفرد وهو : "ضاريات " ، ثم وصف بجملة اسمية كما في البيت السابق : " لبوسُهُم سوابغُ " ، وهذا من استواء النّسق كما ترى . والتقديم مفيد تمييز هذه الخيل ، وأنّ جِنة وأسوداً عليها دون سواها من الخيل الأخرى ،ويعزّز معنى الاختصاص الوصف الذي وصف به المسند إليه ،وهو أمر الظاهر فيه أنّه لا يتأتّى لأحدٍ غيرهوءلاء الممدوحين ، فهم أسود ضارية لبوسهم سوابغ لا يخرقها نبل .

ومثله قوله بعد ذلك في نفس القصيدة :

وفيهِمْ مَقاماتٌ ،حِسانٌ وُجُوهُها وأَندِيةٌ ،يَنتابُها القَولُ ،والفِعْلُ (١)

" المقاماتُ : المجالس ، قال : وإنَّما سُمِّيت المقاماتِ ،لأنَّ الرجل كان يقوم في المجلس ،فيحضُّ على الخير ويُصلح بين الناس ... و النَّديُّ : المجلس . وجمعه أندِيةٌ . "ينتابُها القولَ والفعلُ " أي: يُقال فيها الجميلُ ويُفعل (٢) ."

حيث قدّم الجار والمجرور المسند المثبت ،وأتى المسند إليه موصوفاً بمفرد : " حسان " ، ثم عطف على المسند إليه "أندية " إلا أنّه

---

(١) . ٥ : ٣٥ ، ص ٩٣ .

(٢) ص ٩٤ .

وصف بالجملة الفعلية ، مثل " له عنق تلوى " و دفان يشتفان " السابق . والتقديم للاختصاص ،أي أنّهم مختصون بمقامات وأندية دون سواهم من النّاس ، وهو في سياق المديح كما ترى .

ذكرت قبل ذلك أنّ أكثر الصور تردّداً في المسند المثبت الجار والمجرور مجيء المسند إليه موصوفاً بجملة فعلية أو اسمية أو بمفرد . وأقل منها مجيء المسند إليه نكرة ،مثل قوله :

وفيهنّ مَلهىً لِلَّطِيفِ ،ومَنظَرٌ أنيقٌ ،لِعَينِ النَّاظِرِ ،المُتوسِّمِ (١)

الضمير في "فيهن" يعود على الظّعائن ، فهذا المنظر الملهي المعجب المونق عند زهير كأنّه خاص بهن وما عداهن لسن كذلك ،أي: ليس فيهن هذا الملهى ،فالتقديم إذاً ،وإن كان يوشك أن يكون لزوماً نحوياً لأنّه من مسوّغات الابتداء بالنكرة ،إلا أنك لاتستطيع إغفال دلالته على الاختصاص كما ذكر،ويلحظ العطف على المسند إليه "ومنظر" ،إلا أنّه وصف بمفرد ،ولم توصف " ملهىً " ،لأنّها في غنى عن هذا ،أمّا المنظر فقد يكون أنيقاً وغير أنيق ،فذكر الصفة لأنّها عمود معناه هنا .

وهذا البيت له مغزى جليل في التعرف على الروح الفنية أوالطبيعة الفنية الأصيلة المستحكمة في نفس زهير ،وأنّ الرجل كانت تفتتن عيناه بأناقة ما ترى من مشاهد حسّية . تأمّل قوله : "ومنظرأنيق" ، وتأمل وصف عين الفنان في قوله : " عين الناظر المتوسم " ،وأنّها عين متوسّمة ، أي : نافذة تحدق وتعرف كيف تتفرّس المشاهد الحسان ، وربما كان هذا مفتاحاً للصور الحسية الخالية التي كان يتأنّق في تصويرها

---

(١) ١ : ٩ ،ص ٢٠ .

من مثل قوله :

تَبصَّرْ ،خَلِيلي ،هل تَرى من ظَعائنٍ تَحمَّلْنَ ،بالعَلياءِ ،من فوقِ جُرثُمِ ؟ (١)

عَلونَ بأنماطٍ ،عِتاقٍ ،وكِلَّـــةٍ وِرادٍ حَواشِيها ،مُشاكِهةِ الــدَّمِ

ومن تقديم المسند الجار والمجرور والمسند إليه نكرة موصوفة ،قوله :

فشَدَّ ،ولم يُفزِعْ بيوتاً ،كثيـــرةً لَدَى حَيثُ أَلقتْ رَحلَها أُمُّ قشعَـمِ (٢)

لَدى أَسَدٍ ،شاكِ السِّلاحِ ،مُقذَّفٍ لهُ لِبَدٌ ،أظفارُهُ لم تُقلَّـــــــمِ

"..وأُمُّ قشعَم هي الحرب . ويقال : هي المنيَّةُ .. حيث أَلقـت رحلها أم قشعم : حيث كان شدّة الأمر ، أي : بحيث ألقت المنيّةُ قيد رحلها ... شاك السِّلاح ، أي : سِلاحه ذو شوكةٍ ، يريد : " شائك " فألقى الياء ...و المُقذَّفُ : الغليظُ اللَّحمِ . و اللِّبَدُ : الشَّعْرُ المتراكبُ على زُبْرَةِ الأسدِ . إذا أسنَّ فهو ذو لِبدةٍ ، وهو الشَّعر بين كتفي الأسدِ . أظفاره لم تقلّم ،أي : هـو تامُّ السلاحِ حديدُهُ . يريد الجيشَ ، واللفظُ على الأسدِ ." (٣)

قدم الشاعر المسند " له " على المسند إليه " لبد " مفيداً عنايته واهتمامه بهذا الجار والمجرور ،وإن كان تقديم " له " متعيّناً نحوياً ؛ فهو مسوّغ الابتداء بالنكرة ،إلا أنّه يحمل فائدة في هذا الجار والمجرور الذي فيه ضمير المتحدث عنه ، الأسد المجازي ، وهو أسدٌ غريب ،لأنّه متقلد سيفاً وشائك السلاح عليه عدة المحارب ،وهذه صفة الرجال ،ثم هـو مقذَّف له لبد ،وهذه تشكيلة أخرى ، فليس هو برجل من الناس ولا هو

---

(١) ١ : ٧-٨ ،ص ١٩ .

(٢) ١ : ٣٧-٣٨ ، ص ٢٩-٣٠ .

(٣) ص ٣٠ .

أسد من الأسود ، هو نتاج ما بين الجنسين ،إنّها لصورة غريبة لا وجود لها إلا في الشعر وخيال الشعراء ،وربّما كان هذا هو الذي ألهم السكاكي (١) عندما تحدّث عن مسألة ادعاء أنّ أفراد جنس الأسد قسمان : متعارف ،وهو الحيوان المفترس ،وغير متعارف ،وهو الرجل الذي صار أسداً . ويلحظ أن الشاعر لمّا قال " أسد " نقل الشجاع إلى دائرة الأسود ،ثم قدّم " شاك السلاح " ،وهو وصف متلائم مع أوصاف السلاح ، ثم " مقذف " ،وهو وصف قال فيه البلاغيّون بصحّة كونه من وصف الأسد ،ووصف الشجاع ،لأنّ معناه صالح بهذا وذاك ، فكانت هذه الصفة بما تحمله من وجهين مَعْبراً انتقل عليه الشاعر إلى وصف الأسد خاصة " له لبد " ، و " أظفاره لم تُقلَّم " وصف للأسد ،ولكنّه متصل بوصف البطل ، لأنّ الأظفار للإنسان ،والمخالب للأسد ،إلا أنّ " لم تُقلَّم " للأسد ،لأنّ الإنسان يُقلِّم أظفاره ، وكأنّ قوله " أظفاره لم تُقلَّم " وقوله : " مُقذف " يشترك فيهما الاثنان : الأسد والبطل .

وقوله يمدح هرم بن سنان ،والحارث بن عوف :

وهُم خَيرُ حيٍّ ،من مَعَدٍّ ،عَلِمْتُهُمْ لهُم نائلٌ ،في قومِهِم ،ولهُم فَضْلُ (٢)

قدَّم الجار والمجرور الذي يحمل ضمير القوم المتحدّث عنهم ، وإنّما قدّمهم بـ " لهم " أراد إبرازهم والإشارة إلى أهميتهم ،وهم يقدّمون الذي بيانه أهم ، وهم بشأنه أعنى . ويلحظ تكرّر النّسق : " لهم نائلٌ ،ولهم فَضْلٌ " ، وهو غير ما مضى حيث عُطفت الجملة كاملة على الجملة الأولى ،أي : لم يقل " لهم نائل وفضل " ، وفي هذا التّصرف مزيد من العناية بهم .

---

(١) (مفتاح العلوم) ص١٥٨ .   (٢) ٥ : ٢٧ ،ص ٩١ .

وقولـــه :

وفي الحِلم إدهانٌ ،وفي العَفو دُربةٌ
وفي الصِّدق مَنْجاةٌ ،من الشَّرِّ ،فاصْدُقِ (١)

" إدهانٌ : مُداهنةٌ ومُصانَعةٌ . و دُربةٌ : عادةٌ ولَجاجةٌ." (٢)

مزيّة التقديم هنا ،أنّه أحدث هذا اللون من التوازن والتناسب والتناسق والتنغيم في بناء النظام التركيبي للبيت ، فالبيت كلّه مبني على نغم واحد وطريقة واحدة :

في الحلم إدهان

، في العفو دربـــة

، في الصدق منجـــاة

ثم فيه دلالة واضحة على أنّ كل جملة من هذه الجمل الثلاثة بنيت على بيان فضيلة من فضائل النفوس كانت هي أصل الكلام ورأس الجملة ،وهذه الفضائل هي : الحلم والعفو والصدق . وهذه الوحدة في النظام التركيبي كأنّها إشارة إلى تقارب هذه الفضائل في المنزلة .

وقولـــه :

لِسَلمَى ،بِشَرقيِّ القَنَانِ ،مَنازِلُ
ورَسْمٌ ،بِصَحْراءِ اللُّبَيَّين ،حائـــلُ (٣)

حيث قدّم الجار والمجرور على المسند إليه " منازل " لمزيد عنايته بمدخول حرف الجر وهو "سلمى" ، فهي التي تشغله ،وكان ذكـــر المنازل تبعاً لها .

---

(١) ١٦ : ١٧ ، ص١٧٩ .

(٢) ص ١٨٠

(٣) ٢٤ : ١ ، ص٢١٣ . "حائِلٌ : متغيِّرٌ أتى عليه حولٌ" ص٢١٣ .

وأقل من الصورتين السابقتين ،مجيء المسند إليه معرّفاً بأل ،

مثل قوله :

بِها العِينُ ،والآرامُ ،يَمشِينَ خِلفَةً وأطلاؤُها يَنهَضْنَ ،من كلِّ مَجثَمِ (١)

حيث قدّم المسند الجار والمجرور " بها " على المسند إليه المعرّف بأل : "العين " ،والمعطوف عليه : " الآرام " ، والتقديم هنا للعناية بهذا المكان الذي هو مدخول حرف الجر ،والذي يمثّل هذه البقاع والمرابع ، فهي بالنسبة للشاعر متعلّق شجنه وما يجده في نفسه .

وقوله :

أَمِنْ آلِ لَيلَى ، عَرفْتَ الطلولا بذي حُرُضٍ ،ماثلاتٍ ،مُثُولا ؟ (٢)

بَلِينَ ،وتَحسِبُ آياتِهِنَّ ،عن فَرْطِ حَولَينِ ، رَقّاً مُحِيلا

إليك ، سِنانُ ،الغَداةَ الرَّحيلُ ،أعصِي النُّهاةَ ،وأُمضِي الفُؤُولا

" ماثلاتٌ : منتصباتٌ ، و مثولاً : انتصاباً ... بلينَ : درسن . و آياتُهنَّ : علاماتُهنَّ . عن فرط حولَين : عن مُضيِّ حولَين . ويقال : آتيك فَرْطَ يومٍ أو يومين ،أي : بعد يومٍ أو يومين . و "الفارِطُ " : الماضي ، يقال : فَرَطَ منّي إليك أمرٌ ،أي : سبقَ منّي إليك أمرٌ . مُحيلٌ : أتى عليه حولٌ... يقول : إذا سمعت شيئاً أكرهُه مضيتُ ولم أتطيّر . وواحد الفُؤُولِ : فألٌ . و "الفألُ ": أن يكون الرجل مريضاً فيسمعَ : يا سالمُ ،أو باغياً فيسمع : يا واجدُ ، فيتفاءل بالسّلامة والوجدانِ . " (٣)

---

(١) ١ : ٢ ، ص ١٧ .

(٢) ١١ : ١-٣ ، ص ١٤٦ . - (٣) ص ١٤٦ .

قدم المسند " إليك " على المسند إليه المعرّف بأل : "الرحيل" ، مفيداً الاختصاص ،أي : إليك لا إلى سواك ،وفيه عناية بهذا المقدّم وأنّه أهل للرحيل إليه . ولمحةٌ جيّدة هنا تظهر في القطع والاستئناف والالتفات ، فأمّا القطع فالانتقال من ذكر طلول آل ليلى وأنها ماثلات بالبيات . وأمّا الاستئناف فهو ذكر الممدوح . وأمّا الالتفات فحيث خاطب سناناً .وتأمّل هذا النداء بحذف حرفه ،وهذا الحذف مشير إلى القرب والدّنو . ثم تأمّل تقديم الظرف " الغداة " وإقحامه مع النداء قبل ذكر المبتدأ المؤخّر . وفي قوله "إليك" دون "إلى سنان "بذكر ضميره قبل ندائه من الإقبال والتكريم ما ترى .

وقوله :

وأمّا المُقْلَتانِ فمن مَهَـــاةٍ وللدُّرِّ المَلاحــةُ ،والصَّفـــاءُ (١)

قدّم " للدُّرِّ " وهو مسند على المسند إليه "الملاحة" ،وعطف على المسند إليه "الصفاء" ،وهذا غير بناء الجملة الأولى في "المقلتـــان فمن مهاة " لأنّها بنيت على الأصل ،فالمقلتان أساس بناء الجملة الأولى إذ المقصود الحديث عنهما وأنّهما كمقلتي المهاة ،وقد أكّد الشاعر ذلك بأمرين ،الأول : كلمة "أمّا" التي لا يؤتى بها إلا لغرض التوكيد . والثاني : هذا الإضمار اللطيف الذي أضمر به التشبيه ،إذ لم يقل "مقلتان كمقلتي المهاة " مثلاً ،وإنّما قال : " فمن مهاة " وهذا شيء غير الأول . وقدّم " الدُّرّ " في الجملة الثانية ليجعله بصفائه ونفاسته فعلاً منصوبــاً تراه العين ولا تمل لهذا المعنى الشفيف الذي هو ملاحتها وصفاؤها .

---

(١) ٣ : ١٢ ،ص ٥٧ .

وقوله يمدح هَرِماً :

ومن ضَريبتِهِ التَّقوى ،ويَعصِمُهُ من سَيِّئِ العَثَراتِ اللهُ ،والرَّحِمُ (١)

قُدِّم الجار والمجرور على المسند إليه "التقوى" عناية من الشاعر بإبراز هذه الطبيعة ،وأنَّها طبيعة جديرة بالإشادة بها وتقديمها .

وأقلُّ الصور أن ترى المسند إليه الذي تقدّم خبره الجار والمجرور معرّفاً بالإضافة ، كما في قوله يمدح هرماً :

إلى هَرِمٍ تَهجِيرُها ،ووَسِيجُها تَرَوَّحُ ،من لَيلِ التِّمامِ ،وتَغتَدي (٢)

"التَّهجيرُ : السَّيرُ في الهاجرة ،وهونصفُ النّهار . ويقال له : الهَجْرُ والهجيرُ والهاجِرةْ ، وَسيجْ : ضربٌ من السَّير فوق العَنَقِ . وليلُ التِّمام : أطول ما يكون الليلُ . ويقال : خَرجَ بِرواحٍ و بِرِياحٍ ، إذا خرج بالعشيِّ (٣) ."

التقديم للاختصاص ،فالركاب لا تتجه إلا إليه ،وهذا معناه أنَّ هرماً متفرد في زمانه ،وأنَّ غيره لا يقصد إذا أُمكن أن يُقصد هرم ، أوهو كذلك عند الشاعر ،وهو وضع له فوق الناس كافة . ويلحظ العطف على المسند إليه " و سيجها " ، وهو تركيب له نظير في شعره عندما قال يمدح سناناً :

وإلى سِنانٍ سَيرُها ،ووَسِيجُها حتّى تُلاقِيَهُ ، بِطَلْقِ الأسعُدِ (٤)

---

(١) ٨ : ٣٥ ، ص ١٢٦ .
" ضريبتُه : طبيعتُه . يَعصِمُه : يَمنعُه "،ص ١٢٦ .
(٢) ١٤ : ٣٠ ، ص ١٦٧ . (٣) ص ١٦٧ .
(٤) ٢١ : ١٨ ، ص ١٩٨ .

" الطَّلق : اليومُ الطَّيِّب لا بَرْد فيه ولا أذًى . و الوسِيجُ : ضربٌ من السير . و الأسعُدُ هو اليُمن ،من السُّعُود . "(١)

وهو مفيد - أيضاً - اختصاص سنان بسير الركاب إليه . وأيّ لقانة عند زهير جعلته يؤاخي في اللغة بين تركيبين مدح بهما هرماً وأباه .

وتأمّل قوله :

* إلى هرم تهجيرها ،ووسيجها *

، * وإلى سنان سيرها ،ووسيجها *

حيث النظام التركيبي واحد ،وقد تكرّرت لفظة " وسيجها " في البيتين ،وذكر " التَّهجير " مع هرم ،أي : مشقة الهاجرة مع مشقة السير المتنوع الضروب ، ولم يذكر ذلك مع سنان ،وبهذا يكون بيته الأول أفضل، ولا ريب أنّ كلمة " التّهجير " التي في بيت هرم لا تتآلف مع : " طلق الأسعد " الذي في بيت سنان ،والطلق -كما مر- هو اليوم الطيب لا بَرْد فيه ولا أذى ،والمشقة في بيت هرم ظاهرةممتدة في الشطر الثاني :

* تروّحُ ،من ليل التّمام ،وتغتدي *

إنّ جميع النماذج السابقة تبرز مسألة مهمة في نسق تقديم المسند المثبت عند زهير على المسند إليه ، هي مجيء المسند جاراً و مجروراً ،وتكرّر ذلك بصورة بيّنة ،وكان أكثر مدخول

---

(١) ص ١٩٨ .

الجار ضميراً :

له عنقٌ

، له خلجٌ

، لهم راحٌ

، لها أداةٌ

، عليها جِنّةٌ

، عليها أسْود

، بها العِينُ

، إليك الرحيل

، له لِبَدٌ

، فيهن ملهًى

، لهم نائِلٌ

، لهم فَضلٌ

، لهم هوًى

كما تكرّر العطف على المسند إليه :

له عنق ، ودفان

وإلى سنان سيرها ، ووسيجها

، إلى هرمٍ تهجيرها ، ووسيجها

، وللدّر الملاحة ، والصّفـــاء

، لهم راحٌ وراووقٌ ومسكٌ وأفراس

، بها العِينُ والآرامُ

، لها أداةٌ وأعــوانُ

وقد تركزت معانيه على الاختصاص أو العناية والاهتمام ، في سياقات المدح والوصف خصوصاً .

هذا في المسند المقدّم المثبت ،أمّا المسند المقدّم المنفي على المسند إليه فقد توافر في شعر زهير بتقديم الجار والمجرور خصوصاً ، ومثل هذا التركيب المقدّم مفيد الاختصاص باتفاق عند أكثر البلاغيين ، وقلت أكثر البلاغيين ،لأنّ من العلماء من ذهب إلى رفض دلالة الاختصاص في تقديم الظرف المسند إذا كان منفياً كابن أبي الحديد في تعليقه على كلام ابن الأثير حول قوله تعالى * لا فيها غول * (١) وقوله تعالى * لا ريب فيه * (٢) ،يقول : " إنّ هذا الذى ذكره شيء لا يعرفه أهل العربية ،ولا أهل الفقه " (٣) . وكلامه مردود ؛ لأنّ القول بالاختصاص مما ذكره العلماء وأكّدوه باتفاق ،ولكنّ هذه الدلالة ليست قاطعة عند علماء البلاغة ،فقد قال ابن يعقوب المغربي (٤) : " ولأجل أنّ التقديم يفيد الاختصاص غالباً " لم يقدّم الظرف " الذي هو المسند على المسند إليه " في " قوله تعالى *لا ريب فيه * ، وهذا واضحٌ في أنّ دلالة الاختصاص عنده في مثل هذا إنّما هي على مقتضى الغالب ، كما أشار الدسوقي إلى ذلك في حاشيته على السعد الذي يقول بالرأي الراجح - أي إفادة التقديم في المسند المنفي الظرف الاختصاص- عند تعليقه على قوله تعالى -أيضاً- * لا ريب فيه * ، يقول الدسوقي :

---

(١) الصافات : ٤٧ .

(٢) البقرة : ٢

(٣) (الفلك الدائر على المثل السائر) ص ٢٤١ .

(٤) (شروح التلخيص) ٢ : ١١٣ .

" قوله " لئلا يفيد الخ " فيه نظر لأنَّه يقتضي أنَّ التقديم يفيد الثبوت المذكور من حيث إن التقديم يفيد الحصر مع أنه لا يلزم أن يكون لإفادة الحصر بل ذلك هو الغالب كما سيأتي في كلام المصنف "(١) ، وعبارة الدسوقي هذه مما خرق الإجماع -كعبارة ابن يعقوب المغربي- حول كون التقديم مفيداً الاختصاص في المسند المنفي إذا كان ظرفاً ، ويرد اعتراض على عبارته الأخيرة " كما سيأتي في كلام المصنّف " ، فهذا الرأي ليس برأيه ،لأنّه أحاله إلى المصنف ،والمصنّف - الخطيب القزويني - قال بإفادة التقديم الاختصاص غالباً(٢) إذا كان في تقديم المعمول على العامل مثل " زيداً عرفت " ،والأمر المهم أنَّ عبارته هذه - وإن كان لنا رأيٌ فيها - مع قول المغربي السابق فقد فتحتا الباب لخرق الإجماع ،وتحسن الإشارة إلى أنَّ الشيخ عبد القاهر قد سكت عن دلالة التقديم في مثل قوله تعالى ﴿ لا فيها غول ﴾ ،وإنَّما تكلّم عن تقديم الجار والمجرور المتعلّق بفعل مثل " ما بهذا أمرتك " وأنّه مفيد انك قد أمرته بشيء غيره(٣) ، أي : مفيد الاختصاص ،والذي يبدو أنَّ الخبر قد قيس على هذا المتعلق ،وأنَّ دلالة الآيتين الكريمتين : ﴿ لا فيها غول ﴾ و ﴿ لا ريب فيه ﴾ ساعدتا على هذا .

والذي انتهيت إليه أنَّ دلالة الاختصاص ليست إجماعاً كما قد يبدو ،وأنَّه ليس بلازم أن يكون تقديم المسند المنفي إذا كان ظرفاً للاختصاص ،وإنما هو دال على الاختصاص بمعونة السياق لا بطريق الوضع،

---

(١) (المصدر السابق) ٢ : ١١٤ .

(٢) (المصدر السابق) ٢ : ١٥٠ .

(٣) (دلائل الإعجاز) ص ١٢٧ .

ويعضد هذا الرأي نماذج من شعر زهير لا وجه لتأوّل الاختصاص فيها ، فتنضم للرأي المرجوح . وتأمّل قوله :

فأَورَدَها حِياضَ صُنيبعاتٍ ... فأَلفاهُنَّ ليسَ بهِنَّ ماءُ (١)

يتحدث عن الحمار ،وقد أورد الأُتن معه موضعاً اسمه " صنيبعات " ، ولو قلنا بأنّ التقديم مفيد الاختصاص في " ليس بهن ماء " لآل المعنى إلى أنَّ نفي الماء مختص بهن ،وليس ذلك بمراد ؛ لأنّه لا يريد أنّ كلّ الحياض فيها ماء ، ما عدا حياض صنيبعات ،وهو ليس من دلالة الشعر في شيء، وإنّما المراد تأكيد أنّه ليس فيهن ماء . فالتقديم إذاً في المسند ، للعناية والاهتمام من حيث كان الحديث عنهن . ومثله قوله في القصيدة نفسها واصفاً الحمار أيضاً :

فآضَ كأنَّهُ رَجُلٌ ،سَلِيبٌ ... على عَلياءَ ،لَيسَ لهُ رِداءُ (٢)

لا يصح حمل المعنى في تقديم المسند المنفي على الاختصاص، فليس المعنى نفي الرداء عنه خصوصاً وأنَّ كل من على علياء له رداء إلا هذا الحمار ، وتوشك جملة : " ليس له رداء " أن تكون تأكيداً لقوله : "سليب " ،فقد سُلِب منه الأمن المرموز له بـ " رداء " وبقي مفزوعاً مستطاراً ،وهذا يفسر سر تأخير المتعلق " على علياء " عن عامله "فآض" لأهمية " كأنَّه رجل سليب " في بيان حالته حين لجأ إلى هذا الشرف

---

(١) ٣ : ٢١ ،ص ٦٠ .

(٢) ٣ : ٢٩ ،ص ٦٣ .

* سليبٌ : عُريانٌ . واقفٌ على شرفٍ من انضمامه . وإنَّما وصفَه بالإدْماجِ والطَّيِّ ... وسليبٌ : مسلوبٌ . و علياءُ : موضعٌ عالٍ . ص ٦٣ .

العالي وقد كان على حال من الذعر والانفلات وطلب النَّجاة .

وقولـــه :

لا الدّارُ غيَّرَها بُعْدُ الأنيسِ ،ولا بالدّارِ ،لو كلَّمَتْ ذا حاجةٍ ،صَمَمُ (١)

ليس المراد فيه قصر نفي الصمم على الديار ،وإنّما قدّم الجـــار والمجرور للعناية بمدخول حرف الجر "الدار" ،وتأكيد نفي أنَّه ليس فيها صمم ، والحديث في نفي الصّمم عن الدار حديث غريب ، ترى الشاعر فيه ذا حاجة ،وفي كلام الدار شفاء لحرقته وحاجته ،والجملة مبنيـــة على التّدله وشدة الوجد الذي يغلب على الشاعر فيصف الأشياء بغيـــر أوصافها ،وهذا كثير في شعر زهير ، ولعل هذا من أهم أسباب تقديـــم لفظة " الدار" ودخول النفي عليها .

وأمّا قوله :

في النّاسِ للنّاسِ أندادٌ ،وليس لهُ فيهم شَبِيهٌ ،ولا عِدْلٌ ،ولا نِدَدُ (٢)

فقد قصر نفي وجود الشبيه والعِدْل والنِّد بين الناس على الممدوح دون سواه منهم ،وعليه فالتقديم في المسند الظرف المنفي مفيـــدٌ الاختصاص ، وقد أعان السياق على معرفته .

وكذلك قوله :

حِياضُ المَنايا لَيسَ عنها مُزحزَحٌ فمُنتظِرٌ ظِمئاً كآخَرَ ، وارِدِ (٣)

التقديم مفيد الاختصاص في " ليس عنها مُزحزح " ،والمراد قصر نفي الزّحزحة على حياض المنايا دون سواها ،بمعنى أنها هي خصوصاً لا يزحزح عنها .

----

(١) ٨ : ٢ ،ص ١١٦ .

"يقول : لم يَنزلها بعدي أنيسٌ ،فيغيّروا ما فيها " ص ١١٦ .

(٢) ٢٢ : ٢٥ ، ص ٢٠٣ .   (٣) ٢٣ : ٤ ، ص ٢٤١ .

وقولـــه :

فأَبلغ ،إنْ عَرضتَ به ،رَسُولاً   بني الصّيداءِ ،إن نَفَعَ الجِوارُ (١)

بأنَّ الشّعرَ ليس له مَـــرَدٌّ   إذا ورد المِياهَ ،به ،التّجـــارُ

أراد : أنَّ هذا هو الشعر الذي لا يرد ولا يغلب ولا يقـــاوم ، أي أنّ نفي المرد مقصور على الشعر ، وفيه مبالغة في بيان قوة الشعر .

٣ - التقديم في المتعلقات :

يأتي التقديم في المتعلقات على ضربين ،أحدهما : يكـــون بتقديم المتعلق على الفعل نفسه . والثاني : يكون بتقديم بعـــــض المتعلقات على بعض .

أمّا تقديم المتعلق على العامل ،فالمشهور فيه أنّه مفيد الاختصاص غالباً والعناية والاهتمام ،وخلاف المشهور أنّه يكون للمحافظة على السجعة أو ضرورة الشعر . والقول برعاية السجعة والفاصلة وضرورة الشعـــــر كلام ضمنـــه ابن الأثير (٢) حديثـه عن التقديـــم ، وأنـــــه يستعمل على وجهين ؛ أحدهما : الاختصاص . والآخر : مراعاة نظم الكلام ، وردّ قول الزّمخشري بالاختصاص في نحو قوله تعالـــــى : * إيّاك نعبد وإيّاك نستعين * (٣) " وذاك لمراعاة حُسن النظـــم السَّجعي الذي هو على حرف النون ،ولو قال : نعبدك ونستعينك لذهبت تلك الطلاوة ،وزال ذلك الحسن" (٤) ،وعرّض بمن يخالف قولـــه

---

(١) ٢٥ : ١٢-١٣ ، ص ٢٢٣ .

(٢) (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر) ٢ : ٢٤٠ .

(٣) الفاتحة : ٤ .

(٤) (المثل السائر) ٢ : ٢٤١ .

بأنّ ذلك غير خاف على أحد من الناس فضلاً عن أرباب علم البيان ، يعني الزّمخشري . وقد تابع ابن الأثير في القول بضرورة الشعر ورعاية السجعة والفاصلة السعد [١] في مختصره حين ذكر أنّ التخصيص لازم للتقديم غالباً ، أي : لا ينفك عن تقديم المفعول ونحوه في أكثر الصور بشهادة الاستقراء وحكم الذوق ، كما قد يكون لأغراض أخرى كمجرّد الاهتمام والتبرك والاستلذاذ وموافقة كلام السامع وضرورة الشعر ورعاية السجع والفاصلة ، وساق لذلك أمثلة منها قوله تعالى : * خذوه فغلُّوه * ثُمَّ الجحيم صَلُّوهُ * ثُمَّ في سلسلة ذَرْعُها سبعون ذِرَاعاً فاسلكُوهُ * [٢] ، وقوله : * وإنَّ عليكم لَحافِظِين * [٣] ، وقوله : * فأمّا اليتيم فلا تقهر * وأمّا السائل فلا تنهر * [٤] " إلى غير ذلك مما لا يحسن فيه اعتبار التخصيص عند له من معرفة بأساليب الكلام " [٥] .

وكلام السعد وابن الأثير مخالفٌ لما ذهب إليه الشيخ عبد القاهر [٦] في قوله : " واعلم أنَّ من الخطأ أن يقسَّم الأمر في تقديم الشيء وتأخيره قسمين ، فيجعل مفيداً في بعض الكلام ، وغير مفيد في بعض ، وأنَّ يعلّل تارة بالعناية ، وأخرى بأنَّه توسِعَةٌ على الشاعر والكاتب ، حتَّى تطَّرِد لهذا قوافيه ولذاك سجعه . ذاك لأنّ من البعيد أن يكون في جملة النظم ما يدل تارة وما لا يدل أخرى " . وكأنَّ ابن الأثير والسعد يُسلِّمان لعبد القاهر بالشطر الأول من رأيه ، ويخالفانه في الآخر . وهذه

---

(١) (شروح التلخيص) ٢ : ١٥٠-١٥١ .

(٢) الحاقة : ٣٠-٣٢ .

(٣) الانفطار : ١٠ .

(٤) الضحى : ٩-١٠ .

(٥) (شروح التلخيص) ٢ : ١٥٢ . (٦) (دلائل الإعجاز) ص ١١٠ .

الدراسة تستقصي طرائق تراكيب فنرجو أن نرى فيها ما يضيء هـــذا الخلاف .

وما قُدِّم فيه الجار والمجرور على الفعل قول زهير:

إلى هَرِمٍ سارَتْ ثلاثاً ،من اللِّوى فَنِعْمَ مَسِيرُ الواثقِ ،المُتَعمِّدِ (١)

أي سارت إلى هرم لا إلى غيره ،فالتقديم مفيد معنى الاختصاص فضلاً عن عناية الشاعر بهرم.

وقولـه :

إلى ابن سَلمَى ،سِنانٍ وابنِهِ هَرِمٍ تَنجُو ،بأقتادِها ،عيديَّةٌ تَخِـــدُ (٢)

" تنجو : تسرع . و الأقتاد : جمع قتد . وهو خشـب الرحل . و العيدية : نوق نجائب منسوبة الى نبي العيـد . و تخد : تسرع وتوسع الخطى . (٣) "

قدّم المتعلق الجار والمجرور " إلى ابن سلمى " والمعطوف عليه " وابنه هرم " ،وأخَّر العامل " تنجو " ،أراد أنَّ هذه النوق النجائـب لا توسِّع الخطى ولا تسرع لأحد إلا لابن سلمى وابنه هرم خصوصاً . وفيه العناية بالممدوح والتعظيم له .

---

(١) ١٤ : ٣١ ، ص١٦٧ .
" اللِّوى : ما انقطع من الرَّمل . والواثقُ : الذي يثق بمسيره إليه . المتعمِّد : القاصِد ." ص١٦٧ .

(٢) ٢٢ : ١٠ ، ص٢٠٢ .

(٣) ص٢٠٢ حاشية " ٥ ".

ومثلها قوله يمدح هرماً :

إليكَ ،من الغَورِ اليَمانِيِّ ،تَدافَعَتْ يَداها ،ونِسعا غَرْضِها قَلِقانِ (١)

" اليماني : ناحيةُ اليمن . يداها ،أراد : يَدَيها ورجليها ،فاكتفى باليدين . تدافعت : دفع بعضُها بعضاً . والغرضُ للناقة بمنزلة الحزام للسَّرج . وإنَّما قال "نِسعانِ" أراد النِّسعَ والحَقَبَ . قلقانِ : مضطربان لضُمُرِها ." (٢)

وقوله ،يمدحه أيضاً :

إن تُؤتِهِ النُّصحَ يُوجَدْ ،لا يُضَيِّعُهُ وبالأمانةِ ، لم يَغْدِرْ ،ولم يَخُنِ (٣)

" قال : تَجِدْه غير مضيِّعٍ له . " (٤)

التقديم للاهتمام والعناية بإبراز صفات هذا الرجل ،لأنَّه لا يريد أن غيره يخون ويغدر .

وقوله مقدّماً الظرف على العامل ممتدحاً سنان بن أبي حارثة :

فما مُخْدِرٌ ،وَرْدٌ ،عليهِ مَهابةٌ يَصِيدُ الرِّجالَ ، كُلَّ يَومٍ يُنازِلُ (٥)

" كل يوم ينازل " فيها فضل عناية وتوكيد لنزاله .

----

(١) ٤٩ : ١٢ ، ص ٢٦٨ .

(٢) ص ٢٦٨-٢٦٩ .

(٣) ٦ : ٢٠ ، ص ١٠٠ .

(٤) ص ١٠٠ .

(٥) ٢٤ : ١٣ ، ص ٢١٦ .

وقولــه :

نُعَوِّدُها الطِّرادَ ،فكلَّ يـوم ٍ   تُسَنُّ ، على سَنابِكِها ،القُرُونُ (١)

وقوله ، وقد حذف المصدر وبقي وصفه ثم قُدِّم:

قليلاً عَلَفْناهُ ،فأُكمِلَ صُنعُهُ   فتَمَّ ،وعَزَّتْهُ يَداهُ ،وكاهِلُـــهُ (٢)

"وعزَّته": غلبته . يقول : صار أعظم شيءٍ فيه يداه وكاهلُـه .
وهذه من صفة الجياد . أي : كانا أشدَّ شيءٍ فيه . أُكمِلَ صُنعُه ، يقول :
أحسنّا القيام عليه .(٣)

قدّم هذا الوصف ليدل على التخصيص ،وأنَّ الفرس ما علــف
إلا قليلاً ، ثم إنَّ العبارة فيها فضل توكيد .

وقولـه ،وقد دخلت الهمزة على المتعلق الجار والمجرور المقدّم
على العامل :

أعَنْ كلِّ أُخدانٍ ،وإلفٍ ،ولَذّةٍ   سَلَوتَ ،وما تَسلُو عن ابنةِ مُدْلِجِ ؟ (٤)

يفيد قصر سلوه عن كل أُخدان وإلف ولذّة ،وذلك بخلاف ابنة
مدلج ، والقصر هنا هو أصل المعنى، لأنَّ المراد قصر سلوه على كل من
عدا ابنة مدلج .

ومثلـه :

أَمِنْ آلِ ليلى ، عَرَفْتَ الطُّلُولا   بِذي حُرُضٍ ، ماثِلاتٍ ،مُثُـولا ؟ (٥)

---

(١) ١٠ : ٧ ، ص ١٤٠ .
"وتُسَنُّ : تصبُّ عليه . ويقال سالَ عليه قُرُونٌ من عَرَقٍ ،أي : دُفعة . .
والسَّنابكُ : مُقَدَّم الحوافر . وما حَوله الحَوامي" ص ١٤٠ .

(٢) ٧ : ١١ ، ص ١٠٥ .   (٣) ص ١٠٥ .

(٤) ٣٢ : ١ ، ص ٢٣٦ .   (٥) ١١ : ١ ، ص ١٤٦ .

المقصود معرفة الطلل الذي من آل ليلى خصوصاً .

وقولـــه :

غَدَتْ عذّالتايَ ،فقُلْتُ : مَهْــلاً أفي وَجْدٍ ، بسَلمَى ، تَعذُلانِي؟ (١)

قصر إنكاره العذل على وجده بسلمى خصوصاً .

وفي ضوء الشواهد السابقة والتي انحصرت تقريباً في تقديم الجار والمجرور أو الظرف أو الوصف النائب عن المصدر أو الجار والمجـــرور المسبوق باستفهام ، يتبيّن أنّه يمكن أن يكون الكلام مفيداً لمعنيين معاً ،أحدهما : استجابة للقافية وضرورة الشعر . والآخر : -وهو الأهم- الفائدة المفهومة من السّياق .

وأمّا تقديم بعض المتعلقات على بعض فقد وقع في شعره كثيراً ، وكانت أكثر الصور جرياناً تقديم الجار والمجرور على الفاعل ، كما في قوله :

أرانِي ،إذا ما بِتُّ بِتُّ على هوًى فثُمَّ إذا أصبحتُ أصبَحتُ غاديا (٢)

إلى حفرة ،أهوي إليها ،مُقيمةٍ يَحُثُّ إليها سائقٌ ،مِن وَرائيـــا

"بِتُّ على هوًى : على أمرٍ أُريدُه . فإذا أصبحتُ جاء أمرٌ غيـــر ما بِتُّ عليه ، من موتٍ ،وغير ذلك . يريد : أنَّ حاجتي لا تنقضي أبداً ... أهوي : أذهبُ إليها . ويُروى "سائقي" . والسّائقُ : الذي يَحمِلُ جنازتَه . سائقٌ ، يَعني : الأجَلَ ." (٣)

---

(١) ٤٨ : ١ ، ص ٢٦٢ .
(٢) ٢٣ : ٤-٥ ،ص ٢٠٧ .
(٣) ص ٢٠٧- ٢٠٨ .

تكررت " إلى " كثيراً في البيت الثاني ،وهي حرف مشعر بالانتهاء إلى الغاية ، ومن هنا كان البيت مشحوناً بالإلحاح على ذكر النهايات التي يرقبها الشاعر بقلق ورهبة ،وتقديم الجار والمجرور في " يحثّ إليها سائق " للأهمية ،لأنّها - أي الحفرة - هي بؤرة المعنى الذي يدور عليه البيت ، ثم إنّ تقديمها مع هذه العناية فيه نوع من إيضاح النظم نظراً لقربها من العائد ،وهذا من نصاعة النظم حتّى لا يتوه المرجع من السامع فلا يلتبس المعنى .

وقولـــه :

حَدِبٌ على المَولَى الضَّريكِ ،إذا نابَتْ ،عَليهِ ،نوائبُ الدَّهـــــرِ (١)

" نابَتْ : نَزَلَتْ . و نوائبُ : نوازلُ . . . وحَدِبٌ : متعطّفٌ مُشفِقٌ . يقال : تحدَّبتِ الرِّيحُ حول البيتِ ، إذا دارت حوله . وتحدَّبتِ النّاقة على ولدها ،وحَدِبت عليه : إذا أقامتْ عليه وأشفقت . والضَّريكُ : المحتاجُ . " (٢)

قدّم الجارو المجرور على الفاعل في " نابت،عليه،نوائب الدهر " .

وقولـــه :

وإنْقامَ ،مِنهمُ ،قائمٌ قالَ قاعِدٌ : رَشَدْتَ ،فلا غُرمٌ عَليكَ ، ولا خَذَلُ (٣)

الشاهد في " قام ،مِنهم ،قائِمٌ "

---

(١) ٤ : ١١ ، ص ٧٩ .

(٢) ص ٨٠ .

(٣) ٥ : ٢٧ ، ص ٩٤ .

وقولـــه :

أَرَبَّتْ بها الأرواحُ ،كُلَّ عَشِيَّةٍ فلم يَبْقَ إِلا آل خَيمٍ ،مُنَضَّدِ (١)

الشاهد في : " أربَّت بها الأرواح ".

وقولـه :

حتّى إِذا ما انجابَ ،عَنها ،ليلُها وتَلَدَّدَتْ ،بالرَّملِ ،أَيَّ تَلَدُّدِ (٢)

الشاهد في " انجاب عنها ليلُها ".

وغير ذلك كثيرٌ جداً .

وأقلُّ منها : تقديم الظرف على الفاعل ،كما في قوله :

ويَبقَى بَينَنا قَذَعٌ ،وتُلفَوا إِذا قَومٌ ،بأنفُسِهِمْ أَساؤوا (٣)

قدّم الظرف " بيننا " على الفاعل " قذعٌ ".

وقوله :

سعى بَعدَهُم قَومٌ ، لكي يُدْرِكُوهُمُ فلم يَفعَلُوا ،ولم يُلامُوا ،ولم يأْلُوا (٤)

المقصود بـ : " سعى بعدهم قومٌ " أي : سبقت آباؤهم فلم يُدرِكوهم ،ولم يُلاموا على تقصيرهم ، ولم يألوا أن يبلُغوا آباءهم (٥).

---

(١) ١٤ : ٢ ، ص ١٦٠ .

(٢) ٢١ : ١٥ ، ص ١٩٧ .

" انجاب : انكشفَ عن البقرة ليلُها ،أي : أصبحتْ . تلدّدتْ : تردّدت وتلفّتت تطلبُ ولدَها " ص ١٩٧ .

(٣) ٣ : ٦٥ ، ص ٧٤ .

" القَذَعُ : القبيحُ والشَّتمُ .. وتُلفَوا : تُوجَدُوا . وأساؤوا أي : أساؤوا إلى أنفسهم " ص ٧٤ .

(٤) ٥ : ٣٩ ، ص ٩٤ .

(٥) ص ٩٤ .

وقولـه :

فلمّا أن تَحمَّلَ أهلُ لَيلَــــى ... جَرَتْ ، بَيني ،وبَينَهمُ الظِّباءُ (١)

الشاهد : " جَرت بيني و بينهم الظِّباء "

وأقل منهما تقديم الفاعل والجار والمجرور على المفعول به كمـا في قوله :

أغَرَّ أبيَضُ ،فيّاضٌ ،يُفكِّكُ مَــن ... أيدِي العُناةِ ،وعَن أعناقِها ،الرِّبَقا (٢)

" أغـرّ : في وجهه غُرّة ،أي : إنّه بيِّن الكَرَم ،ويكـــون : لا عيبَ فيه . وكذا الأبيضُ ... وفياضٌ : كثير العطاء ... والعُناةُ : الأسرَى ... والرِّبَقُ : جمع رِبْقــةٍ. وهو حبلٌ طويلٌ فيه مواضعُ تُجعلُ فيها رؤوس الحُمْلانِ ،لكيلا تَرضَعَ أمّهاتِها . وأراد الأغلالَ ،فاستعار ربقــةَ البَهْم لذلك (٣)."

وقولـــه :

فَشجَّ بِها الأماعِزَ ،وهْي تَهوِي ... هُوِيَّ الدَّلْوِ ،أسلَمَها الرِّشـــاءُ (٤)

" شجَّ : علا . بها : بالأُتُنِ . والأمعزُ والمعزاء ، والجمع الأماعزُ : المكان الغليظُ الكثيرُ الحصى . وأسلَمَها : خذَلها : والرِّشاءُ : الحبلُ . (٥)"

---

(١) ٣ : ٦ ، ص ٥٤ .

(٢) ٢ : ٢٧ ، ص ٤٩ .

(٣) ص ٤٩ - ٥٠ .

(٤) ٣ : ٢٢ ، ص ٦٠ .

(٥) ص ٦٠ .

وقوله :

ولا تُكثِرْ ،على ذي الضِّغنِ ،عَتْباً ولا ذِكْرَ التَّجَرُّمِ ،للذُّنُوبِ (١)

الشاهد : يفكك عن أيدى العناة ... الرّبقا

، فشجّ بها الأماعز

، تكثر على ذي الضغن عَتْباً

وأقلّ منها تقديم المفعول به والجار والمجرور على الفاعل ،كما في

قوله :

تُهَوِّنُ بُعْدَ الأرضِ ،عنّي ،فَريدةٌ كِنازُ البَضيعِ ،سَهْوةُ المَشيِ ، بازِلُ (٢)

"سَهْوةٌ : سَهلةٌ . و بازِلٌ للذكر والأنثى سواءٌ .

فريدةٌ : لا مِثلَ لها (٣) . و "الكناز : المكتنزة الصلبة .

و البضيع : جمع بضع . وهو اللحم . و البازل : الناقة بلغت التاسعة من عمرها (٤) .

الشاهد " تُهوِّن بُعْدَ الأرضِ عنّي فريدة ".

الإحساس بالغربة والبعد المكاني اقتضاه أن يُقدِّم " بُعْد الأرض " ، فهو الأساس والأهم ، ثم إنّه لمّا قال " تُهوِّن " كان لا بد له من أن يسعف بالشيء الذي أحس بصعوبته والذي تهونه هذه الناقة عنه وهو بعد الأرض وأنّها أي الناقة تهوِّنه عنه فذكر "عنّي " ، هذا الجار والمجرور الذي يركِّز إحساسه العميق بالغربة .

---

(١) ٣٦ : ١ ،ص ٢٤٦ . (٢) ٢٤ : ٩ ، ص ٢١٥ .
(٣) ص ٢١٦ . (٤) ص ٢١٥ ، حاشية " ٦ ".

ومثله قوله :

أتى قومَهُ ، منه ، حِباءٌ وكُسْوةٌ ‏ ‏ ‏ ‏ ورُبَّ امرئٍ يَسعَى ، لآخَرَ ، قاعِدِ (١)

الشاهد "أتى قومه منه حِباءٌ وكُسْوةٌ".

والأقلّ ، تقديم الفاعل والجار والمجرور والظرف على المفعول ، كما في قوله :

وَقفتُ بِها ، رَأْدَ الضَّحاءِ ، مَطِيَّتي ‏ ‏ ‏ ‏ أُسائلُ أطلاماً ، ببَيداءَ ، قَـرْدَدِ (٢)

واضحٌ جداً أنَّ ضمير الأطلال المذكور في " بها " أهمّ عند الشاعر من ذكر المطية ، لأنّه متعلق بالفرض ، وهو تحديد الزّمن الذي كان فيه هذا الحدث "رأد الضَّحاء" ، أي : "وقت ارتفاع الشمس وانبساط ضوئها" (٣) ، أمّا المطية فهي ليست أكثر من أنَّه أوقفها لهذه الذكرى المدلول عليها بهذا الضمير.

والعرض السابق يتبين منه أنّ أكثر أنواع المتعلّقات تغيّراً هو الجار والمجرور ، يليه الظرف وإن لم يتصرف تصرف الجار والمجرور في لغة زهير.

ويمضي البحث - بعد - متأمّلاً بعض دواعي التقديم عند زهير في المتعلقات ، فقد يكون بدءاً بالأهم ، كما في قوله :

بَدا ليَ أنَّ النّاسَ تَفنَى نُفوسُهُمْ ‏ ‏ ‏ ‏ وأموالُهُمْ ، ولا أرَى الدَّهرَ فانيـا (٤)

---

(١) ٣٣ : ٣ ، ص ٢٤١ . ‏ ‏ ‏ ‏ (٢) ١٤ : ٤ ، ص ١٦١ .

(٣) ص ١٦١ ، حاشية (١) .

(٤) ٢٣ : ٢ ، ص ٢٠٧ .

تأمّل هذين الفاعلين المتعاطفين " نُفوسُهُمْ وأموالُهُمْ " حيث جعل الفناء منصباً على النفوس والأموال وأراد بذلك أن يستخرج النفائس التي من شأن الناس أن يضنّوا بها، وأن تكون أنفس ما عندهم، إلا أنه قدّم فناء النفوس على الأموال بدءاً بما هو أهم ؛ يريد أن يلقي بروع الناس أن الفناء محدقٌ بأهم ما يعنيهم مؤثراً التدرج من النفيس الأول إلى النفيس الثاني ليحدث هذا الأثر الباغت الذي يخاطب الناس فيه بفناء أوثق ما له صلة بهم وهو : نفوسهم . ثُمَّ تأمّل قيمة بناء الكلام على التوكيد ، ففاعل " بدا " جملة اسمية مؤكدة ، وفيها خبر " أنّ " جملة فعلية : " تفنى نفوسهم وأموالهم " فآثر الفاعل المصدر المؤول على المصدر الصريح ؛ ليبرز هذه الحقيقة في فناء الناس ، وليتاح له هذا النسيج المحكم في بناء الكلام من توكيد الجملة بإنّ ثم الاضاءة بالجملة الفعلية . ولعل هذا من خصائص تنقيح الشعر عنده وعكوفه عليه .

وقد يكون تكريماً لهذا المقدّم وعناية به كما في قوله :

ولا تُكْثِرْ على ذي الضِّغنِ ،عَتْباً ... ولا ذِكْرَ التَّجَرُّم ،للذُّنُوبِ (١)

ولا تَسأَلْهُ ،عمّا سوف يُبْدي ... ولا عن عَيبِهِ ،لك ،بالمَغيبِ

مَتَى تَكُ في صَديقٍ ،أو عَدُوٍّ، ... تُخبِّرْكَ الوُجوهُ ، عن القلوبِ

لماذا قدّم الصديق على العدو ، وإن كانت الأبيات السابقة تذكر الضِّغن والتَّجرّم والعيب بالغيب ؟ والجواب هو : الإشارة إلى شرف الصحبة وتقدّم رتبتها تكريماً للصداقة وروح المحبة ،

---

(١) المقطّعة ٣٦ ، ص ٢٤٦ .

ولهذا المعنى الموجود في الصديق ،وزهيرٌ من الشعراء الذين وقفوا شعرهم على السلام والوئام بين الناس والصداقة والمحبة ،وإحلال ذلك كله محلّ العداوة والبغضاء .

وقد يكون التقديم في المتعلقات إبرازاً للمقدّم ،كما في قوله :

فظَلَّ قَصيراً ،على صَحْبِهِ وظَلَّ ، على القَومِ ،يوماً طَويلا [(١)]

" يقول : ظلَّ قصيراً على الغالبينَ وطويلاً على المغلوبين "[(٢)].

في ذكر " قصيراً " وبقائه في موضعه فائدة ،لأنّه إخبار بأمر مهم ولا مقتضى للعدول عنه ،وهو قصر اليوم ،وهو إخبار عن معاني النصر والسرور بهذا اليوم ،وأوقات المسرة إنما توصف بالقصر ، ويلحظ عدم ذكر الشاعر اليوم ،وإنما صفته ،وكأنَّ القوم لم يشعروا به . واختلف النظام في الشطر الثاني حيث قدّم هؤلاء الأعداء المنهزمين أول ، وطول يومهم مفهوم ضمناً من الإخبار عن قصر يوم الغالبين ، فلم يعد هناك ما يلح على تقديم الطول ، وإنما كان هناك ما يلحّ على تقديم هؤلاء الأعداء ،وهو إبراز الشماتة بهم والنكاية ،وقوله : " يوماً طويلاً " إبراز للزمن وتشخيص له عند النكاية بالأعداء ايجاعاً لهم ،أما في " فظلَّ قصيراً " فلم يبرزه ،لأنه زمن قصير خاطف .

هذه هي صور التقديم في المتعلّقات عند زهير ،فأما تقديم المتعلق على العامل فقد ظهر فيه أنَّ أكثر المتعلّقات تغيّراً هو الجار والمجرور سبق باستفهام أم لم يسبق ،وقد ذكرت

---

(١) ١١ : ١٧ ، ص ١٥١ . (٢) ص ١٥١ .

الخلاف بين البلاغيين حول أحد دلالات التقديم وهي مراعاة السجع وضرورة الشعر ،وهي دلالة رفضها عبد القاهر ،وذهب إلى القول بها ابن الأثير وتابعه في ذلك السعد ،ورأيت في مثل هذا التركيب الذي قُدِّم فيه المتعلق على العامل أنَّه لا منافاة بين تلك المراعاة للسجع وضرورة الشعر ، والمعنى الآخر المفهوم من السياق -وهو الأهم - ،ويرجح عدم المنافاة هذه ما ذكره ابن أبي الحديد (١) في ذلك ،وما هو واقعٌ بين أيدينا من شعرٍ لزهير .

وأمّا تقديم بعض المتعلقات على بعض ، فكما ظهر لدي أنه ورد في شعر زهير كثيراً ،وكانت أكثر الصور تردّداً ما قُدّم فيه الجار والمجرور على الفاعل ،ثم الظرف ،وبذلك يلحظ قلق موضع الجار والمجرور عنده . وكانت أبرز معاني التقديم في المتعلقات بعضها على بعض ، البدء بالأهم ، والعناية بالمقدم ،والإبراز له .

---

(١) (الفلك الدائر) ص ٢٣٠- ٢٣١ .

ثانياً : نسق الصفات في شعره :

يتصل ببحث التقديم بحث آخر يتعلّق بتقديم بعض الصفات على بعض ، ولا يُراد بالصِّفات - هنا - الصفات النّحوية المحدّدة ، وإنّما يراد ما هو أعم من ذلك مما سوف يتضح خلال الدراسة والتحليل .

وهذه الموصوفات متنوعات ، منها وصف المرأة . وتأمّل نسق بناء الصفات في قوله يصف أسماء :

خَوْدٌ ، مُنعَّمَةٌ ، أَنيقٌ عَيشُها ... فيها ، لِعَينِكَ ، مَكْلأٌ وبَهاءُ (١)

وكأنَّها ، يَومَ الرّحيلِ ، وقَد بَدا ... منها البَنانُ ، يَزينُهُ الحِنّاءُ

بَرْدِيّةٌ ، في الغِيلِ ، يَغذُو أصلَها ... ظِلٌّ ، إذا تَلَعَ النَّهارُ ، وماءُ

أو بَيضةُ الأُدْحِيِّ ، باتَ شِعارَها ... كَنَفا النَّعامةِ : جُؤجُؤٌ ، وعِفاءُ

فأول ما يبدهك منها أنَّها " خودٌ " ، أي : حسنة الخلْق ، وهكذا تراها العين أول ما تراها ، ثم هي " مُنعَّمَةٌ " وهذا يكون في مراتب الإدراك بعد رؤية الخلْق ، وهذه الكلمة مُعْبُرٌ عبر عليه الشاعر إلى بيئتها ومنبتها والرّفه الذي هي فيه ، ثم هي " أنيق عيشها " وهذا صميم الحديث عن منبتها ، و " فيها لعينك مكلأٌ وبهاء " ، أي : آيات من الحسن وصنوف متنوعات منه لا تراها العين فقط وإنّما تتغذى بها وفيها " مكلأٌ " و " بهاء " ، أي : حسن وروعة وبهجةٌ وإشراقٌ ووضاءة . ثم أخذ يصفها يوم الرحيل : " وقد بدا منها البنان يزينه الحِنّاء " يذكر المثير الذي أهاجه منها ، وتأمّل كيف انبعثت في نفسه صورة التشبيه لما رأى بنانها الذي يزينه الحنّاء وما يطويه من دلالة

---

(١) ٤١ : ٥ - ٨ ، ص ٢٥٣ - ٢٥٤ .

على النعمة والصون والنّضارة والليونة ،وصورة التشبيه عند الرّحيل رائعة حقاً ؛ فهي بردية -والبردية ضرب من النبات ناعم طري - مصونة في غيل ملْتفٍ بالشجر يحوطها ويغذيها ظِلٌّ وماء ،وليس أفضل للنبات من ماءٍ وظلٍّ يغذيه في حمارّة الهاجرة ووقت القيظ ،وهذا المعنى ينتقل إلى أسماء بالنعمة والرفه وضروب الحفظ والصون ، فهي لا ترى هاجرة ولا تحس لفح الحياة التي يبتذل فيها غيرها ويمتهن . ثم تأمّل كيف انتقل الشاعر من الغيل الملتف والظل والماء إلى قلب الهاجرة حيث النعامة وبيضها ،وكيف قابل هذا الانتقال وهذه البيضة في هذا اللفح مصونة بصدر يحنو عليها ويقيها ،وفيه ما فيه من الحفظ والصون الشديد ودفء الحنان والحَيْطة ،وهذه حكمة بيانية غريبة أن يتأنق زهير في اختيار الألفاظ ؛ فلم يكتف بكنفي النعامة - أي : جناحيها - وإنما فصّل فيه "جُوء جوء -أي : صدر - وعفاء " أي : ريش ،فذكر صدر النعامة وزغب ريشها الناعم مشيراً إلى ضروب الصون التي تحوطها ،وكأنّ هذا التشبيه شرح للبيت الأول : " خَودٌ ، منعّمة . . "

والكلام فيما مضى واضح النّسق جدا : حسن الخلْق الذي هو أول ما ترى العين ، ثم آثار النعمة وإدراك ذلك يكون بعد الأول ، وأناقة العيش ضرب أعلى من النعمة ،ثم إنّ فيها للعين ملأ وبهاء وهذا ثمرةُ الرفه والنعمة ، وهويستلزم التدقيق والإحاطة ولا يكون مع النظرة الأولى ولا مع النظرة الثانية ،وإنّما هو درجة من الإدراك الأعلى والإحاطة الأشمل ،ثم انتقل بعد ذلك إلى انتزاع الصّورمما حوله ليصف حيويتها ويُصوّر نعمتها كلّها مرّة ثانية ويبرز ما ذكره أوّلاً ،فذكر البردية وهي نبات

صون طريءٍ كما مرّ ، فوصف منها ما يتضمّنه هذا التشبيه من الليونه وطراوة العيش والصون وهكذا ...

ومثله قوله ، يصف سلمى :

إنْ تَستَبِيكَ ، بجيدِ آدَمَ ، عاقِدٍ يَقْرُو طُلُوحَ الأنْعَمَيْنِ ، فَثَهْمَدِ (١)

ومُوَشَّرٍ ، حُمْشِ اللِّثَاتِ ، كأنَّما شَرِكَتْ مَنابِتُهُ رَضيضَ الإِثْمِدِ

" تستبيك : تَسبي قلبك ، والآدمُ من الظِّباء : الذي ليس بخالص البياض وفيه جُدَّتان ، أي : خُطَّتان . و العاقِدُ : الذي يعقِدُ عنُقَه ويلويها . يعني ظبياً . وَيقرُو : يتتبّع ويرعى هذا الطلح ، والطَّلْحُ : شجرٌ ... والأنعمان وثهمدُ : مكانان ... موَشَّرٌ : ثغر فيه تَحزيزٌ ، و الأُشُرُ : تحزيزٌ في الأسنان . وإنما يكون ذلك للصبيّ ، لأنّه لم يُكثر المَضغَ على أسنانه . وحُمْشُ اللِّثاتِ: قليل اللحم دقيقٌ . كأنّما شَرِكتْ أي : خالطَتْ . منابتُه : أصولُه . و رضيضُ الإِثمدِ : ما رُضَّ منه ودقَّ . الإِثمدُ : الكُحْلُ . و اللِّثَةُ : اللحم الذي يكون حول الأسنان . والجمع لِثَاتٌ . " منابته ": منابت الأسنانِ . يقول : في لِثَاتِها سوادٌ . إنَّما يريد أنها قليلةُ لحم اللِّثة (٢) " .

" تستبيك " كلمة سخيةٌ استعملها الشعراء كثيراً ، وفيها نوع من المخاتلة والمراودة بين الشاعر وصاحبته ، فلم يكن الموقف صامتاً من غير أن تكون له أحواله وشجونه ، ولم يكن بالموقف التلقائي يراها في حالة

---

(١) ٢١ : ٣-٤ ، ص ١٩٤ - ١٩٥ .

(٢) ص ١٩٤ - ١٩٥ .

عادية ، وإنّما هو موقف فيه تفنن في الحركة وله هدف في المخاتلة ، وهو من باب العبث والصبوة . وذِكر الجيد بعد وصف المخاتلة ؛لأنّ المخاتلة كانت به . وتقدّمت كلمة " آدم " لأنّها تصف اللون . ثمّ تبعتها كلمة " عاقد " وهذا هو الغالب في ترتيب هاتين الكلمتين - " آدم وعاقد " - عند زهير وعند غيره أيضاً . ويلحظ إدخال الحركة في " يقرو " ،وكأنّ هناك أنواعاً من الأفاعيل تتجدد وتتغير والمقصود بها الخلابة والاستهواء وصرف الرجل إليها ، كما أنّ الظبيـــة تمدّ عنقها لتأكل وتحركـه هنا وهناك ، حدّق الشاعر إلى ذلك ووصف ، ثم انتقل الكلام بعد ذلك إلى شيء الشأن فيه أنّه يُرى بعد الأول ، والرؤية التفصيلية لا تكون إلا بعد الرؤية الإجمالية وبعد المراجعة ، فوصف محاسن ثغرها ،وذكر كلمة " مؤشر " وأراد أنه ثغر كثغـر الصبي ،فالأسنان لا معة بيضاء نقية وكأنّها أسنان الطفل . ويفسـر تقديم " حُمش اللّثات " بما فُسّر به تقديم العنق على الثغر أيضاً ، فقد ذكر في أوصاف الثغر أول ما يبدو منه "مؤشر " أي فيه تحزيز ، وثنّى ب " حُمش اللّثات " ،وثلّث بما يكون بعد في الإدراك وهو : " كأنما شركت منابته رضيض الإثمد " ،أي خالطت أصولـه ما دقّ من الكحل ،أراد : أنّ في لثاته سواداً وكان هذا مما يستحسن .

وتأمّل كيف انكشف تيار المعنى الذي جرى في نفس زهير ؟ وكيف كان يتحرك بفكره ؟ فنحن بإزاء وصفين ، وصف للعنق ،ووصف للثغر ، وهذا ترتيب منطقي جدا ؛لأنّ العين ترى من المرأة هيئتها العامـة وعنقها الطويل الممتد ،وهذا هو عطاء النظرة الأولى ،أمّا رؤية الثغـر

بأوصافه التي ذكر ، فهي تأملات وتحديقات تأتي نظراً بعد نظر ، وهذا ترتيب معقول ،ثم تأمّل ترتيب الجزئيات في القسم الثاني ، تجد " موشر " وهذا أول ما يُرى من الأسنان ،ثم " حمش اللِّثات " وهذا بالقطع إنّما يرى بعد رؤية الأسنان ،ثم الوصف الأخير الذي هو وصف لمنابت الأسنان وتشبيهه " كأنّما شركت منابته ..." . وهكذا تجد نسقاً لطيفاً في الصّفات وترتيباً إنّماكيا ن بعد التثقيف والمراجعة وتعاطي النظر .

و مثله قوله :

وأذكُرُ سَلمَى ،في الزَّمانِ الذيمَضَى ... كمَيناءَ ،ترتادُ الأسِرَّةَ ،عَوهَجِ (١)

على حَدِّ مَتنَيها ،منَ الخَلْقِ ،جُدَّةٌ ... تَصيرُ ،إذا صامَ النَّهارُ ،لدَولَجِ

ببَطنِ المَقيقِ ،أو بِخَرْجِ تَبالَةٍ ... متى ما نَجِدْ حَرّاً ،من الشَّمسِ،تَدْمُجِ

تَحُلُّ الرِّياضَ ،في هلالِ بن عامرٍ ... وإن أنجدَتْ حَلَّتْ ،بأكنافِ مَنعِجِ

وتُصبي الحليمَ ،بالحَديثِ ،يلَذُّهُ ... وأصواتِ حَليٍ ،أو تَحَرُّك دُمْلُجِ

الأبيات السابقة صور أقام الشاعر بناءها على الذِّكرى ; وهي ذكريات تعود إلى الماضي،إذا ما هُيِّج بذكر من أحب انبعثت القصص

---

(١) ٣٢ : ٤-٨ ، ص ٢٣٦ - ٢٣٧ .

"الأسرة : بُطُونُ الأرض . أراد سِراراً وأسِرَّةً ،وهوالموضع الذى يجتمع فيه الماء ،فيصيرُه نباتٌ . وهي سَرارة الوادى . عوهَجٌ : طويلة العُنُقِ...إذا صام النهار : انتصف . لدولج أى : تدخل كناسها...أنجدت : ارتفعت إلى نجد . وأكناف منعج : نواحيه . ص ٢٣٦-٢٣٧ .

كلّها ،وانبعاث الماضي ليس إعادة لذكر من يحب فقط بل إعادة لأيام الشّباب برمتها العامرة بهذه الأشياء أيضاً ، فأصل موقف هذه الأبيات وصف سلمى واقترانها بالظبية ،ويلحظ ارتباط وصف المرأة بالظّبية في أوّل حديث عنها- في أكثر من وصف للمرأة - والظبية حينما تقرن المرأة بها إنما يراد العنق والعينان ، وقوله : " ترتاد الأسِرَّة" فيه مرح الصاحبة ونشاطها وفتاءتها وانطلاقاتها الحرة التي تطلب المرعى بها ،وقوله : " على حَدِّ متنيها من الخلق جُدَّة " تأنقٌ في إبداع صورة الظبية وأنَّ خطاً على ظهرها جميل ،وإنّما ذكره استيفاء لصورة الظّبية ،وكيف كانت ترى عين زهير الجمال وتتأنق في المرائي . وواضحٌ إلى الآن أنَّها أحوال تمضي على حسب ما تستخرجها العين من هذه الظبية ، وواضحٌ جداً ،أنَّ أبرز حواس زهير في صورة هي حاسة النظر تلك التي كانت لا تشبع من مشاهد الجمال . وقوله : " تصير إذا صام النّهار لدولج " أي : تأوي إلى كناسها عند انتصاف النهار فهي في غاية الانطلاق مع الطبيعة تظل تَمرحُ و ترتاد الأسرة ثم تأوي ليس إلى كناسٍ واحد ،وإنّما كناس هنا وآخر هناك ببطن العقيق أو بِخَرْج ِ تبالةٍ ،وكأنَّ لها في كل جهة كناساً ، وهذه صفات كلّها تنتقل إلى الصاحبة و تصف ملاحتها ونعيمها ومراحها وما تجده من السعة وطلاقة الحياة في ظلّ قومٍ لهم عز ومنعة . ثم انتقل إلى حديثها ومنطقها الذي يلذُّ القلب له ، وكأنَّه دخل في خُبْرها وثقافتها وملاحتها الداخلية ، كما لم يغفل الإشارة إلى صوت حليِّها وهي من المحاسن الأنثوية .

وأنت إذا فحصت تتابع الصفات في هذه الأبيات وجدت وراءها

حكمة بيانية كسابقاتها ، فأول صفات سلمى أنّها " عيناء " وذكر قصة هذه العيناء ، وهي صورة جميلة تتعلق بمرآها وظاهرها في مشهدها الأول ، وتبع هذا الحسن ، وصف ما هي فيه من النعمة ووفرة العشيرة وعزها ، ثم انتقل إلى حديثها وتصرف بيانها ، وقد أوجز وصف ذلك وأحكمه بكلمة واحدة " تُصْبي الحليم بالحديث يلذُّهُ " ، و " تُصبي " أي : تبعث الصّبوة وخفة الشباب واللهو في قلب حليم ، وذِكْرُ الحديث هنا كأنّه باب من أبواب قوّتها واقتدار جمالها ، وكلمة " يلذُّه " كلمة خصبة جداً . ثم انتقل الشاعر إلى مزيدٍ من المقاربة لهذه الصاحبة فذكر وسوسة حَلْيها ، وهذا إنّما يسمعه إذا دنا منها أكثر ، لأنّه وسوسة أي : صوت خفي شفيف . وهكذا كانت الأبيات المبنية على الذكر كأنّها تصف مراحل التذكر والتخيل والاقتراب .

وتأمّل بناء الصفات مع المرأة - أيضاً - في البيتين التاليين :

قامَتْ ، تَبَدّى بِذِي ضالٍ ، لِتَحْزُنَني ولا مَحالةَ أنْ يشتاقَ من عَشِقا (١)

بِجيدِ مُغْزِلَةٍ ، أدْماءَ ، خاذلةٍ من الظِّباءِ ، تُراعِي شادِناً ، خَرِقا

قوله : " ولا محالة أن يشتاق من عشقا " ، من حكمه وينابيع أدبه ، وكأنّه يعتذر بذلك عن نفسه ، وكأنّه يومئ بطريقة خفية إلى أنّ هذه التي قامت تبدى لتحزنه قد أحزنته وأن ركانته وبعده عن الهوى لم يغن عنه شيئاً لأنّه : " لا محالة أنْ يشتاق من عَشِقا " . وهنا سؤال عن نسق هذه الصفات ؟ إنّ الحديث يدور حول عنق هذه الصاحبة ، وواضحٌ اقتران وصف المرأة بالظبية أيضاً ، فقال :

---

(١) ٢ : ٤-٥ ، ص ٣٩ .

" بجيد مغزلة " ذاكراً لها ولداً ،ثم قال : " أدماء " فأعاد النظر إليها نفسها وذكر بياضها وخلوص هذا البياض وبهاء هذا العنق ، ثم-وكأنه- استشعر أن الأحوال المتعلقة بالولد وأثرها على امتداد هذا العنق لم تشبع بعد فرجع وقال :" خاذلة " و " تراعي شادناً خرقا" أراد الحدث نفسه ،وهكذا فإنك تجد ؛ أولاً : مراوحة في الكلام فهو يذكر صفة الولد ،ثم يذكر صفة لونها ،ثم يعود فيذكر صفة للولد ثانية حتى لا يكون هناك ملل من تعدد الصفات حول موصوف واحد . وثانياً : فيه هذا الإحساس الذي ذكر سابقاً وهو أنّ الرجوع إلى ذكر الولد ثانية مشعر بأهميته ،وليس الأمر كذلك لواستمر في ذكر الصفات المتعلقة بالولد بصورة دائمة .

وهكذا ، ترى أن كثيراً من نسق الصفات عند زهير في وصف أحوال المرأة يتتابع على حسب اللحظة النفسية الغالبة في الأبيات ، وهوفي هذه الأبيات عنصر الشوق والحنين : " ولا محالة أن يشتاق" ، ولذا كان ذكر " المغزلة " و " الخاذلة " ،و "تراعي شادناً " ، والحنين هنا حنين أمومة دافق ،ولا بد من مراعاة هذه اللحظة وما يداخلها من صور وأحوال ومشاعر لأنّها هي التي رتبت الصفات . وبهذا يفسّر تقديم المغزلة على الأدماء . نعم ، قد أومأ الشراح إلى أنّ المغزلة أدعى إلى انتصاب العنق واستقامته ،وهو حسن في بيان تقديم هذه الصفة على قوله : "أدماء " التي يصف بها اللون ، ولكنّا نضيف أيضاً هذا المعنى الذي بدا وهو شيوع الحنين والشوق في هذه الصفات التي قدّم لها بتلك الكلمة العالية " ولا محالة أن يشتاق من عشقا".

ومن الموصوفات التي عُني البحث بتجلية بعض جوانب تتابع الصفات فيها ، وصف الرجال ،كما في قوله يمدح بني ورقاء : (١)

سَتُرْحَلُ ،بالمَطِيِّ ،قَصائدي حتى تُحلَّ ، على بَني ورقاءِ

مِدَحاً لَهُم ، يَتوارَثُون ثَناءَها رَهْنٌ ،لآخِرِهِم ،بِطُولِ بَقاءِ

حُلماءُ في النّادي ،إذا ما جِئتَهُم جُهلاءُ ، يَومَ عَجاجةٍ ،ولِقاءِ

مَن سالَمُوا نالَ الكرامةَكلَّها أو حاربوا أَلْوَى ،مع العَشّاءِ

في البيتين الأخيرين صفتان أساسيتان ، هما : حلم بني ورقاء على أوليائهم وجهلهم على أعدائهم ، ثم نفعهم لأوليائهم وضرّهم لأعدائهم . هذان هما قطبا المعنى الذي نسج الشاعر بيتيه عليهما ، وقد قدّم وصف الحلم في ناديهم ،لأنه أشرف الصفتين لا محالة ،وإنما يكون الجهل أمراً طارئاً ويلجأإليه الكرام قسراً ،وزهير شاعر السلم لا يمدح الأقوام بأنّهم أهل غارة وإنّما يقدم الحلم .وقوله " إذا ما جئتهم " إشارة إلى وصفهم بالأريحية والمروءة وأنهم مقصودون وأنّ ذوي الحاجات يجدون في ناديهم كرماً وسماحة وأريحية . ولا ينبغي فهم أنّ " إذا ما جئتهم "قيد في أنّهم حلماء وإلا كان غميزة فيهم ، فهم حلماء مطلقاً جئتهم أو لم تجئهم ، وإنما هوإبراز لصفة الحلم وكشف لمعدنها حينما تكون لك حاجة إليهم ،وأوقات الحاجة هي التي تكشف عن معادن أخلاق الرجال ، وهذه طريقة في بناء الشعر ،

---

(١) القطّعة ٥٢ ،ص ٢٧٥ .
" العجاجة : الغارة ،وأصلها من الغبار الثائر في الحرب .
ألوى : ذبل وذوى . والعشّاء : الشجرة جفت أعاليهاودقّت أسافلها ."ص ٢٧٥ . حاشية (٢ - ٣) .

والمراد بها : القيد الذيلا يكون قيداً في وجود الصفة ،وإنّما يكون لتجليتها وإبرازها ،على حدّ ما في قول البحتري :(١)

فكالسَّيْفِ إنْ جِئْتَهُ صَارِخاً ، وكَالبَحْرِ إنْ جِئْتَهُ مُسْتَثِيبَــــا

ليس قوله " إن جئته صارخاً " شرطاً في كونه كالسيـــف والإ كان ذماً ، وإنّما هوإشارة إلى أنك حينتكون في حاجة إلـــى ذي نجدة وجدته كالسيف ، وهكذا . والبيت الثاني كأنّه امتداد للأول ، إلا أن هاهنا شيئاً زائداً ،فهم حلماء وهذا شأنهم ، إلا أنَّ لهم عهداً وذمة فمن سالموه سواء كان المسالم من الأولياء أم من الأعـداء الذين صار بينه وبينهم ذمة - فقد نال الكرامة كلّها ، يقصد مـــن سالموا ولو كان بعد حرب وعداوة أعطوا له الذّمة والعهد . ولعلّك لحظت كيف أنَّ زهيراً كان يركز على هذا المعنى ، فعمود شعره يقوم على اطفاء ثائرة الحرب التي كانت بين عبس وذبيان وصبِّ جام غضبه على من بات مستكناً على ضغينة لم يبدها ،وهذا هو ما يُفسَّر به نظام ترتيب الصفات هنا في تقديم الحلم على الجهل والسلم على الحرب لمنزع نفسي عند زهير في إطفاء الحرب ورغبته في السلم.

ثم تأمّل التعادل الذي في بناء البيت:

حلماء في النّادي إذا ما جئتهم

جهلاء يوم عجاجة ولقـــاء

كلّ صفة مقيدة بلحظة من اللحظات التي تكون فيها هـــذه الصفة في أرقى أحوالها ،وليس للجهل لحظة يكون فيها أفضل من كل حلم إلا لحظة المجاجة واللقاء .

---

(١) انظر ما قاله في ذلك عبد القاهر (دلائل الإعجاز) ص ٨٥ - ٨٦ .

ثم تأمل :

من سا لموا نال الكرامــة

أو حاربوا ألــــــــوى

تجد المقابلات في المباني والمعاني معاً ؛أما المعاني فهــــذا واضح . وأما المباني ففي ذلك النظام الشرطي الذي بني عليه البيت في شطريه ، وهذا هو التثقيف الذي كان زهير يحبس فيه خواطـره وحواسه على الشعر ليقيه .

وتأمل داعياً لنظام تقديم الصفات بعضها على بعض في قولـه يمدح هرماً :

إنَّ البخيلَ مَلومٌ ،حيثُ كان ،ولـ ـكنَّ الجَوادَ ،على عِلّاته ،هَرِمُ (١)

هوَ الجَوادُ ،الذي يُعطِيكَ نائلَهُ عَفْواً ،ويُظلَمُ أحياناً ،فَيظَّلِـمُ

وإنْ أتاهُ خَليلٌ ،يومَ مَسألـةٍ ، يقولُ : لا غائبٌ مالي ،ولا حَرِمُ

القائدُ الخَيلَ ،مَنكُوباً دَوابِرُها مِنها الشَّنُونُ ،ومنها الزّاهِقُ ،الزَّهِمُ

" قدّم ذكر "البخيل " تنفيراً من البخل والبخلاء ،ثم إنّ كلمـة البخيل نادت في الشطر الثاني كلمتين : " الجواد " و" على علّاته "، فأما أنها دعت تقديم الجواد فذلك أمر ظاهر ،وأمّا أنّها اقتضـت تقديم " على علا تـه " فلتوصل إلى أمرين ؛ الأول : إنّ البخيل لـه علل على أمواله يتعلّل بها بينما هي علل ساقطة عند الجواد لا يلتفت إليها . والثاني : مدح هرم بالجود على علاتـه ،أي : في حالاتـه كلّها ؛ عسره ويسره . وقوله :" هو الجواد " توكيد لما سبق ،وقدّم

---

(١) ٨ :١٢-١٥ ، ص ١١٩-١٢٠ .

" هرم " على " الجواد " في البيت الثاني ،لأنّه استأنف الكلام على " هرم " فعطاؤه عفوي وسجية من سجاياه . وقوله : " ويظلم أحياناً فيظّلم " أي : يُظلم في المطالب لا أنه يستضعف ،وهو كلام راجعٌ إلى " على علاته " لأنّه يطلب منه في حال علّاته ،وكأنّ الكلام نسيج واحد ، وليس الشيء النفيس في البيت ما تقول ،وإنّما هو شيء آخر في التعريف بأل ثم الرمي باسم الموصول على حدّ ما بيّنا في مبحث التعريف باسم الموصول ، وكأنّه يقول لك : هذا الرجل الغريب الذي تسمع عنه في الإخبار والذي يقال إنّه يعطيك نائله عفواً فإذا ما طلبت منه وهو ذو حاجة لبّى حاجتك . وقوله : " وإن أتاه خليل .." شرح وتحليل لـ " يُظْلم أحياناً فيظّلم " ، فما له حاضر والأخذ منه أمر مشروع إن أتاه فقير في يوم مسألة . وفي قوله : " القائد الخيل ..." وصف لهرم بالشجاعة ، وقد أتى عقب وصفه بالعطاء ،وهكذا ترى تقديم العطاء على الشجاعة - كما رأيت هناك تقديم السلم على الحرب والحلم على الجهل - بعدما أشبع الكلام على الجواد ، أتى بمسألة أخرى وهي الشجاعة ،والجود وصف قائم في الأوقات كلّها ،أمّا قيادة الخيل فذلك في الوقت بعد الوقت، وهذا من أسباب تقديم الجود على قيادة الخيل . وقوله " القائد الخيل منكوباً دوابرها " أراد أنّه ألح عليها في الغزو وأعنتها ،وكان طبعياً أن يذكر " الشَّنُون " لأنّها تلامح " نكبت دوابرها " وتدرج من " الشّنون " - وهو بين السمين والمهزول -إلى " الزاهق " وهو السمين ، و " الزّهم " أسمن منه .

هذا هو نسق الصفات : استدعت كلمة " البخيل " كلمة " الجواد " فسبقت " هرم " ،ونادت " على علاته " ،و " هو الجواد " كلام

استؤنف وبني بناءً جديداً على أن يكون ضميرهم هو أنف الكلام ورأسه ، وهكذا ، فإنّك أمام ظاهرة في شعر زهير وهي : إجمال المعاني ثم تفصيلها ، فغالب شعره إطلاق المعاني في عبارة بجملة ثم يلحق بها ما يحلّلها ويُفصّلها .

ومن قبيل تفصيل المعاني بعد إجمالها ،قوله يمدح سناناً :

نِعم الفَتى المُرِّيُّ أنتَ ،إذا هُمُ ... حَضروا ،لدى الحُجُراتِ ،نارَ الموقدِ (١)

خَلِطٌ ،أُلوفٌ للجميع ، ببَيتِه ... إذ لا يُحَلُّ ،بحَيِّزِ المُتوحِّدِ

يَسِطُ البُيوتَ ،لكي يَكونَ مَظِنّةً ... من حيثُ تُوضَعُ جَفْنةُ المُسترفِدِ

عوّدتَ قومَكَ ،إنَّ كلَّ مُبرِّزٍ ... مَهما يُعَوِّدْ شِيمةً يتعوَّدِ

حَزماً ، وبِرّاً للإلهِ ،وشيمةً ... تَعفُو ، على خُلُق المسيءِ ،المُفسِدِ

وإذا يُلاقي نجدةً ،مَعلومةً ... يَصْلَى الكُماةُ ، بِحَرِّها ،لم يَبْلُدِ

لم يَلْقَها ،إلا بِشكّةِ حازمٍ ... يَخشَى الحوادِثَ ، عازمٍ ،مُستَعْدِدِ

ومُفاضةٍ ، كالنِّهْي ،تَنسجُهُ الصَّبا ... بَيضاءَ ، كَفَّتَ فَضلَها ،بمُهنَّدِ

صَدْقٍ ،إذا ما هُزَّ أُرعِشَ مَتْنُهُ ... صَلَانَ نِعِبِ الرّدهةِ ،المُستَورِدِ

قدم وصفه بالكرم في الوقت الصعب الشديد جداً في شدة الشتاء فلا تُرى نار خامدةً لكثرة الضيفان ،وقال " نعم الفتى المرّي أنت " ، وهي كلمة مجملة تستدعي تساؤلاً عن علّة كونه كذلك ،فأتى الكلام بعد ذلك تفصيلاً له ، فوصفه بأنّه " خَلِط " وما توحي به من اختلاط

---

(١) ٢١ : ١٩-٢٧ ، ص ١٩٨-٢٠٠ .

الناس به ، وأنّه " ألوف للجميع " ، أي : " يجعل بيته في الجميع لا يتنحّى وينزل وحده "[1] ، و " يسط البيوت " أي : يكون وسطها " لكي يظن الناس عنده خيراً "[1] ، وهذه الصفات كلّها معانٍ في الكرم والمخالطة والألفة . وبطريقة زهير في اصطناع الكلام واستنباط جواهر الحكمة في ثنايا المدح يقرر أن ذا الطبع النقي حين يعوّد على الخير يتعوّده " إنّ كل مبرز مهما يعوَّد شيمة يتعوّد " ، وقال : " شيمة " وهي " الخُلُق "[2] عامة ، ثم ذكر أبرز ما في هذا الخلق ؛ وهو الحزم والبر والشيمة التي تعفو ، وكلّ صفة من هذه الصفات تفتح السبيل لأختها فإذا أنت في نهاية الأمر أمام صفات يُسْلِم بعضها إلى بعض ؛ فالحزم قوة في النفس ومضاء في العزم ، وشيء في نفس الموصوف بالحزم يجعل فيه شيئاً من الصرامة ، وبين الحزم والغلظة ساتر رقيق ؛ فإذا وصف رجل بالحزم فقد يُظَنُّ فيه الغلظ ، ولهذا أردف البر على الحزم ليكون الحزم خالصاً من معنى الغلظة فهو مع حزمه ذو برٍّ ، ثم " شيمة تعفو " ،والعفو عن خلق المسيء مرحلة أخرى تلي البر ؛ لأنّه لا يلزم - أي البر - أن يكون عافياً عن المسيء ، لأنّه مرحلة ثانية وفضيلة فوق البر . ثم انتقل إلى امتداحه بالشجاعة في مواجهة الشدائد وغمرات الحروب الصعبة وتهيُّئه لها تهيؤاً قوياً بقوله : " وإذا يلاقي نجدة ... لم يلقها إلا بشكة حازم " ،أي : بسلاح رجل حازم مُعِدٍّ للأمر عُدَّته ، وكأنّه يفسر بذلك حزمه السابق ؛ لأنّه كرّر الحزم وذكره هنا . ثم وصف سلاحه ؛فوصف الدرع بأنّها لصفائها وبريقها عليها طرائق تشبه الطرائق التي على صفحة الماء ،

---

(١) ص ٩٨ .

(٢) ابن منظور (لسان العرب) ٤ : ٢٣٧٩ ،(مادة : شيم) .

وقد " كفّت فضلها بمهنّدٍ " ،أي : " في سيفه سير رفع به درعه السابغة فما بقي من الدرع رفعه السيف ، و "صَدْقٍ " وصف لسيفه عندما يَهزّه يضطرب اضطراباً كعسلان ذئب الردهة ، و " عسلانٌ : اضطراب...والرَّدْهة : النُّقْرةُ فيها ماءٌ في الجبل وجمعها رِداهٌ . والوقيعة مثلها . والمستورِدُ : الذي يرد الماء . أراد الذئب إذا طلب الماء فهو أسرع له ".(١)

ونسق الصفات واضحٌ ، فقد بدأ بكلمة عامة تحتاج إلى تفصيل : " نعم الفتى المُرّي أنت " ثم أخذ يعلّل مفصّلاً كون الممدوح " نعم الفتى " ، فهو كثير العطاء خِلط ألوفٌ يسط البيوت وكلّها معانٍ محورها الكرم والألفة . ثم ذكر " شيمة " وأخذ يفصّل فيها ، فالحزم رأس الصفات ، ثم جاء البر بعد الحزم حتى لا يكون فيه معنى الغلظة ، ثم جاء العفو عن المسيء وهي فضيلة فوق البر . ثم انتقل إلى الشجاعة في مواجهة الشدة وجعلها خاتمة المطاف ، فوصف سلاحه ، إلى تفصيلات أخرى داخلية ليست من الصفات المتعلقة بفضائل النفوس والتي كان لها نسق بُني على ما بيّنا ،وهكذا ترى كيف أُسْلِمت الصفات في تتابعها وآلت في النهاية لتكون رجلاً أقرب إلى المثال منه إلى الواقع مُقدّماً فيها الوصف بالعطاء على الشجاعة ،وهو نمط تكرر في أكثر من موضع لديه .

ومن الموصوفات ، وصف الحيوان ،وقد تنوّع بين وصف الفرس والناقة والبعير .. الخ ،فمن صفات الخيل قوله :

---

(١) ص ٢٠٠ .

صَبَحتُ ،بِممسُودِ النَّواشِرِ ،سابحٍ ... مُمَرٍّ ،أَسِيلِ الخَدِّ ، نَهْدٍ مَراكِلُهْ (١)

أَمينٍ شَظاهُ ، لم يُخَرَّقْ صِفاقُهُ ... بِمنقَبةٍ ،ولم تُقَطَّعْ أَباجِلُهْ

قَليلاً عَلَفْناهُ ،فأُكمِلَ صُنعُهُ ... فَتمَّ ،وعَزَّتْهُ يداه ،وكاهِلُهْ

" ممسودٌ : شديد الفتل ، يقال : أُمسُد حبلَك ،أي : اشدُد فتله ،أي : ليس برَهِلٍ . والنَّواشِرُ : عروقُ باطنِ الذِّراعِ . وواحدُ النّواشر ناشِرةٌ . ومُمرٌّ : مفتولٌ شديد الفتلِ . ونَهدٌ : ضخمٌ . ومراكله : جنباهُ حيث يركُله الفارس برجلِهِ ،وأَسِيلٌ : طويلٌ ... الشَّظى ، مقصورٌ : عُظَيمٌ مُلزقٌ بالذِّراع . فإذا تحرّك قيلَ : قد شَظِيَ الفرس . وبعضهم يقولُ : الشَّظَى : انشقاقُ في العَصَبِ . فيقولُ : شَظاه أمينٌ ،لا يُخافُ من قِبَله . لم يُخَرَّق صِفاقُه ،أي: ليس به داء . والصِّفاق : الجِلدةُ السُّفلى تحت الجلد الذي عليه الشَّعر. والمِنقَبةُ: حديدةٌ يَنقُبُ بها البَيطارُ . فيقول : ليس به داء . والمَنقَبُ : حيث ينقبُ البيطارُ من البطنِ . والأَباجِلُ : عروقٌ في اليد . واحدها أبجلٌ (٢)."

والأبيات قبل ذلك حديث عن أيام صبوته وفتوته وقصته مع العذارى ،ولذا فإنَّ قوله : "بممسود النواشر" متأثر إلى حد كبير بأيام صباه ،وأنه كان يرهق الخيل فيها ويضمرها ،فهو يصبح بفرس هذا وصفه : "ممسود النّواشر" ،وبدأ بالصفة الدالة على أنَّ هذا الفرس كثيراً ما أضناه الشاعر وأرهقه في صبواته وصيّده ،وهذا يقتضي

---

(١) ٧ : ٩-١١ ، ص ١٠٤-١٠٥ .

(٢) ص ١٠٤-١٠٥ .

أن هذا الفرس لم يترك فيترهل ،وإنّما هو دائم الرحلة عليه والصيد والمغامرة . وهو " سابحٌ " أي : يسبح بيديه في سيره "(١) وهو مما تكرر في الشعر كثيراً . و " مُمَرٍّ " أي : شديد الفتل من كثرة الرحلة والصيد والمغامرة . و"أسيلِ الخَدِّ " تعني النجابة . و "نَهْدٍ مراكِلُه " يصفه بالضخامة والقوة ؛ لأنَّ الشاعر أعنته ، ولذلك قال : " أمينٍ شَظاه لم يُخرّقْ صِفاقُهُ " ، فكان الشأن أن تخرّق صفاقه وأن يصاب شظاه ،إلا أنه ليس به داء ، فالبيت كله وصف لسلامته وأنه لم يضعفه مرض. و " قليلاً علفناه " حتى لا يترهل . و " فأكمل صنعه فتمّ " ،أي : " أحسنّا القيام عليه "(٢) . و "عزّته يداه ، وكاهله " من عطف الخاص على العام ،أراد أن ينص على عِظَم يديه وكاهله . والأبيات واضحة الدلالة على عنفوان زهير على فرسه هذا ،وأنّه كان على حال من الشباب والقوة أرهق بها الفرس وأضمره ،وهكذا ،فإن صفات الفرس عند زهير تتأثر - فيما يبدو - بالحالة التي تدعوه إلى التوجه نحوه .

ومثل قوله :

ولقد غَدَوْتُ ، على القَنيصِ ،بسابحٍ مثلِ الوذيلةِ ،جُرْشُعٍ ،لأمِ (٣)

قَيْد الأوابدِ ،ما يغيّبُهـــــا كالسِّيدِ ،لا ضَرَعٍ ،ولا قَحْمِ

صَعْلٍ كسافِلَةِ القناةِ ، من الـ ـمرّانِ ، ينفي الخيلَ ، بالعَذمِ

" القنيص : الصّيد . ويقال : هو الصائد . وهو حرفٌ من

----

(١) ابن منظور (لسان العرب) ٣ : ١٩١٤،(مادة : سبح) .

(٢) ص ١٠٥ . (٣) ١٧ : ٦-٨ ،ص ١٨٢ .

الأضداد . وسابحٌ : فرسٌ جوادٌ خفيف . والوذيلة : الفضّة . شبّه بريقه وصفاءه بها . والجرشعُ : الضّخم الجنبين . واللأم : الملتئم الشديد ... يقول : كأنّ الأوابدَ ، وهي الوحش ، مقيّدة لسرعة الفرس . ما يُغيّبها أي : ما يُغيّبها عن عينه حتى يصيدها .
والسِّيدُ : الذئب . والضّرعُ : الصغير السن . والقَحْم : الكبير ... الصّعل : الدّقيق العُنُق الصغيرُ الرأس . والنّعام كلّه صُعْلٌ . وإنّما قال : " كسافلةِ القَناةِ " لأنّ أسفل القناةِ أغلظُ كُعوباً وأشدّ . والمُرّانُ : شجرٌ تُتّخذُ منه الرماحُ . و ينفي الخيلَ : يطرُدُها . والعَذْمُ : العضّ .(١)

وصف فرسه بجملة صفات ،وتحدّث أول ما تحدّث عن صفة سيره وأنّه " سابح " أي : فرس جواد خفيف ،وهو لمّا ذكر القنيص اقتضى أن يذكر السرعة أولا ، لأنّه لا يكون قنيصاً إلا إذا تبعه فرس كهذا . وأمّا " الوذيلة " أي : الفضة فأوّل ما يبدو للعين بريقه ولمعانه . ثم ضخامته بقوله : " جُرْشع " ، ثم تماسكه وشدة أسره بقوله : " لأم " . ثم عاد إلى السرعة بقوله : " قيد الأوابد " وأطال فيها ؛ فشبهه بالذئب في السرعة ؛ الذئب الفتي الذي هو في عنفوان قوته وحِدّته فهو: " لا ضرع ولا قحم " أي : لا صغير ولا كبير ،وهكذا كان البيت الثاني كلّه وصفاً للسرعة التي استبدت بأكبر قدر من الصفات،ثم وصفه بأنّه " صَعْل " أراد دقة المنق وصغر الرأس " كسافلة القناة " فشبه صغر هذا الرأس ودقة هذا المنق بأسفل القناة التي هي : الرمح ،وإنّما قال : " سافلة " لأنّه

---

(١) ص ١٨٢ .

أحكمها وأدمجها ، وكل ذلك حديث ووصف لهيئته ، وربّما كان امتداداً للسرعة لأنّ " صعل " من صفات النعام ، وإنّما يوصف النعام بالخفة والسرعة . وهكذا يتضح نسق الصفات في وصف الفرس وهي أنها تتأثر بالحالة التي دعته إلى التوجه لفرسه ، ومما - هنا - الرؤية وتتابع الادراك البصري للصفات والإحساس بها .

ومن وصف الفرس أيضاً ، قوله :

مَرِجَ الدِّينُ ، فأعددْتُ لـهُ ... مُشْرِفَ الحارِكِ ، محبُوكَ الثَّبَجْ (١)

يَرهَبُ السَّوطَ ، سريعاً ، فإذا ... وَنَتِ الخيلُ ، مِنَ الشَّدِّ ، مَعَجْ

سَلِسَ المَرسِنِ ، مَمْحُوصَ الشَّوَى ... شَنِجَ الأَنْساءِ ، من غيرِ فَحَجْ

وكعادة زهير في ذكر الغرض الداعي للصفات التي سيذكرها ، ذكر هنا " مرج الدين " فالأمر قد اختلط ، واختلاطه يستدعي إعداد العدة له ، وقد أعدّ فرساً أول صفاته أنّه " مشرف الحارك " وقدّمها لأنّها هي الصفة الأبرز والأظهر ، وقال " مُشْرِف " أراد أنّ حاركه شاخص بارز ، ووليه وصف الظهر لأنّه هو الذي يلي الكتف ، وكأنَّ زهيراً يحدثنا عن رجل امتطى صهوة جواده ورأى كتفه واقتعد على ظهره ثم وصف سرعته ورهبته السوط فهو إذا فترت الخيل مرّ مرّاً سريعاً . و " سلِس المرسن " أي : سهل القياد طيّع مواتٍ ليست فيه وحشة ، وهذا لا يأتي إلا بعد مَرّه السريع . ثم هو : " ممحوص الشوى " ، شَنِج الأنساء " ، من غير فَحَج " ، وهذه صفاتُ الفرس لمن يراه من خلفه ، وكأنَّ الشاعر لمّا خلص من وصفه وكأنه قد

---

(١) المقطّعة ٤٤ ، ص٢٥ .

استهدده ، نزل من فوقه وأخذ يتفحصه من خلفه بعد وَصْفِه من أمامه ، وبعد وَصْفِ سرعته وانقياده.و يلحظ تتابع الصفات في قِصَرٍ ، وكانت أطول جملة عنده " فإذا ونت الخيل من الشَّدِّ معج " ويوشك طولها أن يوحي بونى الخيل .

ولعلّه قد بدا في تقديم الصفات بعضها على بعض الحكمة البيانية وراء تتابعها في وصف الفرس ،فهي تخضع للداعي الذي يسبقها على حد ما بيّنا ، كما أنَّها تخضع لمعرفة الناظر إلى الشيء الموصوف وإحساسه به ثم نقل ما يراه ،ورصده ، وهو مما يجري في شعر زهير على الفطرة ويبعده عن التكلف ،فالصقل والمراجعة والتنقيح إنّما كانت عنده إقامة للشعر على عمود فطرته في تناول الأشياء .

ومن وصف الناقة قوله :

هل تُبلِغَنّي ،إلى الأخيارِ ،ناجيةٌ تخدي كوَخْدِ ظليمٍ ،خاضبٍ ،زَعِرِ ؟ (١)

في يَوْمِ دَجْنٍ ، يُوالِي الشَّدَّ ،في عَجَلٍ إلى لِوى حَضَنٍ ،من خِيفَةِ المطَرِ

حتّى تَحُلّ بهم ،يوماً ،وقد ذَبَلَتْ من سَيْرِ هاجرة ،أو دُلْجةِ السَّحَرِ

البدء بالاستفهام مشعرٌ بأنَّ المسافة التي بين الشاعر وهؤلاء القوم مسافة بعيدة ، وأنَّ بينه وبينهم طريقاً مخوفاً ،فالرحلة الشاقة تجعل تسمية الناقة بالناجية أمراً اقتضاه السياق ، لأنَّ الناجية - وهي : النّاقة السريعة - تنجي راكبها ،وهذا سر تعلّق الشاعر بتسميتها هذا الاسم . واستمر في وصف السرعة ،وبعثه لهفة قلبه للقاء هؤلاء الأخيار ،فشبه سرعتها بالظليم. ثم ذكر صفتين أساسيتين من

---

(١) ٢٩ : ١-٣ ، ص ٢٣٢ .

صفاته ،وقدّم إحداهما على الأخرى ،الأولى : - وهي خاضب - تشير إلى قوته على العدو واقتداره مع تخضب ساقيه من نبات الربيع.

والثانية : -وهي زعر- أي: نشيط ، تشير إلى داعية السرعة .

وقصة الظليم غريبة ، قصة مُنعَّمٍ ذعره الكون وذعرته الأشياء ، فأخذ يعدو ويوالي الشد في عجل خيفة من الكوارث ،حتّى تنتهي به قصة الهرب هذه إلى شيء من الأمن تنشده نفسه . ولا يظهر سر اختيار الشاعر صورة هذا الظليم الفزع من الطبيعة ،هل هو شيء من صفات حال الشاعر في سفره إلى هؤلاء الأخيار؟ وأنّه يتجه نحوهم طلباً للاستقرار والأمن وفراراً من أمور أذعرته ؟ وهل عكس زهير بعض ما في نفسه على هذا الظليم ؟ المعروف أن زهيراً كان في منعة من قومه ولم يكن مفزوعاً ، وربّما كان هو الوفاء للشعر ومن يخاطبه ليشعره بمثل هذه المعاني . والأمر المهم في ذلك أن نسق صفة السرعة ،واختيار الشاعر لها دون سواها يتبع منزعاً نفسياً عنده هو تشوقه الوصول إلى هؤلاء الأخيار ،فالصلة واضحة بين وصف الناقة بالسرعة والحال التي دعت إليه .

وقوله أيضاً في وصف الناقة :

فصَرِّمْ حبلَها ، إذ صَرَّمَتْهُ ... وعادَكَ ،أنْ تُلاقِيَها ،العَداءُ(١)

بآرِزَةِ الفَقارةِ ، لم يخُنْها ... قِطافٌ ، في الرِّكابِ ، ولا خِلاءُ

كأنَّ الرَّحلَ ،منها ،فوقَ صَعْلٍ ... من الظِّلْمانِ ،جُؤجُؤهُ هَواءُ

---

(١) ٣ : ١٢-١٨ ، ص ٥٧-٥٩ .

أَصَكَّ ،مُصَلَّمِ الأُذُنَينِ ،أَجْنَى لَهُ ، بِالسِّيِّ ، تَنُّومٌ وآءُ

أَذلِكَ ، أَم أَقَبُّ البطْنِ جأبٌ عليه ،من عَقيقتِهِ ، عِفاءُ ؟

أَقَبُّ ،كَصَدْرِ أَسمَرَ، ذي كُعُوبٍ لَهُ ،من كُلِّ مُلمِعَةٍ ،إِباءُ

البيت الأول : " فَصَرِّم حبلها .. " يبيّن الداعي الذي دعاه إلى الرحلة وهوقطعه ما بينه وبين صاحبته بالهجرة عنها على ناقة قوية هذا وصفها ، فقال : " صَرِّم ... " يستنهض نفسه ويثيرها ضد هذه الصاحبة التي قطعت حبل وده وكأنّ نفسه ترفض هذا القطع منه إلا أنّه يعامل الصاحبة بمثل ما عاملته . وقال " بآرزة الفَقارة " أي : " الدانية بعضها من بعض "(١) وأراد بذلك وصف الناقة بأنّها مجتمعة الفِقْرة مُلتئمتها ،وهذه أول صفة وصف بها ناقته التي استعان بها على تصريم حبل من يود ؛ فهو بحاجة إلى ناقة عظيمة تعينه على أمره ، ثم إنّه الوصف الأهم لها . ثم وصف سيرها ،ونفى عنه القِطاف والخِلاء ، وقدّم " القِطاف " ـ وهو مقاربة الخطو وضيق الشحوة وألا يكون وساعاً(٢) ـ على " الخلاء " ـ وهو أن تبرك فلا تبرح ـ(٢) ، لأنّ القطاف داءٌ يصيبها وإن كانت في عافية ،أمّا الخلاء فهو حالة مرضية تطرأ عليها ،وكما يبدو فقد استغرق البيت " بآرزة الفقارة ... " وصف قوة الناقة في سيرها ،وفرق واضح بين ناقة لم يخنها قطاف ولا خلاء ،وناقة ـ هناك ـ تخدي كوخد ظليم خاضبٍ زعر . هنا نفي لعيوب المشي فقط ، وهناك وصف بالسرعة ، لأنّه

---

(١) ص ٥٧ .

(٢) ص ٥٨ .

يُصرِّم - هنا - حبل صاحبته ، وإنّما يريد فقط أنّه يفارقها غير مختبل في سيره ، وهناك يطلب أقواماً أعزة فهو يذهب إليهم خفيفاً مستطاراً . وفي البيت التالي : " كأنّ الرحل منها ... " شبّه الناقة بصعل من الظلمان في عدوه الشديد ، وهو تشبيه على سبيل التجريد ، أو تجريد مبني على التشبيه ، لأنّه قال : " منها " ، وهي " من " التجريدية ، كقولنا " لئن لقيت فلاناً لتلقين منه الغيث والليث " . ثم اتجه إلى وصف الظليم بأنّ " جؤجؤه هواء " ، أي : أنّه لا عقل له ، كأنّه مجنون ، وهو وصف يتصل بسرعته ، وهكذا تلحظ ارتباط ذكر الظليم بالسرعة . ثم وصف هيئته وملامحه ، وأنّه " أصك " ، والصكك : " اصطكاك العرقوبين . ويقال : إنّما يكون ذلك إذا مشى ، فأمّا إذا عدا فلا "(١) ، و" مُصلَّم الأذنين " أي : " لا أذني له "(١)، و" أجنى " أي : " أدرك أن يُجنى "(١) ، و" له بالسيّ تنّوم " أراد أنه في خصب وسلم ، فالتنومة " شجيرة غبراء تُنبِتُ حبّاً دَسِماً "(١) و" آء " " الآء " : " ثمر السَّرْح "(١) . ثم انتقل بعد ذلك إلى الحمار ، فقال : أهي تشبه الظليم الذي هذا حاله ووصفه ، أم هي تشبه الحمار الذي هذا حاله ووصفه ؟ وأول صِفةٍ له أنّه " أقبُّ " أي : " ضامر "(٢) من كثرة السير ، و" جأبٌ " أي : " غليظ "(٢) أراد يبس جسده وقوته ، و" عليه من عقيقته عفاء " " وإنّما وصفه بذلك لأنّه حين بدا في السمن ، إذا خرج من الربيع وجاء الصيف انجرد من عِفائه "(٢) يشير إلى المرحلة التي هو فيها ، وأنّها مرحلة ربيع . ثم ذكر " أقب " ثانية ، و" كصدر أسمر " الأسمر : الرمح ، وأراد ضموره ، و" ذي كعوب " أراد عقدة ، و" له ، من كلِّ مُلْمِعةٍ ،

---

(١) ص ٥٨ .   (٢) ص ٥٩ .

إباء" ، أراد أن الأتن التي أشرقت ضروعها للحمل أعرضن عنه فكان ذلك أدعى لاكتمال قوته . هذا هو نسق الصفات مع الناقة ، فبدأ بما هو أشد صلة بغرضه " آرزة الفَقارة" ثم هو الوصف الأهم لأنه يتعلق بقوّتها ، ثم انتقل إلى سيرها ، وأنّه لا عيب فيه ، وكان نفي " القِطاف " عنها أهم من نفي " الخِلاء " فقدّم " القِطاف" وكان كل ذلك وصفاً للناقة ، ثم شبهها بالظليم لشهرته بسرعة العدو ، وكان " صَعْل " أول وصف بدأ به الظليم ، ثم ذكر صفاته التي تُكمّل هيئته ، ثم ذكر مرعاه وخصبه ، ثم انتقل إلى الحمار ، وبدأ ببيان أنه ضامر ، ثم ثنّى بوصفه بيبس اللحم وغلظه ، ثم ذكر أنّه قد بدأ في السمن وخرج من الربيع ، ثم عاد ثانية إلى الضمور بقوله "أقب" ، وكان آخر وصف له بأن الأتن تعرضن عنه . هذا هو ترتيب الصفات ، وهنا سؤال عن سر تقديم الظليم على الحمار في التشبيه ؟ وهو أنّ : شهرة الظليم بسرعة العدو أكثر من شهرة الحمار ، ألا ترى الشعراء(١) وهم يستخرجون من الحمار السرعة يذكرون له قصة تتعدد دوافعها لأجل السرعة ؟ فيذكرون الأتن والمرعى وذهابه لشرب الماء ومشاهدته لصائد ثم أخذه في الجري هو والأتن فراراً من الصائد ، وهي قصة كاملة يدللون بها على سرعته ، وهم ليسوا في حاجة إلى ذلك مع الظليم لأنّه معروف بسرعة العدو .

---

(١) انظر على سبيل المثال : الأصمعي (الأصمعيات) ٦١ : ١٢- ٢٠ ص ١٧٤-١٧٥ ، المفضل الضبّي (المفضّليات) ٩ : ٩-١٩ ، ص ٥٠ - ٥١ .

وفي وصف البعير ، يقول :

وهَمٍّ قد نَفيتُ ،بأَرْحَبيٍّ هِجانِ اللَّونِ ، من سِرٍّ ،هِجانِ (١)

شَديدِ الأَسْرِ ،أَغلبَ ،دَوَسريٍّ زَرُوفِ الرِّجْلِ ، مُطَّرِدِ الجِـــرانِ

فزادَك أَنْعُماً ،وخلاكَ ذَمٌّ إِذا أَدنَيْتَ رَحلِي ،مِن سِنَـــانِ

رغبة من الشاعر في نفي هم ما يجد ، عمد إلى بعير نجيب ،أول ما يبدو منه للعين لونه ،فهوأبيض وهذا معنى " هجان اللون . ثم هو " من سِرٍّ هجان " أراد أنه خالص العتق والكرم ،وهو وصـــف لا يتأتى إلا بمعاودة النظر إليه . ثم هو " شديد الأسر " أي : قوي البناء والخلق ، و "أغلب " أي : غليظ العنق ،و " دَوْسرِي " أي : شديد ،و" زروف الرِّجل " أي : سريع ،و " مُطرِدُ الجِران " : ليس فيه اختلاف يشبه بعضه بعضاً ، وهذه كلّها صفات تدل على قوته وشدة أسره وسرعته واكتنازه ،ولا تتأتى الإحاطة بها إلا بمراجعة النظر. تأمل " هِجان اللون ،منسرٍّ ، هجان " وهذا مما يدرك أول ، وإن كانت الصفة الخاصة " من سِرٍّ هِجان " تحتاج إلى مراجعة ، ثم "شديد الأسر " ولا ريب أنّ هذا مما يقع في النفس بعد الأول حين تنظـــر في البعير ،ثم " أغلبَ "وهذا نظر في التفصيلات وهوظاهر ، ثـــم " زروفِ الرِّجْلِ " يعني السرعة ،ثم اطراد جرانه واستواءه ، وهكـــذا انتهت الصفات ببيان صفة خفية لا تدرك من أول النظر التي هـــي : " مُطّرِدِ الجران " ، وقد بدأت بصفة تقع عليها العين أول ما تقـــع " هِجان اللون ". ولا يهمل التنبيه إلى الالتفات الجيد هنا ، فقد تحدث عن البعير بالغائب في البيتين الأولين ، ثم توجه إليه بالخطاب

---

(١) ٤٨ : ١٠- ١٢ ،ص ٢٦٤- ٢٦٥.

في البيت الثالث " فزادك أنْعُماً ... " ،وأقبل عليه إقبال من يعرف حقه ، وخاطبه أحسن خطاب ودعا له مزدهياً بصفاته التي وصفه بها ، لأنّه يسدي إليه أجلّ نعمة وهي : دنو الرّحل من سنان .

وآمل أن يكون هذا البحث قد قدّم تصوراً لنسق تتابع الصفات في شعر زهير من خلال وصفه المرأة والرجال والحيوان ، فأمّا وصف المرأة فقد أتى نسق الصفات فيه إمّا وفقاً للإدراك البصري وعطاء النظرة الأولى ثم ما يتبع ذلك من تحديقات وتأملات تعطي إحاطة أشمل وإدراكا أعلى ، وإما وفقاً للحظة النفسية الغالبة عليه وهي تختلف من موقع إلى آخر ، ففي الأبيات المبنية على الذكرى ترى الصفات تتابع وفقاً لمراحل التذكر والتخيل والاقتراب ، وفي أبيات التشوق ترى الصفات تتابع وفقاً لعناصر الشوق والحنين .

وأمّا وصف الرجال فكما ظهر لي أنّ ثمة منزعاً نفسياً لكشف تيار المعنى في فكر الرجل كان يتحرك متدفقاً ، وهو : تركيزه على معاني السلم واطفاء ثائرة الحرب ،فتراه يقدّم الحلم على الجهل ، والسلم على الحرب . ومنزع آخر هو : إجمال المعاني ثم تفصيلها مع التركيز على خلال الخير بتقديم العطاء على الشجاعة ، وهو ظاهر بيّن في غير موضع من شعره .

وأمّا وصف الحيوان كالفرس والناقة والبعير ، فقد بدا جلياً - فيما درست - ارتباط تلك الصفات وتتابع نسقها بالحال الداعي والغرض الذي سيقت لأجله ،فترى الشاعر في حديث الصبوة والفتوة يذكر فرساً ليس برهلٍ لأنه دائم الرحلة عليه ، إلى آخر ما يذكر من صفات في مقام

كهذا ، وفي حديث القنص يذكر فرساً سريعاً مع صفات أخرى لا زمة للسرعة ، وفي حديث الرحلة إلى الأقوام يذكر ناجية تقطع به الطريق الشاق مسرعة ... ، وفي ذكر تصريم من صرّمته يصف ناقة قوية غير مختبلة في سيرها تمينه على أمره ،وهكذا بقية الصفات التي تتابعت تجدها أشد علقة بالغرض .وينضاف إلى ذلك كله عنصر آخر هو تتابع الإدراك البصري للصفات والإحساس بها .

وأخيراً ، فإنّ البحث يتلمس العذر في هذا المبحث خصوصاً ؛ لأننا لم نجد دراسة متقدّمة درست نسق تقديم بعض الصفات على بعض في شعر شاعر وخاصة الجاهلي منه حتّى نستضيء بها ،وإنّما هي خطوات أولى قد تتعثر فيها الأقدام وتتقبل العون إن كان بالامكان . ويشير البحث إلى أنّ بعض الكتب المتقدمة لم تخل من إشارات إلى ذلك كالشذرات ،ومنها على سبيل المثال ما ذكره شهاب الدين الحلبي (١) عن " تنسيق الصفات وهو أن يذكر الشيء بصفات متوالية" ، وساق لذلك شواهد من القرآن الكريم والشعر ،إلا أنّه لم يُبن عن سرّ هذا التنسيق . ومثل هذا بعض ما حاول البحث تجليته والإبانة عنه .

---

(١) (حسن التوسل إلى صناعة الترسل) ص ٢٤٨ .

الفصل الرابع

الأساليب الإنشائية في شعره

أولاً : الاستفهام

ثانياً : الأمر

ثالثاً : النهي

رابعاً : النداء

الأساليب الإنشائية في شعره

تتميز الأساليب الإنشائية بأنّها من الأساليب ذات الدلالات الشعرية ،وهي تمثّل اللغة في جانبها المتحرك المثير ،لما فيها من عناصر الإثارة والتأثير ، وقد عُني البلاغيون بهذه الوسائل منذ بدأ النظر في تراكيب الكلام والتعرف على عناصر بلاغته وتأثيره ،وكانت للشيخ عبد القاهر وقفة مع الاستفهام بالهمزة خاصة كشف من خلالها عن الكثير من قضايا هذا الباب وناقش كثيراً من التراكيب الصحيحة والفاسدة. كما عني المُفسّرون عناية خاصة بأساليب الأمر والنهي والنداء . وهذا الفصل من البحث يحاول التعرف على طبيعة استعمال زهير لهذه الأساليب ، وأيُّها أكثر دوراناً في شعره ؟ ، وإلى أيّ مدى كانت تشيع وتتكاثر ؟ ، وما هي حدود المعاني التي أدّاها كلّ أسلوب ؟ هل وقف عند معناه الأصلي ؟ أم تجاوزه إلى معان أخرى ؟ وإن تجاوز فما أكثرها ؟ وما سياقاتها الغالبة ؟ وما مدى خصوبتها وثرائها ؟ مع محاولة تلمّس ظواهر أسلوبية في بناء أساليب الإنشاء إن وجدت .

ولكي يحقق هذا الفصل غايته ، قسّم أربعة أقسام :

أولاً - الاستفهام.

ثانياً - الأمر .

ثالثاً - النهي .

رابعاً - النداء .

أولاً - الاستفهام

يهدف بحث الاستفهام في شعر زهير إلى الإجابة عن التساؤلات التالية : هل يستوعب كلام البلاغيين في بناء جملة الاستفهام كلّ ما جاء منها في شعر زهير ؟ أم أنّنا نجد في شعره أشياء يمكن اعتبارها إضافة الى كلام البلاغيين ؟ وهل نستطيع الوصول إلى صياغات غلبت في استخدامه وتكوينه لهذا الأسلوب ؟ ، ومن ثم فإنَّ هذا المبحث يبتدئ ببناء أساليب الاستفهام ، ثم يشير إلى أنماط تركيبية في هذا الأسلوب ،وأخيراً يبين عن معاني الاستفهام عنده .

١ - بناء أساليب الاستفهام :

لما كانت الهمزة في باب الاستفهام بمثابة الرأس حفل هذا البحث بها ، وقد أجرى زهير الهمزة في شعره كثيراً بالقياس إلى أخواتها من أدوات الاستفهام ،وهذا راجعٌ إلى أنّه يُسأل بها عن كلّ جزء من أجزاء الجملة " التصور " أي : " إدراك غير النسبة "[(١)] ، كما يُسأل بها عن النسبة إثباتاً أو نفياً " التصديق " أي : " انقياد الذهن وإذعانه لوقوع نسبة تامة بين الشيئين "[(٢)]، ولكون الهمزة كذلك - أي صالحة لأنْ يسأل بها عن كلّ جزء من أجزاء الجملة - جرت في استعمالات أهل اللغة على نظام دقيق استخرجه أهل العلم ،ولخّصوه في تلك القاعدة المختصرة ، وهي : أن المستفهم عنه هو ما يلي الهمزة ، وتبين لي من مدخولها في شعر زهير أنّها لم تتوجه إلى فاعل الفعل

---

(١) سعد الدين التفتازاني (شرح السعد المسمى مختصرالمعاني في علوم البلاغة) ٢ : ٩٥ .

(٢) (المصدرالسابق) ٢ : ٩٥ .

أومفعوله ،وإنّما توجهت - في الغالب - إلى الفعل نظير قوله :

أَتَعذُلُ مالِكاً ،أنْ يَنصُرونا ؟ ونَصرُهُمُ إذا هُتِكَ السِّتارُ (١)

وقوله - وقد وقعت في بيتين اثنين ومعها " أم " - أحدهما :

وقالَ أميري : ما تَرى ،رأيَ ماتَرى أَنختِلُهُ عن نَفْسِهِ ،أم نُصاوِلُهْ ؟ (٢)

والآخـر :

أَثوَيتَ ،أم أَجمعتَ أنّك غادِي؟ وعَداكَ ،عن لُطْفِ السُّؤالِ ،عَوادِي (٣)

وعلى ذلك ، لم يقع في أسلوب الاستفهام مع الهمزة نظير قولهم : "أأنت فعلت ؟ " أو "أزيداً أكرمت أم عمراً ؟ " ،وهذه التراكيب التي لم تقع في شعر زهير يلحظ أنّها من تراكيب القرآن الكريم ،كقوله تعالى : ﴿ أَأَنتَ فَعلتَ هذا بآلِهتِنا يا إبراهيمُ ﴾ (٤) ، وقوله تعالى : ﴿ قُل أغَيرَ اللّه أتّخِذُ وليّاً ﴾ (٥) ،ومثله كثير.

ودخلت على الجار والمجرور ،كما في قوله :-

أَمِنْ أمّ أوفى دِمْنةٌ ،لم تَكَلَّمِ بِحَومانةِ الدَّرّاجِ ،فالمُتَثَلَّمِ؟ (٦)

وقولـه :

أعن كُل أخدان ،وإلفٍ ،ولَذّةٍ سَلَوتَ ،وما تَسلُو عن ابنةِ مُدْلِجِ ؟ (٧)

وقوله :

غَدتْ عَذّالتايَ ،فقُلتُ : مَهْلاً أفي وَجْدٍ ، بِسَلمَى ،تَعذُلانِي ؟ (٨)

---

(١) ٢٥ : ١١ ، ص ٢٢٢.
(٢) ٧ : ١٧ ، ص ١٠٦.
(٣) ٣٥ : ١ ، ص ٢٤٤.
(٤) الأنبياء : ٦٢.
(٥) الأنعام : ١٤.
(٦) ١ : ١ ، ص ١٦.
(٧) ٣٢ : ١ ، ص ٢٣٦.
(٨) ٤٨ : ١ ، ص ٢٦٢.

وقولـه :

أَمِن آلِ لَيلَى ،عَرَفْتَ الطُّلولا ... بذي حُرُضٍ ،ماثِلاتٍ ،مُثُـولا ؟ (١)

ودخلت على النفي " ليس ،ولم " وذلك كما في قوله :

أَلَيسَ بفَيّاضٍ ،يَداهُ غَمامـــةٌ ... ثِمالِ اليَتامَى ،في السِّنِينَ ،مُحَمَّدِ ؟ (٢)

وقولـه :

أَلم تَرَ ابنَ سِنانٍ ،كيفَ فَضَّلَـهُ ... ما يَشترِي فيه حَمدَ النّاسِ ،بالثَّمَنِ ؟ (٣)

ودخلت على اسم الإشارة المتعلق بكلام سابق ،ومعها " أم " في

قولـــه :

أَفَذاكَ ،أَم ذُو جُدَّتَينِ ،مُوَلَّـعٌ ... لَهِقٌ ،تُراعِيهِ بِحَومَلَ رَبـرَبُ (٤)

وقولـه :

أَذلِكَ ،أم أَقَبُّ البَطْنِ ،جَـأْبٌ ... عَلَيه ،من عَقيقَتِهِ ،عِفـاءُ ؟ (٥)

ودخلت على الظرف في قوله - فقط -:

سَواءٌ عليه أيَّ حِينٍ أَتَيتَـــهُ ... أَساعةَ نَحْسٍ ،تُتَّقَى ،أم بأَسعُدِ ؟ (٦)

هذه هي أبرز صور بناء الجملة مع همزة الاستفهام في شعر زهير ، وهي صور لم ينخرم بها الأصل الذي قرّره البلاغيون من دخول الهمـــزة على ما يليها ،كما لم أجد فيها ما يستدرك به على بحث الشيخ عبدالقاهر (٧) حين استسقط مثل : " أبنيت هذه الدار؟ " و " أأنت بنيت الدار التي كنت على أن تبنيها ؟ " و " أأنت قلت شعراً قط؟ " .. الخ .

---

(١) ١١ : ١ ، ص ١٤٦ .

(٢) ١٤ : ٢٧ ، ص ١٦٩ .

(٣) ٦ : ٩ ، ٩٨ .

(٤) ٥٣ : ٢٩ ، ص ٢٧٩ .

(٥) ٣ : ١٧ ، ص ٥٩ .

(٦) ١٤ : ٣٢ ، ص ١٦٨ .

(٧) (دلائل الإعجاز) ١١١-١١٢ .

ونجد جريان " هل " في شعر زهير متلائماً تماماً مع مقررات البلاغيين في هذه الأداة ، وليس في استعمالاته لها ما يدعو إلى مراجعة بعض كلام البلاغيين ، فإذا كان البلاغيون قد ذكروا أساليب ممتنعة مثل : " هل زيد عندك أم عمرو؟ " فإنَّ الصور الممتنعة لم يرد منها شيء في كلام زهير . ولكن ثمة مسألة تحتاج إلى تجلية في قوله :

هل في تَذكُّرِ أيّام الصِّبا فَنَدُ ؟ أم هل لِما فاتَ ، من أيّامِهِ ، رِدَدُ ؟ (١)

وقولـه :

طَرِبتَ ، وقال القَلبُ : هل دُونَ أَهلِهـا لِمَن جاوَرَتْ ، إلا لَيالٍ ، قَلائِلُ ؟ (٢)

حيث قُدِّم الخبر الجار والمجرور والظرف على المبتدأ ، والتقديم في هذا اللون إمّا أن يكون للاختصاص أو للعناية والاهتمام ، ومعنى الاختصاص لا يتناسب مع " هل " لأنَّه يعني كون " هل " سؤالاً عن الظرف أو الجار والمجرور ، وهي لا يُسأل بها عن الظرف أو غيره ، وإنَّما يسأل بها عن النسبة ، ولذا فإنَّ دخولها على الخبر الظرف أو الجار والمجرور يجعل التقديم مفيداً الاهتمام .

أمّا بقية أدوات الاستفهام ، فقد استعمل منها : كيف ، وأنّى ، وأين ، وكم ، ومتى ، ومن .

وغاية ما نصل إليه أن المقررات النظرية في الاستفهام والتي وضعها البلاغيون ، لا نجد منها شيئاً يتعارض مع شعر زهير ، ولسنا في حاجة إلى تقرير مسألة بلاغية في هذا الباب بعد استقصائنا لهذا

---

(١) ٢٢ : ١ ، ص ٢٠١ .

(٢) ٢٤ : ٨ ، ص ٢١٥ .

الأسلوب عنده إلا ما أشرنا إليه ،وهذا يؤكد أنَّ ما استخلصه البلاغيون في هذا الشأن كان هو الأصل الذي اطردت عليه سليقة اللسان كما يمثّلها شعر هذا الشاعر الذي لا غميزة فيه .

٢ ـ أنماط تركيبية في أسلوب الاستفهام :

ثمة صياغات متحدة في شعر زهير مع الاستفهام ،منها :

نمط تركيبي تكرر مع "هل" خاصة في أكثر من نسق هو :

* تبصّر ،خَلِيلي ، هل تَرَى من ظَعائنٍ *(١)

أو : "تبيّن "(٢) ،وقد تختلف الصياغة قليلاً ، كما في قوله :

* يا انَهضْ خَلِيلي تَبيَّنْ هل تَرَى السَّدَفا ؟ *(٣)

وقوله :

ياصاحِبَيَّ ،انظُرا ،والغَورُ دُونَكما : هل تَبدُرَنَّ لَنا ،فيما نَرَى ،الجُمُدُ ؟(٤)

وهذا النسق من طرق سبك الكلام ،وهو متكرر كما هو ظاهر عند زهير و عند غيره من الشعراء الفحول الآخرين كامرىء القيس والنابغة . وقد بُني على الأمر السابق لأداة الاستفهام "هل" الداخلة على المضارع، وكل ذلك مسبوقٌ بالنداء .

و نمط آخر مع "هل" أيضاً ،هو قوله :

* هل تُؤْنِسانِ ببَطن الجوّ من ظُعُنٍ *(٥)

وقوله :

* هَلْ تُبلِغَنّي ،إلى الأخيارِ ،ناجيةٌ *(٦)

---

(١) ١ : ٧ ،ص ١٩ ،٢٤ : ٥ ،ص ٢١٤ . (٢) ٤٩ : ١ ،ص ٢٦٦ .

(٣) ٤٧ : ١ ،ص ٢٦١ . (٤) ٢٢ : ٨ ،ص ٢٠٢ .

(٥) ٦ : ٥ ، ص ٩٧ . (٦) ٢٩ : ١ ،ص ٢٣٢ .

وقولـه :

* هل تُبْلغَنّيها ، على شَحْطِ النَّوى * (١)

وقوله :

* هل تُلحِقَنّي وأصحابي ، بهم ، قُلُصٌ؟ * (٢)

وهذا مختلفٌ عن سابقه من حيث عدم سبق "هل" بفعل أمر .

ومنها نمط تركيبي آخر تكرر أربـع مرات مع الاستفهام الداخل على النفي في نسق بنائي متحد ، كما في قوله :

* ألم تَرَ أنّ الناس تخلُدُ بعدَهُم * (٣)

وقوله :

* ألم تَرَ أنَّ الله أهلك تُبّعَاً * (٤)

وقولـه :

* ألم تَرَ ابن سِنانٍ ، كيف فَضّلَهُ * (٥)

وقوله :

ألم تَر للنُّعمانِ ، كان بِنَجوةٍ * (٦)

وواضح أنَّ هذه الصيغة جرت في هذه الشواهد للحث علـى النظر والاعتبار ، كما في قوله تعالى : * ألم تَرَ كَيف فَعَلَ رَبُّكَ بأصحَابِ الفِيلِ * (٧) .

---

(١) ٥٣ : ٥ ، ص ٢٧٦ .
(٢) ٩ : ٧ ، ص ١٢٩ .
(٣) ٣٣ : ٨ ، ص ٢٤٢ .
(٤) ٢٣ : ١٤ ، ص ٢٠٩ .
(٥) ٦ : ٩ ، ص ٩٨ .
(٦) ٢٣ : ١٧ ، ص ٢١٠ .
(٧) الفيل : ١ .

وتكرّر مرّتين في نسق آخر هو :

* أَلَيسَ بضرّابِ الكُماةِ ،بسَيفِهِ * (١)

، * أَلَيسَ بفَيّاضٍ ،يَداهُ غَمامةٌ * (٢)

وفيه دخلت الهمزة على أداة النفي المؤكدة بالباء .

ومنها نمط تركيبي مع "من" خاصة ،في قوله :

* لمن طَلَلٌ ،بِرامةَ ،لا يَرِيمُ ؟ * (٣)

وقوله :

* لِمَن الدِّيارُ ،غَشِيتَها ،بالفَدْفَدِ ؟ * (٤)

وقوله :

* لِمن الدِّيارُ ،بقُنَّةِ الحِجْرِ ؟ * (٥)

وقوله :

* لمنْ طَلَلٌ ،كالوحي ،عافٍ مَنازِلُهْ ؟ * (٦)

ومنها نمط تركيبي مع "أين" في قوله - وقد أتى متتابعاً :

* فأين الّذينَ كانَ يُعطي جِيادَهُ * (٧)

، * وأينَ الّذينَ كان يُعطِيهِمُ القُرَى *

، * وأين الّذينَ يَحضُرُونَ جِفانَهُ ؟ *

---

(١) ١٤ : ٣٣ ،ص ١٦٨ . (٢) ١٤ : ٣٧ ،ص ١٦٩ .

(٣) ١٢ : ١ ،ص ١٥٢ . (٤) ٢١ : ١ ،ص ١٩٤ .

(٥) ٤ : ١ ،ص ٧٦ . (٦) ٧ : ٥ ،ص ١٠٢ .

(٧) ٢٣ : ٢٠-٢٢ ،ص ٢١١ .

٣ - معاني الاستفهام عنده :

تتميز معاني الاستفهام عند زهير بالتنوع ،ولا عجب فالشعر تيارات متنوعة المعاني والأحوال والمشاعر ،وأودية يدخل الشاعر منها وادياً فيكثر عنده أسلوب معين ،وتتنوع دلالات هذا الأسلوب بمقدار تنوع المواقف والشئون والأحوال ،وهذا الجزء من البحث يُقدّم تناولاً لأودية المعاني التي تكاثر فيها أسلوب الاستفهام مظهراً من خلالها بعض ظواهر أسلوبية وأنماط تركيبية كانت ذات تميّزٍ في ديوانه .

ولعلّ أول ظاهرة تصادفنا هي افتتاحيات القصائد ، فمعظم الاستفهام منوّعٌ بين " الهمزة ،وهل ، ومن " وقع في أوائل القصائد مفيداً إما التدله والحيرة ،أو الإنكار توبيخياً كان أو تكذيبياً .

والافتتاح بالأساليب الاستفهامية افتتاح شعري ،لأنّ الاستفهام من الأساليب الحيّة الموقظة وخاصة إذا وقع في بدء القصيدة فيكون أول صوت يُسمع ، ثم إنّ الاستفهام في جملته موقف حائر ينبئك من أول لحظة أنّ نفس الشاعر حائرة متلددة ،وموقف الطلل موقف حيرة ويغلب فيه على النفس ما يغلب من ذكريات وأحوال ،ومن هنا كان وقوع الاستفهام في بداية القصيدة أمراً ملتئماً جداً ،وهذه الظاهرة الخاصة تقود إلى أخرى تبدو - في الغالب - عامة ،وهي أنّ غالب الاستفهامات في شعر زهير تأتي في سياق الحركة ،بل إنّ شعره يتميز بالحركة ويعتمد على التصوير الذي ليست وسيلته الوحيدة لغة المجاز.

يقول زهير في نماذج متقاربة تئول إلى معنًى واحد هو

التدله والحيرة ،ومفتتحاً بها :

لمن طَلَلٌ ،بِرامةَ ،لا يَرِيمُ ؟ عَفا ،وخَلا لهُ عَهْدٌ ،قَدِيمُ (١)

وقوله :

لمن الدِّيارُ،غَشِيتَها ، بالقَدْفَدِ؟ كالوَحيِ ،في حَجَرِ المَسِيلِ ،المُخْلِدِ (٢)

وقوله :

لِمَنِ الدِّيارُ ،بِقُنَّةِ الحِجْرِ ؟ أَقوَيْنَ من حِجَجٍ ،ومن دَهْرِ (٣)

الموقف في مساءلة الأطلال موقف طغت فيه الهموم والأحوال على قلب الشاعر وعقله ،وفيه يكذب الشاعر نفسه ،وكذاب الشاعر نفسه دالٌّ على فرط حيرته ،وعلى أنَّ الأمر الذي يعالجه قد غلب عليه فاختلط فلجأ إلى تساؤل الحائر المدله الذي يسأل عن الأشياء التي يعرفها ، وكأنَّه عندما أخذ يتأمل في هذه الآثار وهذه الطلول طغى عليه ما أضاع منه معارفه فصار يسأل عن أمر هو يعلمه .

ومن الاستفهام المفيد معنى الحيرة والتدله -وليس مفتتح قصيدة وإن كان يشبه بدايات القصائد-:

لِمَنْ طَلَلٌ ، كالوَحْيِ ، عافٍ مَنازِلُه ؟ عَفا الرَّسُّ مِنهُ ،فالرُّسَيسُ ،فَعاقِلُه (٤)

السؤال فيما مضى بـ "من" ،لأنه سؤال عن أهل هذه الديار من هم ، والذي يأتي بعد هذه الأداة "من" - كما هو ظاهر في الأبيات - كلام يدل على ذهاب الأثر وعفائه ،وهذا ما كان يغري بعض الشراح باعتبار الاستفهام في مثل هذا استفهاماً حقيقياً ،وأن الشاعر يبدأ به قبل أن يجيل بصره في الآثار حتى يتعرف من

---

(١) ١٢: ١ ، ص ١٥٢ .
(٢) ٢١: ١ ،ص ١٩٤ .
(٣) ٤: ١ ،ص ٧٦ .
(٤) ٧: ٥ ،ص ١٠٢ .

الأثر على ما يهديه إلى صاحبته .

ومما مضى ، وهو مفتتح قصيدة ،قوله :

أَثَوِيتَ ،أم أَجْمَعْتَ أنَّكَ غادِي؟ وعَداكَ ،عن لُطْفِ السُّؤالِ ،عَوادِي (١)

ليس في الأبيات ذكر الصاحبة ،وإنّما بنيت على وصف رحلته وجلادته ، وهذا يرشح أنَّ الخطاب في مدخول الهمزة " أثويت " لنفسه ، وقدّم الإقامة بقوله : "أثويت " ،لأنّها الأصل ،وعبر عن المفارقة ب "أجمعت " ، وهي كلمة تشير إلى تفرّق نفسه ،وأنّ رأيه في هذا الأمر غير مجموع حتّى أنه أجمع على ذلك ،ولم يقل " أم رحلت " معبّراً ب "أجمعت " أحسن تعبير عن معنى التّفرّق . ثم إن مسألة إقامته لاتستدعي سؤالاً ، وإنّما " أجمعت أنّك غادي " هي مصب الكلام وكأنّ الذي قبلها وطاءٌ لها .

ومن شواهد معنى التدله والحيرة ،وقد وقع الاستفهام بالهمزة الداخلة على الجار والمجرور مفتتحاً بها معلقته :

أَمِنْ أُمِّ أوفَى دِمْنَةٌ ،لم تَكَلَّمِ بحَومانةِ الدّرّاجِ ،فالمُتَثَلَّمِ؟ (٢)

دخلت الهمزة على الجار والمجرور " أمنْ أمِّ أوفى " ،والسؤال سؤال حائر مُتَدَلِّه غطّى عليه ما يجده من الهمِّ والشجن ، فالذي يعنيه هو هذا الجار والمجرور صاحب الطلل خصوصاً ،أي أن تكون الدّمنة من أم أوفى .

ومثله قوله :

أَمِنَ آلِ لَيْلَى ،عَرَفْتَ الطُّلُولا بذِي حُرُضٍ ،ماثِلاتٍ ،مُثُولا ؟ (٣)

---

(١) ٣٥ : ١ ، ص ٢٤٤ .

(٢) ١ : ١ ، ص ١٦ .

(٣) ١١ : ١ ، ص ١٤٦ .

وهذا قريب من قوله فيما سبق " لمن طلل ..؟" من حيث السؤال عن صاحب الطلل ، وليس عن الطلل ،ويختلف عنه من حيث إنه ذكر هنا صاحب الطلل " أمّ أوفى وآل ليلى " أمّا هناك فلم يذكر أمّ أوفى ولا غيرها ،وإنّما قال" لمن طَلَلٌ كالوحي عافٍ منازله ؟ " و " لمن الديار بقنّة الحجر ؟ " وصورة الاستفهام هنا ليس فيها الإشارة إلى أنه يداخله شك في الطلل ، وإنّما الشك في صاحب الطلل لمن هو ؟ فقد داخله الريب وحدد موطن الشك في أنّ هذا الطلل " من أمّ أوفى " و " من آل ليلى " ؛ فهما رأس القصيدة ،لم يستوقفه فيه الطلل ،ولم تستوقفه الدّمنة ،وإنّما استوقفه أنّهما من أم أوفى ومن آل ليلى .

وقد يأتي الاستفهام للإنكار التوبيخي ،كقوله :

أَعَنْ كُلِّ أَخْدانٍ ،وإلفٍ ،ولذّةٍ سَلَوتَ ،وما تَسلُو عن ابنةِ مُدْلِجِ؟ (١)

وليدَينِ ،حتّى قالَ من يَزَعُ الصِّبا أَجِدَّكَ ،لمّا تَستَحي ،أَوتَحَرَّجِ ؟

وقع الاستفهام بالهمزة في فاتحة القصيدة ، ودخلت على قيد الفعل ،وهو : " أعن كلّ أخدان وإلف ولذّة سلوت " مفيدة الإنكار التوبيخي ،أي أن ذلك ما كان ينبغي أن يكون : يريد سلوته لكلّ خدن وإلفٍ ولذّةٍ ، ثم إنّه مع ذلك لا يسلو ابنة مدلج . ولا تخفى قيمة العموم في القيود : " كلّ أخدان وإلف ولذّة " فهو لتعميق المعنى مفيداً هذا الشمول الذي يحيط بكل شيءٍ ،بكلّ خدنٍ وإلفٍ ولذّة ، ثم يتفرد هذا القلب الذي سلا عن كل شيء ،ويبقى فيه شيءٌ واحدٌ هو ابنة مدلج . وتأمّل عبارة الشاعر في ذكر من سلاهم " أخدان وإلف ولذّة " " والخِدْنُ والخدينُ : الذى يُخادِنك ،فيكون معك في كل أمر ظاهرٍ وباطنٍ " (٢)

---

(١) ٣٢ : ١-٢ ،ص ٢٣٦ .

(٢) ابن منظور (لسان العرب) ٢ : ١١١٦ . (مادة : خدن) .

فهو صاحب النفس له تائقة أبداً ، ثم انظر إلى كلمة : " الإلف " ومافيها من معنى المخالطة والمقاربة والوصل ، و " اللذة " وهي حاجات الجسد . كلّ ذلك سلاه ،وما سلا عن ابنة مدلج ،وبذلك يتضح معنى التوبيخ والتعجب والمؤاخذة . وفي البيت الثاني قال : " وليدين " كأنّه يذكر قصة العلاقة التي بينه وبين هذه الصاحبة ،و " حتّى " تفيد أنّ هذه العلاقة قد شاع خبرها وامتدت بين الناس حتّى قال من يزع الصّبا لما تستحي أوتحرّج . و " جِدّك " تعبير شائع في كلام العرب شعراً ونثراً ،ومعناه : " أجِدّك تفعل كذا ،أي أجِدّاً منك ، أصريمةً منك ،أعزيمةً منك ".(١)

ومنه قوله :

غَدتْ عذّالتايَ ، فقُلتُ : مهلاً أفي وَجْدٍ ،بسَلمَى ، تَعذُلانِي ؟(٢)

الاستفهام معناه الإنكار التوبيخي ،أي : ما كان ينبغي أن يكون منكما عذل في وجد بسلمى ،ولم تدخل الهمزة على الفعل " تعذلاني " ، وإنّما على قيده خصوصاً " أفي وجد " ، وبالرغم مما هو معروف من أنّ إنكار الفعل المقيّد يلحظ في قيده هذا الإنكار أراد النصّ على مصب إنكاره وهو كونَ العذل في وجد بسلمى حتى إنّهم لو عذلوه في وجد أخرى غير سلمى لم ينكر هذا العذل ،وهذا دال على نهاية تهالكه في سلمى . ومما يُقوّي معنى الإنكار التوبيخي قوله في الشطر الأوّل : " غدت عذّالتاي .." حيث أجراه على وجه آخر يظهر في ذلك الغُدوّ من العذّالتين ، والشاعر يصيح بهن : " مَهْلاً " في لهجة آمرة بالتمهل والتؤدة ليوجّه لهما هذا اللوم.

---

(١) ابن فارس (معجم مقاييس اللغة) ١ : ٤٠٧ (مادة : جد) .

(٢) ٤٨ : ١ ، ص ٢٦٢ .

ومنه بغير الهمزة ،وهو فاتحة قصيدة يعاتب فيها أمّ كعب :

فِيمَ لَحَتْ ؟ إِنَّ لَوَمها ذُعُرُ أَحَمَيْتِ لوماً ،كأنَّه الإِ بَـــرُ (١)

الاستفهام سببه جدلٌ بينه وبين زوجه ، فهو يقول : في أيِّ شيءٍ لاحت ؟ أي ليس هناك ما يستحق الملامة منها ؛ فهي لا تلوم في شيءٍ يلام عليه ،وإنّما تلوم في شيءٍ الشأن ألا يقع فيه لوم ،بل موافقة ورضىً ، ولذا كان الإِنكار لهذا اللوم والرفض له ،وأنَّه ما كان ينبغي أن يكـــون منها ،ولقد أفصح في البيت الثاني عن معنى الاستفهام بقوله :

من غَيرِ ما تُلصِقُ المَلامــةَ إِلـ ـلا سُخْفَ رأيٍ ،وساءَها عُصُرُ (٢)

أي لا مُوجب لهذا اللوم ،لأنّه لا أصل له ، فهو سخف رأي ، إلا أنّه أزعج الشاعر وضايقه ،فوسمه بالإِبر والذعر ،ثم قال :

حتّى إِذا أَدخَلَتْ مَلامَتَهـــا من تَحتِ جِلدِي ،ولا يُرَى أَثَرُ

وكأنَّ هذا اللوم ينفذ في عظامه ،فأزعجه وردّه عنه .

ومن الاستفهام المفيد معنى الإِنكار التكذيبي ،قوله :

هل في تَذكُّرِ أيّامِ الصِّبافَنَدُ ؟ أم هل لِما فاتَ ،من أيّامِهِ ،رِدَدُ ؟ (٣)

دخلت "هل" على الخبر المقدَّم "في تذكر" والاستفهام معناه النفي "الإِنكار التكذيبي" أي : ليس في تذكر أيام الصِّبا فند .

---

(١) ٢٨ : ١ ،ص ٢٢٩ .

(٢) "سُخْفُ : مصدرٌ من : سَخُفَ رأيُهُ أي : ضعُفَ . وعُصُرُ : دَهرٌ . أي : ساءها ما مضَى من دهري . من غيرِ ما ،يقول : من غير قولٍ تَلزمني منه المَلامةُ . ولكن ساءها كِبَري ، فهي تُلصِقُ بي الملامة " . ص ٢٢٩ .

(٣) ٢٢ : ١ ، ص ٢٠١ .

وفي تقديم الخبر إشارة إلى قطع الشاعر بأنّ تذكر أيام الصِّبا لا ينسب المرء بسببها إلى فساد العقل ، وهو ردّ على كل من يدّعي أو يتوهّم أنّ في ذكريات الصِّبا وأيامه خطأً ، فالإنسان بطبعه كثير الشجن يدفع بنفسه إلى موطن الذكريات ، وإنْ بَعدت الدّيار واستطال الزّمان . وقوله : " أم هل لما فات .. " ، الاستفهام فيه للنفي أيضاً ، والذي يلحظ دخول " هل " في التركيبين على جملة ذات نسق بنائي واحد ، وفيه إشارة إلى وحدة المعنى والموقف ، كما يلحظ أنّ الشطر الثاني نفي لما لا يقول أحد بإثباته ، فعدم رد ما فات من الأيّام لا ينازع فيه منازع ، ولذا كان الاستفهام فيه - أيضاً - معنى التحسر والتوجع ، والمهم أنّ المساواة بين شطري البيت في المبنى موحٍ بأنّه كذلك في المعنى . والبيت الذي بعده :

أم هَلْ يُلامَنَّ باكٍ ، هاجَ عَبْرَتَهُ بالحِجْرِ ، إذ شَفَّه الوَجْدُ الذي يَجِدُ (١)

" شفَّه الحزن والحُبّ يشُفُّه شفّاً وشُفُوفاً : لذع قلبه ، وقيل أنحله ، وقيل أذهب عقله . " (٢) " الوجد " ، " ووجِد به وجداً : في الحبّ لا غير ، وإنّه ليجِدُ بفلانة وَجْداً شديداً إذا كان يهواها ويحبّها حبّاً شديداً " (٣) .

الاستفهام معناه النفي ، أي : لا يُلامَنَّ باكٍ ، وتأمل كيف اختلف نمط الجملة ، فدخلت " هل " على الفعل آتية على الأصل ، ومعناه : نفي توجه اللوم إلى الباكي الذي هاج عبرته شدة ما يجد في داخل نفسه . واستخدام صيغة اسم الفاعل " باكٍ " دالّ على

---

(١) ٢٢ : ٢ ، ص ٢٠١ .

(٢) ابن منظور (لسان العرب) ٤ : ٢٢٩٠ . (مادة : شفف) .

(٣) (المصدر السابق) ٦ : ٤٧٧٠ (مادة : وجد) .

أنَّ هذا البكاء وصف ثابت له . وفي كلمة "هاج" دلالة على وفرة العبرات وأنّها هاجت . و "شفَّه الوجد الذي يجد" مناسبٌ لـ "هاج عبرتــه" ؛ لأنَّ معناها أنّها كانت قد سكنت ثم هاجها ما يجده . وقيمـــة الإنكار في البيتين تكمن في عدم إملاء الشاعر هذا النفي على من يسمعه ، وإنّما يطلب منه الرجوع إلى نفسه والنظر : أيليق بالعاقل وذي القلب الحيِّ أن ينكر عليه تذكّر أيام الصِّبا وتوجُّه اللوم إلى باكٍ شفَّه الوجد .

ومما وردت فيه "هل" بمعنى النفي ،قوله :

فما كانَ ،مِن خَيْرٍ ،أَتَوه فإنّما   تَوارَثَه آباءُ آبائِهِمْ ،قَبْــلُ(١)

وهَلْ يُنبِتُ الخَطِّيَّ إلا وَشِيجُهُ   وتُغْرَسُ ،إلا في منابِتِها ،النَّخْلُ

" الخطِّيّ : الرِّماح ، نَسبها إلى الخطِّ ،وهي جزيرةٌ ،بالبحرين تُرْفأُ إليها سُفُن الرِّماح . يقول: لا تُنْبِتُ القناةَ إلا القناةُ . والوَشيجُ : القَنا . . والوُشوجُ : دخول الشيء بعضه في بعضٍ . ويقال : "لا تُنْبِتُ الحقلةُ إلا البقلةُ" يعني أنهم كرام ،ولا يُولد الكرام إلا في موضع كريم . وتُرفأُ : تُرْسي ".(٢)

يمتدح زهير هرم بن سنان والحارث بن عوف بالأصالة فـي المنبت والجودة في الأرومة ،صائغاً هذه الفكرة الأولى بطريق القصـر من غير تمثيل : " إنّما توارثه آباء آبائهم قبلُ " فأكّد بهذا القصـــر الموجود في "إنما" أصالتهم ،ثم انتقل بالفكرة من المعنى المجرّد إلـى طريق التمثيل ، فصاغها مرة ثانية بصورة التشبيه الضمني : " وهـل ينبت الخطِّيّ إلا وشيجه " ، ثم صاغ معناه الصياغة الأسلوبية الأولى نفسها بطريق القصر فأكّده من هذه الناحية ، ثم ضرب بعد ذلك مثلاً

---

(١) د : ٤٠-٤١ ، ص ٩٥ .
(٢) ص ٩٥ .

آخر : " وتُغْرسُ إلا في منابتها النَّخل " ،وهذا المثل الثاني صاغه أيضاً على طريقة المثل الأول ،وأخيراً ،فلقد ضمَّن هذين المثلين معنيين جليلين في هو"لاء الأقوام ؛ أحدهما ،القوة والصلابة والبأس والمنعة المأخوذ من الخطّي والوشيج . والآخر : النفح والعطاء والكرم المأخوذ من منابت النخل . ولعلّ في مثل هذا مما نجده في شعر زهير يقود إلى استنباط خصوصية من خصائص لغة زهير في صوغه الفكرة الواحدة بطرق متعددةٍ محكمة الدمج .

ومن الاستفهام للنفي ،قوله :

طَربتَ ،وقالَ القلبُ : هل دُونَ أَهلِها
لِمَن جاوَرَتْ ، إلا لَيالٍ ،قَلائلُ ؟(١)

" يخاطب نفسه . يعني أهل هذه المرأة . يقول : ليس بيننا وبينها إلا ليالٍ قلائل . ومعنى من جاورت أي : من جاورتنا ".(٢)

دخلت " هل " هنا على الظرف المقدّم ،وهذا التقديم لا يو"ثر في دلالتها ،كما سبق ،والمقصود : ليس دون أهلها إلا ليالٍ قلائل .

ولم يقتصر معنى الإنكار التكذيبي في استعمالات زهير لأدوات الاستفهام على أداة واحدة ، لكن تنوعت إلى حدٍّ ما ،كما في قوله :

وَمَنْ مِثلُ حِصنٍ ،في الحُروبِ ،ومِثلُهُ لإنكارِ ضَيمٍ ،أو لأمرٍ يُحاوِلُهْ ؟(٣)

---

(١) ٢٤ : ٨ ، ص ٢١٥ .　　(٢) ص ٢١٥ .
(٣) ٧ : ٤٢ ،ص ١١٤ .

أي : لا أحد مثل حِصن ، وعليه فالاستفهام بـ " من " مفيد النفي ، وهذا النفي مرجعه استعظام حصن . وثمة فرق واضح بين أن تقول : " من مثل حِصن " ، و " لا أحد مثل حصن " . الفرق أنّك في الاستفهام استخرجت النفي من نفس السامع ، فأنت لا تفرض عليه المعنى فرضاً ، وإنّما تستخرجه من نفسه بلغة الاستفهام ، وهذا لا يكون إلا عند الثقة المطلقة بأنّ السامع يعلم أنّ مواقف ثلاثة يتفرّد بها حصن ، أحدها : موقف الحرب ، وهذا دال على فرط شجاعته وأنّه فرد في هذا الباب . وثانيها : موقف دفع الضيم ، وهذا دال على حميّة أنفه وعظمة نفسه وأنّه لا يضام أبداً . وثالثها : موقفه في أيِّ أمرٍ يحاوله ، وهذا دال على حكمته وحسن تأدّيه للأمور .

ومثله قوله :

وكيف اتّقاءُ امرئٍ ، لا يَؤُوبُ ... من الغَزْوِ ، بالقَومِ ، حتّى يُطِيلا ؟ (١)

معناه : أنّه امرؤ لا يُتّقى ، فالاستفهام للنفي ، نفي اتقائه ، وعلّته : استعظام قوة بأسه وشدة شجاعته .

وقوله على لسان زوجته تعاتبه :

رأيْتُك عِبْتَني ، وصَدَدْتَ عنّي ... فكيفَ رأيتَ عِرْضي ، واصطِباري ؟ (٢)

الاستفهام بـ " كيف " معناه : النفي ، وعلته الاستعظام ، أي : لم تجد شيئاً تنكره ، وفيه تشهير وتفظيع واستهوال وبيان لغضبة زوجه ، وهي غضبة ذي الكرامة حين تنال كرامته فيثور ويهيج دفاعاً عنها .

وقوله :

أحَسِبتَني ، في الدّينِ ، تابِعةً ... أوَ لو حَلَلْتُ ، على بَني سَهْمِ ؟ (٣)

---

(١) ١١ : ٥ ، ص ١٤٧ .
(٢) ٣٩ : ٢ ، ص ٢٥٠ .
(٣) ١٧ : ٢ ، ص ١٨١ .

" الدّين : الجَزاءُ . أَوَلو يريد : ولو حَلَلتُ في بني سهم لم أكُ في طاعتي تابعاً بني سهم ".(١)

يصف نفسه بتميز الشخصية ،وأنّه لا ينقاد ، ولو كان في قومه بني سهم لم يك في طاعته تابعاً لهم ،فالاستفهام في "أحسبتني" معناه الإنكار الذي فيه تعجيب وتوبيخ واستجهال لهذا الذي حسبه تابعةً في الطاعة ، ومثله الاستفهام في : " أولو حللت على بني سهم؟ ".

ومن جيّد النفي المفاد من الاستفهام ،قوله :

فأينَ الّذينَ كانَ يُعطِي جِيادَهُ ... بأَرسانِهِنَّ ،والحِسانَ ،الحَوالِيا؟(٢)

وأينَ الّذينَ كان يُعطِيهِمُ القُرَى ... بِغَلّاتِهِنَّ ،والمِئينَ ،الغَوالِيا ؟

وأين الّذينَ يَحضُرُونَ جِفانَهُ؟ ... إذا قُدِّمَتْ أَلقَوا ،علَيها ،المَراسِيا؟

يذكر النعمان ويشهر بمن خذلوه وتخلّوا عنه ،و "أين" يُسأل بها عن المكان ،ومراد الاستفهام بها هنا : النفي ،نفي وجود من خذلوه عن المكان الذي كان ينبغي وجودهم فيه ، فلو كانوا من ذوي المروءة لوجدوا في هذا المكان ،أي : بجواره ،وعلى هذا يستقيم المعنى في بقية الأبيات . ولا تغفل قيمة اسم الموصول هنا - كما ذكرني التعريف بالصلة - الذي أتاح للشاعر أن يتحدث عن عطاء النعمان لهؤلاء القوم ، فدلّ بذلك على بشاعة ما وقعوا فيه عندما تخلّوا عنه ، وهو الذي تخيّر من العطاء أفضله ، الجياد بأرسانهنّ ،والحسان الحواليا ،والمئين الغواليا ،وهذا كلّه يرشّح معنى التقريع واللوم والاستخفاف الذي اقتضاه نفيهم عن المكان ،وفي تأخيره لهؤلاء الأكلة في قوله : " وأين الذين

---

(١) ص ١٨١ .   (٢) ٢٣ : ٢٠-٢٢ ،ص ٢١١ .

يحضرون جفانه ؟" استهانة واستخفافٌ بهم ، فضلاً عن أن أكلهم الجفان وقد ألقوا عليها المراسي فيه مزيد من الاستهانة بهم ،أمَّا الذين ذكرهم في البيتين السابقين : "كان يعطيهم جياده.." وكان يعطيهم القرى.." فقد كان النعمان يحتفي بهم ويعطيهم أفضل ما عنده وما كان يعطي مثل هذا العطاء إلا لذوي القدر.

وقد يأتي الاستفهام للتكثير ،كما في قوله - وهو فاتحة قصيدة -:

كم للمَنازلِ ، من عامٍ ،ومن زَمَنِ؟ لآلِ أسماءَ ،بالقُفَّينِ ،فالرُّكُنِ (١)

" القُفَّان : موضعٌ معروف . والقُفُّ : ما غلظ من الأرض في ارتفاع . وهو غِلظٌ يكون بالرَّمل . والرُّكُنُ : أرض (٢) .

المراد بـ" كم " التكثير ،أي : أعوام وأزمنة كثيرة ،وفيها الإحساس بتراخي وتباعد زمن الذكريات ،وقد تعاون السياق على تكثير الزمن في الشطر الأول ،فقال : " عام " و "زمن " ، وكأنَّ الشاعر يشير بعطف الزمن على الزمن إلى ترادف الأوقات وتتابعها ،إلا أنَّ ما بعد هذا البيت يشير إلى قطع الشاعر هذه المسافة الزمنية وحديثه عن الواقع الذي كان قبل رحلة أسماء على سبيل القص والحكاية :

لآلِ أسماءَ ،إذ هامَ الفُؤادُ بِها حِيناً ،وإذ هِيَ لم تَظْعَنْ ،ولم تَبِنِ (٣)

---

(١) ٦ : ١ ، ص ٩٦ . (٢) ص ٩٦ .

(٣) ٦ : ٢-٥ ، ص ٩٦ - ٩٧ .

" لم تَظعنْ : لم تَتحمَّلْ . تَبِنْ : تُفارِقْ." ص ٩٦ .

وإذ كلانا إذا حانَتْ مُفارَقةٌ ، من الدِّيارِ ،طَوَى كَشحاً ،على حَزَنِ (١)

فقُلتُ ، والدّارُ أحياناً يَشُطُّ بها صَرْفُ الأميرِ ،على مَن كان ذا شَجَنِ

لِصاحِبَيَّ ،وقد زالَ النَّهارُ بنا : هل تُؤْنِسانِ ،ببَطنِ الجَوِّ ،من ظُعُنِ؟

وكأنَّ الشاعر لما استكثر الزمن رفضه واجتازه واعتبره عدماً وانتقل بخياله المثقل بالذكريات إلى الأرض والزمان والمكان الذي قبل هذا الزمن المقيم.

وقد يكون الاستفهام مفيداً التمني ،ويكثر ذلك مع "هل" ، ويلحظ أنَّ الكلام معها يبنى بناء يمثل ظاهرة أسلوبية تتكرر كما ذكر قبل . مثل قوله :

تَبصَّر ،خَلِيلي ، هل تَرَى من ظَعائنٍ تَحمَّلْنَ ،بالعَلياءِ ،مِن فَوقِ جُرْثُمِ ؟ (٢)

هذا الكلام مبنيٌّ على الذكرى ،فهو يعلم - قطعاً - أنَّ الصاحب لا يرى ،وربّما كان ذلك هو الوهم الذي نمى في خيال الشاعر حتى تجسد وصار كالحقيقة ،فأخذ يوهم نفسه ،ويدفع بصاحبه معه إلى الوهم بأنَّ ها هنا ظعائن ،وأنّك إن حدَّقت أمكنك رؤيتها ،وهكذا فالاستفهام للتمني ،وكأنَّ النفس إذا عظمت رغبتها في شيءٍ تخيّلت غير الواقع واقعاً ،وتشبثت بالوهم الذي ينسج الصورة ويخلقها خلقاً ، ولذا أخذ الشاعر يحض صاحبه على رؤية ما يتمنى أن يراه .

---

(١) ٦ :٢-٥ ، ص ٩٦-٩٧ .
"إذا حانت مُفارقةٌ : إذا جاءت ساعةُ المفارقة . طَوَى كشحاً على حَزَنٍ أي : ولّى على حَزَنٍ ... يَشطُّ بها : يَبعُدُ بها .. وصَرْفُ الأميرِ : تصرُّفه وتقلُّبه حيث يريد . والأميرُ: الذي يؤمَّرُ في الأ... ويأمُرُ القومَ بالمسير ، يصدرون عن رأيه . والشَّجَنُ : الهوى والحاجة ... زال النَّهار بنا أي: تقارب مجيءُ الليلِ . تُؤْنسان: تبصر... آنَسَهُ : أبصرَهُ ." ص ٩٦-٩٧ .

(٢) ١ :٧ ، ص ١٩ .

ونظيره قوله :

تَبَصَّرْ ، خَلِيلي ، هل تَرَى من ظَعَائنٍ   كما زالَ ، في الصُّبحِ ، الأَشاءُ الحَوامِلُ (١)

" الأَشاءُ : النَّخلُ . واحدتها أَشاءَةٌ . وزالَ : تحرَّك . . كما زالَ أي : كما لاحَ وتحرَّك . يقول : نَظَرَ إلى الأَشاءِ ، وهو النَّخلُ الصِّغارُ ، في الصُّبح وهو يمشي ، فظَنَّ أنَّها تمشي معه . " (٢)

السؤال للتمني ، وهو نفس الموقف السابق ، وهو الشعر عينه ، فمسألة الظعائن وهم من وهم ، ولكنّ الشاعر حينما تعظم عليه مواجده يرى صور الوهم وكأنَّها حقائق ماثلة ، ويدعو صاحبه لتبصّرها وتحديد أماكنها :

نَشَزْنَ . من الدَّهناءِ ، يَقطَعْنَ وَسْطَها   شَقائقَ رَملٍ ، بَينَهنَّ خَمائلُ (٣)

فلمّا بدت ساقُ الجِواءِ ، وصارَةٌ   وفَرْشٌ ، وحَمّاواتُهنَّ ، القَوابلُ

طَرِبتَ ، وقال القَلبُ : هل دُونَ أَهلِها   لِمَن جاوَرَتْ ، إلا لَيالٍ ، قَلائلُ ؟

وقريب منه ، قوله :

تَبَيَّنْ ، خَلِيلي ، هَل تَرَى من ظَعَائنٍ   بِمُنعَرَجِ الوادي ، فُوَيقَ أَبانِ ؟ (٤)

وهو مما سبق ، إلا أنَّ الموقف هناك سبق بكلام فيه دلالة جلية على أنَّ ذلك قد مضى منذ زمن ، وأنَّ المرابع التي يصفها الشاعر

---

(١) ٢٤ : ٥ ، ص ٢١٤ .   (٢) ص ٢١٤ .

(٣) ٢٤ : ٦-٨ ، ص ٢١٥ .
" نَشَزْنَ : ارتفعن . يعني : بالظعائن ارتفعن من الدَّهناءِ . والدَّهناءُ : أرضٌ لتميم واسعة فيها رمل . . والشَّقيقةُ : رملةٌ مستطيلة . . خمائل : رملٌ أيضاً رقيق يُنبِت السِّدرَ . والخميلة : رملٌ فيه شجرٌ " . ص ٢١٥ .

(٤) ٤٩ : ١ ، ص ٢٦٦ . " مُنعرجُ الوادي : حيثُ ينعرج ، أي : ينعطفُ " . ص ٢٦٦ .

انتهت جميعها ، وأنّ شدة توقه إلى هذه الصاحبة هو الذي صنع هذه الصورة ، أمّا هنا فالأمر قائم على احتمال كون ذلك وقت رحلة فعلاً ، وأتى الاستفهام فيه مفيداً التمني أيضاً ،تمني أن يرى الصاحب معه ما يراه وإن كان بعيداً .

وفي قوله :

يَاصَاحِبَيَّ ،انظُرا ،والغَوْرُ دُونَكما : هل تَبدُرنَّ لنا ،فيما نَرَى ،الجُمُدُ[(١)]

" الغور: ما انخفض من الأرض "[(٢)] . " الجُمُدُ : أصغر الآكام يكون مستديراً صغيراً "[(٣)] .

الاستفهام للحيرة والتدله والتمني ،وهو هنا طلب المستحيل ، وأنّه لفرط ما يجد يتوهم غير الحاصل حاصلاً ،وهو على ذلك قريب من " تبصّر خليلي " وفيه يخدع الشاعر نفسه ويقول لصاحبه " انظر" ، ويستفيق بعده قليلاً ،قائلاً :

هَيهاتَ ،هَيهاتَ ،من نَجْدٍ وساكِنِهِ مَن قد أتَى دُونَهُ الهَفْنَاءُ ،والثَّمَدُ[(٤)]

ومن الاستفهام للتمني أيضاً ،قوله :

فقُلتُ ،والدّار أحياناً يَشُطُّ بها صَرْفُ الأميرِ ،على مَن كانَ ذا شَجَنِ[(٥)]

لِصاحِبَيَّ ،وقد زالَ النَّهارُ بنا : هل تُؤنسانِ ،ببَطنِ الجَوِّ ،مِنظُعنِ ؟

---

(١) ٢٢ : ٨ ، ص ٢٠٢ .

(٢) ابن منظور (لسان العرب) ٥ : ٣٣١٣ (مادة : غور) .

(٣) (المصدر السابق) ١ : ٦٧٤ (مادة : جمد) .

(٤) ٢٣ : ٩ ، ٢٠٢ .

(٥) ٦ : ٤-٥ ، ص ٩٦-٩٧ .

على الرغم من اتفاق نظام التركيب في النموذجين الأخيرين : " هل تبدُرنّ .." و "هل تؤنسان .." ،فإنّك تلحظ فرقاً جوهرياً بين الحالين أوما إليه الشاعر بفارقة أسلوبية محدودة هي التوكيد حيث قال هناك " تبدُرَنَّ " وقال هنا " تؤنسان " ،ولأجل استكشاف المعنى المستكن وراء هذه الفارقة تلزم العودة إلى القصيدتين . وبقراءة الأبيات السابقة لـ " هل تبدُرَنَّ " نلحظ سرّ ذلك التوكيد :

هل في تَذكُّرِ أيّام الصّبا فَنَدُ ؟   أم هل لِما فاتَ ،من أيّامِهِ ، رَدَدُ ؟(١)

أم هل يُلامنَّ باكٍ ،هاجَ عَبْرَتَهُ   بالحِجْرِ ،إذ شَفَّهُ الوجدُ الذي يَجِدُ ؟

أَوفَى على شَرَفٍ ،نَشْزٍ ،فأَزعَجَهُ   قَلبٌ ،إلى آل سَلمَى ،تائقٌ كَمِـدُ

يتحدث الشاعر عن مشاعر خاصة هي تذكره أيام الصّبا ،ويخاطب من يلومه عليها ،وكأنَّ اللحظات الأولى عادت وعاشها مرّة ثانية ولِيم ، فقال : " أم هل لما فات من أيامه ردد ؟ " و " أم هل يُلامنَّ باك ، هاج عبرته " ،مؤكِّداً مدخول هل وواصفاً لذلك الموقف النفسي الخاص الذي يعيشه بعد ما شفّه الوجد فأهاجه ،وبناء عليه فهو كلام صادر من نبع خاص هو تلبّسه بالحالات الشعورية الأولى ،وقوله بعد ذلك " " أوفى على شَرَف " أي : لاذ بالعزلة ،ولا يطلب الإنسان العزلة على هذا الشرف النشزِ إلا إذا كانَ قد كربه كرب أزعجه ، و " قلب تائق " نبع آخر صادر عن موقف خاص ،ثم ما نلحظه في الأبيات بعد ذلك من عُلوّ نبرة التوكيد بـ " إنّ " و " ما وإلا "(٢) ، إلى أن يقول : " يا صاحبيّ انظرا .." ولم يقل : " فقلت " وكأنّه يعيد اللحظة ،

---

(١) ٢٢ : ١-٣ ،ص ٢٠١ .   (٢) ٦ - ٧ ، ص ٢٠٢ .

ومن هنا كان التوكيد متواتراً ومتناسقاً مع هذا الإحساس الأكثر توهجاً ومع تسلسل الكلام من نبع خاص في وجدان الشاعر ،وهو وصفه لأحوال نفسه وشدة وجده وتوق قلبه : " قلب تائق ، فأزعجه ، شفّه الوجد ".

بينما الموقف في القصيدة الأخرى (١) فيه حديث عن المنازل والأعوام التي خلت ،وليس حديثاً عن مشاعر كما هو هناك ولا يغفل ذلك الإحساس بفتور الموقف في القصيدة بقوله :

لآل أسماءَ إذ هام الفؤادُ بها حيناً ،وإذ هي لم تَظْعَنْ ،ولم تَبِنِ

فهو موقف خارجي ،وكلمة " حيناً " هذه تنبئ عن زمن وموقف قد انتهيا لا يعيشهما الآن وإنّما يقصهما، وهو هناك في القصيدة الدالية يعيش الموقف ثانية ،وهذا هو الفارق الجوهري بين الحالين ؛ في القصيدة النونية يقصّ موقفاً وأحداثاً مضت ، وفي الدّالية يعيش الموقف مرّة ثانية ، ولذا ناسبه التوكيد الذي نشأ من شدة الإحساس بالمعاني ، لأنّ الإنسان إذا عظمت معانيه في نفسه حاول أن يفرغ عليها ألواناً من التوكيد .

بيد أنّ هذه الصياغة المتحدة - غالباً - والتي تكررت في الديوان أكثر من مرة ، والتي جرت في ذكر الظعن مفيدة التمني - جرت في سياق آخر مغاير تماماً في بيت واحد ، هو قوله :

وصاحبٍ ،كارهِ الإدلاجِ ،قُلتُ لهُ :
يا انهضْ خَلِيلِي تَبَيَّنْ هل تَرى السَّدَفا ؟ (٢)

" السَّدف في هذا الموضع : الضَّوء . وفي غيره . الظُّلمة .
يقال : خرج في سُدْفةٍ من الليل ،أي : ظُلْمةٍ . يا انهضْ : يريد : ياهذا انهَضْ " (٣)

---

(١) ٦ : ١-٣ ، ص ٩٦ .
(٢) ٤٧ : ١ ، ص ٢٦١ .
(٣) ص ٢٦١ .

أراد الشاعر أن يفيق صاحبه ،وأن ينزعه عن نومه لمواصلة الرحلة ،والاستفهام للتقرير بمعنى التحقيق ،وفيه إظهار لضيق الشاعر من نوم الصاحب ، وليس في ذلك قدحٌ للأخير ، لأنَّ زهيراً أراد الإخبار عن الأدواء التي أصابت صاحبه لطول ما كابد ،أمّا هو فقد كان موفور القوة والنشاط على عادة الشعراء في مثل هذا المعنى .

ومما جاءت فيه " هل " مفيدة التمني ،وصيغت في نظـــام تركيبي آخر ، تكرّر في الديوان ،قوله :

هل تُبْلِغَنِّي ،إلى الأخيارِ ،ناجيةٌ تخدي كوَخْدِ ظَليمٍ ،خاضبٍ ،زَعِرِ (١)

الاستفهام بـ "هل " في فاتحة القصيدة هنا للتمني ،وكأنَّـــه لشدة رغبته يستبعد تحقيق هذه الأمنية ،ومما يرشِّح معنى التمني فـــي " هل " ،وصفه لهذه الناقة التي يتمنى أن تصل به إلى من يريد ، فهي ناجية سريعة نشطة قوية ، وهي تشبه ظليماً خاضباً زعراً في يـــوم دجن يوالي الشد في عجل خيفة المطر ،وكأنَّ هناك عوامل لهـــذا الظليم تحفزه على السرعة ،وكلّ هذه العوامل مرشِّحة لرغائب زهير التي دفعته إلى هؤلاء الأخيار ،فيذهب إليهم مكدوداً ذا رغائب.

وقوله :

هل تُبْلِغَنِّيها ،على شَحْطِ النَّوَى ، عَنَسٌ ،تَخُبُّ بي الهَجِرَ ،وتَنعَبُ ؟ (٢)

" شحط " ،" الشَّحْطُ والشَّحَطُ : البُعْدُ " (٣) ، " النوى " :" الوجه الذي تَقْصُدُه " (٤) ، " العَنَسُ : الناقة القوية " (٥) "تخب" ،" الخبب :

---

(١) ٢٩ : ١ ،ص ٢٣٢ . (٢) ٥٣ : ٥ ،ص ٢٧٦ .
(٣) ابن منظور (لسان العرب) ٤ : ٢٢٠٦ (مادة : شحط) .
(٤) (المصدر السابق) ٦ : ٤٥٨٩ (مادة : نوى) .
(٥) (المصدر السابق) ٤ : ٣١٢٩ (مادة عنس) .

ضرب من العدو .. وقيل الخبب : السرعة[1] " الهجير"، " والهجْر والهاجِرة : نصف النهار عند اشتداد الحر ."[2] "تنعب": "النَّعْبُ: أن يُحرِّكَ البعيرُ رأسَهُ إذا أسْرَعَ ،وهو من سير النجائب ، يرفع رأسَهُ ، فينعَبُ نَعَبانا " .[3]

الاستفهام بـ " هل " للتمني ، إلا أنّ ما يرشح التمني هنا قوله : " على شَحْطِ النَّوى" ،أي : على بعد المسافة والوجهة التي قصدوا ، ثم قوله : "عَنسٌ " ، هذه صفاتها ، وهو مما يقوي الأمل . ولعلّها تئول بعد هذا وذاك في جملتها إلى معان تجاذبت وأخذت تمور في نفس الشاعر ،هي : الأمل واليأس والاستبعاد والشوق .

ومثله ، قوله :

هل تُلحِقَنّي وأصحابي ، بهم ،قلُصٌ ؟
يُزْجي أوائلَها التَّبغيلُ ،والرَّتَكُ[4]

ومن معاني الاستفهام التقرير أو الإنكار ،وهو الاستفهام الداخل على النفي ،وقد جاء ذلك في أنماط متشابهة كما ذكرت ،كقوله :

ألم تَرَ أنَّ النّاسَ تَخلُدُ بعدَهُم أحادِيثُهُم ،والمرْءُ ليسَ بخالِدِ[5]

وهذا التركيب " ألم تر .. " في ضوء استعمالات زهير للصياغات المتحدة أتى في سياق الحكمة المستخلصة من مواقف وتجارب

---

(١) (المصدر السابق) ٢: ١٠٨٥ . (مادة خبب).

(٢) الجوهري (الصحاح) ٢: ٨٥١ . (مادة : هجر).

(٣) ابن منظور (لسان العرب) ٦: ٤٤٧٠ .(مادة نعب).

(٤) ٩: ٧ ، ص١٢٩ .

(٥) ٣٣: ٨ ، ص٢٤٢ .

ومعان ،أراد زهير من خلالها - وبهذه اللغة المستحسنة - لَفْتَ ذهن السامع إليها وتقريرها في نفسه ،وهي قطعاً تئول إلى الإثبات الذي يستخرج من نفس السامع وعقله .

وقوله :

أَلَيسَ بضَرّابِ الكُماةِ ، بِسَيفِهِ وفَكّاكِ أغلالِ الأسيرِ ،المُقيَّدِ ؟ (١)

وقوله بعد ذلك في نفس القصيدة :

أليس بفيّاضٍ ،يداه غَمامـةٌ ثِمالِ اليَتامَى ،في السِّنِينَ ،مُحَمَّدِ ؟ (٢)

يريد : هوضَرّابٌ ،وهوفيّاضٌ ،تقريراً بمضمون ما دخل عليه النفي ،وهو أنّه فيّاض وانه ضراب وهو بذلك إنما يلجىء الناس إلى قول هو كذلك في موضع الامتداح لهذا السيد الجليل .

وظاهرٌ أنّ الاستفهام في هذه الشواهد يمكن أن يكون للإنكار، أي النفي ،ونفي النفي إثبات ،و يمكن أن يكون لتقرير المخاطب بما يعرفه من مضمون الكلام .

وقد يفيد الاستفهام : التحقيق والتقرير ،ومنه الاستفهام بالهمزة في قوله بعد أن شبه الناقة بالظليم :

أذلِكَ ،أم أقَبُّ البَطْنِ ،جأْبٌ عَلَيهِ ،مِنْ عَقيقَتِهِ ،عِفـاءُ ؟ (٣)

أي : أهي كذلك ؟ ، ثم أضرب عنه بعد تحقيقه وتثبيته بقوله " أم " ، و " أم " بمعنى " بل " و " الهمزة " ،أي : أهي كذلك

---

(١) ١٤ : ٣٣ ،ص١٦٨ . " واحد الكُماة كَمِيٌّ . وهوالذي يَكمِي شجاعتَه . يكتُمها . ومنه كَمَى شهادته إذا كتمها." ص١٦٨ .

(٢) ١٤ : ٣٧ ،ص١٦٩ . "يقال : فلان ثمالُ أهلِ بيتِهِ ،إذا كان يُطعمهم في السِّنين الشِّداد . ويقال : ثَمَلَهم يَثْمُلُهم . وغَمامةٌ: سحابةٌ . و محمّدٌ : محمودٌ . وفيّاضٌ : يفيضُ عليهم." ص١٦٩ .

(٣) ٣ : ١٧ ،ص٥٩ .

بل أهي أقب البطن ... ؟ ، وبيان ذلك أنه بعد تشبيهه الناقة بالظليم وذكر أوصافه أكد ذلك ، ثم استأنف تشبيهاً آخر لها ، وما يلحظ أنه حين فعل ذلك كان تشبيهه الثاني أسخى وأقوى وأكثر تنوعاً وأطول نفساً وأبعد امتداداً وأدل على قوة الناقة (١) .

ومنه قوله بعد أن شبه الناقة بالحمار :

أفذاك ، أم ذو جُدَّتَينِ ، مُوَلَّعٌ ... لَهَقٌ ، تُراعيه بِحَومَلَ رَبْرَبُ ؟ (٢)

أى : أهي كذلك ؟ ، والاستفهام للتقرير والتحقيق ، ثم استأنف تشبيهاً آخر ، إلا أنه لم يكن كالتشبيه في الأبيات السابقة في النموذج الماضي الذى كان أطول امتداداً ، ومن هنا كانت انتقالته الى تشبيه آخر أقل تنوعا ، ولعله لون من الإحساس بوفاء التشبيه أو الصورة السابقة على ما بعدها ، فآثر عدم الطول (٣) .

وأتى الاستفهام للتسوية في قوله :

سَواءٌ عليه أىَّ حِينٍ أتيتَهُ ... أساعةَ نَحْسٍ تُتَّقى ، أم بأسعُدِ ؟ (٤)

يقول : لا تؤثر الحالة التي عليها الممدوح في عطائه ومكارمه ، فهو كريم فاضل محمود في أى وقت تلقاه ، وطبيعة الكرم عنده أقوى من عوارض النفس كالرضا والغضب . والسياق يقتضي تقديم ساعة النحس ، فكونه محمود اللقاء ساعة النحس أمدح له ، وهو أصل المعنى في البيت ومناطه ، مع ملاحظة أن ساعة الأسعد لا يحمد الرجل فيها بطيب الملتقى ، فالشأن فيها أن تبعثه على هذا الطَّيِّب وإن كان بخيلاً . وعليه فمناط الفائدة كرم لقياه ساعة النحس ، وإنما ذكر ساعة الأسعد ليسوّى بها ساعة النحس ، فهي كالشيء يذكر لتتم به الفائدة .

---

(١) اقرأ هذا الافتنان في الأبيات ١٧ - ٣١ ، ص ٥٩ - ٦٤ .

(٢) ٥٣ : ٢٩ ، ص ٢٧٩ .

(٣) راجع بقية التشبيه في الأبيات : ٢٩ - ٣٣ ، ص ٢٧٩ .

(٤) ١٤ : ٣٢ ، ص ١٦٨ .

ومن معاني الاستفهام التي جاءت في شعر زهير : تجاهل العارف ، في قوله :

وما أدري ، وسوف ، إخالُ ، أدري :
أقومٌ آل حِصْنٍ ، أمْ نِسَاءُ ؟ (١)

دخلت همزة الاستفهام على الخبر المقدم ، والمقصود بها المبالغة في الذم والتشهير بالقوم ، وهو من باب تجاهل العارف ، يرشّحه قوله في الشطر الأول : " وما أدري " نافياً عن نفسه الدراية ، ثم قوله : " وسوف إخال أدري " أي : وأظنني سوف أدري ، فالمعنى الكائن ها هنا فيه شيء أقرب ما يكون الى التلاعب ، ولكنه من جانب آخر مهيئ لشرعية الاستفهام بعده ، وكأنَّ الشطر الأول تمهيد لمعنى تجاهل العارف الوارد في الشطر الثاني .

ومن معانيه : الاستبطاء والتلهف ، كما في قوله :

جَرَتْ سُنُحاً ، فقُلتُ لها : أَجِيزِي نَوًى مَشْمُولَةً ، فمتى اللِّقاءُ ؟ (٢)

" السانحُ : ما جاءكَ عن يَمِينكَ يريد شِمالك ، والبارحُ : ماجاءك عن يسارِكَ يريدُ يمينَكَ ... أجيزي : انفُذِي ... " مشمولة " يريد : سريعة الانكشاف . أخذه من أنَّ الريحَ الشَّمال اذا كانت مع السّحابِ لم يلبث أن يذهب . " (٣)

" متى اللقاء ؟ " استبطاء لزمن التلاقي ، واستطالة لزمن الفراق ، واظهار الرغبة في اللقاء واللهفة عليه .

---

(١) ٣ : ٢٤ ، ص ٦٥ .
(٢) ٣ : ٧ ، ص ٥٤ .
(٣) ص ٥٤ - ٥٥ .

ومثله :

متى تُرى دارُ حَيٍّ ، عهدُنا بهِمُ حيثُ التقَى الفَورُ ، من نَعمانَ ، والنَّجُدُ ؟ (١)

يرى أن ذلك بعيد ، وفي طي هذا الاستبعاد استطالة لزمن الفراق ، وفيه شوب من التمني .

وأتى الاستفهام مفيدا التعظيم ، كما في قوله :

هَلاّ سألتَ بَني الصَّيْداءِ ، كُلَّهُمُ : بِأَيِّ حَبْلِ جِوارٍ ، كنتُ أمتَسِكُ ؟ (٢)

أراد أنه كان يمتسك بحبل متين ، فالاستفهام للتعظيم ، ويرشحه قوله في البيت التالي له :

فلن يَقُولُوا : بِحَبْلٍ ، واهِنٍ ، خَلَقٍ لو كانَ قومُكَ في أسبابِهِ هَلَكُوا

كما أتى مفيدا التعجب والاستعظام ، في قوله :

أنَّى قَطَعتِ ، وأنتِ غيرُ رَجيلةٍ ، عَرْضَ الفَلاةِ ، وأينَ منكِ المَطلَبُ ؟ (٣)

" أنَّى " بمعنى " كيف " ، والشاعر هنا يخاطب الطيف ، قائلا : كيف قطعتِ عرض الفلاة وأنتِ غير قوية على المشي وغير جلدة ، فالاستفهام فيه تعجب ، وسر بلاغته أنه مبنيٌّ على إيهام أن الذى طرق وتأوّب هو الشخص نفسه . أما الاستفهام الثاني في قوله : " أين منك المطلب ؟ " ففيه غاية اليأس والاستبعاد مع إحداث لون من المخاتلة بين الحقيقة والخيال ، وإيهام أن هذا الخيال حقيقة ، وكأن المطلب قد دنا .

وأتى الاستفهام للتنبيه على الضلال ، في قوله :

تَعَلَّمَنْ ، ها ـ لَعَمْرُ اللهِ ـ ذا قَسَماً فاقصِدْ بذَرعِكَ ، وانظُرْ أينَ تَنسَلِكُ ؟ (٤)

---

(١) ٢٢ : ٤ ، ص ٢٠٢ .

(٢) ٩ : ٢٥ ، ص ١٣٥ .

(٣) ٤٥٣ ، ص ٢٧٦ .

(٤) ٩ : ٣١ ، ص ١٣٧ .

الاستفهام تنبيه على ضلال ،فالحارث بن ورقاء في امتساكه يسارا إنما يسلك بنفسه وقومه طريقا مَهْلَكَةً ، فقد أحاط بهم شعر زهير الذي يُدنِّس أعراضهم .

ومن الاستفهام المراد به معناه الحقيقي ، قوله :

فمن مُبْلِغُ الأحلافِ ،عَنّي ،رِسالةً وذُبْيانَ : هل أقسمتُمُ كُلَّ مُقْسَمِ ؟ (١)

" الأحلاف : أسَدٌ وغَطَفانُ ، وهل أقسمتُم كلَّ مُقْسَم أي : كلَّ الإقسامِ لتفعلُنَّ ما لا ينبغي " (٢).

" من مبلغ ؟ .. " استفهام حقيقي ،يحمل وراءه معنى الحث وتنهيض الهمة ،كما يشير إلى غضب زهير على الأحلاف لغفلتهم وتهاونهم ، وهو يهتف بواحد فقط " مبلغ " الأحلاف عنه رسالة ،فالناس حوله الظاهر من أمرهم سكوتهم عن هذه الحرب وما تجره من ويلات ،ولهذا كان الاستفهام ليذكر ويحث الهمة وينبه إلى ما أهمل من ضرورة الحفاظ على العهود . وقوله : " هل أقسمتم ..؟ " فيه تعجب من حالهم ، وتذكيرهم بهذا القسم الذى حنثوا فيه ،وتشهير بهم .

ومن الاستفهام الحقيقي أيضاً ، قوله يمدح حِصنَ بن حُذَيفةَ :

يفدنيه طَوراً ،وطَوراً يَلُمْنَهُ وأعْيا ، فما يَدْرين : أينَ مخاتِلُهْ ؟ (٣)

" أى : لا يدرين أين الأمر الذى يختلنه فيه ،أى : كيف يخدعنه " (٤).

" أين مخاتله ؟ " استفهام حقيقي عن الطريق الذي يمكن لعواذل الممدوح أن يسلكنه حتى يمنعنه عن الانفاق الذي بلغ حد السَّرف .

---

(١) ١ : ٢٦ ، ص ٢٦ .
(٢) ص ٢٦ .
(٣) ٧ : ٣٦ ، ص ١١٢ .
(٤) ص ١١٢ .

والاستفهام دال على الحيرة ، لأنّ السؤال الحقيقي سؤال فيه حيرة ، ووراء كل هذا الإشارة الى طبيعة الكرم المستحكمة في هذا الممدوح ،والتي أعيت من يعذلنه ويحاولن كفه عن هذا الكرم.

ومثله ،والاستفهام فيه بالهمزة ، قوله :

وقال أميري : ما تَرَى ،رأْيَ ما تَرَى أنختِلُهُ عَن نَفْسِهِ ،أم نُصاوِلُهْ ؟ (١)

" أميره : الذى يُؤامِرُه . ما ترى رأْيَ ما ترى في الصيد ؟
أى : قد رأينا كذا وكذا ، فما ترى فيه ؟ ونختِلُه : نُخَادِعُه . أمنُصاوِلُه : نُجاهِرُه ." (٢)

" أنختله " استفهام حقيقي ،ومعه الحيرة والتردد وهما من حقائق معنى الاستفهام . وفرق بين الحيرة المصاحبة للاستفهام الحقيقي ، والحيرة التي هي مقصد الاستفهام ،لأنّ المتكلم في الأخيرة يعرف المسئول عنه ، وإنما أراد إظهار الحيرة ،كقوله :

* أمِن أُمِّ أوفَى دِمْنَةٌ ،لم تَكَلَّمِ *

أما هنا ،فالموقف موقف صيد ومخاتله ،موقف يحكمه طابع التردد بين أمرين ،والشطر الأول يومئ إلى هذا التردد : " ما ترى رأي ما ترى ". ولا تغفل الدلالة النفسية في " نختله " أي : نخدعه عن نفسه ونأخذه بها ، و " نصاوله " أي : نجاهره ، فكأنّ الاستفهام هنا تخيير بين أمرين ، الأول فيهما : استعمال الحيلة والدهاء والمخاتلة . والآخر: المواجهة الصريحة والمصاولة البيّنة ، فإمّا أن يصيد بعقل وحكمة

---

(١) ٢ : ١٧ ،ص ١٠٦ .

(٢) ص ١٠٦-١٠٧ .

أو يصيد بسلاح وقوة . نعم ،الاستفهام هنا حقيقي ،ولكنه شارك في رسم دقائق الصورة الحية المتضمنة في البيت.

وأشير في نهاية هذا البحث الى نص ذكره الشيخ عبد القاهر(١) حول تفسير الاستفهام الدال على الإنكار : " واعلم أنا وإنْ كنا نُفسِّر " الاستفهام " في مثل هذا بالإنكار ،فان الذى هو مَحْض المعنى : أنه ليتنبه السامعُ حتى يرجع الى نفسهُ فيخجلَ ويرتدعَ ويعيا بالجواب" وفي هذا النص فهم مهم جدا ،وهو أن الاستفهام لا يعتبر دالاً على الإنكار ،وإنما يعتبر دالاً على التنبيه ،وهذا التنبيه يقود الى الإنكار.

وبعد ، فقد بدا من الدرس السابق لمعاني أدوات الاستفهام عند زهير كثرتها في شعره ،وهي -مع هذه الكثرة- لا تكاد تأتي في معناها الاصْلي إلا قليلاً . وكانت أكثر المعاني دوراناً النفي والتمنى والحيرة والتدله ،وأقلها التسوية والتعظيم وتجاهل التعارف والتنبيه على الضلال والتعجب والتكثير . وكانت أكثر الأدوات تردداً " الهمزة" التي تكاثرت في معاني الإنكار التقريرى والحيرة والتدله والإنكار التوبيخي والتقرير .

ثم "هل " التي كثر دورانها في شعره دالة على التمنى دلالة لم تتنوع بها أداة الاستفهام ،حتى إنها لتكاد تمثل ظاهرة أسلوبية عنده في طبيعة استعمالها من حيث تكررها على نمط تركيبي خاص ، كما أتت مفيدة الإنكار التكذيبي " النفي " والتقرير والتحقيق . ثم "من " التي وردت في معنى الحيرة والتدله على نحو بين . ثم "أين" مفيدة النفي وكذلك " كيف ". وكانت أقل الحروف جرياناً " أنّى " و "أي " و " كم " . ووقع الاستفهام في فاتحة القصائد بـ "الهمزة " و "هل " و " من " خاصة مفيداً التدله والحيرة والانكار توبيخياً كان أو تكذيبياً . كما أتى متتابعاً في قصيدة واحدة على نحو يمثل وحدة في المعنى والموقف بـ " هل " خاصة.

---

(١) (دلائل الإعجاز) ص١١٩ .

ثانياً : الأمـــر:

ويحاول البحث في الأمر تجلية طبيعة استعمال زهير له ، والمعاني التي أودعها صيغة الأمر وجعلها دالة عليها . ولذا ، فإنّ البحث فيها سيكون منصباً على جانبين ، أحدهما : النسق التركيبي والأنماط المتشابهة التي جرت فيها ، وتكمن أهمية معرفة الأنماط المتشابهة مع صيغة الأمر خاصة - ليس فقط في إدراك طبيعة استعمال زهير لها ، وإنما تمتد لمسألة أكثر أهمية ، وهي أن مثل هذه الصياغات المتشابهة تجرى في سياقات مختلفة فتتباين المعاني ، وهو كلام أشار إليه الدكتور محمد أبو موسى : " إنه لا بد من تأمل السياق لأنه هو الذى تستمد منه الصيغة دلالتها ، فقد ترى التركيب يجرى في سياقين ويفيض بمعنيين متباينين " (١).

وهذه المسألة تقود إلى الجانب الثاني في هذا البحث ، وهو: المعاني السياقية للأمر عند زهير ، وأبرز الظواهر الأسلوبية في ضـوء استخدامها ، وفيه نتبين حدود المعاني التي ذكرها زهير ، هل وقفت عند حدود المعاني التي شهرت عند البلاغيين ؟ أم تجاوزتها إلى غيرها ؟ وإن تجاوزتها فإلى أي حد ؟

١ - الأنماط المتشابهة :

تجيء صيغة الأمر في مواقع عديدة عند زهير واقعة في حيز مقول القول ، إلا أن وقوعها في هذا الموقع مختلف في بنيتها التركيبية ، منها مجيئها مسبوقة بـ "يا" النداء ، مثل قوله :

قُلتُ لَها : يا ارْبَعِي ، أَقُلْ لكِ في ... أَشياءَ ، عِندِي مِن عِلمِها خَبَـرُ (٢)

---

(١) (دلالات التراكيب) ص ٢٦٣ . (٢) ٢٨ : ٤ ، ص ٢٢٩ .

الأمر هنا "اربعي أقل، لك في أشياء" ، وهو من حيث التركيب النحوي مقول القول ، ثم هو مسبوق بـ "يا" ، ومثله :

وصاحبٍ ، كارهِ الإدلاجِ ، قُلتُ لهُ : يا انهضْ خليلي ، تبيَّنْ هل ترى السَّدَفا؟ (١)

النظام التركيبي واحد : أمر مسبوق بـ "يا النداء" ، وهذا الأمر مقول للقول .

ومن الأنماط المتشابهة مجيئها مقولاً للقول من غير أن تكون هناك هذه الياء ، كقوله :

فقُلنا لهُ : سَدِّدْ ، وأبصِرْ طَرِيقَهُ وما هُوَفيهِ ، عَنْ وَصاتِيَ ، شاغِلُهْ (٢)

وقُلتُ : تَعَلَّمْ أنَّ للصَّيدِ غِرَّةً وإلّا تُضَيِّعْهُ فإنَّكَ قاتِلُهْ

وقوله :

فنَهْنَهَها ، ساعةً ، ثُمَّ قا ل ، للوازعيهن : خَلُّوا السَّبيلا (٣)

وقوله :

وعِندي مِنَ الأيّامِ ، ما ليسَ عِندَهُ فقُلتُ : تَعَلَّمْ أنَّما أنتَ حالِمُ (٤)

وقوله :

فقُلتُ لهُ : أنقِضْ ، بِصَحبِكَ ، ساعةً فهَبَّ فَتًى ، كالسَّيفِ ، غَيرُ مُزَلَّجِ (٥)

وقوله :

أقُولُ للقَومِ ، والأنفاسُ قد بَلَغَتْ دُونَ اللَّها ، غَيرَ أنْ لم يَنقُصِ المَدَدُ : (٦)

---

(١) ٤٧ : ١ ، ص ٢٦١ .
(٢) ٧ : ٢٢-٢٣ ، ص ١٠٨ .
(٣) ١١ : ١٣ ، ص ١٤٩ .
(٤) ٤٢ : ٤ ، ص ٢٥٥ .
(٥) ٣٢ : ١٤ ، ص ٢٣٨ .
(٦) ٢٢ : ١٨ - ٢٠ ، ص ٢٠٣ .

سِيرُوا إلى خيرِ قيسٍ ،كُلِّها ،حَسَباً   ومُنتَهى مَنْ يُريدُ المجدَ ،أو يَفِـدُ

فاستَمطِرُوا الخَيرَ ،من كَفَّيهِ ،إنّهما   بسَيبِهِ يَتروَّى ،منهما ،البَعُـدُ

كل هذه الصور الأمر فيها واقع موقعاً واحداً ،وهو : مقول القول مع تنوع معانيه واختلاف أغراضه .

ومن الأنماط المتشابهة : مجيء الأمر في فاتحة قصائد بصيغة واحدة ،كما في قوله :

أَبلِغْ بَني نَوفَلٍ عنّي ،فقد بَلَغتْ   مِنّي الحَفيظةُ ،لمّا جاءَني الخَبَرُ (١)

وقولـه :

أَبلغْ لدَيكَ بَني الصَّيداءِ ،كُلَّهُمُ   أنَّ يَساراً أتانا ،غيرَ مَغلُـولِ (٢)

وقـوله :

ألا أَبلِغْ لَدَيكَ بَني سُبَيـعٍ   وأيّامُ النَّوائبِ قد تَـدُورُ (٣)

وقولـه :

ألا أبلغْ ،لدَيكَ ،بَني تَميـمٍ   - وقد يأتيكَ ،بالنُّصْحِ ،الظَّنُونُ - (٤)

وهذا ضرب واحد من بناء هذه الصيغة ،ومن مجيئها غير مفتتح بها ، قوله :

فأبلغْ ،إنْ عَرَضتَ بهِ ،رَسُولاً   بَني الصَّيداءِ ،إنْ نَفَعَ الجِـوارُ (٥)

وقد استُعمل الأمر في صيغ متشابهة وسيلة من وسائل انتقال الكلام من غرض الى آخر ،في قوله :

---

(١) ٢٦ : ١ ،٢٢٤ .
(٢) ٢٧ : ١ ، ص ٢٢٦ .
(٣) ٤٠ : ١ ،ص ٢٥١ .
(٤) ١٠ : ١ ، ص ١٣٩ .
(٥) ٢٥ : ١٢ ،ص ٢٢٣ .

دَعْ ذا ،وعَدِّ القَولَ في هَـــرِمٍ خَيرِ الكُهُولِ ،وسَيِّدِ الحَضَـــرِ (١)

وقولـــه :

دَعْها وسَلِّ الهَمَّ عَنكَ ،بِجَسْرَةٍ تَنجُو نَجاءَ الأَخْدَرِيِّ ،المُفْـــرَدِ (٢)

وقولـه :

بلِ اذكُرَنْ خَيرَ قَيسٍ ،كُلِّها ،حَسَباً وخَيرَها نائلاً ،وخَيرَها خُلُقـــا (٣)

كما جاءت متداخلة مع أساليب انشائية أخرى ،ومصاحبة لها مصاحبة لازمة كصور الأمر المقترنة بصور الاستفهام ،مثل قوله :

* تَبَصَّرْ خَلِيلِي، هل تَرَى من ظَعائنٍ * (٤)

وقوله :

* تَبَيَّنْ ،خَلِيلِي ،هل تَرَى من ظَعائنٍ * (٥)

فهذه من الأنماط التركيبية المتشابهة : أمر يعقبه نداء بحرف نداء محذوف يعقبه استفهام ،وهكذا تجد صور الإنشاء متلاحقة . وقـد يتغير النظام كما حدث في قوله :

وصاحبٍ ،كارِهِ الإدلاجِ ،قُلْتُ لَهُ: يا انهَضْ خَلِيلِي تَبَيَّنْ هل تَرَى السَّدَفا؟ (٦)

حيث أتى حرف النداء لمنادًى محذوف هو " خليلي " أعقبه أمر "انهض " ، ثم منادى بحرف نداء محذوف " خليلي " ،ثم أمر " تبيـــن " ، ثم استفهام : "هل ترى السدفا؟ " . وهوتركيب ليس له نظير عند زهير.

وقوله :

يا صاحِبَيَّ ،انظُرا ،والغورُ دُونَكما : هل تَبدُوَنَّ لَنا ،فيما تَرَى ،الجُمُدُ (٧)

---

(١) ٤ : ٤ ، ص ٧٧ .
(٢) ٢١ : ٥ ، ص ١٩٥ .
(٣) ٢ : ١٧ ، ص ٤٦ .
(٤) ١ : ٧ ، ص ١٩ ، ٢٤ : ٥ ، ص ٢١٤ .
(٥) ٤٩ : ١ ، ص ٢٦٦ .
(٦) ٤٧ : ١ ، ص ٢٦١ .
(٧) ٢٢ : ٨ ، ص ٢٠٢ .

حيث قدم النداء على الأمر ،ثم أتى الاستفهام.

إنّ هذه الصيغ المتكررة في شعر زهير ،تأتي في خصائص أسلوبية مختلفة ،تجدها في تعريف الطرفين ،كما تجدها في اسم الموصول ،أو التقديم ، أو الاستفهام ،أواستعمال الضمائر .. ، وقد راجعت غير شعر زهير فرأيت أمثال هذه الخصائص بينة عند غيره أيضا ،وأحسب أن مثله وقع في آداب الأمم ،منه ما ذكره " ستانلي هايمن "(١) في حديثه عن "بلاكمور" الناقد حين ذكر الاستقصاء اللفظي في كتابه " ثمن العظمة " ، وأنه " حين يتحدث هنالك عن " املي ديكنسون" يعلن أن عبقريتها تتجلى " في الكلمات التي تستعملها وفي الطريقة التي تضع فيها الكلمات "... ثم يذهب في تحليلات لغوية مستفيضة ، فيعد المرات التي استعملت فيها لفظة " فسفور "وقرائنها .. .ويحلل موارد التشبيهات والاستعارات في فقرة فذة ... وأخيرا يتتبع مختلف الاستعمالات التي ترد فيها اثنتان من أحب الكلمات إليها وهما :" قطيفة " و "أرجوان " ... ولما راجع شعر " لورا رايدنغ " لحظ كيف تسيطر عليها الكلمات المنفية المسلوبة " غير محب ، غير ناعم ،لا حياة ..." حتى ان بعض الصفحات لتحوى خمس عشرة صورة من صور السلب " .

٢ - معاني الأمر وأبرز الظواهر الأسلوبية المصاحبة له :

كثر دوران صيغة الأمر في مواضع عديدة من الديوان ،ولكنها لم تطو دلالة شعرية رائقة في معظم ما وقعت منه ،على ما سيرد . وأبدأ بأبرز الظواهر الأسلوبية في لغته عند تناوله لهذه الصيغة ،ولعل أكثر ما يميز أسلوب الأمر مجيئه مصحوبا بعناصر انشائية أخرى ،والتلازم

----

(١) (النقد الأدبي ومدارسه الحديثة) ٢: ١١-١٢ .

بين العناصر الأسلوبية ظاهرة بارزة في شعر زهير ، وسوف نحافظ في تحليلنا على هذا التلازم ، ولن نعزل بعضها عن بعض ، وهذا التداخل أو التلازم بين الأساليب الانشائية يشيع - في سياق ذكر الصاحبة ، وهو كثير فيه - جواً من التدله والتوتر والحيرة والتمني ، فضلاً عن أن الشأن فيها كونها من الأساليب التي فيها طلب وإثارة وحث . وتأمل قوله :

يا صاحِبَيَّ ، انظُرا ، والغَورُ دُونَكما: هل تَبدُرَنَّ لنا ، فيما نَرَى ، الجُمُدُ (١)

ترى النداء والأمر مقدمة لـ " هل تَبدُرَنَّ " ، والاستفهام فيه تركيز الحيرة ، وقد قالوا : إن مما يقوى به أسلوب الأمر وقوعه بعد النداء ، لأن النداء في جوهره إثارة للانتباه ولفت للذهن ، وعندما يأتي الأمر بعده يجد النفس وقد تهيأت لقبوله ، فيقع منها موقعا حسنا . ومثل هذا أنماط تركيبية أخرى مشابهة لها ، كما ذكرنا (٢) .

ومن أبرز الظواهر : استعمال صيغة الأمر في مواضع انتقال الكلام من غرض الى آخر ، أي : أسلوب من أساليب الفصل في الشعر الجاهلي ، وهذه هي وظيفتها الأسلوبية في هذا المقام ، ولكن بجانب هذا يلحظ فيها شيء من الدلالة على العناية بالكلام اللاحق عن السابق ، ثم هي من حيث دلالتها على انتقال الكلام من غرض الى آخر قريبة من أسلوب الاستفهام في مثل قوله :

أذلكَ ، أمْ أقَبُّ البَطْنِ ، جَأْبٌ عليهِ ، من عَقيقَتِهِ ، عِفاءُ ؟ (٣)

ومن صورها ، قوله :

دَعْها ، وسلِّ الهمَّ عنكَ ، بِجَسْرةٍ تَنجو نَجاءَ الأخْدَرِيِّ ، المُفْرَدِ (٤)

---

(١) ٢٢ : ٨ ، ص ٢٠٢ .

(٢) انظر - قبل - ص ٣٠٤ .

(٣) ٣ : ١٧ ، ص ٥٩ .

(٤) ٢١ : ٥ ، ص ١٩٥ .

"الجَسْرةُ : النّاقةُ السَّبْطةُ الطويلةُ ... والأخْدَرِيّ : عَيْرٌ، نَسبَه الى أخْدَرَ، وهوفَرَسٌ ضَرَبَ في الحُمُرِ. فنَسْلُه مَعرُوفٌ. والمُفْرَد : الفرد، لأنه وَحدَه."(١)

صيغة الأمر " دعها " تشير إلى رغبةالشاعرفي إفراغ نفسه ونفس سامعه لاستقبال الأمرالذى سيأتي بعد ذلك، فهي للدلالة على الحفاوة بما يأتي بعدها، وكأنه يقول : اصرف همك عن هذا الأمر لتتجه إلى ما هو أهم. ووجه الدلالة على ذلك أنه يأمر مخاطبه أونفسه بنسيان الذي مضى والاستيقاظ والعودة بالنفس من سباتها، وكأن انبعاث ذكرياته وماضيه وشوقه إلى هذا الماضي وقد حال الزمان والمكان- هو الذي دعاه إلى الانتقال إلى أمرآخر يبعد به شجى نفسه، فقال " وَسَلِّ الهمَّ عنكَ بِجَسْرةٍ " ، وهو أمر بتسلية الهم، ومعناه أن الرحلة أمر له خطره.

ومثله قوله :

دَعْ ذا، وعَدِّ القولَ في هَرِمٍ خَيرِ الكُهُولِ، وسَيِّدِ الحَضَرِ(٢)

" دَعْ ذا " و " وعَدِّ " أسلوب يرد عند مقطع كلام، ينهي المقطع الأول بأمر، ويبدأ المقطع الثاني بأمر. إن هذين الأمرين اللّذين ينهي بهما كلاماً ويستفتح بهما كلاماً، قد يكون أمراً بالانصراف عن حديث الصاحبة وأمراً آخر بالدخول في حديث الرحلة : " دَعْها، وَسَلِّ الهمّ عنكَ بجسرة " ، وقد يكون أمراً بالانصراف إلى الحديث عن الممدوح : " دع ذا، وَعَدّ القول في هرم " . وواضح أن الانتقال من

---

(١) ص ١٩٥.
(٢) ٤ : ٤، ص ٧٧. "عَدِّ القول : اصرفْه إليه. والحضَرُ: أهلُ الحَضَر. يقال : قومٌ حَضَرٌ، وقوم سَفْرٌ. يقول : خيرُ من حَضَرَ ومن غابَ." ص ٧٧.

غرض الى آخر كان انتقالاً بواسطة وسائل لفظيه : أمر بتعدية الذى مضى والانصراف عنه . وقد عدّى الشاعر في موضع آخر بأداة الإضراب " بل " الدالة على الانصراف أيضا في قوله :

بل اذكُرَنْ خَيرَ قَيسٍ ،كُلِّها ،حَسَباً   وخيرَها نائلاً ،وخَيرَها خُلُقَــا (١)

قال الشاعر " بل " وهو داخل في وصف ممدوحه ،ولم يقل " دَعْ ذا ،وَعَدِّ " مثلاً ، لأنَّ الكلام السابق حسن جدا وكأنه تحاشى أن يقول للقارئ " عد عنه " ، فهو في الكلام السابق يصف الطبيعة والأشياء تتغنى حوله ،فالقابل يتغنى ،والسائق يحدو ،والضفادع طروب منتشية ، الى غيرها من صـــور بلغ الفن فيها غايته ،وأنبأت عن طبيعة زهير المحبة لما يروق العين والأذن . وهكذا ،فإن قوله :" بل اذكرن . . " مثل ما مضى في الوظيفة الأسلوبية وهي الانتقال . ولعلك لحظت في مادة الفعل هناك : " عَدِّ القول " أنَّها أمرٌ بتعدية القول ، أمّا هنا فقال : "اذكرن " وهو أمر بالذكر ،والذكر تنويه وإشادة . وهذا التعميم في الخطاب فيه اعلاء وإشاعة لذكر الرجل ،وتنويه به .

كنت ذكرت في مبحث الاستفهام وقوعه في فاتحة القصائد ،واذكر هنا أن كثرة وجود الأساليب الإنشائية فيها ليس وقفاً على الاستفهام فقط ، وإنما يزاحمه في ذلك الأمر ،وهذه الظاهرة تفسر في ضوء ما قيل قبـــل ذلك من أنَّ بدء القصائد يعتبر النغمة الأولى التي يحتشد لها الشاعر ويتأنق في تكشيفها بكثير مما يثير ، فالأساليب الإنشائية أساليب شعرية نظراً لما فيها من إيقاظ وتنبيه ،وعندما يقول الشاعر: " تَعَلَّمْ " ، و " أبلغْ "، و " قِفْ " بصيغة الأمر في بدء القصيدة إنما يتخير لها اللفظ المثير ، وليست هذه المسألة لازمة لصيغة الأمر فقط ، بل تمتد لتشمل كل لفظ يثير .

---

(١) ٢ : ١٧ ، ص ٤٦ .

يقول زهير مفتتحا بالأمر الدال على التدله والحيرة :

قِفْ بالدِّيارِ الّتي ،لم يَعْفُها القِدَمُ   بَلَى ،وغَيَّرَها الأرواحُ ،والدِّيَمُ (١)

الأمر بالوقوف مذهب من مذاهب الجاهليين ،ومسلك من مسالكهم في فاتحة القصائد ،وقد اختلف الناس في تفسير ظاهرة الوقوف على الأطلال وتعليلها تعليلاً شعرياً . والمؤكد أن هذه المقدمات الطللية في شعر زهير وغيره ذات لزوميات أسلوبية ،وهي عند زهير يغلب عليها الاستفهام ، ثم إن هذه اللزوميات الأسلوبية من العناصر اللغوية المثيرة ،وفي هذا الضوء تفسر المقدمات الطللية حين يهيء الشاعر نفسه للانشاد فيركز العناصر الشعرية في بدء القصيدة ،ويهيء الجو الشعرى بادراكه أن الحديث عن الصاحبة إنما هو حديث يثير الشجى والشجن ، والشعر هذا بابه : تهيئة النفس لتلقي المعاني الشعرية والأحوال الشعورية.

وعندما يقول زهير"قف" فإنه يدل بالأمر على إظهار شوقه وتدلهه وصبوته وتعلقه بالمكان . نعم استوقف الشاعر وصبا وتَدَلّه واختلط أيضا فقال "لم يعفها القدم" ثم أكمل بقوله "غيّرها الأرواح ،والدّيم" وهذا ما نبه إليه العلماء .

كما افتتح زهير بعض قصائده بكلمة " أبلغ " ،وهي من الألفاظ التي ترددت في شعره ،ومثل هذا التردد ينبيء عن مقدرة الشاعر اللغوية التي تتيح له أن يولد من اللفظة الواحدة معان متعددة في مقامات مختلفة. ولنتأمل خصائص المباني ، يقول :

أبلغْ بَني نَوْفَلٍ عنّي ، فَقَدْ بلَغتْ   منّي الحَفيظةُ لمّا جاءَني الخَبَرُ (٢)

---

(١) ٨ : ١ ، ص ١١٦ .   (٢) ٢٦ : ١-٣ ، ص ٢٢٤ .

القائلينَ : يَساراً ، لا تُناظِـرُهُ غِشّاً لسَيِّدِهِم ، في الأمرِ ، إذْ أَمَرُوا
إنَّ ابنَ وَرقاءَ لا تُخشَى غَوائلُهُ لكنْ وقائعُهُ ، في الحَربِ ، تُنتَظَـرُ

الأمر في "أَبلغْ" للامتنان والعرفان بالجميل ، لأنّ ابن ورقاء هذا قد أحسن إلى زهير برده غلامه يساراً إليه ، فهو يكافيء الجميل بالجميل ، ومن ثم أراد زهير أن يشيع ثناء ابن ورقاء ومعروفه وصنيعته بين الناس ، ويلحظ أن مفعول " أبلغ .. " قد تأخر الى البيت الثالث : " إنّ ابن ورقاء .. " ، وكأنَّ الجملة ثلاثة أبيات أقحم فيها بين الفعل : "أبلغ" وما يراد تبليغه كلاماً معترضا ، والشأن في الجملة المعترضة أن تكون مختصرة ، لأنها تدخل بين أجزاء الكلام فلا يتشارد ولا تتباعد أطرافه بطولها ، إلا أنه مع هذا ومع دقة الموقف اعترض بين طرفي الجملة بكلام طويل أنبأ به عما يجيش في صدره ، وأنه لا يزال مملوءاً بالحفيظة على بني نوفل فوقف ونفث ما في صدره بقوله : "القائلين يساراً .." فذكر ما يضيق به منهم بين أجزاء الجملة .

وفي موضع آخر ، يقول ويعترض بجملتين في وقت واحد :

فأبلغْ ، إنَّ عَرَضتَ بِهِ ، رَسولاً بَني الصَّيداءِ ، ان نَفَعَ الجِوارُ (١)
بأنَّ الشِّعرَ ليسَ لَهُ مَـرَدٌّ إذا وَرَدَ المِياهَ بِهِ التِّجـارُ

الأمر للتهديد ، وليس التهديد للمخاطب وإنما التهديد لبني الصَّيداء ، فقد أراد إبلاغ بني الصيداء بأنه سيهجوهم بشعر يتناشده الناس ويتسامع به العرب ليروى به مثالبهم ، وواضح أن الجملة الأولى المعترضة وهي " إن عرضت به رسولا " قد قصرت قليلا عن الأبيات

---

(١) ٢٥ : ١٢-١٣ ، ص ٢٢٣ .

السابقة ، وأتت في مرتبة بين المنزلتين ،والجملة المعترضة الثانية هي " إن نفع الجوار " وكما يبدو فقد بنيت على الحذف ،أي : إن نفع الجوار فأبلغ.

ومن الاعتراض بالجمل القصيرة ،قوله :

أَلا أَبلِغْ ،لَدَيكَ بَني تَميمٍ — وقد يأْتِيكَ ،بالنُّصحِ ،الظُّنُونُ —(١)

بِأَنَّ بُيُوتَنا بِمَحلِّ حَجْرٍ بِكُلِّ قَرارةٍ ،مِنها ،تَكُونُ

فقوله : " — وقد يأتيك ، بالنُّصحِ ، الظُّنُونُ — " فصل به بين " أبلغ " والمأمور بتبليغه ،والأمر هنا فيه اعتداد ونفاجة ،اعتداد الشاعر بقوته وقوة قومه ،وهذا المعنى مستمد ليس من لفظ " أبلغ " وإنما مما أمر بتبليغه ،وهو : أن بيوتهم بمحل حَجْر ،فقد بلغه أن بني تميم يريدون غزو قومه غطفان ،فأتى الأمر مبيناً عن اعتداده بقوته وقوة قومه .

وفي قوله :

أَلا ،أَبلِغْ لَدَيكَ بَني سُبَيعٍ وأَيّامُ النَّوائبِ قَدْ تَدُورُ(٢)

فإِنْ تَكُ صِرمةٌ أُخِذَتْ ،جِهاراً كغَرْسِ النَّخْلِ أَزَّرَه الشَّكِيرُ

فإِنَّ لكُمْ مآقِطَ ،عاسِياتٍ كيَومَ أُضَرَّ ، بالرُّؤَساءِ إِيرُ

" الصِّرمةُ من الإبل : ما بينَ العشرينَ أو دونَ العشرينَ إلى الثلاثينَ ،وعن أبي عمرو : ما بينَ الثلاثينَ إلى الأربعينَ . أزَّره أي : صار له إزاراً ،أي : أحاطَ به مثل الإزارِ . الشَّكيرُ : صِغارُ النَّخْلِ . وكذلك شَكيرُ الشَّعرِ والزَّرعِ والورَقِ ،وكلُّ شيءٍ صغيرٍ . الواحدة شَكيرةٌ . شبَّهَ هذه الإبلَ بالنخلِ الطِّوالِ التي حولَها النخلُ الصِّغارُ ... المآقط :

---

(١) ١٠ : ١-٢ ،ص ١٣٩ . (٢) ٤٠ : ١-٣ ،ص ٢٥١ .

مَضايقُ الحروبِ. الواحدُ مأْقِطٌ. عاسِياتٌ : يابساتٌ شديـــداتٌ كيومَ ، يريد : حرباً كانت بإيرٍ ،وهو موضعُ وقعةٍ . أضرَّ بالرؤســـاء لأنهم قُتِلوا ". (١)

الأمر هنا للتهديد ،وقد جاء وكأنه صرخة انفجرت ، وواضح امتداد الجملة المعترضة -وهي حكمةفيها غيظ وتربص- فهو يهـــدد بني سبيع ،وقبل أن يتم التهديد برزت مسألة اصابتهم لقومه فأراد أن يقف عندها بهذه الجملة المعترضة وقد نال العدو منه ، فقال : "-وأيام النوائب قد تدور-" وإنكم إن أصبتم منا صرمة وفزتم بها وأخذتموها ، فان لكم مآقط ،وذكّرهم بيوم جاء فيه رجال أقوياء كأُسْدٍ حازوا حـوزة من مال قوم الشاعر وأرادوا الإفلات بها ،فقال لهم : لن تفلتوا واحذروا أن نقتلكم ،ثم كان منهم عليهم غامٌ يَسْتَهِلُّ ويستَطِيرُ . وخلاصـة الأمر أنه أتى بأشياه وذكروقائع تهديداً لبني سبيع وتخويفاً لهم .

ومما جاء للتهديد ،قوله يخاطب بني تميم:-

فحُلِّي ،في دِيارِكِ ،إنَّ قَومـــاً متَى يَدَعُوا دِيارَهُمُ يَهُونُـــوا (٢)

" أيِ: انزلي معَ قومِكِ ،ولا تَغتربي فتَهوني ". (٣)

الأمر لبني تميم بالحلول والقرار يفيد التهديد ،وفيه شـوب من النصح ،ويرشح التهديد الترغيب في قوله : " إنَّ قوماً متى يدعوا ديارهم يهونوا " ،لأنْ معناها أنكم إذا مضيتم على عزيمتكم أصابكم الهوان لتركِكم بلادكم والتعرض لما ليس في وسعكم ، وهذا معنى رائق كما ترى وهو أنّ من ترك دياره هان . وقد ذكر هذا التهديد بعدما أبدع في وصـف قوة قومه وخيلهم ورجالهم. وهذا الالتفات في " حُلّيّ " أعان على رمي

---

(١) ص٢٥١ .

(٢) ١٠ :١٣ ،ص ١٤٣ .

(٣) ص ١٤٣ .

الأمر في وجه بني تميم بهذا التهديد ،ثم إن وضعه نفسه موضع الآمر ، وهم في موضع المأمور منبئ عن اعتداده بقوته وغلبة قومه ،واستهانته ببني تميم . وزاد الأعلم بعد هذا البيت قوله :

أوانتَجِعي سِناناً ،حيثُ أمسَى فإنَّ الغَيثَ مُنتَجَعٌ ،مَعِيـــنُ (١)

" انتجعي سنانا " أى :"اطلبي خيره ،وتعرضي لمعروفه ، فهو كالغيث المعين ،من انتجعه أصاب من خيره ." (٢)

والأمر فيه للنصح والتوجيه ،وهو مشبه الاستتباع ، فقد استتبع حديثه عن بني تميم مدح سنان ،وهو رجل أشهر ما عرف به أنه كان يطفئ ثائرة الحروب ،وكأنه أمر لأخذ الحكمة منه .

ومن التهديد ،قوله :

فارْدُدْ يَساراً ،ولا تَعنُفْ عليَّ ،ولا تَمعَكْ بِعرضِكَ ،إنَّ الغادِرَ المعِكُ (٣)

يخاطب الحارث بن ورقاء الصيداوى آمرا إياه برد يسار ،والأمر للتهديد ، وقد أبان عنه قوله بعد ذلك :

ولا تكُونَنْ كأقوامٍ ،عَلِمتُهُـــمُ يَلوُونَ ما عِندَهم ،حتّى إذا نُهِكُوا (٤)

طابَتْ نُفوسُهُمُ ،عن حَقِّ خَصْمِهِمُ مَخافةَ الشَّرِّ ،فارتَدُّوا ،لِما تَركُوا

ومعناه : إذا لم ترد يساراً فسوف يئول مصيرك إلى مضلة مهلكة كأقوام ارتدوا إلى إعطاء الحق الذي تركوه بعدما شتموا وبلغ منهم في الهجاء . ثم قال بعد :

---

(١) (شعر زهير بن أبى سلمى) ص ١٥٧ .

(٢) (المصدر السابق) ص ١٥٨ .

(٣) ٩ : ٢٨ ، ص ١٣٦ .

(٤) ٩ : ٢٩-٣٠ ، ص ١٣٦-١٣٧ .

تَعَلَّمَنْ هَا لَعَمْرُ اللَّهِ ـ ذَا قَسَمًا   فَاقْصِدْ بِذَرْعِكَ ، وَانْظُرْ أَيْنَ تَنْسَلِكُ ؟ (١)

الأمر للتهديد ، فـ " تعلّمن " لأنك لا تعلم ، و " اقصد بذرعك " أي : قدّر خطوك لأنك أحمق ، و " انظر " لأنك لست بذي نظر . وقد أبان عن معنى التهديد في الأمر والاستخفاف والتجهيل هذا الفصل بالقسم بين جزئي الكلمة " ها " و " ذا " ، وهذا لا يقع من شاعر كزهير إلا إذا كان الأمر قد بلغ به مبلغاً عظيماً ، ثم قال :ـ " ذا قسماً " فأكد القسم وما بعده على خطر الجواب :

لَئِنْ حَلَلْتَ بِجَوٍّ ، فِي بَنِي أَسَدٍ   فِي دِينِ عَمْرٍو ، وَحَالَتْ بَيْنَنَا فَدَكُ
لَيَأْتِيَنَّكَ مِنِّي مَنْطِقٌ ، قَذَعٌ   بَاقٍ ، كَمَا دَنَّسَ الْقُبْطِيَّةَ الْوَدَكُ (٢)

فوصف ما سيأتيهم منه بالقذع والدنس ، وهذا دال على تفجر الغضب في نفسه ، فهو يستخرج لهم من الكلام ما يسمهم بأقذع الصفات الباقية أبد الدهر . والذى يبدو لنا أن زهيراً لم يفحش في كلامه كما أفحش في هذه القصيدة التي تبدو غريبة على خلقه وأدبه .

ومن صيغ الأمر التي وردت " مهلاً " ، وهي مصدر نائب عن فعل الأمر " أَمهله " (٣) ، وقد تكررت في سياقين مختلفين ، أحدهما قوله :

غَدَتْ عَذَّالَتَايَ ، فَقُلْتُ : مَهْلاً   أَفِي وَجْدٍ ، بِسَلْمَى ، تَعْذُلانِي ؟ (٤)

---

(١) ٩ : ٣١ ، ص ١٢٧ .

(٢) ٩ : ٣٢ - ٣٣ ، ص ١٢٧ .

(٣) " المَهَلُ بالتحريك : التؤدَة . وأمهله : أنظره ومهّله تمهيلاً .. وقولهم : مَهْلاً يا رجلُ ، وكذلك للاثنين والجمع والمؤنث . وهي موحّدة بمعنى أَمْهِلْ ". الجوهري (الصّحاح) ٥ : ١٨٢٢ . (مادة : مهل) .

(٤) ٤٨ : ١ ، ص ٢٦٢ .

" مَهْلاً " رد وزجر وكف للعذالتين فيه شيء من الحدة ، وكأن الشطر الأول كله مبني على قوله " أفي وجد ... " ، فذكر العذالتين وخاطبهما لئلا يكون هناك عذل في وجد بسلمى ، وقال : " مَهْلاً " وهي من الأساليب التي يكون فيها الزجر واللوم والكف قد بلغ مداه فيها .

والآخر، قوله :

فَمَهْلاً ، آلَ عَبدِ اللهِ ، عَدُّوا مَخازِيَ ، لا يُدَبُّ لها الضَّراءُ(١)

"وعدّوا : اصرفوا عن أنفسكم هذه المخازيَ . ويقال للرجل إذا أكَنَّ أمره : دَبَّ الضَّراءَ . يقول : فهذه أمور لا تخفى . يقال : دَبَّ له الضراءَ إذا ختله (٢) " .

قال : " مَهْلاً " في سياق الهجاء والتوجيه لآل عبدالله ، و " عَدُّوا مخازيَ " توجيه لهم ، وفي " مَهْلاً " فضل زجر ، وعندما تُقارَن بـ " مَهْلاً " في السياق السابق وهو سياق الحديث عن الصاحبة ، يلحظ أن هذه اللفظة وإن جرت في سياقين مختلفين فإن معناهما واحد ، وما وراءهما من أحوال ومشاعر واحد ، ففيهما زجر وكف صارم ، وتعبير عن حدة الشاعر ورفضه .

ومن معاني الأمر في استعمالات زهير: اليأس والاستسلام في قوله :

فلمّا أن تَحمّلَ أهلُ ليلى جَرَتْ ، بَيني ، وبَينَهمُ الظِّباءُ (٣)

جرت سنحا ، فقلتُ لها : أجيزي نَوًى مَشْمولةً ، فمَتى اللّقاءُ ؟

---

(١) ٣ : ٦٢ ، ص ٧٣ . (٢) ص ٧٣-٧٤ .

(٣) ٣ : ٦-٧ ، ص ٥٤ .

يحمل الأمر هنا معنًى غريباً هو الاستسلام لما جرى به القدر من هذا الفراق ،واليأس من جمع الشمل ،والمراد بقوله " أجيزى " أى جاوزي واقطعي وهو يخاطب الظباء السانحة وهي مما يتشاءم بها ،ومما يؤكد معنى اليأس وفقدان الأمل في الصاحبة قوله بعد ذلك :

تَحمّل أهلُها ،عنها ،فبانُوا　　على آثارِ مَن ذَهَبَ العَفــــاءُ (١)

لقد طالَبتُها ،ولكُلّ شَــيءٍ　　إذا طالَتْ لَجاجَتُهُ ،انتهـــاءُ

" على آثار من ذهب العفاء " أى : " من ذَهَبَ لم آسَ عليه " (٢) ولم أشفق على ذهابه ،لأنّ هذه مسألة لا حيلة لي فيها ،والبيت الذى بعده كلام يدل على تصبّره ويأسه ،وأنّه لم يعد يجد في نفسه ذاك الوجد الذى كان يجده في مواقف أخرى . ثم قال بعد عدة أبيات :

فصَرّمْ حَبلَها ،إذ صَرّمَتْــهُ　　وعادَكَ ،أن تُلاقِيَها ،العَداءُ (٣)

بآرِزَةِ الفَقارةِ ،لم يَخُنْهــا　　قِطافٌ ،في الرِّكابِ ،ولا خِــلاءُ

الأمر لاظهار تبرمه وغضبه ،وفي هذا التبرم شوب من الأسى الدفين مبعثه بقية من التعلق بالصاحبة يكفه عن هذا الصرم ، فيحتج الشاعر لهذا الصرم بقوله : " إذ صرّمته " ،وكأنه لا يصرم حبلها لأنه خلعها من نفسه ،وإنّما يُصرّم لأنها صرّمته . وهنا لفتة في الصياغة بالغة الدقة ،لأنها تعود على فعل الصرم هذا فتبطله . وتأمل " إذ صرمته " تجد أنها هي التي صرّمت وهو إنما يقطع حبلاً قد قُطع قبل قطعه له ، ووراء ذلك من اللوعة ما وراءه لأنه في الحقيقة لم يصـــرّم

---

(١) ٢ : ٨ - ٩ ،ص ٥٦ .　　(٢) ص ٥٦ .

(٣) ٢ : ١٢ - ١٤ ،ص ٥٧ .

حبلاً ، ثم إن توجيه الأمر لنفسه بقوله : " فصرِّم " يعني استنهاض نفسه وإثارتها ضد هذه الصاحبة التي قطعت حبل وده ، ووراء ذلك أن هذه النفس التي يهيجها ويثيرها ضد الصاحبة لتعاملها بمثل ما عوملت به نفس تائقة متهالكة باقية على ود من قطعت وده حافظة حبل من صرمت حبله ، وهو في ذلك إنما ينتزع نفسه انتزاعاً من بؤرة هذه المعاناة .

ومن معاني الأمر عنده : التودد ، كما في قوله :

أَقِيمِي ، أُمَّ كَعْبٍ ، واستَقِرِّي فإنَّكِ ، ما نَزَلتِ بها ، بِدارِ (١)

" يقول : أنتِ بدارِ صِدْقٍ . يَمدحُها ". (٢)

الأمر للتودد ، ويرشحه قوله : " أُمَّ كَعْبٍ " حيث ناداها بحذف حرف النداء ، وذلك دليل على قربها من نفسه ، ثم أردف هذا النداء بأمر آخر " استقرى " يبث الطمأنينة في نفس أم كعب وأكد ذلك بقوله : " فإنَّك ، ما نزلتِ بها بدارِ ".

والدعاء ، كما في قوله :

فلمّا عَرَفْتُ الدّارَ قلتُ لرَبْعِها : ألا انعم صَباحاً ، أيُّها الرَّبْعُ ، واسلَم (٣)

" انعم صباحاً : تحيّة ودعاء له . واسلمْ : أي : سَلَّمَكَ اللهُ من الدُّرُوس ... والرَّبْعَ : موضعَ الدار حيثُ أقاموا في الرَّبيع . وهذا كلّه دعاء للرّبع ". (٤)

---

(١) ٣٩ : ٤ ، ص ٢٥٠ . (٢) ص ٢٥٠ .

(٣) ١ : ٦ ، ص ١٩ . (٤) ص ١٩ .

إن التوجه بالخطاب للربع لمسألة ضرورية في وجدان الشاعر، وتتمثل في إحياء هذا الربع والإقبال عليه وبث الحياة فيه ،وعندما يدعو الشاعر له بالسلامة والرفه والنعمة وهو قفر موحش - فإن هذا الدعاء يحمل دلالة شعرية من حيث إنه لا يعنيه ما فيه من حيوانات وأمور أخرى ، وإنما يعنيه الأصحاب ، فهي دعوات ملتاع مشتاق . ويظهر لنا تناغم العناصر الشعرية بأداة الاستفتاح " ألا " ولا يستفتحُ بها ذو السليقة إلا كلاماً له خطر وشأن ،ثم استفتاح من ؟ استفتاح الربع ونداؤه وهو موحش ،وهذا التشخيص والاحياء للربع مسألة مهمة في وجدان الشعر ،فالشاعر إذا استجاشه ربع أو دار خاطبها وتوجه إليها ودعا لها . ثم الأمر : " انعم " و "اسلم " ودلالته الظاهرة على الدعاء لهذا الربع بالنعمة والسلامة ،وهو أمر مرتبط بوجدان الشاعر كما ذُكر .

ومن معانيه : التعبير عن رغبة من رغائب النفوس ،كما في قوله :

لأرتَحِلَنْ ،بالفَجْرِ ،ثُمَّ لأدأبَنْ إلى اللَّيلِ ،إلاّ أَن يُعَرِّجَني طِفْلُ (١)

إلى مَعشَرٍ ،لم يُورِثِ اللُّؤمَ جَدُّهم أصاغِرَهم ،وكُلُّ فَحلٍ لهُ نَجْلُ

تَرَبَّصْ ،فإن تُقْوِ المَروراةَ مِنهُمُ وداراتُها لا تُقْوِ مِنْهُم ،إذاً نَخْلُ

" لأرتَحِلَنْ ،يقول : أرتحلُ بالفجر ،فلا أزالُ أسيرُ الى الليلِ . وأدأبُ : من الدَّؤوب . يعرّجني طِفلُ ،يقول : إلاّ أن تجهضَ ناقتي فتَحبِسَني أقومَ عليها ،أو أقدحَ النارَ فتَحبِسَني . . . النَّجل : النَّسلُ . . . يقول : تَلَبَّثْ لا تَعْجَلْ بالذَّهابِ . وتُقْوِي : تخلُو . والمروْراةُ : أرضٌ

---

(١) ه : ٧ - ٩ ،ص ٨٥ - ٨٦ .

مستوية بعيدةٌ ... وداراتُها ،أرادَ : دارَها ... والدارةَ : كلُّ جَوبةٍ بين جبالٍ . لا تُقْوِي : لا تخلُو . ونَخْلٌ : أرضٌ.[1] "

الكلام حديث عن هذا المعشر ،إلا أن الشاعر رمى بهذه الكلمة القلبية " تَرَبّص " والتي وجهها إلى نفسه آمرا إياها بالتريث والتمكث للدلالة على شدة تعلقه بهذا المعشر ورغبته في ملاقاتهم ؛ لهــذه المعاني العظيمة التي ذكرهم بها ،وهكذا ، فقد أتى الأمر للدلالة على موقف نفسي وهو الرغبة التي تحتد به وتشتد لملاقاتهم ،إلا أنه طامن من هذه الرغبة المحتدة والتوق المشتد بقوله : " تَرَبّص " دالاً على مــدى تعلقه بهم .

ومن معانيه : التنويه بالممدوح ،كما في قوله :

أقُولُ للقَومِ ،والأنفاسُ قد بَلَغَتْ دُونَ اللَّها ،غَيرَ أنْ لم يَنقُصِ العَدَدُ ،[2]

سِيْروا إلى خَيرِ قَيسٍ ،كُلِّها ،حَسَباً ومُنتَهَى من يُريدُ المجدَ ،أو يَفِــدُ

فاستَمطِروا الخيرَ ،من كَفَّيهِ ،إنّهما بسَيبِهِ يَتروَّى ،منهما ،البَعَــدُ

" بسيبه "، " السَّيْبُ : العَطاءُ ."[3]

قوله : " سيروا " أمر فيه حث واستنهاض ،وفي الحث تنويه بالممدوح وأنه جدير بأن يشار إليه ،بل بأن يحث الناس على السير إليه . وفي قوله : "ومُنتَهَى من يريدُ المَجْدَ ،أو يَفِدُ " دلالة على أن هذا الممدوح لا يعطي السائر إليه طعاماً ،أو كساءً ،وإنما يعطيه مجداً وسؤدداً ،وهذه غاية الغايات ،وقوله : " يريد المجد " هو الذى أكسب الأمــر معنــاه ،

---

(١) ص ٨٥-٨٦ .   (٢) ٢٢: ١٨-٢٠ ،ص ٢٠٣ .

(٣) ابن منظور (لسان العرب) ٣ : ٢١٦٦ .(مادة : سيب) .

وأنه موجه الى تلك الكوكبة القليلة التائقة الى المجد والسوءدد لا إلى مجموعة الرعاع وطلاّب المال . وقوله : "استمطروا" كلمة تنبيء بابتعادها عن الغزارة وأن هذا الممدوح مغدق في العطاء كالسحاب ،وفيهـا معنى أنهم لا يأخذون منه أخذا نزرا وإنما كثير فالمطر خير كثير ، وكأن عطاءه خصب للنفوس يخصبها ويمرعها فيجعلها هي أيضـا ذات عطاء ، وياللعجب يعطيهم ويعلمهم العطاء !! . ومثـل هذا المعنى موجود في الشعر وهو أن الرجال من طبقة هذا الممدوح ليسوا رجالاً يعطون فضل مال فقط ،وإنما يعلمون العطاء ويربون نفوسا على مكارم الأخلاق ،ويرشح هذا قوله :" من يريد المجد " ،فالأمر ليس لمجرد الأخذ منه بل ينتهي إلى هذه المعاني العظيمة والتي يعتبر بها القوم ماجدين .

ومن معانيه عند زهير : تجديد الهمة ،كما في قوله يمدح هرماً :

فَلو كان حَمْدٌ يُخَلِّدُ النّاسَ لم يَمُتْ ولكنَّ حَمدَ النّاس لَيسَ بمُخْلِـدِ (١)

ولكنَّ فيهِ باقياتٍ ،وِراثـــةً فأورِثْ بَنيكَ بَعضَها،وتَـزَوّدِ

تَزَوّدْ،إلى يومِ المَماتِ ، فإنّـهُ ولو كَرِهَتْهُ النَّفْسُ ،آخِرُ مَوعِـدِ

"يقول : تزَوّدْ أنتَ بعضَه ،وهذه المكارمُ والمحامدُ أورِثْها بَنيكَ وولَدكَ . وباقياتٌ : ما يُذْكَرُ به من الشّرفِ" (٢).

ورث الممدوح المكارم عن والديه ، وهو لا محالة مورِّث إياهـا بنيه . إلاّ أنّ زهيرا خاطبه قائلا : " فأورِثْ بَنيكَ بعضَها ،وتَزَوَّدِ " ، وغاية هذا الأمر للمأمور يفعل هو يفعله : ـ حضه على الاستمرار وتجديد الهمة الماضية في هذا السبيل ومزيد من الحث والإثارة والإلهاب ،وكـأن

---

(١) ١٤ : ٤٤ - ٤٦ ، ص ١٧٠ . (٢) ص ١٧٠ .

الشاعر يقف على رأس ممدوحه يثيره نحو المكارم ، وهذا هو الشعـــــر عندما يلتقي مع فضائل النفوس يحضها . وهو من المواقع الجيدة لدلالة صيغة الأمر ،وتكرار الأمر بتكرار اللفظة في قوله : " تزود ،إلى يوم الممات " أحدث نوعاً من التواتر النغمي نحو أمر معين ،فضلا عن دلالته على الحث والحض وتجديد النشاط . وذكره الموت مع مدح الرجل يبدو عجيباً حقا ، لأنّ القليل ذكر الموت مع المدح . وقوله : " فأورثْ بنيك بعضَها " دون " كلها " مشير إلى أن بعض المكارم تكفي ،وكأن ما عند الممدوح يجد بنوه ببعضه .

ومن معانيه : التوجيه والنصح ،كما في قوله :

خُذُوا حَظَّكُم ،يا آلَ عِكرِمَ ،واذكُروا أواصِرَنا ،والرَّحْمِ بالغَيبِ تُذْكَرُ (١)

وفيه شوب من التهديد والتخويف ،فهو يأمر بني سُلَيم بتذكـر القرابات التي بينهم وبين غطفان .

وقوله :

أفِيقا ،بَعضَ لومِكُما ،وقُــولا قَعِيدَكُما ،بما قَد تَعلَمــــانِ (٢)

" أفيقا " و " قولا " الأمر فيهما للنصح والتوجيه ،وفيه شـوب من التعنيف ،وقوله : " قعيدكما " - " قِعْدَك اللّهَ ،وقَعِيدَك اللهَ ، أي كأنّه قاعِدٌ مَعَكَ يَحفظ عَلَيْكَ قَوْلَك " (٣) مقحم بين " قولا " و " بما قد تعلمان " يؤتى به للاستعطاف،ويرشح المعنى المفهوم من " أفيقا " ،لأنه ذكر الله الحافظ لهما من الإفاقة .

---

(١) ١٣ : ٣ ، ص١٥٧ . (٢) ٤٨ : ٥ ، ص٢٦٣ .

(٣) ابن منظور (لسان العرب) ٥ : ٣٦٩٠ ،(مادة : قعد) .

وقوله :

أرونا سُنَّةً ،لا عيبَ فيهـــا   يُسَوِّى ،بينَنا فيها ، السَّــواءُ[١]

أى : "جيئوا سُنَّةً لا عيبَ فيها ،حتّى نَبرَأ وتَبرَءُوا ."[٢]

" أُرونا سُنَّةً " الأمر فيه للتوجيه والنصح والمسالمة ، فالبيت هنا يطالب بني عُلَيم بسُنَّة يُسوّى بها الخلاف ،وهو خلاف البيت السابق له والذى يقول فيه : " فمهلاً آل عبدالله .. " ، فالأمر للزجر ، لأنّ البيت فيه كف لهم وصرف عن مخازيهم ،فناسب الزجر مطالبته لهم بالكف .

ومن معاني الأمر عنده : الاستخفاف ،كما في قوله يهجو رجلاً من بني عبدالله بن غطفان يقال له عوف بن شمّاس :

مَن يَتَجَرَّمْ ،لِي ،المَناطِقَ ظالِماً   فيَجْرِ ،إلى شأْوٍ بَعِيدٍ ،ويَسبَحِ[٣]

يَكُنْ كالحُبارَى ،إنْ أُصِيبَتْ فمِثْلُها   أُصِيبَ ،وإن تُفلِتْ منَ الصَّقرِ تَسلَحِ

كعوفِ بن شَمّاسٍ ،يُرَشِّحُ شِعــرَهُ   إليَّ ،أسدِّي - يا مَنِيَّ - وأَسجِحِ

وكأن زهيراً يهزأ بعوف هذا في تهديده له ، فيخاطـــب الموت ويقول له : " ترفق وسدد ،وهذا لا يكون إلا استخفافا وهزءا .

كما أتى للتشهير في قوله :

تَعَلَّمْ أنَّ شَرَّ النّاسِ حَــيٌّ   يُنادى ،في شعارِهِمُ : يَســارِ[٤]

---

(١) ٣ : ٦٣ ، ص٧٤ .   (٢) ص٧٤ .

(٣) المقطعة ٤٥ ، ص٢٥٩ .

" يتجرّم : من الجرم... والشّأو : الطلق من الجرى. ويسبحُ : من السباحة ... يرشّحُ شِعرَهُ : يُهيّئـه ويَصنَعه ،ويبعثُ بشعره إلي ... وأسجحي ... أي : أحسِنْ ..أسدِى : مـــن السداد . يامنيّ ،أراد : منيّة ، فرخّم ".ص٢٥٩ .

(٤) ١:٢٥ ، ص٢٢٠ .

قال الشاعر : " تعلّم " ،والأمر بذلك غير موجه إلى شخص معين ، وإنما يراد به العموم ،ووراء ذلك أن يعلم كل ذى علم أنَّ شر الناس هم هؤلاء القوم ،وفي ذلك تشهير بهم أيما تشهير.

وأعود الى ما ذكرت سابقاً عن معاني الأمر في شعر زهير من حيث إنها لم تكن سخية رائعة في كل ما وقعت فيه ،ذلك أنها أتت في نماذج متعددة لمجرد تحصيل الفعل المأمور به مع شيء آخر يجرى في الصيغة بمعونة السياق ،كالتوجيه والتعليم في مثل قوله :

فقلنا له : سَدِّدْ ،وأبصِرْ طَرِيقَهُ وما هُوَفيهِ ،عن وَصاتِيَ ،شاغِلُــهْ (١)

وقُلتُ : تَعَلَّمْ أنَّ للصَّيدِ غِـرَّةً وإلّا تُضيِّعْهُ فإنّكَ قاتِلُـــــــهْ

الأمر حقيقي هنا ،وفيه توجيه ،ف" سدد " أي : قَوِّمْ صدره "وخُذْ به على القَصد .. .لا تَمِلْ يَمنةً ولا يسرةً "(٢) ،و " أبصر طريقه " أي : " لا تُمَرِّبه على جُرُفٍ و حجَرٍ ،ونحوذلك "(٢) ،و " تعلّم أنَّ للصيد غِرة " أي : " اعلم أنَّ الصيد ربما كان مُغترّاً ، فإن لم تضيّع وصيّتي ، وطلبت غِرّتَه ،فإنك قاتله . و "الغِرّة" : الغفلة ،وأن يُؤتى من حيثُ لا يَشعر "(٢).

ومثله ،قوله يرثي ابنه سالماً :

وعندِى من الأيّام ، ما ليسَ عِندَهُ فقلتُ : تَعَلَّمْ أنَّما أنت حالِـــــمُ (٣)

الأمر لمجرد تحصيل الفعل ،وهو العلم ،وأراد بذلك توجيهـــه وتنبيهه .

---

(١) ٧ : ٢٢-٢٣ ،ص ١٠٨ .

(٢) الأعلم الشنتمري (شعر زهير بن أبي سلمى) ص ٥٢ .

(٣) ٤٢ : ٤ ، ص ٢٥٥ .

وقولـه :

لو كان ،لي ،قِرْناً أُناضِلـه ما طاشَ ،عِندَ حَفيظَةٍ ، سَهْمِي (١)

أو كانَ يُعْطِي النِّصْفَ قُلتُ لهُ: أحرَزْتَ قِسْلَكَ ، فالـهُ عن قِسْمِي

يتحدث عن الدهر ،لو كان قرناً لصاوله ،ولو كان ذا حكمة لقاوله ،وقوله : " فالـه عن قِسْمِي " أمر فيه معناه الحقيقي الذى هوطلب حصول الفعل ،وفيه تنبيه وتوجيه .

وقولـه :

فنَهْنَهَهَا ،ساعةً ،ثُمَّ قـال ،لِلوازِعِيهِنَّ : خَلُّوا السَّبِيلا (٢)

" نَهْنَهَها،ساعةً: كفَّ خيلَه ساعةً ،لِتَهَيَّأْ للحرب ،ثم أُرسِلَتْ . للوازِعيهنَّ : الذين يَكُفُّونَ الخيلَ ويحبسُونها . خَلُّوا السَّبيلَ : أطلِقُوهنَّ ." (٣)

الأمر فيه معنى تحقيق الفعل وطلب حصوله ،ومعه الفخر والثقة بالقوة والاعتداد بها .

وقوله يهجو رجلا من بني فزارة :

ومُستَنبِهٍ ،من نَومِهِ ،قد أجابَني بِرَجعَين ،من ثِنيَيْ لسانٍ مُلَجلَجِ (٤)

فقلتُ له : أنقِضْ ،بِصَحبِكَ ،ساعةً فهَبَّ فتًى ،كالسَّيفِ ،غيرَ مُزَلَّجِ

---

(١) ٥٥ : ٩-١٠ ،ص ٢٨٢ .

(٢) ١١ : ١٣ ، ص ١٤٩ .

(٣) ص ١٤٩ .

(٤) ٣٢ : ١٣-١٤ ، ص ٢٣٧-٢٣٨ .

"ومُستنبِهٍ"، " النَّبهُ : القِيامُ والانْتِباهُ من النوم "(١) "برجمين"، " وتَرْجيعُ الصَّوْتِ: تَرْديدُهُ في الحَلْقِ "(٢) . "ملجلج"، "اللَّجْلَجةُ: ثِقَلُ اللِّسانِ، ونَقْصُ الكلامِ"(٣) ، "أنقض: صَوَّتَ . المُزَلَّجُ: الذى يُدْفَعُ عن الأُمور، لأنه ليس له رأى"(٤).

ذكر الشاعر قبل هذين البيتين سلمى وصبواته ومغامراته، وهذا الذكر من مظاهر الفتوة واليقظة، وإنما يذكر الشاعر صبواته ومغامراته في مقدمة قصائد الهجاء ليدل على نشاطه ويقظته وقدرته على الانتقام والثأر . وقوله: "مُستَنبِهٍ" مشير إلى أنه هو الذي يوقظ الأصحاب من النوم، وأنه هو الذى يمنتهم ويرهقهم لكونه أكثرهم فتوة ويقظة . وقوله: "أنقض" الأمر في معناه الحقيقي، وهو إيقاظ الصاحب لاستئناف الرحلة، وفيه شوب من الفخر، وهو غير الفخر الذى في البيت السابق، لأنه يمتد هناك بقوته وثقته بأصحابه والوقف غارة، أمّا هنا ففيه اعتداد بشبابه وقدرته على التحمل والمغامرة والوقف رحلة . وربما كان ذلك من بصمات زهير على شعره، لأنه من الشعراء الذين أودعوا أنفسهم في شعرهم.

ولعله بدا من العرض السابق أبرز ما يميز تناول زهير لصيغة الأمر، وهو ترددها في شعره كثيراً، وهي - مع ترددها - لم تستهر

---

(١) ابن منظور (لسان العرب) ٦: ٤٣٣١-٤٣٣٢ (مادة: نبه).
(٢) (المصدر السابق) ٣: ١٥٩١ (مادة: رجع).
(٣) (المصدر السابق) ٥: ٤٠٠٠ (مادة: لجج).
(٤) ص ٢٢٨.

استثماراً رائعاً في معظم ما وقعت فيه كما ستثمار الاستفهام؛ إذ كانت دلالاتها الشعرية الرائقة محدودة وتمثلة في معنى اظهار اليأس والاستسلام ،والدعاء ،والتعبير عن رغبة من رغائب النفوس ،واظهار التبرم والغضب ،وأتت لمعان أخرى كالتنويه بالممدوح ،وتجديد الهمة ،والعرفان بالجميل والتشهير ، والاستخفاف . وكانت أكثر معانيها جرياناً عند زهير : التهديد ثم النصح والتوجيه . كما أتت في معناها الأصلي مع معنى آخر يفهم من السياق . وقد لحظت مجيء صيغتها على أصل الوضع، ولم ترد على غيره إلا مرتين بصيغة المصدر النائب عن فعل الأمر . كما لحظت تلازمها مع عناصر إنشائية أخرى كالنداء والاستفهام على نحو ما قد بينت ،وكان هذا التلازم في بعض السياقات يشيع جواً من التدله والحيرة والتمني ، فضلاً عن استعمالها وسيلة من وسائل ربط الكلام بعضه ببعض ،ووقوعها في فاتحة القصائد مزاحمة للاستفهام وان كانت أقل كما لحظت تصرفها في فاتحة القصائد بصيغ معينة ،وهو منبيء عن قدرة زهير على تصريف المعاني المتعددة في المقامات المختلفة بصيغة واحدة .

ثالثاً - النهي :

يحاول هذا البحث أن يتأمل صور النهي في شعر زهير ليستخرج منها ما أضمره فيها من معان قد تظهر واضحة حيناً، وتختفي مستكنة حيناً آخر، والمقصود في النهاية هو معرفة مدى انتفاع الشاعر بهذه الصيغة اللغوية التي هي أقرب إلى الصيغ الشعرية.

وقد تبين لي من دراستي لهذا الأسلوب أنه لم يكن منبئاً عن قيمة معنوية رائعة في معظم ما وقع. ولذا فقد كان المهم هنا هو محاولة تقديم أنماط مصحوبة بدراسة موجزة، وحسب مبحث النهي هذا التصور.

وقد جاء النهي مفيداً التهديد والتخويف، مثل قوله :

ولقد نَهَيْتُكُمَ، وقُلْتُ لكُم : لا تَقْرَبُنَّ فَوارِسَ الصَّيداءِ (١)

" لا تَقْرَبُنَّ " نهي، وهو مقول القول في قوله " وقلتُ لكم "، وهو تفسير لقوله " نهيتكم "، أي : نهيتكم وقلت لكم لا تقربن فوارس الصّيداء، فهو للتخويف والاعتداد بقوة القوم المذكورين الذين نهى القوم عن الاقتراب منهم. ويلحظ أنَّ الجملة المفسرة هنا عطفت على ما قبلها بالواو، وهذا خلاف ما جاء عليه قوله تعالى ﴿ فوسْوَسَ إليه الشّيطان قال يا آدَمُ ﴾ (٢)، لأنَّ القول في الآية الكريمة بيان وتفسير، وكأن ﴿ فوسوس ﴾ و ﴿ قال ﴾ كلام واحد يبيّن ثانيه أوله. أمّا هذه الواو فقد آذنت بأن هذا المفسر " وقلت لكم " كأنه شيء آخر غير " نهيتكم "، مع أنه في الواقع هو مفسر له، والمراد إيهام أنه فعل معهم أمرين،

---

(١) ٣٧ : ١، ص ٢٤٧. (٢) طه : ١٢٠.

الأول : النهي . والثاني : قوله " لا تَقْرَبُنّ " ، وقد أكد النهي بقوله بعد ذلك :

أبناءَ حَرْبٍ ،ماهِرينَ بها   تُغْذَى صِغارُهُمْ ، بحُسْنِ غِذاءِ (١)

ففوارس الصيداء أبناء حرب ،أي : ولدوا في حجور المخاوف فألفوها ومارسوها وصاروا ماهرين بها ،وفي هذا تخويف للمخاطبين منهم .

ومن التهديد قوله :

فلا تَحْسَبَنِّي ،يا بنَ أَزْنَمَ ،شَحْمَةً   تَعَجَّلها طاهٍ ،بِشَيٍّ ،مُلَهْوَجِ (٢)

" طاهٍ : طبّاخ . والشِّواءُ المُلَهْوَجُ : الذي لم يَنضَجْ بعدُ ". (٣)

" فلا تحسبني " ، النهي فيه للتهديد والتنبيه على الضلال والخطأ حينما حسب ابن أزنم زهيراً شَحمة تعجلها طاهٍ ،أي : ذليلاً يقهر ، فهو تهديد بالغ لأن الشاعر استشعر اهانة لحقت به فنفاها ودفع ظن ابن أزنم في أن يكون قد نال منه ، فهو رجل ذو منعة وقوة وفضل . وتنكير " شَحْمَة " و " طاهٍ " للدلالة على مزيد من قلة الشأن الذي يحسبه ابن أزنم ،ومجيء النداء بعد النهي دليل على مزيد غضب الشاعر ، فهو يعني أنه نهاه ،ثم أقبل عليه غاضباً وناداه ، ثم إن هذا النداء جاء مقحما بين الفعل ومفعوله ،وأصل الكلام : " فلا تحسبنّي شحمةً " وفي هذا الاقحام إشارة إلى التدافع والمزاحمة .

وجاء النهي : للتحذير ،في قوله :

يا حارِ ،لا أُرمَيَنّ منكم ،بداهِيةٍ   لم يَلْقَها سوقةٌ ،قَبلِي ،ولا مَلِكُ (٤)

---

(١) ٣٧ : ٢ ، ص ٢٤٧ .

(٢) ٣٢ : ١٥ ، ص ٢٣٨ .

(٣) ص ٢٣٨ .

(٤) ٩ : ٢٧ - ٣٠ ، ص ١٣٦ .

فارْدُدْ يسارًا ،ولا تَعنُفْ عليَّ ،ولا تمعكْ بعِرضِكَ ،إنَّ الغادِرَ المعِكُ

ولا تَكُونَنْ كأقوامٍ ،عَلِمتُهُمُ يَلوُونَ ما عِندَهم ،حتّى إذا نُهِكُوا

طابَتْ نُفوسُهُمُ ،عن حَقِّ خَصْمِهِمُ مَخافةَ الشَّرِّ ،فارتَدّوا ،لِما تَركُوا

تتلاحق أساليب الأمر والنهي هنا ،وفيها ينفث الشاعر غضبه الحارق ، فـ " اردد يساراً " كما مر - الأمر فيه للتهديد ،والنهي فيه نوع من التدرج يتسع المعنى به بعد كل نهي ؛ فقوله : " اردد يسارا " تهديد مباشر ، و " لا تعنف عليَّ " نهي عن العنف ويتضمن الأمر بأن يسلك الحارث بن ورقاء طريق العدل فلا يعامل زهيراً معاملة غير مرضية ،وفي ذلك كف عن الجور. و " لا تمعَكْ بِعِرْضِك " كف عن المطل . وهذا من الكلام الذى يدخل بعضه في بعض ،لأن قوله : " ولا تعنُفْ عليَّ " يدخل فيه قوله : " اردد يسارًا " وقوله : " ولا تمعك بعِرضِك " يدخل فيه قوله : " ولا تعنُفْ عليَّ " . وبهذا ترى أن قوله : " اردد يسارا " تكرر معناه في الجملتين بعده ،وكأنه هو أصل المعنى . وقوله : " إنَّ الغادِرَ المَعِكُ " جملة منحوتة نحتاً من الكلام السابق ،وهي أشد اتساعاً منه جميعه ، وهذه طريقة بارزة في شعر زهير نبهنا إلى مثلها كثيراً . والنهي للتحذير والتنبيه والتوبيخ . وأما قوله : " ولا تكونن .. " النهي فيه للتوجيه والنصح ، وفي طيه تهديد ، فمعناه : إن لم ترد يسارًا فمصيرك إلى مضلة مُهلِكة ، وفي النهاية أنت راده كهؤلاء الذين تطيب نفوسهم بعدما ينهكون .

وقوله :

إليكَ ،سِنانَ ،الغَداةَ الرَّحِيـ ـلَ ،أعصي النُّهاةَ ،وأُمضي الفُؤولا (١)

---

(١) ١١ : ٣-٤ ،ص ١٤٦-١٤٧ .

فلا تأمَنِي غَزْوَ أفْراسِـــــهِ ... بَنِي وائلٍ ،وارهَبِيه ،جَدِيــلا

" جديلةُ : أمُّ فَهْمٍ وَعَدْوانَ ،وكان سِنانُ يُغاوِرُهم ".(١)

النهي للتحذير ،تحذير لبني وائل وجديلة من سنان بن أبي حارثة ، وفيه الاشادة بقوة سنان . وقد زاد النهي توتراً وحدة بناؤه على الالتفات ،فقد قطع مخاطبة سنان والتفت إلى أعدائه .

ومن النهي للتوجيه ،قوله :

فلا تكتُمُنَّ اللّهَ ما في نُفوسِكُم ... لِيَخفَى ،ومهما يُكتَمِ اللّهُ يَعلَمِ(٢)

" يريد : لا تُضمروا خلافَ ما تُظهِرونَ. يقولُ : إنّ اللّهَ يعلمُ السِّرَّ ، فلا تكتُموه. أي: في أنفُسِكم الصُّلحُ ،وتقولون : لا حاجةَ بنا إليه".(٣)

ف "لا تكتُمُنَّ " النهي للنصح والإرشاد والتعليم ،وقد أتت نون التوكيد لتقرير النصح وتأكيده.

ومما جاء النهي فيه على معناه الحقيقي ،وهو طلب الكف عن الفعل ،(٤) ولكن ليس على جهة الاستعلاء ،ومعه معنًى سياقي آخر ،قوله :

إذا ما سَمِعْنا صارِخاً مَعَجَتْ ،بِنا ... إلى صَوتِهِ ،وُرْقُ المراكِلِ ،ضُمَّرُ(٥)

وإن شَلَّ رَيعانُ الجَميعِ ،مَخافةً ، ... نَقولُ ،جِهاراً : وَيحَكُم ،لا تُنفِّروا

" الصَّارِخُ والصَّرِيخُ : المُستغيثُ . والصَّرِيخُ والصَّارخ : المُغيثُ. مَعَجَتْ : مَرَّتْ مَرّاً سريعاً سهلاً . وقوله " وُرْقُ المراكِلِ " : قد اسودّتْ مواضعُ أرجُلِ الفُرسانِ ،لأنَّ الشَّعْرَ تَحاتَّ عنها فاسودّ موضعُه ،لكثــرةِ

---

(١) ص١٤٧.
(٢) ١: ٢٧، ص٢٦.
(٣) ص ٢٦.
(٤) سعد الدين التفتازاني (المطول) ص٢٤١.
(٥) ١٣: ٥ - ٦ ، ص١٥٨.

الركوب في الحرب . وأوْرَقُ : لونُه لونُ الرَّمادِ... شُلَّ : طُرِدَ . ويُروى : " رُعيانَ الجميع ". والرُّعيانُ : جماعة رعاةٍ. فيقول : إن طُرِدتْ لخوفٍ فإنّا سنَمنعكم ،والجَميعُ : الحَيُّ . والرَّيعانُ : الاوائلُ . يقول : لا تُنفِّروا الإبلَ ،أى : ارفُقوا وقِفُوا ، فإنّا معاً ،أي : جَميعٌ ."(١)

يكف قومه - إن أحسوا خطراً قادماً من العدو- عن تنفير ابلهم وصرفها عن المرعى ،مهدّئاً إياهم ،فالنهي مراد به النهي الحقيقي الذى هو طلب الكف عن أن ينفروا إبلهم ،ولكن ليس على جهة الاستعلاء، وفيه إعلان النُّصرة والموءازرة والمنع من الاعداء وبث الاطمئنان في نفوس القوم ، فتنفير الابل إنما يكون عند المخافة وشدة الحال . وقوله : " ويحكم " إثارة وتهييج لهم بألّا ينفروا .

ومثل ما مضى ،ولكن مع اختلاف المعنى السياقي ،قوله :

ولا تُكثِرْ ،على ذِى الضِّغنِ ،عَتْباً ولا ذِكْرَ التَّجرُّمِ ،للذُّنُوبِ (٢)

ولا تَسألْهُ ،عَمّا سَوفَ يُبْدِي ولا عن عَيبِهِ ،لَكَ ،بالمَغيبِ

مَتَى تَكُ في صَديقٍ ،أو عَدُوٍّ، تُخبِّرْكَ الوُجوهُ ،عَنِ القُلوبِ

النهي في " ولا تُكْثِرْ " مقصود به معناه الحقيقي الذي هو طلب الكف عن الفعل ، ولكن ليس على جهة الاستعلاء ،وإنما على جهة النصيحة والتوجيه والتأديب . ومثله " ولا تسأله " للتوجيه . والابيات كما ترى مبنية على الحكمة ،يقول فيها : إنّ ذا الضغن لا يجدي معه العتاب ولا يفيد ذكر الذنوب ولا سوءالك إياه عما سيكون منه وعمّا

---

(١) ص ١٥٨ .

(٢) المقطّعة ٣٦ ،ص ٢٤٦ .

سيبديه . غير أنك تلحظ التسلسل في النهي ،فمجيء النهي الثاني بعد الأول خاضع لتسلسل معين يتنزل فيه مع المخاطب درجة بعد درجة ، فهو يقول ابتداء"لا تعاتب ،لأن العتاب لا يكون إلا عن مودة ، وبقاء الود أمر مرهون ببقاء العتاب ، وكأن العتاب لبقاء الود فلا تعاتب ذا الضغن . ثم : لا تسأله عما سوف يبدى ولا تقل له لقد أسأت إلي ، فمن ذكرك بسوء في غيبتك لك معه موقفان ، إما أن تعاتبه ، وذلك إذا كان صديقاً تريد بقاء وده . وإما ألا يكون في تلك المنزلة من الصداقة فلا تعاتبه ،وإنما تعلمه أنك عالم بجرمه ، وحتى هذه لا يقبلها زهير ، فالنهي الأول فيه محاولة استبقاء الود إلا أن زهيراً يرفض استبقاءه ،والثاني : لا تحاول أن تشعر ذا الضغن بجرمه لأنه لا قيمة له . وهكذا يمضي النسق في تتابع النهي ، والبيت الثالث يقرر فيه حكمة ، وهي أن الوجوه دالة ومنبئة عن القلوب ، فأنت تعرف الصديق من وجهه كما تعرف العدو منه ،وكأن الوجه صفحة ومرآة للقلب ،تقرأ على ملامح الوجوه ما في طوايا النفوس ، وهذا رائق كما ترى .

ومما أتى النهي فيه طلباً للكف ،قوله :

وقالَتْ أمُّ كَعْبٍ: لا تَزُرْنَا   فلا ،واللّهِ ،مالَكَ من مَزارِ (١)

ومعه اظهار الغضب ،وقدر من التوبيخ والعتب يرشحه قوله بعد ذلك:

رأيْتُكَ عِبْتَني ،وَصَدَدْتَ عَنّي   فكيفَ رأيْتَ عِرْضي ،واصطِباري؟

---

(١) ٣٩ : ١ ، ص ٢٥٠ .

واجمالا لما تقدم ، فإن الذى يبدو واضحاً تركز المعاني التي أتى بها النهي - على قلة وروده في شعر زهير - في التهديد والتخويف والتحذير والتوجيه ، كما أتى في معناه الأصلي مع إفادته شيئاً آخر يفهم من السياق كالتوجيه واظهار الغضب واعلان النصرة . ولعل أبرز ما لحظ في تناول زهير للنهي باعتباره أسلوباً من أساليب الإنشاء هو توالي النهي في بعض الأبيات على صورة تخضع لتسلسل معين يتنزل فيه مع المخاطب درجة بعد درجة ، أوعلى صورة يتسع بها المعنى بعد كل نهي ، على حد ما قد ظهر خلال العرض .

رابعاً : النـداء :

يتناول بحث النداء في شعر زهير أموراً ثلاثة ،أولها : ماستعمله من أدوات النداء . وثانيها : نوع المنادى . وثالثها : معاني النداء وسياقاته .

١ ـ ما استعمله من أدوات النداء :

لم يستعمل زهير من أدوات النداء إلا أداة النداء " يا " ، وهي أم الباب كما يقولون ،وأكثر أحرف النداء استعمالا ،ولهذا لا يُقَدَّرُ عند الحذف سواها (١) . والاصل ألا يحذف حرف النداء ،لان الغرض الاساسي من النداء هو التصويت بالمنادى ليقبل ،والغرض من حروف النداء أنها تعمل على امتداد الصوت وتنبيه المدعو ،ولذا كان حقها الذكر دائما (٢) . بيد أن زهيراً حذف حرف النداء في معظم مواقع النداء لديه ،والغالب في سر الحذف الدلالة على الاقتراب ،وسأعرض لهذه الدلالة عند الحديث عن معاني النداء.

٢ ـ نوع المنادى :

كثر في الشعر الجاهلي نداء الصاحبة والصاحب والطلل والديار والربع والاقوام والصاحب باسمه والممدوح والمهجو باسمهما والجـارة كثرة لا مجال للريب فيها ،فمن نداء الصاحبة قول عنترة :

يا عَبلُ كم من غمرَةٍ باشَرْتُها بالنَّفْسِ ما كادَتْ لَعَمْرِكِ تَنْجلي (٣)

---

(١) ابن هشام (المغني) ٢: ٣٧٣ .
(٢) د . ابراهيم حسن ابراهيم (أسرارالنداء في لغةالقرآن الكريم)ص١٨ .
(٣) (ديوان عنترة) ص ٢٥٥ .

وقول طرفة بن العبد :

قفي ودِّعينا اليوم يابنة مالكِ   وعُوجي علينا من صُدور جمالِـكِ (١)

وقول الحادرة :

فَسُمَيَّ ،ويْحَكِ اهلْ سَمِعْتِ بِغَدْرةٍ   رُفعَ اللِّواءُ بِها لَنا في مَجْمَـعِ (٢)

وقول حاتم بن عبدالله الطائي :

أماويّ ،قد طال التجنُّبُ والهجْرُ   وقد عَذَرتني في طِلابكُمُ العُذْرُ (٣)

وقول المُرقِّش الأصفر :

أفاطِمَ لو أنَّ الناسَ ببلـدةٍ   وأنتِ بأخرى لاتَّبَعْتُكِ هائمـا (٤)

إلى جملة كبيرة من النداءات أخرى ،ومنه نداء الصاحب وهو كذلك ذائع ، كما في قول عمروبن قَميئة :

خَليلَيَّ لا تَسْتَعْجِلاَ أنْ تَزَوَّدا   وأنْ تَجْمَعَا شَمْلِي وَتَنْتَظِرا غَـدا (٥)

وقول الطُفيْل الغَنَوى :

تبصَّرْ خليلي هَلْ تَرَى من ظَعَائِنٍ   تَحمَّلْنَ أمثالَ النِّعاجِ عَقائِلُـهْ (٦)

كما نادى الشعراء الجاهليون العاذل - وهو كثير - كما في قول المُثقِّب العَبْدي :

أعاذِلُ ما يُدْريكَ أنْ رُبَّ بلدةٍ إذا الـ   ـشَّمْسُ في الأيَّام طالَ رُكُودُها (٧)

---

(١) (ديوان طرفة بن العبد)ص ٨٦ .

(٢) (ديوان شعر الحادرة) ص ٥١ .

(٣) (ديوان شعر حاتم بن عبدالله الطائي وأخباره) ص ٢٠٩ .

(٤) (شعر المرقّش الأصفر) ص ٥٣٦ .

(٥) (ديوان عمروبن قَميئة) ص ٦ .

(٦) (ديوان الطُفيل الغنوى) ص ٨٢ .

(٧) (ديوان شعر المُثقِّب العَبْدي)ص ٨٦ .

وقول المُتلمّس الضُّبَعِيّ :

أعاذِلُ ! إنّ المرْءَ رَهْنُ مُصيبة ... صَرِيعٌ لِعافي الطّيْرِ أو سَوْفَ يُرْمَسُ (١)

وقول الخرنق بنت بدر:

أعاذِلَتي على رُزْءٍ أفيقي ... فقد أشْرقْتِني بِالعَذْلِ رِيقي (٢)

ونادوا الطلل والربع والدار ،وهوكثير جدا ،ومنه ما قاله امرؤ القيس:

ألا انعم صَباحاً أيُّها الرَّبْعُ وانطِقِ ... وحَدِّثْ حديثَ الركْبِ إن شئتَ واصْدُقِ (٣)

والنابغة الذبياني :

يا دارَ مَيَّةَ بالعَلْياءِ فالسَّنَدِ ... أقْوتْ ،وطال عَلَيْها سالِفُ الأبَدِ (٤)

وكان من غير المشهور نداء مظاهر الطبيعة ، ومما وقع منه قول امرئ القيس :

ألا أيُّها اللَّيْل الطَّويلُ ألا انْجَلِ ... بصُبْحٍ وما الإصْباحُ فِيكَ بِأمْثَلِ (٥)

وقول عامر بن جوين الطائي :

يا بُرَيْقاً بتُّ أرقُبُه ... كانِساً في المُزْنِ محتَجِبَا (٦)

ونداء السائل ،كما في قول عبيد بن الابرص :

ياأيهُّا السّائِلُ عن مَجْدِنا ... إنّكَ عَنْ مَسْعاتِنا جاهِلُ (٧)

---

(١) (ديوان شعر المُتلمّس الضُّبَعِيّ) ص ١١٠ .
(٢) (ديوان شعر الخِرنق بنت بَدْر بن هِفّان) ص ٢٦ .
(٣) (شرح ديوان امرئ القيس بن حجْر الكِندى) ص ٣٢٠ .
(٤) (ديوان النابغة الذبياني) ص ١٤ .
(٥) (شرح ديوان امرئ القيس بن حجْر الكِندى) ص ٨١ .
(٦) د . يحيى الجبوري (قصائد جاهلية نادرة) ص ١٨٢ .
(٧) (ديوان عَبيد بن الأبرص) ص ٩٨ .

والأعشى :

ألا أيّهذا السائلي : أين يمّمَتْ　　فإنّ لها في أهل يثرب مَوْعِدَا (١)

ونداء الشامت ، في قول عَدِيّ بن زيد العبادي :

أيّها الشامتُ المُعَيِّرُ بالدَّهْـ　　ـرِ أأنتَ المُبَرَّأُ المَوفُورُ (٢)

ونداء القبر ، كما في قول المُتلمِّس الضُّبَعي :

فمُرَّا على قَبْرِي ، فقُوما فَسَلِّمَا ،　　وقُولا : سَقَاكَ الغيْثُ والقَطْرُ ياقَبْرُ ! (٣)

ونداء النفس ، في قول أوس بن حجر :

أيّتُها النَّفْسُ أجْمِلِي جَزَعَا　　إنّ الّذي تحْذَرينَ قد وَقَعَا (٤)

ونداء القلب ، في قول أمية بن أبي الصلت :

ألا أيُّها القلب المقيم على الهوى　　إلى أيّ حينٍ منك هذا التصدُّدُ (٥)

هذا وغيره من جملة نداءات لم تذكر هنا لشيوعها وذيوعها مما يمثل معظم ألوان النداء في الشعر الجاهلي فيما وقعت عليه بقراءة دواوين أبرز الشعراء الجاهليين . وأما نداءات زهير فكانت للعاقل كالصاحب والزوجة والممدوح والمهجو والأعداء ، كما كانت لغير العاقل وانحصرت في نداء الدهر والربع والمنيّة .

---

(١) (ديوان الأعشى) ص ١٠٥ .

(٢) ابن قتيبة (الشعر والشعراء) ١ : ٢٣١ .

(٣) (ديوان شعر المُتلمِّس الضُّبَعِي) ص ٢٥٦ .

(٤) (ديوان أوس بن حجر) ص ٥٣ .

(٥) (شرح ديوان أمية بن أبي الصلت) ص ٣٦ .

٣ - معاني النداء وسياقاته :

يقول ابن هشام : " يا " : حرفٌ موضوع لنداء البعيد حقيقة أوحكماً -[1] ، ونداء زهير يكاد يكون في حقيقته جارياً على أصل معناه ، وهوطلب الإقبال إمّا حقيقة كنداء أم كعب مثلاً ، في قوله :

أقِيمِي،أمَّ كَعْبٍ،واستقِرِّي فإنّكِ ما نَزَلتِ بهاءِ بِـــدار [2]

وإمّا مجازاً ،كنداء الدهر والربع .

وقد لحظت ارتباط معنى النداء بحذف حرفه الذى تكرر في شعره ، وقد كان سر الحذف - غالباً - للدلالة على معنى الاقتراب ، إلا أن هذه الخصوصية البلاغية أخذت ألوانا وصبغة بيانية مختلفة حسب السياق والموقف ،منها الاقتراب من الصاحب كما في قوله :

تبصَّرْ ،خَلِيلِي ،هل تَرَى من ظَعائنٍ كما زالَ، في الصُّبحِ ،الأشاءُ الحوامِلُ؟ [3]

وهي صيغة تكررت في شعره ،ويبدو زهير قريباً من صاحبه وهو يقول له : حَدِّق وأمعن النظر وتأمل ،وكأنه يشير إلى الجهة التي يريد لصاحبه أن يتبصر فيها ،وهذا لا يكون إلا في حال المقاربة الشديدة .
ثم إنَّ الحذف لحرف النداء هنا يعطي نوعاً من الإيجاز الذى تقتضيه سرعة الموقف ،وكأنه عجل يستحث صاحبه علّه يرى ركب الصاحبة ، وهذه هي فطرة الموقف الذي يستدعي الوصول إلى الغاية بسرعة .

ومنها ،الاقتراب من الممدوح ،وهواقتراب نفسي ،كما في قوله يخاطب سناناً :

---

(١) (المغنى) ٢ : ٣٧٢ . (٢) ٣٩ : ٤ ، ص ٢٥٠ .

(٣) ٢٤ : ٥ ، ص ٢١٤ .

إليكَ ، سِنانُ ،الغَداةَ الرَّحِيـ ـلُ ،أَعصِي النُّهاةَ ،وأُمضِي الفُؤُولا (١)

فهو بعيد عنه ،وهوعازم على الرحلة عزماً لا ينقضي يعصي النهاة ويمضي الفؤول ،وفي حذف حرف النداء ود ومقاربة " إليك سنان "وكأنه حاضر مخالط مخالطة قلبية . وربما كان من قبيل الغاء المسافة المكانية فهويستحث نفسه على الرحلة وكأنه سافر وخاطب.

وقد يكون حذف حرف النداء للمقاربة في خطاب من يخاصم ، كقوله :

فَمَهْلاً ،آلَ عَبدِاللهِ ،عَدُّوا مَخازِيَ ،لا يُدَبُّ لها الضَّراءُ (٢)

والذين يخاصمهم " آلَ عبدِاللّهِ " ،وفي ندائهم مناشدة لهم بالبعد عن فعل السوء ،فكان من حكمة الشاعر أن يقذف بهذه النصيحة في قلوبهم وأن يوجههم إليها وأن يقاربهم فيها . ولحذف حرف النداء هنا إشارة أخرى هي : حرص الشاعر على أن يسمع القوم هذا الكلام " عَدُّوا مخازِيَ " ، وعليه فليس القرب هنا قرباً نفسياً للإغراء بالنصيحة فقط ،وإنما هو اقتراب منهم لِيُسمَع صوته الهاتف بهم : " عدوا ..".

ومثله قوله :

وقد قُلنا : خُزَيمةُ ،لن تَنالُوا حَراماً ،والحَرامُ لَكُمْ شَنارُ (٣)

أقام زهير نفسه مقام الناصح الأمين الموجِّه لخصمه ،والحكمة البيانية في حذف النداء دعته لمقاربة الخصم ،وكأنه يبث هذه النصيحة " لن تنالوا حراما " في أذنه حرصاً عليه .

---

(١) ٣:١١ ، ص١٤٦.
(٢) ٣:٦٢ ، ص٧٣.
(٣) ١٠:٢٥ ، ص٢٢٢.

وقد يكون حذف حرف النداء للمقاربة من الصاحبة ،كما في قوله يخاطب زوجته :

أقيمي أُمَّ كعبٍ ،واستقرّي فإنّكِ ،ما نزلتِ بها ،بدارِ [(١)]

" أُم كعب " تودد ومقاربة وغاية في اللطف والمؤانسة وتهدئة لثورتها وغضبتها عليه . وهكذا تمضي الخصوصية البلاغية الواحدة تأخذ ألوانا وأسراراً حسب الموقف الذي قيلت فيه .

ومن لطيف المواطن في حذف حرف النداء ،قوله مخاطباً الربع :

فلما عَرفتُ الدّارَ قُلتُ لربْعِها : ألا انعِمْ صَباحاً ،أيُّها الرَّبْعُ ،واسلَمِ [(٢)]

" الرّبع " : المنزل . يقال : هذا ربعُ بني فلان ،أي منزلهم [(٣)] .

جاء النداء في أسلوب التحية والدعاء للربع بعد طول تأمل وتبين . ويلحظ أن زهيراً قد أشبع الكلام في سياق التحية ، على غير عادته في النداءات كلها لديه ، فقال : "ألا " وهي "افتتاح للكلام" [(٤)] ، و " أي " وصلة إلى نداء ما فيه أل [(٥)] ،وهو هنا : " الربع " ،و "ها " التي للتنبيه على أنه المقصود بالنداء [(٦)] . وكأن زهيراً يحتفي بالكلام احتفاءه بالربع ،وفي إسقاط حرف النداء " يا " إشارة إلى القرب ، ثم إن الخطاب نفسه قائم على أنه أفرغ على الربع شيئا من نفسه وصيره إنساناً يبثه التحية .

---

(١) ٣٩ : ٤ ، ص ٢٥٠ . (٢) ١ : ٦ ، ص ١٩ .

(٣) الأنباري (شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات) ص ٢٤٣ .

(٤) (المصدر السابق) ص ٢٤٤ .

(٥) ابن هشام (المغني) ١ : ٧٨ .

(٦) (المصدر السابق) ٢ : ٣٤٩ .

وقد وقع المنادى محذوفا في بيتين لديه ،وأنبأ مع حذفه عن خصوصية بلاغيـة حسب السياق ، في قوله مخاطباً زوجه :

قُلْت لها : يا اربَعِي ،أقل لك في أشياء ،عندي من علمها خَبَـر (١)

" يااربَعِي : يا هذهِ اربَعِي ،أي : كُفِّي وانتظرى ولا تَعجلي . خَبرٌ : عِلمٌ " (٢)

الأمر فيه مزيج من الحدة والتوتر ،وأسقط المنادى وهو : " أم كعب " إبعادا لها ،وذاك راجع لشدة تبرمه وضيقه من الذى أصابه منها ، وفيه إشارة إلى شيء آخر هو الإحساس بالرغبة عنها حتى إنه ضاق من ذكر اسمها ،وهذا أصل في الإنسان إذا ما ضاق من شيء رغب عن ذكره أو ذكر اسمه . ولا يفوت التنبيه إلى هذا الالتفات المظيم في البيت ، فهو في الأبيات السابقة يتحدث عنها بضمير الغيبة ثم خاطبها بقولـه " يا اربَعِي " ملتفتاً إليها عند مقطع هو فيه شديد الإحساس بأثـر اللوم الفظيع الذى وجهته له .

وقوله ، في سياق آخر :

وصاحبٍ ،كارهِ الإدلاجِ ،قُلتُ لهُ : يا انهضْ خَلِيلي تَبيَّن هل تَرىالسَّدَفا؟ (٣)

أراد أن يدل على حدة نشاطه وسرعته نحو الصاحب لإنهاضه ، فحذف المنادى ،لأن السياق يقتضي الشاعر إعجال أمره ،وكأنه حذفه اختصارا للوقت وإيحاء بما هو عليه من العجلة في انهاض صاحبه .

وأتى النداء مفيداً التنبيه ،في قوله :

فلاتَحسَبَنِّي ،يا ابنَ أَزْنَمَ شَحْمَةً تَعجَّلَها طاهٍ ، بشَيٍّ مُلَهْوَجِ (٤)

---

(١) ٢٨ : ٤ ، ص٢٢٩ .
(٢) ص٢٢٩ .
(٣) ٤٧ : ١ ، ص٢٦١ .
(٤) ٣٢ : ١٥ ، ص٢٣٨ .

استعمل الشاعر حرف النداء " يا " وهو لنداء البعيد ،وكأنّ ابن أزنم بعيد عن نفسه ،والنداء فيه تنبيه واحضار ليحدثه بخطئه ويبين له فساد حسبانه . وقد يرد سؤال عن علة ذكر حرف النداء هنا وهو يحادث خصمه ، وعدم ذكره هناك حينما نادى " آل عبدالله ، وخزيمة " ،والعلة في ذلك بينة ،فالموقف مختلف تماما ؛ فهو هناك موقف نصح وتوجيه ، أما هنا فإن خصمه قد امتهنه وظنه ذليلاً في قومه فناداه بحرف النداء البعيد مبعداً إياه عن نفسه ورافعاً بذلك صوته .

ومن جيد مواقع النداء لديه ، قوله وقد خاطب الدهر - في قصيدة يرثي بها هرم بن سنان :

يا دَهرُ ،قد أَكثَرْتَ فجعتَنَا بسَراتِنا ،وقَرعتَ ،في العَظْمِ (١)

وسَلَبْتنا ما ،لَسْتَ مُعْقِبَهُ يا دَهرُ ،ما أنصفْتَ ،في الحُكْمِ

وفي خطابه إقبال عليه وتعنيف له بما ناداه من أجله . وعلى الرغم من رثاء زهير غير هرم فإنه لم يخاطب الدهر في شأنٍ غير شأن هرم، فهي الفجيعة الوحيدة التي يعاتب فيها الدهر. وقوله " قرعت في العظم " كلمة تطوي ألماً شديداً ، وفي " وسلبتنا يا دهر " عاود النداء ثانية لانه أراد تسجيل هذا الموقف وهذه الإدانة للدهر في هذا الحادث الجلل .

وقد رخّم (٢) الشاعر في ندائه ثلاث مرات فيما وقعتُ عليه ؛ إحداها ؛ عندما خاطب المنيّة ،وهي المرة الوحيدة التي توجه إليها بخطاب في سياق التهديد والاستخفاف برجل من غطفان :

---

(١) ٥٥ : ١١-١٢ ، ص ٢٨٢ .

(٢) " الترخيم " : حذف آخر المنادى تخفيفا . ابن هشام "قطر الندى " ص ٢٩٧ .

كموفِ بنِ شَمّاسٍ ،يُرشِّحُ شِعرَهُ إليَّ ، أُسدِّي سامُنِيَّ - وأُسجِحِي (١)

حيث أقحم النداء بين أمرين ،والترخيم للافضاء إلى الأمر الثاني ،وهو مشير إلى قوة رغبته في هذا الدعاء ، ووراء ذلك ما وراءه من السخرية اللاذعة والتهكم .

وثاني مواقع الترخيم ،قوله :

خُذُوا حَظَّكُمْ ،يا آلَ عِكرِمَ ،واذكُرُوا أُواصِرَنا ،والرَّحْمُ بالغيبِ تُذْكَرُ (٢)

" يا آل عكرم " شاهد نحوى على جواز ترخيم المضاف وعدمه ،والسياق كله تنبيه وتوجيه ،وهوكسابقه حيث أقحم النداء بين أمرين ،وأصل الكلام : " خذوا حظكم واذكروا " ،وكأن رغبته الملحة في الإفضاء الى الأمر الثاني دفعته الى الترخيم . وانظر إلى الالتفات في هذا المقطع ، فقد كان الحديث عن آل عكرم ،وهم من قيس،حديثا بالغيبة حيث قال :

رأيتُ بني آلِ امرىءِ القيسِ أصفقُوا علَينا ،وقالُوا : إنّنا نَحنُ أكثَرُ (٣)

سُلَيمُ بنُ مَنصورٍ ،وأفناءُ عامِرٍ وسعدُ بنُ بكرٍ ،والنُّصُورُ ،وأعصُرُ

ثم توجه بالخطاب إليهم " خذوا حظكم ياآل عكرم " ،وكان توجهه بالحديث عندمقطع مسهم من مقاطع المعنى أراد فيه النصح لهم .

وثالث مواقع الترخيم ،قوله :

يا حارِ ،لا أُرمَيَنْ منكُم بِداهِيةٍ لم يَلْقَها سُوقةٌ ،قَبلِي ،ولا مَلِكُ (٤)

---

(١) ٣:٤٥ ،ص٢٥٩ .

(٢) ١٣ :٣ ، ص١٥٧ .

(٣) ١٣ : ١-٢ ،ص١٥٧ .

(٤) ٩ : ٢٧ ، ص١٣٦ .

وهو من شواهد النحاة أيضا ، ورخّم الشاعر فيه منبئاً عن رغبته الملحة في سرعة افراغ النداء للافضاء إلى ما يريد وهو : " لا أرمين منكم بداهية " .

وخلاصة ما تقدم أنّ زهيراً أجرى النداء في شعره قليلا مقارنة بجريان أسلوبيّ الاستفهام والأمر ، فضلا عن أنه لم يذكره في فاتحة قصائده كما فعل مع الاستفهام والأمر . وكانت دلالة النداء لديه تجرى في الغالب على أصل المعنى . وكان تردد النداء في القصيدة الواحدة قليلاً جدا ، إلا أنّ هذا التردد طوى قيمة معنوية عظيمة هي تسجيل موقف الإدانة لهذا المنادى . ثم إن المتأمل للنداء في شعر زهير لا يغفل ارتباطه بالحذف الذي تنوع بين حذف حرف النداء وهوالكثير ، وحذف المنادى وهو قليل ، وحذف آخر حرف المنادى " الترخيم" وكان لكل حذف علة حسب السياق الذي وقع فيه ، فأمّا حذف حرف النداء ، فقد ظهر لي ما يشبه الضابط الذي يحكمه وهو الاقتراب ، وقد تلونت صوره - حسب الموقف - ليكون اقتراباً من الصاحب أو الصاحبة أو الربع أو الممدوح أو من يخاصم . وأمّا حذف المنادى ، فقد كان سره إمّا ابعادا له - أى المنادى - وإما اختصاراً للوقت . وأمّا حذف آخر المنادى فحكمته البيانية سرعة الإفضاء إلى ما يراد تبليغه .

وقد يرد الإنشاء في لفظ الخبر ، وله مواقع ذكرها البلاغيون ، وهي عند زهير لم تأت - فيما وقفت عليه - إلا في بيتين اثنين ، أحدهما ، قوله يمدح هرماً :

هَنّاكَ رَبُّك ما أعطاكَ ، من حَسَنٍ وحيثُما يَكُ أمرٌ ، صالحٌ ، تَكُنِ (١)

---

(١) ٦ : ١٩ ، ص ١٠٠ .

ف " هنّاك " خبر لفظاً إنشاء معنًى لغرض الدعاء ،ومثل هذا الاستعمال ينبئ عن مزيد حرص المتكلم على قبول الدعاء حتى إنه ليتخيل وقوعه فيلبسه ثوب الماضي الذي وقع ،وأن ربه قد هنّاه .

والآخر ،مخاطباً الجمل :

فزادك أنْعُماً ،وخَلاكَ ذمٌّ   إذا أُدنَيْتَ رَحلِي ،مِن سِنانِ (١)

---

(١) ٤٨ : ١٢ ، ص ٢٦٥ .

الفصل الخامس

تكوينات الجمل وعلاقاتها

- الجمل القصيرة
- الجمل الطويلة
- الجمل التى صارت كأنها جملة
- مواضع الانتقال أو معاقد الفقر
- تحليل نماذج لتكوينات الجمل وعلاقاتها
- الجمل الوصفية والحالية
- استعمالات الشرط
- إن وَإذا ومواقعهما فى شعره
- عنايته بالظروف
- مواقع الفاء فى شعره

تكوينات الجمل وعلاقاتها

أردت بتكوينات الجمل الروابط التي أقامها الشاعر بين المعاني في إطار الجملة ومجموعة الجمل ، وفي إطار الفِقر ، وكيف تتنامى المعاني وتتلاحم أجزاؤها ،وكيف يقف الكلام عند بعض المعاني ويشبع فيها وتتوارد الجمل ثم تصير عدتها كأنّها جملة واحدة ،ثم كيف ينتقل الكلام من باب إلى باب. وبذلك يمكننا أن نمهد السبيل إلى تلمس خيط مضمر في كلام الشاعر يربط أواخره بأوائله من خلال خصائص العربية وعلاقات الجمل فيها .

إنّك ترى الكلام أحياناً وقد عطفت فيه جملة على جملة ، أو عطفت فيه مجموع جمل على جملة ثم تعطف هذه الجملة بما عطف عليها على جملة أخرى قد تكون مشابهة لها في التكوين أومختلفة عنها ،وهكذا . ونظام الكلام في علاقاته وروابط الجمل باب فتح القدماء بحثه بالفصل والوصل ، وقد كان الباقلاني نافذاً حينما ذكر من إعجاز القرآن تأليف المختلف ،وتأليف المختلف هذا عمل لغوي تدمج فيه المعاني ويحكم سبكها وينتقل الكلام من باب إلى باب على وجه واحد من الاستواء. يقول الباقلاني : " ونبين أنّ القرآن - على اختلاف فنونه وما يتصرف فيه من الوجوه الكثيرة والطرق المختلفة - يجعل المختلف كالمؤتلف، والمتباين كالمتناسب ،والمتنافر في الأفراد إلى حد الآحاد . وهذا أمر عجيب ،تبين به الفصاحة ، وتظهر به البلاغة ،ويخرج معه الكلام عن حد العادة ويتجاوز العرف "(١) . وهذا النص النفيس يرشد إلى بحث وحدة الكلام وتآلفه مع تعدد طرقه واختلاف وجوهه ،وهذه مسألة

---

(١) (إعجاز القرآن) ص ٣٨ .

صفية ، مسألة الوحدة مع التعدد ، والتناسب مع ما يبدو من التباين ، ولذلك قال الباقلاني : " وهذا أمر عجيب " ، لأنه إذا كان - أي التناسب مع التباين - في القرآن يخرج عن حدّ العادة ويتجاوز العرف فإنك تراه في كلام الفحول نازلاً على حدّ العادة وواقعاً على مجرى العرف ، وهذا البحث يحاول أن يُلمَّ بشيءٍ منه في كلام زهير. وقد أشار الباقلاني في مواطن متفرقة إلى استواء الآيات وتلاحم أجزائها وأبان عن المعابر العجيبة في اللغة والتي ينتقل الكلام فيها من معنى إلى معنى (١) .

كما أشار الشيخ عبد القاهر إلى نوع من عطف الجمل دقيق فيما كتبه حول بيتي المتنبي :

تَوَلَّوْا بَغْتَةً ، فَكَأَنَّ بَيْناً	تَهَيَّبَنِي ، فَفَاجَأَنِي اغْتِيَالاَ
فَكَانَ مَسِيرُ عِيسِهِمُ ذَمِيلاً ،	وَسَيْرُ الدَّمْعِ إِثْرَهُمُ انْهِمَالاَ

" قوله : " فكان مَسِيرُ عِيسِهِمُ " ، معطوف على " تَوَلَّوا بَغْتَةً " ، دون ما يليه من قوله : " ففاجأني " ، لأنا إن عطفناه على هذا الذي يليه أفسدنا المعنى ، من حيث أنّه يدخل في معنى " كأنَّ " ، وذلك يؤدي إلى أن لا يكون مسير عيسِهم حقيقةً ، ويكون مُتَوَهَّماً ، كما كان تهيُّبُ البين كذلك . وهذا أصلٌ كبير . والسبب في ذلك أنَّ الجملة المتوسطة بين هذه المعطوفة أخيراً ، وبين المعطوف عليها الأولى ، ترتبط في معناها بتلك الأولى ، كالذي ترى أنَّ قوله : " فكأنَّ بيناً تَهيّبني " ، مرتبط بقوله " تولّوا بغتة " ، وذلك أنَّ الثانية مُسبَّبٌ والأولى سَببٌ . ألا ترى أنَّ المعنى : " تولّوا بغتةً فتوهمت أنّ بيناً تهيّبني ؟ "

---

(١) انظر ما كتبه حول هذا ، د. محمد أبو موسى في (الإعجاز البلاغي) ص ٢٠٨-٢٢٠ .

ولا شك أنّ هذا التوهّم كان بسبب أن كان التّولّي بغتة . وإذا كان كذلك، كانت مع الأولى كالشيء الواحد ،وكان منزلتُها منهامنزلة المفعول والظرف وسائر ما يجيء بعد تمام الجملةمن معمولات الفعل ،مما لا يمكن إفراده عن الجملة ،وأن يُعتدّ كلاماً على حِدَتِهِ ... فأمر العطف إذن ،موضوعٌ على أنّه تعطف تارة جملةً على جملة ،وتعمد أخرى إلى جملتين أو جُمَل فتعطف بعضاً على بعض ، ثم تعطف مجموع هذى على مجموع تلك "(١).

إلا أنّ مثل هذه الإضاءات لم تجد بعد ذلك جهوداً تمهد سبيلها وتذلّل مسائلها حتى تكون كغيرها من أبواب البلاغة كالتقديم أو التعريف مثلاً ، وهكذا فقد وقف الفصل والوصل عند نطاق الجملتين ،ثم إن دراسته انحصرت فيما ليس له محل من الإعراب .

والدراسة في هذا الفصل سوف تتلمس طريقاً غير مسلوك ،والغرض -كما قدّمت - تعرّف الروابط والمعاقد التي عقد عليها الشاعر جمله وفِقَرَه ،وربط أحداثه وصوره ، لأنّ البلاغة عنيت بالجملة والحدث والصورة عناية عظيمة ،ولكنها لم تُعن العناية الكافية بمعاقد المعاني وانتقالات الأفكار . وهذا البحث يقتبس كثيراً من النحو ،ولا حرج عليه في هذا ، لأنّ العلاقة بين النحو وعلم المعاني علاقة وثيقة . وكلام عبد القاهر الذي فتح به باب دراسة تكوينات الجمل وعلاقاتها اقتبس فيه من النحو ، بل إنّ تحليله لبيتي المتنبي اللّذين أشرت إليهما تحليل نحوي يقوم على ملاحظة الروابط والعلاقات ،وكذلك كلامه في الفصل الذي يدق فيه الصنع ،ويتحد فيه الوضع ،والذي سماه الباب العالي والنمط الأعظم اقتبس فيه من النحو كثيراً ،وليس هناك سبيل

----

(١) (دلائل الإعجاز) ص ٢٤٤- ٢٤٥.

إلى بحث تكوينات الجمل وعلاقاتها إلا هذا السبيل ، على أنني سوف اجتهد في العناية ببيان الأسرار المعنوية فيما يخفى منها و يحتاج إلى بيان . وعلى كل حال هذه خطوة على الطريق أرجو أن أصيب فيها شيئاً من النفع .

وسوف يكون من مباحث هذا الفصل - أيضاً - البحث في الجمل الفرعية كالوصفية والحالية ،وبيان نظام تواردها في شعر زهير ، والبحث في أسلوب الشرط عنده باعتباره وسيلة من وسائل ربط الكلام ، مع الوقوف خاصة إزاء " إن " و "إذا " ومواقعهما في شعره ،وعنايته بالظروف ،ثم البحث في مواقع الفاء خاصة .

*

<u>الجمل القصيرة :</u>

تميّز استعمال زهير للجمل القصيرة بالقلة ،وليس بمدعاة للاستقراب إذا قلنا أننا قد نأخذ وقتاً طويلاً حتى نقع عليها ، ذلك أن أكثر جمله كانت تتداخل بصورة يصعب على المرء عزل الكلام بعضه عن بعض فيها . ولعل أقصر جمله ما تراه في مثل قوله :

دَعْها ،وسَلِّ الهَمَّ عَنكَ ،بِجَسْرةٍ تَنجُو نَجاءَ الأَخْدَرِيِّ ،المُفْرَدِ (١)

فـ " دعها " جملة قصيرة تكونت من كلمة واحدة وقعت عند انتقال الكلام ،وهي وإن كانت جملة مستقلة نحوياً أضافت معنى الأمر بترك ما أمر بتركه - أي الصاحبة وديارها - فإنك لا تستطيع إغفال ارتباطها بما قبلها ،ثم إنّ المعنى لا يتم إلا بارتباطها بالطرف الآخر الذي هو " سَلِّ الهمَّ عنك " .

----

(١) ٢١ : ٤٥ ، ص ١٩٥ .

وقريب منها قوله :

دَعْ ذا ،وَعَدِّ القَولَ في هَرِمٍ خَيرِ الكُهُولِ ،وَسَيِّدِ الحَضَرِ (١)

ف " دَعْ ذا " جملة قصيرة تكونت من كلمتين وقعت - كسابقتها - عند مقطع من مقاطع انتقال الكلام ،وهي جملة مستقلة نحوياً وأفادت معنى الانصراف عن موقفٍ ما قبلها ، فهي على ذلك مرتبطة به ،ثم هي مرتبطة بما بعدها لضرورتها في تجلية المعنى من حيث إن بيان الدعوة إلى الانصراف عن موقف يتطلب دعوة إلى الانصراف لغيره وهو: "وعدِّ القول ... " .

ومن الجمل القصيرة في شعره ،قوله :

أذلكَ ،أم أقَبُّ البَطْنِ ،جأْبٌ عليه ،من عَقيقتِهِ ،عِفـــاءُ ؟ (٢)

ف " أذلك " جملة قصيرة جداً بنيت على الحذف - أراد : أذلك الظليم يشبه ناقتي أم هذا الحمار ؟ - و مكونة من كلمة واحدة وهي اسم الإشارة الذي ربطها بما قبلها ، ثم إنك لا تستطيع إهمال ارتباطهـــا بما بعدها في تجلية المعنى المراد من عقد تشبيه آخر عليها .

وقد تطول هذه الجملة القصيرة قليلاً ،كما في قولـه :

وفي الحِلمِ إدهانٌ ،وفي العَفوِ دُرْبةٌ وفي الصِّدقِ مَنْجاةٌ ،مِن الشَّرِّ ،فاصْدُقِ (٣)

والشاهد : " وفي الحلم إدهانٌ " و " وفي العفو دربة " ، والمعاني كما ترى حِكَمٌ قصار مستقل بعضها عن بعض .

---

(١) ٤ : ٤ ، ص ٧٧ .

(٢) ٣ : ١٧ ، ص ٥٩ .

(٣) ١٦ : ١٧ ، ص ١٧٩ .

وقوله :

وإلى سِنانٍ سَيرُها ، ووَسِيجُها حتّى تُلاقِيَهُ ، بِطَلْقِ الأَسعُدِ (١)

ف " إلى سنان سيرها " جملةقصيرة غير منقطعة عما قبلها ، ويلحظ ارتباطها بما بعدها ، كما يلحظ العطف على جزء منها بقوله " ووسيجها " .

ومثلها قوله :

إلى هَرِمٍ تَهجِيرُها ، ووَسِيجُها تَرَوَّحُ ، منَ لَيلِ التَّمامِ ، وتَغتَدي (٢)

ومنها قوله :

إلى هَرِمٍ ، سارَتْ ثلاثاً ، من اللِّوى فَنِعْمَ سَيرُ الواثِقِ ، المُتعمِّدِ (٣)

*

الجمل الطويلة :

وشيوع القول بأن الجملة الشعرية تكون غالباً جملة قصيرة ليس على اطلاقه ، فنحن مع زهير - مثلاً - لحظنا كثرة الجمل الطويلة لديه التي هي فعلاً جملة واحدة حتى في المصطلح النحوى ، والتي كانت تمتد حتى تصل إلى ثلاثة أبيات مثلاً ، ولم يكن سبب طولها بعد المبتدأ عن الخبر ، وإنما كان لأسباب أخرى ؛ منها بعد الجواب عن فعل الشرط كما في قوله :

إذا لَقِحَتْ حَربٌ ، عَوانٌ ، مُضِرَّةٌ ضَروسٌ ، تُهِرُّ النّاسَ ، أَنيابُها عُصْلُ (٤)

قُضاعيَّةٌ ، أو أُختُها ، مُضَرِيَّةٌ يُحَرَّقُ ، في حافاتِها ، الحَطَبُ الجَزلُ

----

(١) ٢١ : ١٨ ص ١٩٨ .

(٢) ١٤ : ٣٠ ، ص ١٦٧ .

(٣) ١٤ : ٣١ ، ص ١٦٧ .

(٤) ٥ : ١٦-١٩ ، ص ٨٨-٨٩ .

تَجِدْهُم ،على ماخَيَّلتْ ،هُم إزاءَها   وإنْ أفسدَ المالَ الجَماعاتُ ،والأزْلُ

يَحُشُّونها ،بالمَشرفيّةِ ،والقَنا   وفتيانِ صِدْقٍ ،لا ضِعافٌ ،ولا نُكُلُ

وسبب بعد جملةالجواب عن الشرط هو هذه الصفات المتتابعات للحرب ، فهي " حرب ،عوان ،مُضِرَّة ،ضروس ، تُهِرُّ الناس .. "،وكما تكونت جملة الشرط من بيتين تكونت جملةالجواب أيضاً من بيتين ، وبذلك كانت الأبيات الأربعة جملة واحدة ، شرط وجوابه .

ومن أسباب طول الجملةالواحدة عنده ،مجيء جمل هي كالجزء من جملة الشرط ، كما في قوله :

من يتجرّم ،لي ،المناطق ظالماً   فَيجْرِ ،إلى شأوٍ بعيدٍ ،ويَسْبَحِ (١)

يَكُن كالحبارى ،إن أُصيبت فمثلها   أُصيب ،وإن تُفْلِت من الصَّقرِ تَسْلَحِ

كعوف بن شمّاسٍ ،يُرشِّح شِعْـرُه   إليَّ ،أُسدِّي - يا مَنيّ - وأُسجحي

فقوله : " من يتجرّم ... " إلى قوله : " كعوف بن شماس " تعتبر جملة طويلة ،ومتطلباتها هي : " إن أصيبت .." و " إن تفلت .." ، ولو قلنا أنّ جملة الشرط وجوابه تنتهي عند قوله " يكن كالحبارى" لكان الكلام غامضاً لم يفد فائدة يحسن السكوت عليها ،لأنّ الشاعر أراد كالحبارى " في هذه الحالة التي وصفها " إن أصيبت فمثلها .." ، ثم إنّ جملة " كعوف بن شماس .." تعتبر كالجزء من جملةالشـرط.

ويلحظ أن زهيراً لم يجعل الحديث عن عوف بن شماس رأس كلامه ، وإنّما أدرجه شاهداً ومثلاً لتلك القضية العامة التي بدأ بها ،وفي ذلك من الانتقاص لعوف ما ترى في عدم الحفاوة بهذا الخصم الذي يهاجم،

---

(١) المقطّعة ٤٥ ص ٢٥٩ .

ومن أسباب طول الجملة الواحدة عند زهير مجيء جواب القسم قسماً وشرطاً ،كما في قوله للحارث بن ورقاء الصيداوي :

تعلَّمن - هالَعَمْرُاللّه - ذا قَسَماً فاقصِد بذرعك ،وانظر أين تنسلك ؟ (١)

لئن حَلَلْتَ بجوٍّ ،في بَني أَسَدٍ في دِينِ عَمْرو ،وحالَتْ بَينَنا فَدَكُ

ليأتِيَنَّك مِنّي مَنْطِقٌ ،قَذِعٌ باقٍ ،كما دَنَّسَ القُبطيّةَ الوَدَكُ

وقد استغرقت جملة القسم ثلاثة أبيات ،ونسجها هكذا:قَسَمٌ أوّلُ حَشَدَ له الشاعرعناصرتوكيدية " تعلّمن - هالعمر اللّه - ذا قسماً " ف " هاء للتنبيه "و " لعمر اللّه " قسم و " ذا للإشارة والتوكيد " و " قسماً " للتوكيد ،ثم جاء بجملة معترضة " فاقصد بذرعك ، وانظر أين تنسلك " ،ثم جاء جواب القسم " لئن حللت . . ليأتينك " وهو جملة مكونة من قسم وشرط ،فاللام في " لئن " موطئة للقسم ،و "إن "شرطية ، وقد حذف جواب شرطها لدلالة جواب القسم الثاني عليه ،وهو " ليأتينك . . " وهكذا بدت ملامح هذه الجملة الطويلة الواحدة ، وبان سرّ طولها لمجيء جواب القسم قسماً وشرطاً .

ومن أسباب طول الجملة الواحدة عند زهير ، تَضَمُّن جواب القسم فعلاً تعلق به عدة مفعولات ،كما في قوله :

تاللّه ذا قَسَماً ،لقد عَلِمَتْ ذُبيانُ ،عامَ الحَبْسِ ،والأَصْرِ (٢)

أنْ نِعْمَ مُعتَرَكُ الجِياع ،إذا خَبَّ السَّفيرُ ،وسابِئُ الخَمْرِ

---

(١) ٩ : ٣١-٣٣ ،ص ١٣٧ .   (٢) ٤ : ٥-٩ ،ص ٧٧-٧٩ .

وَلَنِعْمَ حَشْوُ الدِّرعِ أَنـــتَ ... إِذا دُعِيتَ : نَزالِ ،وَلُجَّ في الذُّعْرِ

ولَنِـبْــعْمَ مأْوَى القَومِ ،قد عَلِمُوا ... إنْ عَضَّهُم جُلٌّ ،من الأَمْـــرِ

ولَنِعْمَ كافِي من كَفَيتَ ،و مَن ... تَحمِلْ له تَحمِلْ ، على ظَهْـــرِ

فقوله : " أنْ نعم معترك الجياع " مفعول به لـ " علمت "، وقد عطف على هذا المفعول عدة مفعولات أخرى : " ولنعم حشو الدرع أنت" و " ولنعم مأوى القوم " و " ولنعم كافي من كفيت " ، ولذا كانت هذه الجمل المعطوفة داخلة في حيّز " علمت " ومفعولاً به له . وهوكما ترى نمط مختلف في طول الجملة ، لأنّ في جواب القسم فعلاً اقتضى عدة مفعولات عن طريق العطف .

ومن أسباب طول الجملة عند زهير أيضاً بُعْدُ ما هو في حكم مقول المقول كبعد المبلغ به عن فعل التبليغ ،كما في قوله :

أَبلِغْ بني نَوفَلٍ عَنِّي ، فقد بلَغَت ... مِنِّي الحفيظةُ ،لمّا جاءني الخبرُ (١)

القائلينَ : يساراً ،لا تُناظِرُهُ ... غِشًّا لسيِّدِهم ،في الأمر إذْ أمروا

إِنَّ ابنَ ورقاءَ لا تُخشى غوائلُهُ ... لكنْ وقائعُهُ ،في الحرب ،تُنتظَـر

وفيه أقحم الشاعر بين الفعل " أبلغ " وما يراد تبليغه جملة معترضة ووصف فيها حفيظته لما جاءه الخبر . وهكذا فقد كان سبب الطول هو الفصل بين الفعل و مفعوله بهذه الجملة المعترضة " فقد بلغت مني الحفيظة لما جاءني الخبر " ، والوصف لبني نوفل " القائلين يساراً لا تناظره .." . وهذا الاعتراض في شعر العرب ومنثورها مما نوّه به ابن جني (٢) وعدّه دالاً على فصاحة المتكلم وقوة نَفَسه واستداد نَفَسِه .

---

(١) ٢٦ : ١ - ٣ ، ص ٢٢٤ .

(٢) (الخصائص) ١ : ٣٤١ .

الجمل التي صارت كأنها جملة :

وهناك نمط من الجمل كثير - في شعر زهير - تداخلت وترابطت فيه هذه الجمل ترابطاً وثيقاً وجرت فيها تفصيلات وتدقيقات هي من أساس المعنى وجوهر الفكرة ،ثم استوعبت هذه الفكرة من أولها إلى آخرها فصارت كالجملة الواحدة أو قل الفقرة التي كأنّها جملة ،وكان هذا في العبارة عن معنى متماسك بطبيعته ،وذلك كما في وصف الصقر والقطاة في الأبيات التالية ،حيث شبه فرسه بالقطاة ،ووصف القطاة :

كأنَّها من قَطا الأجباب ،حلاّها وِردٌ ،وأَفَرَدَ عنها أُختَها الشَّرَكُ (١)

جُونيّةٌ ،كحَصاةِ القَسْمِ ،مَرتَعُها بالسِّيِّ ما تُنبِتُ القَفعاءُ ،والحَسَكُ

قامت بنية البيتين على خمس جمل :

كأنَّها من قَطا الأَجباب .

حلاّها ورد .

وأَفَرَدَ عنها أُختَها الشَّرَكُ

جُونيةٌ كحصاة القسم

مرتَعها بالسِّيِّ ما تُنبِتُ القَفعاءُ والحَسَكُ

وجملة " حلاّها ورد " حالية أفادت بيان خبر هذه القطاة وأنّها منعت عن الماء ،والجملة الثالثة : " وأفرد عنها أختها الشرك " معطوفة على " حلاّها ورد " لتكشف بذلك حالاً من أحوال عزلتها وأنها أفردها الشبك عن أختها ، والجملة الرابعة : " جونية كحصاة القسم"

---

(١) الأعلم الشنتمري (شعر زهير بن أبي سلمى) ٥ : ١٣-١٤ ، ص ٨٢ .

مقطوعة لبيان وصف القطاة وأنّها سوداء ممتلئة من النوع الجيد ،والجملة الأخيرة : " مرتعها بالسّيّ ما تنبت القفعاء والحسك " مقطوعة لبيان خصبها وخصب عيشها ،والقطع في هذه الجمل من باب كمال الانقطاع لعدم الجامع،لأنّ كل جملة تستقل بمعنىً وبيان حال من أحوال هذه القطاة ،ومع هذا القطع ترى الجمل قد تمّ دمجها وظهرت كأنّها جملة لأنها تتابعت لبيان شيء واحد هو القطاة .

ويقول بعد ذلك ذاكراً الصقر :

أَهْوَى ،لَها ،أَسْفَعُ الخَدَّينِ ،مُطَّرِقٌ رِيشَ القَوادِمِ ،لم يُنْصَبْ له الشَّبَكُ (١)

والبيت جملة واحدة ،وقوله : "مُطّرق ريش القوادم" - وهو اجتماع الريش- وصف للفاعل الذي هو " أسفع الخدين " والسُّفعة : سواد يضرب إلى الحمرة ،وهذان وصفان جليلان من أوصاف الصقر " سفعة الخد واطّراق الريش" فهما أعتق له . وقوله " لم يُنصب له الشبك " وصف آخر لأسفع الخدين بأنه وحشيٌّ لم يؤخذ ولم يذلل بصيدٍ فذلك أشدّ له ،وهكذا تلاحقت هذه الأوصاف الثلاثة للصقر لتبيّن أنّ القطاة قد رميت بآبدة من أوابد الشر ، إنها صقر هذا وصفه .

وقوله :

لا شيءَ أَسرَعُ مِنها ،وهْي طيِّبةٌ نَفْساً ، بما سَوفَ يُنجِيها ،وتَتَّرِكُ (٢)

البيت جملة واحدة داخلتها جملتان حاليتان ،الأولى : "وهي طيّبة نفساً ". والثانية : "تتّرك " ،لأنّها واثقة من سرعتها . والبيت كله

---

(١) ١٥ ،ص ٨٣ .   (٢) ٥: ١٦ ،ص ٨٣ .

استئناف معنىً لبيان موقف القطاة من هذا الأسفع الذي أُتيح لهــا ورميت به .

والبيت السابع عشر منقطع عما قبله :

دُونَ السَّماءِ ،وفَوقَ الأرضِ ،قَدرُهُما عِند الذَّنابَى ،فلا فَوتٌ ،ولا دَرَكُ (١)

لأنّه بيان لحالة جديدة ،هي حالتهما وقد بدأ الصراع ، فهو من كمال الانقطاع ،وسبب الفصل فقدان الجامع المخصوص ،مع أنّــه داخل في صميم القصة وأحداثها ،لأنّ الشاعر تحدث في البداية عن سرعتها وثقتها في نجائها ،وهذا تحديد للمكان الذي دار فيه الحدث وكان مسرحاً للصراع .

والبيت الذي يليه :

عِندَ الذَّنابَى ،لها صَوْتٌ ،وأَزْمَلةٌ يكادُ يخطَفُها طَوراً ،وتَهْتِلِكُ (٢)

موصول من غير واصل ،لأنّه مؤكِّد لمعنى : " فلا فوتٌ ولا درك "، ويقول الأعلم " عندالذَّنابى لها صوت " أعاد اللفظ توكيداً " (٣) فهو من كمال الاتصال . والأعلم يعلم أنّ البيت يزيد عن سابقه زيادةملحوظة في هذا الغناء المرتاع ، " لها صوت وأزملة " فهو من التوكيد الــذي يكون بفحوى الكلام ،وهكذا فقد ركّز الأعلم على هذه الرابطة اللفظيــة " عند الذنابى " وقبله " عند الذنابى " .

---

(١) ص ٨٤ . (٢) ٥ : ١٨ ، ص ٨٤ .

(٣) (شعر زهير بن أبي سلمى) ص ٨٤ .

والبيت الذي بعده :

حتّى إذا ما هَوَتْ كفُّ الوليدِ لها　　طارت وفي كفِّهِ ،من ريشِها ،بِتَكُ (١)

قلق به موضعه ، وهوفي صنعة ثعلب قبل : " أهوى لها .. " ، وهو الأقرب ،لأنّ الصراع دون السماء وفوق الأرض ،فلو جعلنا " حتّى إذا ما هوت " بعده فهذا يعني أن القطاة ما زالت على الأرض قبل صراعها مع الصقر ، والذي يبدو لي قلق موضع هذا البيت به إذ لم يرد ذكر للوليد قبل ذلك في هذه القصة . وهكذا فإن تحليل تكوينات الجمل وعلاقاتها مما يتوخى به الكشف عن الروابط الداخلية في بناء القصيدة وبالتالي يكشف ما عساه يكون من خلل في رواية بعض الأبيات.

وقوله :

ثم استمَرَّتْ إلى الوادِي ،فألجأها　　منهُ ،وقد طَمِعَ الأظفارُ والحَنَكُ (٢)

استمرار لمرحلة الصراع بينهما يقول : "ثُم" ،وكأنّ لحظة الصراع هذه امتدت لأنّ " ثم " تفيد التعقيب والتراخي .

وقوله :

حتّى استغاثَتْ بماءٍ ،لا رِشاءَ لهُ　　من الأباطِحِ ،في حافاتِهِ البُرَكُ (٣)

مُكلّلٍ بأُصولِ النَّبتِ ، تَنسُجُهُ　　ريحٌ ،خَرِيقٌ ،لضاحي مائِهِ حُبُكُ

البيتان جملة واحدة لأنّهما أوصاف للماء ،و" حتى " تبين عن غاية هذا الموقف ونهايته ،والجملة بعدها فعلية داخلتها أوصاف للماء فهو ماء منبطح على وجه الأرض لا يستخرج بالرّشاء ،وفي حافاته هذا الطير

---

(١) ٥: ١٩، ص ٨٥.　　(٢) ٥ : ٢٠ ،ص ٨٥.

(٣) ٥: ٢١-٢٢ ، ص ٨٥.

الوادع ، وهو محفوف بنبت ،كما أنَّ الريح تنسج عليه الطرائق ،وهـذا كلام واحد كما ترى .

وقوله :

كما استغاثَ ،بِسَيْءٍ ،فُزَّغَيطَلَةٍ خافَ العُيُونَ ،فلم يُنظَرْ به الحَشَكُ(١)

فزَلَّ عنها ،وأوفَى رأسَ مَرقَبَـةٍ كمَنصِبِ العِترِ،دَمَّى رأسَهُ النُّسُكُ

الجار والمجرور " كما " متعلق بـ" استغاثت " أي : استغاثت استغاثة كما استغاث ،وكأنَّ الجار والمجرور هذا داخل في بنيةوتكوين جملة " استغاثت " ، وقوله " فزلَّ عنها " معطوف على قوله : " استغاثت بماء " ،ومرتب عليه . ولو اعتبرت المعطوف والمعطوف عليه كالشيء الواحد ،فإن لدينا جملة واحدةطويلة جداً فيها تداخلات من جمل حالية ووصفية ، كما يتفرع من الحال آخر ومن الوصف وصف آخر ،فالأبيات الأربعة الأخيرة : الثلاثة الأول منها مُكوّنةٌ جملة واحدة ،وراجع النظر تجد " لا رشاء له " وصف بجملة للماء ،و " في حافاته البرك " جملة ثانية وصف للماء ،و " مكلل " وصف ثالث للماء بالمفرد ، وقوله : " تنسجه ريح " جملة فعلية وصف للماء ، وقوله : " خريق " وصف بالمفرد لـ" ريح " ،وقوله :" لضاحي مائه حُبُك " وصف خامس بجملة اسمية ، فهذه جمل داخل بعضهافي بعض أتت مرة وصفاً بالمفرد وأخرى بالجملة : فعليةأواسمية ،وهذا كله داخل في جملة واحدة . وقوله "كما " جار و مجرور متعلّق بقوله السابق " استغاثت " ،وقوله :" خاف العيون " جملة فعلية وصف لـ " فزَّ " ،وقوله : " فلم يُنْظربه الحشك " معطوف على قوله : " خاف العيون"

----

(١) د : ٢٣-٢٤ ،ص ٨٦ .

فهو داخل في الصفة . وإلى هنا فإنّك تلحظ ضروب التنويع والترابط في داخل الجملة نفسها ، ثم هذا الامتداد الذي استغرق هذه الأبيات الثلاثة . وقوله : " وأوفى رأس مرقبة " معطوف على " فزلّ عنها " ، و" كمنصب العتر " وصف بالمفرد لـ " رأس مرقبة " ، و" دمّى رأسه النّسك " وصف بالجملة الفعلية لـ " منصب العتر " ، وكلّ ذلك داخل في جملة : " وأوفى رأس مرقبةٍ " ، وهكذا فإنّ قوله : " وأوفى رأس مرقبة " وما يتصل به معطوف على قوله : " فزلّ عنها " ، ثم إنّ " الفاء " التي في " فزلّ عنها " حملت هذه الجملة وما عطف عليها وعطفتها على قوله : " حتى استغاثت " ، وبهذا ترى العجب في نسج الكلام . ومثل هذه التكوينات في الأبيات ما يصدق عليه قول عبد القاهر في فصل النظم يتحد في الوضع ويدقّ فيه الصنع : " واعلم أنّ ما هو أصلٌ في أن يدقّ النّظرُ ، ويغمُض المسلك ، في توخّي المعاني التي عرفت : أنْ تتّحد أجزاء الكلام ويدخل بعضها في بعض ، ويشتدّ ارتباط ثانٍ منها بأوّلٍ ، وأن تحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس وضعاً واحداً ".(1)

*

<u>مواضع الانتقال أو معاقد الفقر :</u>

وهناك نمط من التركيب والعلاقات ترى فيه جملة من الجمل تتداخل وتتراكب وتتعاطف حتى تُكوِّن حقيقة مكتملة ثم ينتقل الكلام من معنى إلى معنى في إطار الغرض الواحد ، أو من غرض إلى غرض. فأمّا التي ينتقل فيها الشاعر من معنىً إلى معنى في إطار الغرض الواحد ،

---

(1) (دلائل الإعجاز) ص ٩٣ .

فمثل قوله :

صَرَمَتْ ،جَدِيدَ حبالِها ،أسماءُ ... ولَقد يكُونُ تَواصُلٌ ،وإِخـــاءُ (١)

فَتَبَدَّلَتْ ،مِن بَعدِنا ،أو بُدِّلتْ ... ووَشَى وُشاةٌ ،بَيْنَنا ،أَعــداءُ

فصَحَوتُ عَنها ،بَعدَ حُبٍّ ،داخِلٍ ... والحُبُّ ،تُشْرِبُهُ فُؤادَكَ ،داءُ

ولِكُلِّ عَهدٍ ،مُخْلَفٍ ،وأمانــــةٍ ... في النّاسِ ،من قِبَلِ الإِلهِ ، رِعاءُ

" صَرمتْ : قَطعتْ . ومنه : سيفٌ صارمٌ ، و منه الصّرائم من الرّمل . حبالها : مودّتها . يريد قد كان بيننا قبل اليوم تواصُلٌ وإخاءٌ... الوشاة : واحدُهم واشٍ ، وهو النّمّام ،أُخِذ من الوشي الذي فيه الحمرةُ والصُّفرةُ . وتبدَّلتْ : تغيَّرت . وبُدِّلتْ : غُيِّرت ... فَصَحوتُ عنها أي: صرفتُ قلبي عنها . تُشرِبُه ،عن أبي عَمْرٍو : تُدْخِلُه . والمعنى : الحبُّ داءٌ تُشْرِبُه فؤادك . . . مُخلَفٌ : يُخلَفُ . وأمانةٌ : لا تُؤدَّى . رعاءٌ أي : حَفَظــةٌ من قِبَلِ الإله يحفظونه . . . يقول لها : للمُخلِفِ ولصاحبِ الأمانةِ كليهما ، من قبل الإله ،مَنْ يَرعاه له ويكافئه بـه ". (٢)

قوله : " ولقد يكون تواصلٌ وإخاءٌ " جملة حالية ،أي صرمت أسماء وقد كان بيننا تواصلٌ وإخاءُ ، وقوله : " فتبدّلت " معطوف على "صرمت " ،و " ووشى " معطوف على " تبدّلت " ،وقوله في البيت الثالث : "فصحوت" معطوف على "تبدّلت " وهو أقوى من عطفه على "صرمت " ،لأنّه لا يكـــون قد صحا عنها إلا بعدما تبدّلت لا بعدما صَرَمَتْ ؛ فهي قد تصرم وهو موصول بها ،وهذا من شأن الصبوة ،وهو من المشهور في هذا الباب .

وقوله : " داخل " وصف بالمفرد لـ " حُبٍّ " ، وهو وصف حسن .

---

(١) ٤١ : (١-٤) ،ص٢٥٣ . (٢) ص٢٥٣ .

و " الحب تشربه فؤادك داء " جملة نُحِتَت نحتاً مما قبلها ؛ فهي انتزاع منها امتد به معنى وصف الحب بأنه " داخل " أي مشرب في الفؤاد ، ثم هو إذا كان كذلك فهو داء ، وهذا ربط الجملتين ، وقوله : " ولكلّ عهد مُخْلَفٍ وأمانةٍ " تعليق على " صرمت جديد حبالها أسماءُ " فالحبال كأنّها عهود ومواثيق ، وهو من عطف القصة على القصة ، وهكذا يبدو اتصال أربعة الأبيات هذه ، وكأنّها جملة واحدة بكثرة المتعاطفات ؛ فجملة " تبدّلت " وهذا القبيل الذي عطف عليها معطوف على " صرمت " ، وهو نمط كما قلت سابقاً تتداخل فيه الجمل حتّى تكون حقيقة أو فكرة مكتملة ، ثم تجد حرف العطف هذا يرمي بهذه الفكرة وما تعلق بها وارتبط من الجمل على الكلام الأول الذي هو " صرمت " .

ثم انتقل إلى :

خَودٌ ، مُنعّمةٌ ، أنيقٌ عيشُها ... فيها ، لِعَينِكَ ، مَكْلأٌ وبَهاءُ(١)

وكأنّها يَومَ الرَّحيلِ ، وقَد بَدا ... منها البَنانُ ، يَزينُهُ الحِنّاءُ

بَرْدِيّةٌ ، في الغِيلِ ، يَغذُو أصلَها ... ظِلٌّ ، إذا تَلَعَ النَّهارُ ، وماءُ

أو بَيضةُ الأُدْحِيِّ ، باتَ شِعارَها ... كَنَفَا النَّعامةِ : جُؤجُؤٌ ، وعِفاءُ

وهو ليس انتقالاً من غرض إلى غرض ، وإنّما هو انتقال في حدود الغرض الواحد ؛ فالكلام الأول وصف لعلقة أسماء بنفسه وحال هذه العلقة وأنّها صرمت وتبدلت وأنّه صحا عنها ، ثم انتقل الكلام إلى الحديث عنها ووصفها هي ، وهو على ذلك داخل في الباب الأول لأنّه لا يزال حديثاً عن الصاحبة ، وغريب أن يبدأ الحديث عن صرمها ثم ينهك في صفاتها ويحلّل أحوالها بعدما صحا عنها !! ولعلّه نوع من الوفاء والحديث

---

(١) ٤١ : ٥ - ٨ ، ص ٢٥٣ - ٢٥٤ .

بعد الصرم القائم على الذكرى،وهولا يبالغ لأنّه يرى الحقيقة بعين مجرّدة هادئة مع صرمها حبال ودّه ، وكثير من الشعراء ينتقلون إلى الرحلة وأحوالها بعد الحديث عن قطع العلقة بالصاحبة وأنّه صحا عنها فلأي شيءٍ وراء هذا التنوع؟ وهذه مسألة شائكة في فهم الشعر وأحواله ،وإنما أشار البحث إليها .

وعودٌ إلى الانتقال ،وهو كما ترى مبنيٌّ على القطع والاستئناف في " خَودٌ " - وهو أحد المواضع التي يحذف فيها المبتدأ - أي : هي خَودٌ ، وحذف المبتدأ هنا ربط للكلام ودمج له بسابقه من حيث إن هذا المبتدأ المحذوف لا يدل عليه إلا الكلام السابق ،و "منعمةٌ" صفة بالمفرد لـ " خَودٌ " ،و "أنيقٌ عيشها " صفة لـ "خودٌ " بالجملة الاسمية ، و " فيها لعينك مكلأٌ وبهاء " جملة حالية اسمية أي حالة كونها فيها لعينك مكلأٌ وبهاء ،وقوله : " وكأنّها يوم الرحيل " معطوف على جملة " خود " ،و "قد بدا منها البنان " حال من الضمير الذي في "كأنّها " بالجملة الفعلية ،و " يزينه الحنّاء " حال من "البنان "بالجملة الفعلية ،ولعلك تلحظ كيف تفرع من الحال حال آخر وكيف اتصل الكلام ، وقوله : " برديةٌ " خبر لـ " كأنّ " وأراد تشبيهها بالبردي الأخضر في رطوبته ، و "يغذو أصلها ظلٌّ " وصف لـ " بردية "بالجملة الفعلية ، و " أو بيضة الأُدحيِّ " معطوف على " بردية " ،وقوله : "بات شعارها كنفا النعامة " حال من " بيضة الأُدحيِّ " بالجملة الفعلية ،وقوله : " جوء جوء وعفاء " بيانٌ لما قبله . وهذا كلّه داخل في جملة واحدة استوعبتها الأبيات الأربعة لترى من خلالها ضروب الترابط والامتداد لبيان حقيقة واحدة هي أوصاف الصاحبة .

وأما الجملة التي ينتقل فيها الكلام من غرض إلى غرض ، فمثل قوله :

غَشِيتُ دياراً ،بالنَّقيع ،فَثَهمَدِ دَوارِسَ ، قد أَقْوَينَ ،من أُمِّ مَعبَدِ (١)

أَرَبَّتْ بها الأرواحُ ،كلَّ عشيّةٍ فلم يَبقَ إلا آلُ خَيمٍ ،مُنَضَّدِ

وغَيرُ ثلاثٍ ،كالحَمامِ ،خَوالِدٍ وهابٍ ، مُحيلٍ ،هامدٍ مُتلبِّدِ

هذه الأبيات الثلاثة كأنّها جملة واحدة ، فقوله : " دوارس " وصف لـ " دياراً " ،و "قد أقوين من أمّ معبد " وصف آخر لها أيضاً ، والبيت الثاني كذلك وصف لـ " دياراً " ، والبيت الثالث داخل في الاستثناء الذي في البيت الثاني ،وهكذا فالأبيات الثلاثة أشدّ ما تكون ترابطاً ، والأمر في ذلك ظاهر، فتحرير المعنى وتدقيقه وتفصيله هوالذي دعا إلى ارتباط الجملة بجملة أخرى تكون بمثابة التدقيق لمعناها ،فإقامة الريح بالديار كل عشية أدى إلى العفاء فلم يبق فيها شيء إلا ما ذكره الشاعر ،وهذا استدعى جملة " فلم يبق آل خيم منضد " ،و " وغير ثلاث كالحمام خوالد وهاب محيل هامدٍ مُتَلبّدِ " والجملة الأخيرة هذه " وغير ثلاث " معطوفة كلها على فاعل " يبق " ،ومرتبطة بهذا الشعر لأنّه كما ترى يحدد الباقي من آثار الديار ،و "الفاء" في : " فلم يبق " عاطفة على " أربت " .وهي كجزء من المعنى ،وهذا كلّه لا شك مرتبط أوثق الارتباط بـ " أربت " لأنه متفرّع عنه ، فحصر البقاء في هذه الأشياء المذكورة مترتب على إقامة الأرواح ، ثم إن إقامة الأرواح مما وصفت به " دياراً " . وهكذا ترى الجملة جرت

---

(١) الأعلم الشنتمري (شعر زهير بن أبي سلمى) ١٩ : ١-٣ ،ص ١٧٧ .

مع الخواطر وقد كان نسيجها يقصر من جهة ويطول من أخرى . والقصيدة من البيت الرابع إلى البيت السابع والعشرين تشبه أن تكون جملة واحدة لقوة الترابط بين أجزائها .

وتأمّل الانتقال بعد هذه الأبيات الثلاثة :

فلمّا رأيتُ أنّها لا تُجيبني ... نَهَضْتُ إلى وَجناءَ ،كالفحلِ ،جَلْعَدِ[1]

جُماليَّةٍ ،لم يُبقِ سَيري ورِحلَتي ... على ظَهرِها ،من نَيِّها ،غَيرَ مَحفِدِ

مَتى ما تُكلّفْها مآبةَ منهلٍ ... فتُستَعْفَ ، أو تُنهَكْ إليه ، فتَجهَدِ

تَرِدْهُ ،ولمّا يُخرِجِ السَّوطُ شأْوَها ... مَرُوحاً ،جَنُوحَ اللّيلِ ،ناجيةَ الغَدِ

كَهَمِّكَ ،إن تَجهَدْ تَجِدْها نَجيحةً ... صَبُوراً ،وإنْ تَستَرْخِ عنها تَزَيَّدِ

" جُماليَّة " يعني : أنَّها - في عِظَم خَلقها وكماله - كالجَمَل . و" النَّيُّ " : الشَّحم . و" المَحفِدُ " : أُصل السَّنام وبقيّتُه . يعني : أنَّ دُؤوب السير أذهب شَحمها وأعلى سنامِها . وقوله " مآبةَ منهلٍ " المآبة : أن تسير نهارها ،ثم تؤوب إلى المنهل عشيّاً . والمنهل : الماء . وقوله : " فتُستعفَ " أي : يؤخذ عفوها في السَّير . ومعنى " تُنهك " يبلغ منها بالضّرب والإجهاد . وقوله " فتجهَد " أي : تتعب وتجهد نفسك ... قوله " تَرِدُهُ " أي : ترد المنهل . وقوله "ولمّا يُخرج السَّوطُ شأْوها " أي : لم يستخرج كلَّ عفوها ،وما تسمح به نفسها . و " الجَنُوح " : التي تجنح في سيرها ،أي : تميل من النشاط . و " المروح " : التي تمرح في سيرها . و " النّاجية " : السَّريعة . أي: تجنح إذا سارت ليلها ، ثم تنجو من الغد في سيرها ،ولم يكسِرها

---

(١) (المصدر السابق) ١٩ : ٤-٨ ، ص ١٧٨-١٧٩ .

سُراها . وقوله " كهمّك " أي : كما تريد . و " النّجيحة " : السَّريعة .
ومعنى " تَزَيَّدُ " : تسير التَّزيُّد ، وهو ضربٌ من السير فوق العنق .
يقول : إنْ جهدت في السَّير وجدت نجيحةً صابرة ، وإن تُركت ولم تُضرب تزيّدت في مشيها ".(١)

وانتقال الشاعر لأنّه ترك غرضاً من أغراض الكلام إلى غرض آخر ، وكان انتقاله بواسطة " الفاء " التي تفيد ترتيب معنىً على معنىً ؛ فالمعنى الذي بعدها ترتب على المعنى الذي قبلها ، وهو أنّه ترتب على رؤيته لآثار الديار وإظهاره ذهابها وعفاءها نهوضه إلى ناقته . و " الفاء " في " فلمّا " عاطفة على قوله : " غشيت " ، وقوله : " جمالية " خبر لمبتدأ محذوف ، والجملة مستأنفة ، وبنيت على الحذف لأنّه ابتداء كلام في وصف الناقة ، ومن طرائق الكلام أنّ القوم عندما يذكرون الديار والرجال يقطعون ثم يستأنفون ، والجملة الثانية : " لم يُبق سيرى ورحلتي على ظهرها .. " مقطوعة لأنّها تستأنف وصفاً آخر جديداً هو ضمور الناقة ، والجملة الثالثة - والتي هي شرطية - " متى ما تُكلِّفها ... ترده " مقطوعة مستأنفة ، لأنها تستأنف وصفاً ثالثاً هو أنّك إذا كلّفتها سير النهار كله حتّى تؤوب منهل الماء أول الليل فإنَّها ترد هذا المنهل وهي تسير سيراً عفواً لا جهد فيه ، وقوله : " ولمّا يخرج السَّوطُ شأوها " جملة حالية ، وقوله : " مروحاً ، جنوح الليل ، ناجيةَ الفدِ " أحوال مفردة من حال ؛ تفسيرها : ولما يخرج السوط شأوها حالة كونها مروحاً وحالة كونها جنوح الليل وحالة كونها ناجية الفد . ويلحظ أنّ الشرط قد دخل في تكوينه

---

(١) (المصدر السابق) ص ١٧٩ - ٦٨٠ .

أربع جمل ،واحدة هي الأصل : " ما تكلّفها " وثلاث هي تفصيل لهذه الأولى ، لأنّها حين تكلّف مآبة منهل إمّا أن " تستعف" أي : تعطيك ما عندها عفواً ، وإمّا أن " تُنهك " أي : يُبلغ منها بالضرب والجهد فتجهد ،وجملة " فتجهد " مرتبة على الجملة السابقة أي : تنهك فتجهد ، وهكذا ترى الشرط " ما تكلّفها " يفصل بجملتين " فتُستعفَ ،أو تنهك " ،ويتفرع على هذه الحالة الثانية " تنهك " وصف هو " فتجهد " ، ثم يأتي الجواب " ترده " ، وقد استُخرج من هذا الجواب حال داخلة فيها حال وحال على حد ما بيّنا ،وهكذا تمضي التداخلات في تكوينات الجمل ، وكأنّ جملة " متى ما تكلّفها مآبة منهل" والبيت الذي بعدها جملة واحدة . وقوله : " كهمك " خبر لمبتدأ محذوف ،أي : الناقة كهمك ، ومعناه : كما تريد ،و " إن تجهده " جملة مستأنفة مؤكّدة للجملة السابقة " كهمك " ،و " وإن تسترخ " معطوفة على " إن تجهد .." . ولعلك لحظت أنّ الجمل قد بنيت على القطع والاستئناف ، وقد يبدو أنّ هذا القطع والاستئناف عند النظرة السريعة مظنّة تبتير الكلام وتمزيقه ،والحق أنّه كان تواتراً لجمل يتواتر بعضها على بعض لتبيّن حقيقة واحدة هي صفات هذه الناقة من الجهات التي ذكرها الشاعر ، ويلحظ أنّ معظم الجمل الاستئنافية هنا مبنيةعلى ضمير مفهوم من الكلام السابق أوتكاد تكون كلّها كذلك سواء كان ضميراً منفصلاً مثل " جمالية " أو كان ضميراً متصلاً مثل " متى ما تكلّفها .. " ، وقد كان لهذا الضمير دور ظاهر في ربط هذه الجمل وتوثيق صلات بعضها ببعض واستواء الفكرة الواحدة .

ثم قال :

وتَنضِحُ ذِفراها بِجَونٍ ،كأنّـهُ عَصيمُ كُحَيلٍ ،في المَراجِلِ ،مُعقَدِ (١)

---

(١) (المصدر السابق) ١٩ : ٩-١٠ ، ص ١٨٠ .

وتُلوِي بِرَيّانِ العَسِيبِ ،تُمِرُّهُ   على فَرْجِ مَحرُومِ الشَّرابِ ،مُجَدَّدِ

قوله : " وتنضح ذِفراها " الواو استئناف لبيان صفة هي ما بعدها ، وهو وصف للعظم الناتئ خلف الأذن وقد نضح عَرقاً كأنّه قطران مُعْقَد ،وقوله : " وتلوي بريّان العسيب .." -أي: تضرب بذنبها يمنة ويسرة - معطوف على " وتنضحُ " لبيان صفة هي مابعدها من حيث القوة والتمكن والاقتدار وأنَّها لم تلد ،وهو توسط بين الكمالين ، والجامع أنّهما وصف لأحوال متقاربة من أحوال الناقة ؛ فنضح الذّفرى يكون عند مزيد النشاط وكذلك اللّيُّ بذنبها . وقوله : " تُمِرُّه " جملة حالية ،وقوله : " محروم الشراب " وصف لـ " فرج " والمراد به أنَّها ناقة لم تحمل ، فلا لبن لخلفها . و "مُجدَّدِ " وصف آخر لـ " فَرْج " ،وبذلك فالبيتان جملة واحدة ، وكأنَّ " تنضح " مستأنف بما عطف عليه لأنَّ البيت الثاني دخل في حَيِّزه .

وقال :

تُبادِرُ أغوالَ العَشِيِّ ،وَتَتَّقِي   عُلا لـةَ مَلوِيٍّ ،مِنَ القدِّ ،مُحْصَدِ (١)

" الأغوال " : جمع غَول ،وهو ما اغتال الإنسان وأهلكه . أي : تبادر هذه الناقةُ براكبها ما يخاف أن يَغُوله ،حتّى تُلحِقَه بالمنزل الذي يبيت فيه . وقوله " وتتّقي عُلالةَ ملويٍّ " يريد : سوطاً مفتولاً . و " القِدُّ " ما قُدَّ من الجِلد . " المُحْصَد " : الشَّديدُ الفتْلِ (٢) .

وهذا البيت جملة واحدة ، فقوله " تبادر " استئناف لبيان معنًى جديد وهو أنّها تبادر براكبها ما يخاف أن يغوله حتى تصل

---

(١) (المصدر السابق) ١٩ : ١١ ، ص ١٨١ .

(٢) (المصدر السابق) ص ١٨١ .

به إلى المنزل الذي يبيت فيه . و "تتقي" معطوفة على "تبادر" .

وقال :

كخنساءَ ، سَفعاءِ المَلاطِمِ ، حُرَّةٍ ... مُسافِرةٍ ، مَزْؤُودَةٍ ، أُمِّ فرقَدِ (١)

غَدَتْ بسلاحٍ ، مِثْلُهُ يُتّقَى بِهِ ... ويُؤْمِنُ جأْشَ الخائفِ ، المُتَوَحِّدِ

وسامعتَينِ ، تَعرِفُ العِتقَ فيهما ... إلى جُذْرِ مَدلُوكِ الكُعُوبِ ، مُحَدَّدِ

وناظِرتَينِ ، تَطحَرانِ قَذاهُما ... كأنّهما مَكحُولتانِ ، بإثمِدِ

طَباها ضَحاءٌ ، أو خَلاءٌ ، فخالَفَتْ ... إليه السّباعُ ، في كِناسٍ ، ومَرقَدِ

" وقوله " كخنساء " يعني : بقرةً قصيرةَ الأنف ، شبّه الناقة بها ، في نشاطها وحدّتها . و " السّفعاء " : السّوداء في حمرة . وكذلك خدّاها . وأراد بـ" الملاطم " : خدّيها . وقوله " مسافرة " أي : خارجة من أرض إلى أرض . و " المَزؤودة " : المذعورة . و " الفرقد " : ولد البقرة ... وأراد بـ " السّلاح " : قرنيها ... و " الجأش " : الصّدر ... وقوله " إلى جذر مدلوك " أراد : مع جذر قرنٍ مدلوك . و " الجَذر " : الأصل و " الكُعوب " : عُقَد العصا . وأراد : أنّ كعوب القرن مدلوكة مُلسٌ لفتائها ... ومعنى " تَطحران قَذاهما " ترميان به . وقوسٌ مِطحرٌ : إذا كانت ترمي السّهم بعيداً ، لشدّتها . وقوله " طَباها ضَحاء " أي : دعاهما الرّعي . و " الخلاء " خُلوّ المكان . والضّحاء للإبل : مثل الغَداء للنّاس ... خالفت أي : أتت بعدها ... أي : خالفت إلى ولد البقرة ، لمّا نهضت إلى الرّعي . و " الكِناس " حيث تَكنِس أي : تستتر من حَرٍّ أو برد " . (٢)

---

(١) ١٩ : ١٢ - ١٦ ، ص ١٨١ - ١٨٢ .

(٢) (المصدر السابق) ص ١٨١ - ١٨٢ .

" كخنساء " حال من "تبادر أغوال المشيّ " ،وهذه الأبيات كأنَّها جملة واحدة ، وإليك بيان ذلك ،فقوله : " سفعاء الملاطم ، حُـرَّةٍ ،مسافرةٍ ،مزؤودةٍ ،أمّ فرقد " أوصاف لـ " خنساء ". وقوله في البيت التالي " غدت بسلاح " استئناف وصف آخر للخنساء ،و "مثله يُتّقى به " وصف للسلاح ، وكذلك " ويؤمن جأش الخائف " وصفٌ آخر للسلاح معطوف على " يُتقى به " وقوله : " المتوحِّد " وصف للخائف ، وقوله : " وسامعتين " معطوف على " بسلاح : أي : وغدت بسلاحٍ وسامعتين ،وكأنَّ صفات الخنساء لا زالت متصلة تتوالى . وقوله "تعرف العتق فيهما " وصف لـ " سامعتين " ،وقوله : " وناظرتين "معطوف على قوله " بسلاح " أي : وغدت بسلاح وسامعتين وناظرتين ، و " تطحران قذاهما " وصف لـ " ناظرتين " ،و " كأنَّهما مكحولتان بإثمد " وصف آخر لـ " ناظرتين " . وقوله " طباها ضحاءُ أوخلاءٌ " استئناف لبيان وصف جديد لـ " خنساء " وتحليل حال من أحوالها ،و " فخالفت " معطوف على " طباها " . والأبيات بعد ذلك أحداث مترابطـــة بواسطة الجمل الفعلية :

أضاعَتْ ،فلم تُغفَرْ لها خَلَواتُها   فلاقَتْ بياناً ،عندَ آخِرِ مَعهَـدِ [(١)]

دَماً ، عندَ شِلْوٍ ،تَحجُلُ الطَّيرُ حَولَهُ   وبَضْعَ لِحامٍ ،في إهابٍ ، مُقَـدَّدِ

وتَنفُضُ ،عنها ،غَيبَ كلِّ خَميلةٍ   وتَخشَى رُماةَ الغَوثِ ،من كلِّ مَرصَدِ

فجالَتْ ،على وحشِيّها ،وكأنَّها   مُسَربَلةٌ ،في رازقيٍّ ،مُعضَـــدِ [(٢)]

---

(١) (المصدر السابق) ١٩ : ١٧-٢٠ ،ص١٨٣ .

(٢) انظر شرح الأبيات قبل ص ٤٦ - ٤٧ .

في قوله " أضاعت ،فلم تغفر لها خلواتها ،فلاقت " ،وقوله : " دماً " يدل من "بياناً " ،وقوله : " تحجل الطير حوله " صفة لـ "شلو " ،و " ويضع لحام " في اهابٍ " معطوف على " دماً " ،و "مقدد " وصف لـ " إهاب " ، و "وتنفض " الواوللاستئناف ،و " وتخشى "معطوف على " تنفض " ، و "فجالت " الفاء استئنافية وفيها معنى السبب ، و " وكأنّها مسربلة " جملة حاليةٌ ،و " مُعضَّد " وصف لـ " رازقي " .

ثم قال :

ولم تَدْر وَشْكَ البَينِ ،حتَّى رأتْهُمُ ... وقد قَعَدُوا أنفاقَها ،كلَّ مَقعَدِ (١)

وثارُوا بها ،من جانِبيَها كليَهمـــا ... وجالَتْ ،وإن يُجشِمْنَها الشَّدَّ تَجهَدِ

تبذُّ الأُلى يأتِينَها ،من وَرائهـــا ... وإنْ تَتقدَّمْها السَّوابقُ تَصطَـــدِ

" وشْكُ البينِ " سُرعتُه . والبين : مُفارقة ولدها . و " أنفاقها " : مخارجها وطُرقها . وقوله " رأتهم " أي : رأت الرُّماة قد قعدوا لها ،ليختُلُوها ، فيرموها . وقوله " وإن يُجْشِمْنها الشَّدَّ " أي : يكلِّفنَها الجري ويحملنها عليه . " تَجهد " أي : تُسرع وتجتهـــد ... يقول : " تبذُّ " البقرةُ الكلابَ اللاتي يأتينها من ورائها ،أي:تسبقها وتغلبها . و " السوابق " : ما سَبَق منها . وقوله : " تَصطَد " أي : تُصِبْ بقرنَيْها ما تَقدَّمها من الكلاب ".(٢)

" ولم تَدْر " استئنافٌ لبيان حالها ، و " وقد قعدوا " حـال ، و " ثاروا بها " معطوف على الحال ،و " وجالت " معطوف على جملة الحال " قد قعدوا " ، وجملةالشرط : "وإن يجشمنها " حاليـــة ،

---

(١) الأعلم الشنتمري (شعر زهيربن أبي سلمى) ١٩ : ٢١-٢٣ ،ص ١٨٤ .
(٢) (المصدر السابق) ص ١٨٤- ١٨٥ .

أي : وجالت والحال أنّها إن يجشمنها الشّدّ تجهد . و " تبذّ الأُلى " حال من الضمير في قوله : "وجالت" أي : وجالت والحال أنها تبذّ الأُلى ، وقوله : " يأتينها " حال من " الأُلى " ، و " وإن تتقدمها " معطوف على " تَبُذّ الأُلى " . وبذلك ترى جملاً أربعاً متتابعات هي أحوال ترادفت لبيان أوصاف لحظة المفاجأة " حتّى رأتهم " تلك المفاجأة التي سبقتها غفلة " ولم تدر وشك البين " ،والمراد الغفلة عن ولدها أي اشلاءه " دماً عند شلو " ،وكانت المفاجأة مصحوبة بأحوال شرسة وعنيفة وقاهرة صادفت من تلك المزءودة هماً بمدهم وكرباً فوق كرب وكمداً فوق كمد . أمّا هذه الأحوال فهي كما بيّناها ؛ حال قعود المترصدين لحياتها كل مخرج ،وحال ثورتهم بها ،وحال جولانها ،وحال مجاذبتها لهم للإفلات بالحياة " وإن يجشمنها الجدّ تجهد " . وتأمل كيف افتنّ زهير في تركيز أو تكثيف هذه اللحظات النفسية عند هذه البقرة ،وكيف جمع لها الثّكل والمطاردة من الصائدين ، وكيف صارت في حالة فقد وضياع ؛ فقد فقدت ولدها بسبب غفلتها التي لم تغفرها لنفسها ،وكيف افتن في تصوير ما رأت : " دماً عند شلو تحجل الطير حوله وبضع لحام في إهابٍ مقدّد " ، وكلّ شيء من هذا يمثل حزّازاً من الوجد في نفس هذه المزؤودة المكلومة . وتأمل العناصر التي هي بقايا ولدها و حجل الطير وبقايا لحام والاهاب ، ثم تأمّل كيف خامرها الإحساس بنهايتها هي فأخذت تنفض الغيب من حولها وتذكر الرماة ،ثم كيف فوجئت بهم . ويكشف هذا السّياق الداخلي في الكلام تتضح هذه الأحوال المتتابعات والتي اقتضتها تلك اللحظة التي قعد الراصدون أنفاقها وثاروا بها وجالت وجشموها

الشدّ والجهد .

وهكذا فقد كشف بهذه الوقفة إلى ما وراء هذه البنية الإعرابية المتميّزة بتلاحق الأحوال وترادفها من معانٍ وأحوالٍ نفسية تزاحمت وتدافعت.

ثمّ قال :

فأنقذَها ،من غمرةِ المَوتِ ،أنَّها ... رأت أنَّها إن تَنظُرِ النَّبلَ تُقصَدِ (١)

نَجاءٌ ،مُجِدٌّ ،ليس فيه وتَيرةٌ ... وتَذبِيبُها عنها ،بأسحَمَ ،مِذْوَدِ

وَجَدَّتْ ،فألقَت بَينَهُنَّ وبَينَها ... غُباراً ،كما فارتْ دَواخِنُ غَرقَدِ

بِمُلتَئماتٍ ،كالخَذاريفِ ،قُوبِلَتْ ... إلى جَوشَنٍ ،خاظي الطَّريقةِ ،مُسْنَدِ

وقوله " إن تنظُر النّبل " أي : إن تنتظر أصحاب النّبل أن يجيؤوا ومعنى " تُقصَد " : تُقتَل . يقال : رماه فأقصَدَه ،إذا أصاب مقتله ... " النّجاء " السرعة في السير. والمعنى : أنقذها نجاءٌ . و "الوتيرة". التلبّث والفَترة . و " التّذبيب " : أن تذُبَّ الكلابَ عن نفسها . و "الأسحم " : قرن أسود . و "المذود " : الذي تدفع به عن نفسها . وهو مِفْعَلٌ من : ذاد يذود ، إذا دفع . وقوله " فألقت بينهنّ وبينها " أي : بين الكلاب وبينها . و " الدّواخن " : جمع دُخانٍ على غير قياس. وقيل : واحدته داخِنةٌ. شبّه ما ثار من الغبار لشدّة عدو البقرة ،بما ثار من الدّخان و " الغرقد " : شجر... قوله : " بملتئمات " يعني : قوائم يُشبه بعضُها بعضاً . و "الخذاريف" :

---

(١) (المصدر السابق)١٩ : ٢٤-٢٧ ، ص ١٨٥- ١٨٦ .

التي يلعب بها الصّبيان . شبّه القوائم بها ، في خفّتها وسرعتها ، ومعنى " قوبلت " : جُعِلتْ بعضها يُقابل بعضاً . وقوله " إلى جَوشَنٍ " أي : مع جوشن ،وهوالصّدر . و "الخاظي " الكثير اللّحم المتراكب . و "الطّريقة " : اللّحمة على أعلى الصدر . " المسند ": الذي أُسِند إلى ظهرها . وقيل "مسند " أي : في مقدّمه ارتفاع ". (١)

" فأنقذها " معطوف على " جالت " ،وقوله "نجاءُ " بدل من الفاعل المصدر المؤول من أن واسمها وخبرها ،أي : فأنقذها رؤيتها أنّها إن تنظر النّبل تُقْصد نجاءُ ،و"مجد " وصف بالمفرد لـ " نجـاء " ، و "ليس فيه وتيرة " وصف بالجملة الفعلية لـ "نجاء " . و "جَدَّت " معطوف على " فأنقذها " ، أو استئناف لبيان حالها ونجائها وأنّها إنّما نجت بجد ألقى بينها وبين الكلاب غاراً ،و "الفاء " في " فألقت" سببية عاطفة على " وجَدّت " ،و " بملتئمات " متعلق بـ " فألقت " ، و "قوبلت " جملة فعلية وصف لـ " ملتئمات " ،و "خاظي الطّريقة " وصف لـ " جوشن " ،و " مسند " وصف آخر لـ " جوشن " . وهكذا يبدو نسيج الكلام وتداخله في الأبيات السابقة وكيف امتد بعد انتقاله عند قوله : " فلمّا رأيت .. " ،وكأنّه جملة واحدة طويلة استغرقت أربعةً وعشرين بيتاً مكوّنة من جمل حالية ووصفية ،وحال متفرعة من أخرى ، ووصف متفرع من آخر ،والكلام أشد ما يكون لحمةً واستواءً ،وقد كان هذا في الإبانة عن معنى هو بطبيعته متماسك كما في وصف الناقة وكيف تفرّع من وصفها وصف آخر لا مِرفقد ، وبذلك بان كيف امتد الكلام واستطال .

---

(١) (المصدر السابق) ص ١٨٥- ١٨٦ .

تحليل نماذج لتكوينات الجمل وعلاقاتها :

تأمّل كيف بني الكلام ،وكيف كان الانتقال من غرض إلى غرض ، ومن معنى إلى معنى في القصيدة التالية ، وقد جاءت القصيدة في مقاطع ، المقطع الأول هو:

صَحا القلبُ عن سَلمَى وقد كادَ لا يَسلُو وأقفرَ مِن سَلمَى التَّعانِيقُ ،فالثِّقْلُ (١)

وقد كُنتُ ،من سَلمَى ،سِنيناً ثَمانِياً على صِيرِ أمرٍ ، ما يُمَرُّ،وما يَحلُو

وكُنتُ إذا ما جِئتُ ،يوماً لِحاجَةٍ مَضَتْ ،وأَجَمَّتْ حاجةُ الغَدِ ماتَخلُو

وكُلُّ مُحِبٍّ أعقَبَ النَّأيِ لُبَّهُ سُلُوَّ فؤادٍ ،غيرَ لُبِّكَ ما يَسلُو

" وقد كاد لا يَسلُو ،يقولُ : قد سلا ... صِيرُ أمرٍ: مُنتهاه وصيرورتُه . وهو مصدرُ: صار يصيرُ صيراً وصيرورةً ... وقوله " ما يُمَرُّ وما يَحلُو " أي : ما يُمَرُّ فأيأسَ منه ،ولا يحلو فأرجوَه ...أبوعمرو : أحمَّتْ وأجمَّتْ واحدٌ ،أي : دَنَتْ ".(٢)

ترتبط هذه الأبيات الأربعة بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً ، وهذا الارتباط بالواو التي كثرت فيها وإن لم تكن على مذهب واحد ؛ فمنها واو الحال ،ومنها العاطفة جملة على جملة ،ومنها الاستئناف . ولنتلمس بيان هذه الروابط ؛ قال : " وقد كاد لا يسلو " جملة حالية من " القلب " ،أي : صحا القلب عن سلمى حالة كونه قد كاد لا يسلو ،والحال هنا مؤكّدة بقد لتأكيد نفي السّلو . و" أقفر " وما

---

(١) ٥ :١-٤ ، ص ٨٣ - ٨٤ . (٢) ص ٨٣- ٨٤ .

تعلّق به معطوف على "صحا" وما تعلّق به . وقوله : "وقد كنت من سلمى .." استئناف معنًى يحكي فيه قصته مع سلمى التي صحا القلب عنها وقد كان لا يسلو ، فذكر سنيناً ثمانياً ، ثم جمع بيان حال نفسه في هذه البنية الثانية بكلمة جامعة عالية "على صير أمرٍ ما يُمرُّ وما يحلو" . وقوله : "وكنت إذا ما جئت يوماً" معطوف على "وقد كنت من سلمى" وداخل في حيّز هذا الاستئناف ؛ فهو في الأبيات الثلاثة الأول يذكر قصته مع سلمى ،ويصف في البيت الثالث خصوصاً استغراقه معها وانهماكه فيها و يقرّر معنى شعرياً ونفسياً من أدق المعاني وأغمضها ، وهو أنّ النفس كلّما نالت وطراً ! زدادت شوقاً إلى غيره ،وكأنّها لا تروى ،وإنما يزيدها الريُّ ظمأً "وأجمّت حاجة الغد ما تخلو" ، والإنسان هكذا لا يروى من شيء تعشقه وأقبل عليه بكلّيته ،وكلّما تحقق أربٌ تاقت النفس إلى غيره . وقوله :" وكلّ محب أعقب النّأي لبه " من عطف القصة على القصة ،والقصة هنا هي أنَّ النّأي يعقب المحب سُلوّ فؤاد وهذه قاعدة عامة ،ولكن حبّ سلمى خرج من هذه القاعدة ، وهذا مما أكذب فيه الشاعر نفسه ،لأنّه نقضَ لقوله : " صحا القلب عن سلمى " وهذا الكذب هو أعذب الشعر كما قالوا ، والشاعر هنا يوحي بهذا التضارب إلى أنه متلدد بين عواطف متضاربة وأحوال نفسية متناقضة جعلته يتباين في العبارة عمّا يريد ، فذكر كلاماً ثم عاد فنقضه ،وهذا دليل على قوة ما يجد . ثم إنَّ هذه القصة التي أكذب فيها نفسه بين قوله " غير حبك ما يسلو " وقوله السابق " صحا القلب " ـ قصة معطوفة على القصة السابقة التي بدأ بها بقص خبر نفسه " وقد كنت من سلمى سنيناً ... " . ثم إنَّ قوله :

" وقد كنت من سلمى " وما دخل في حيّزه ،والذي قلنا أنه استفتحه بواو الاستئناف المشعرة بالدخول في موضوع مغاير - انتهى أمره إلى العطف على قوله " صحا القلب " ،ولكنه عطف القصة على القصة لأن واو الاستئناف كما قرّر أهل التحقيق تتضمن عطف قصة على قصة.

ثم انتقل بعد ذلك إلى غرض آخر ،بقوله في المقطع الثاني :

تأوّبَني ذِكرُ الأحِبّةِ ، بَعدَما ... هَجَعتُ ودُوني قُلّةُ الحَزنِ فالرَّمْلُ (١)

فأقْسَمتُ جَهْداً ،بالمَنازِلِ من مِنًى ... وما سُحِقتْ فيه المَقادِيمُ ،والقَمْلُ

لأَرتَحِلَنْ ،بالفَجْرِ ،ثمّ لأدأَبَنْ ... إلى اللّيل إلا أنْ يُعَرِّجَني طِفْلُ

إلى مَعشَرٍ ،لم يُورِثِ اللّؤمَ جَدُّهُم ... أصاغِرَهُم ،وكلُّ فَحلٍ لهُ نَجْلُ

" تأوّبني : أتاني مع الليل . والمآبةُ : سيرُ يومٍ إلى الليل ... سُحِقتْ : حُلِقتْ ... والمنازلُ : حيث ينزل الناس بمنًى . والمقادِيمُ : مقاديمُ الرؤوس ، والقَملُ ، يريد : الشَّعر الذي فيه القملُ ... لأرتَحِلَنْ ، يقول : أرتحلُ بالفجر ، فلا أزالُ أسيرُ إلى الليل . وأدأبُ : من الدُّؤوب . يُعرِّجني طِفلٌ ،يقول : إلا أن تُجهِضَ ناقتي فتحبسني أقوم عليها ،أو أقدحَ النارفتحبسني ... النَّجل : النَّسل : يقول : إذا كان الفحل جواداً كان ولده أجواداً ،وإذا كان بخيلاً كان ولده بُخلاءَ . أي : ولده يُشبهونه ،فأنتم تُشبهون آباءكم ".(٢)

وقوله " تأوّبني " انتقالة عن طريق القطع والاستئناف بُني عليها قسم ،والانتقال هنا إلى غرض آخر هو - كما سيتضح - ذكر القوم الذين سيرتحل إليهم وامتداحهم . وتتكون هذه الأبيات الأربعة من جملتين

---

(١) ٥ : ٥-٨ ، ص ٨٥-٨٦ . (٢) ص ٨٥ - ٨٦ .

رئيستين ،ثم تلحق بهما جملة ثالثة انتزعت مما قبلها ،ولكنّ الشاعر صيّرها كأنّها معنى مستقل صار ذا خصوصية تدخله باب الحكمة أو المثل ؛ أما الجملة الأولى فهي البيت الأول : " تأويني ذكر الأحبة .." ورأس المعنى فيها يمثّله الفعل الذي بدأ به وهو " تأويني " لأنّ البيت بُني على بيان معاودة ذكر الأحبة له ،ثم أضاف الشاعر إلى الفعل زمنه " بعدما هجعت " ثم أضاف إلى الفعل جملة حالية وصفت المكان ،وكأنّه بذلك يتناول الحدث وزمانه ومكانه ،وهذه مكوّنات الجملة الأولى : " تأوّبني ذكر الأحبة.." ثم كانت الجملة الثانية ،وتشمل الأبيات الثاني والثالث والرابع إلى قوله : " أصاغرهم " ،وهي مبنيةٌ على بيان الشاعر عزيمته في الرحلة إلى هؤلاء الأحبة الذين تذكّرهم ،وأن هذه العزيمة كانت قسماً بلغ فيه الشاعر جهده ، ثم ذكر المقسم به ،وكان يمكنه أن يقول : " فأقسمت لأرتحلن " ،ولكنّ الشاعر ذكر المقسم به لينصّ عليه وهو " المنازل من منىً وما سحفت فيه المقاديم والقمل ،أي : مكان السعي ،ولا شك أنّ المنازل من منًى وما سحفت فيه المقاديم أماكن يرحل إليها ،وهنا تظهر مناسبة لطيفة بين المقسم به والمقسم عليه " لأرتحلن بالفجر .." ، ووراء ذلك - وهو الأدق والأدخل في غرض الشاعر - أمرُهو أنّ هذا المعشر الذين قصدهم معشر نابه مذكور يكابد من قصدهم المشقة في الرحلة إليهم ،وحسبه سجايا نفوسهم ؛تلك السجايا العظيمة المتوارثة " لم يورث اللؤم جَدُّهم أصاغرهم " ،وهذا ونحوه من المعاني المستكنّة وراء المقسم به في هذا السياق هو الذي أغرى بذكره وشغل البيت الأول ،ثم جاء جواب القسم " لأرتحلن " . ويلحظ أنّ

الشاعر ذكر الرحلة وزمانها ، ثم وصف استمراره في الزمن " لا أدأبن " ، ثم ذكر نهاية السير " إلى الليل " ثم استدرك على دوام الفصل "لارتحلن " في هذا الزمن بهذا الاستثناء " إلا أنَّ يعرجني طفل " ،ثم ذكر من يرتحل إليهم ووصفهم " لم يورث اللؤم جدّهم ". وهذه الجملة التي تكونت من هذه الأبيات الثلاثة معطوفة بالفاء على الجملة الأولى ،وهذه الفاء أشارت إلى سرعة الترتب ،وأنّه أقسم بما أقسم به على أن يرحل إلى هؤلاء فور هذا التأويب " تأوّبني ... فأقسمت " ، وهاتان الكلمتان هما أصل هاتين الجملتين ومنهما امتدت هذه الأبيات والعلاقة بينهما كما ترى . وهكذا تنعقد أصول المعاني وإن تفرّعت فروعها . أما الجملة الثالثة ، فهي نمط من الكلام يكثر في شعر الفحول ، وهو نحت كلام من كلام ولكنّ الشاعر بدقة صنعته يعده لأن يجري مجرى الأمثال ،وكانت وسيلة زهير هنا هي النحت الذي قام على التعميم ،والمنحوت منه هو قوله : " لم يورث اللؤم جدُّهم أصاغرهم" ، وقد اقتبس منه ونحت بطريقة بارعة أن الكريم لا بد أن يلد كريماً ، وهذا المعنى الذي صار عاماً تأكيد معنوي - على الرغم من وجود الواو - لقوله " لم يورث .. " ،وهذا المعنى الجليل " كلّ فحل له نجل " كان كثير الدوران في نفس زهير ، وهو معنًى لا يدور إلا في النفوس الكريمة . وقد أحسن زهير العبارة عنه في قوله هذا ، ثم في قوله بعد ذلك في نفس القصيدة :

فما كانَ مِن خَيرٍ ،أتوه فإنَّما تَوارَثَه آباءُ آبائِهِمْ ،قَبْلُ (١)

وهل يُنبِتُ الخَطِّيَّ إلا وَشِيجُهُ وتُغرَسُ ،إلا في مَنابِتِها النَّخْلُ ؟

---

(١) ه : ٤٠-٤١ ، ص ٩٥ .

ثم انتقل الشاعر بعد ذلك في المقطع الثالث إلى :

تَرَبَّصْ ،فإن تُقْوِ المَروراةُ مِنهُمُ ... وداراتُها لا تُقْوِ مِنهم ،إذاً ،نَخْلُ (١)

فإن تَقْوِيا ،مِنهُم ،فإن مُحَجَّراً ... وجِزْعَ الحِسا مِنهم ،إذاً ،قَلَّما يَخْلُو

بِلادٌ ،بِها نادَمْتُهُم ،وعَرَفتُهم ... فإنْ أوحَشَتْ ،مِنهُم ،فإنَّهُمُ بَسْلُ

وهو ليس انتقالا من غرض إلى غرض ،وإنّما من معنى إلى معنى ، فهو في المقطع السابق ذكر المعشر الذين ارتحل إليهم ،ثم أخذ هنا يتحدث عن أماكنهم وإقامتهم في ديار وبلاد . وقوله : " تربّص " مبنيٌ على استئناف كلام جديد بفعل الأمر ،وعندما تنظر إلى الجمل الداخلة في حيّز " تربّص " تجدها مبنية على الشرط مع الإتيان بالفاء التي هي للربط وفيها معنى السبب ،وواضحٌ أنّ هذه الفاءات تكاثرت بشكل لم يكن كذلك في المقطع السابق . وتأمّل طريقة بناء الكلام عبارة عن شرط معطوف عليه شرط آخر ،فقوله : " فإن تقويا ..." معطوف على قوله : " فإن تُقْوِ المروراة .." ، وقوله : "بلاد " استئنافٌ مربوطٌ بالذي قبله أدقَّ ربطٍ للحديث عن الأماكن والتي هي بلاد نادمهم بها وعرفهم ، " فإن أقفرتْ منهم و خَلَتْ فإنّهم كانوا حَراماً بها مُتنمعين ،لا يطمع فيهم أحد أن يَغزوَهم " (٢).

وانتقل بعد ذلك في المقطع الرابع إلى الحديث عن شجاعتهم:

إذا فَزِعُوا طارُوا ،إلى مُستَغيثِهم ... طِوالَ الرِّماحِ ،لا قِصارٌ ،ولا عُزْلُ (٣)

بِخَيلٍ ، عليها جِنَّةٌ ،عَبقَرِيّةٌ ... جديرون يوماً ،أن يَنالُوا ،ويَستَعلُوا

---

(١) ٥ : ٩ - ١١ ، ص ٨٦ .

(٢) ص ٨٧ .

(٣) ١٢-١٥ ، ص ٨٧-٨٨ .

وإنْ يُقْتلوا فيشتفى بدمائِهم ... وكانُوا ،قَدِيماً ،من مناياهُمُ القَتْلُ

عَلَيها أُسُودٌ، ضارياتٌ ،لَبُوسُهُم ... سَوابِغُ بِيضٌ ،لا يُخرِّقُها النَّبْلُ

وكما ترى فالانتقال من معنًى إلى معنى في غرض واحد هو امتداح المعشر وذكر أخبارهم وأوصافهم ، فهو في المقطع السابق قد تحدّث عن أماكنهم ،ثم في هذا المقطع تحدّث عن شجاعتهم ، وهو داخل في وصف القوم ،وقوله بالشرط " إذا فزعوا " كلام مستأنف ، و" طاروا ". جواب الشرط ، و" طوال الرماح " حال ، و " لا قصار ولا عُزل " حالان آخران ، و "بِخَيْلٍ " متعلق ب " طاروا " و" عليها جِنَّةٌ " وصف للخيل ،و "عبقرية " وصف ل "جِنَّة " ، و "جديرون يوماً أن ينالوا ويستعلوا " وصف آخر ل " جِنة " وهذان البيتان جملة واحدة مكونة من شرط وجوابه ، ويلاحظ أن الشرط هنا كلمة واحدة " فزعوا " ثم جاء الجواب ممتداً متتابعاً ،ولقد كان من حكمة الشاعر في بناء هذه الجملة أن جعل الشرط كلمة واحدة وثب عليها الكلام بسرعة إلى تلك الأفاعيل المترتبة : " طاروا .. بخيل عليها جِنَّة .. " وقوله : " عليها أُسُودٌ"

وصف لـ " خيل " ، و " ضارياتٌ " وصف لـ " أسودٌ " بالمفرد ، و " لبوسُهُم سوابغُ " وصف آخر لـ " أسود " بالجملة ، و " بيضٌ " وصف لـ " سَوابغُ " بالمفرد ، و " لا يُخرِّقها النبل " وصف بالجملة لـ " سوابغ " وهكذا ترى التداخلات والعجب في بناء الكلام ، وما يلحظ فيه أنه أتى على طريقة الشرط وما تعلّق بجوابه من متعلقات موصوفة .

وقال بعد ذلك في المقطع الذي يليه وهو الخامس :

(١)

إذا لَقِحَتْ حَربٌ ، عَوانٌ ، مُضِرَّةٌ ضَروسٌ ، تُهِرُّ النّاسَ ، أنيابُها عُصْلُ

قُضاعِيَّةٌ ، أو أُختُها ، مُضَرِيَّـةٌ يُحرَّقُ ، في حافاتِها ، الحَطَبُ الجَزْلُ

تَجِدْهُم ، على ما خَيَّلَتْ ، هُم إزاءَها وإنْ أفسَدَ المالَ الجماعاتُ ، والأَزْلُ

يَحُشُّونَها ، بِالمَشرَفِيّةِ ، والقَنا وفتيانِ صِدْقٍ ، لا ضِعافٍ ، ولا نُكْلُ

" والأَزْلُ : الحَبْسُ ، يقال : أَزَلوا مالَهم ، إذا حَبَسوه ولم يَتركوه يَرعَى . وقوله " فيها " أي : في الشّدة . وإزاءها أي : حذاءها . والجماعةُ : أن يجتمعوا في موضعٍ واحد لا تخرُجُ إبلهم إلى الرعي فتنحر ، وذلك هلاك المال . وقال الأصمعي : على ما خَيَّلت : على ماشَبَّهت . هم إزاءها أي : الذين يقومون بها ، أي : تَجِدْهم مُدبِّريها + يقال : هو إزاءُ مالٍ ، إذا كان يُدبِّره ويُحسن القيام عليه . وهو إزاءُ خيرٍ وإزاءُ شرٍّ إذا كان صاحبه . ومعناه : هم أصحابُها ، على ما كـان . وقوله " أفسد المالَ الجماعاتُ والأَزْلُ " ، أي : " إنَّ حبس الناسُ أموالهم لا تسرح وجدتَهم ينحرون ، وإذا اشتدّ أمر الناس حتّى يبلغ الضّيقُ وجدتَهم يسوسون... يُحُشّونها : يُوقِدُونها . ولا نُكلٌ أي : لا يَنكلُون . . وإن أصابتْهم الشّدةُ . "(٢)

---

(١) ٥ : ١٦-١٩ ، ص ٨٨-٨٩ . (٢) ص ٨٩ .

وقوله : " إذا لَقِحَتْ حَرْبٌ . . . " استئناف للحديث عنهم وقت الحرب الشديدة التي وصفها ،وجواب الشرط " تجدهم " ويُلحظ أنَّ جملة الشرط طالت ومرجع طولها هو هذه الصفات المتتابعات للحرب ،فقوله : " عوان ، مُضِرّة ، ضَروسٌ " صفات لها بالمفرد ،و " تُهِرُّ الناس " وصف أيضاً بالجملة الفعلية لها ،و " أنيابُها عُصْلُ " وصف بالجملة الاسمية لها ،و " قضاعيةٌ أو أختُها مُضَرِيّةٌ " وصف لـ " حَرْبٌ " بالمفرد ،أوخبر لمبتدأ محذوف فيكون استئنافاً ،و " يُحرّق في حافاتِها الحطَبُ الجزْل " وصف لها بالجملة الفعلية . هذا هو حيّز فعل الشرط الذي شغل هذين البيتين ،وهو واقع في الكلام موقع الكلمة المفردة . وتأمّل هذا الشرط الطويل الممتد والمفتن أيضاً وقارنه بالشرط الفزع الوثاب هناك في الأبيات السابقة " إذا فزعوا " طاروا إلى مستغيثهم " وكيف كان كلمة واحدة هناك طاروا بعدها إلى مستغيثهم . ثم تأمل دقة الشاعر في إجراء صفات هذه الحرب من حيث ترتيبها ؛ فهي " عَوانٌ " أي : قوتل فيها مرة بعد مرة ،ثم هي " مُضِرّةٌ " أي : مُلحة ، ثم هي " ضَروسٌ " أي : عَضُوضٌ ،ثم تأمّل العدول من المفرد إلى الجملة في قوله : " تُهِرُّ الناس " واختيار المضارع لتجديد الحدث وتتابعه ، والمراد أنَّ الناس يكرهونها ويخافونها ويتحاشونها ،ثم تأمّل العدول إلى الاسمية في قوله : " أنيابها عُصل " والمراد التواء هذه الأنياب وأنّها إذا نشبت مضغت وطمنت ، " وإنّما يعصل ناب البعير إذا أسنَّ أراد أنَّها حرب قديمة "(١) . وهكذا ، وإنّما لم نفعل ذلك في كل ما تناولناه لأنَّ الهدف هو بيان العلاقات وليست هذه إلاّ نماذج لما وراء هذه العلاقات من رموز وإشارات . وجملة الجواب هي :

---

(١) ص ٨٨ .

" تجِدْهم على .. " ،وكما تكونت جملة الشرط من بيتين تكونت جملة الجواب أيضا من بيتين ،وبذلك تكون الأبيات الأربعة جملة واحدة هي شرط وجوابه . وتأمّل نسيج جملة الجواب تجد أصلها هو "تجدهم إزاءها يحُشُّونَها .. " ثم أدخل الشاعر اعتراضاً هو قوله : " على ما خيَّلَتْ " أي : على ما شبَّهت أو على أي حالة كانت من الشدة ، ثم أدخل قيدًا آخر من نوع هذا القيد الأول هو قوله : " وإن أفسدَ المالَ الجماعاتُ والأزْلُ " فدل على شدة الزمان كما دلَّ بالأول على شدة الحرب ،وهذه القيود جعلت أصل الجواب ذا شأن وهو "تجِدْهُم إزاءها يحُشُّونَها " ،يعني تجدهم كذلك على شدتها البالغة غايتها : " على ما خيّلَتْ "،وفي الزمن البالغ " إن أفسد المال الجماعات والأزل " . وهكذا ترى هذا المقطع مبنياً على أربعة أبيات متصلة اتصالاً وثيقاً هو اتصال الجواب بالشرط ،وكأنّها كلمة واحدة . وكذا الأمر في بقية أبيات القصيدة ،يربطها خيط واحد يكاد يكون متصلاً . ولورجعنا إلى الفقرات السابقة لرأينا كيف يرتبط الكلام أواخره بأوائله ،وكيف تتنامى المعاني وتستطيل ،فالفقرة الأولى تدور حول السلو وما كان قبله من أحوال الاستغراق وما تفرع عن ذلك من معانٍ أحسن الشاعر في الإبانة عنها . ثم بعد هذه الصحوة وقف واسترجع الذكرى ، فبنى كلامه في الفقرة الثانية على الذكرى ،وهكذا فالتّأوب موقف مترتب على الموقف السابق بعدما سلا ، وكان هذا التأوب سبيله في الانتقال إلى الغرض الآخر وهو الرحلة إلى القوم . وفي حديث الرحلة ذكر الأمكنة وكان هذا قوام الفقرة الثالثة وهو متصل بالقوم وليس انتقالاً إلى غرض آخر ،وقد استأنف الشاعر بـ " تربّصْ " . ليتحدث عن أماكنهم وديارهم . وبعدما أشبع الحديث عنها انتقل

إلى الحديث عن هؤلاء المعشر وعن أوصافهم في الفقرتين الرابعة والخامسة ، وهو انتقال من معنىً إلى معنى كما ترى . هذه هي رءوس المقاطع ونسق بناء القصيدة - فيما درس - فبعضها مبني على القطع والاستئناف ، وبعضها مبني على فعل الأمر ، وبعضها مبني على الشرط .. وهكذا .

وخلاصة ما تقدم ، هو شدة ارتباط الجمل عند زهير وتلاحم أجزائها عن طريق ذلك التدقيق والتفصيل في الجمل يعينه في ذلك تثقيفه للشعر وتجويده ، وقد دل على هذا التلاحم بين عناصر الكلام قلة العثور على جمل قصيرة عنده لارتباطها بما قبلها وعدم انقطاعها عما بعدها . وكانت الجملة الواحدة تطول حتى تصل إلى ثلاثة أبيات أو أربعة ، وظهر ذلك - غالباً - في جمل القسم والشرط ومقول القول أو ما في حكمه . وقد تبيّن بتحليل عناصر تلك الجمل سرّ طولها - فيما درست - وهو ، إمّا لبعد الجواب عن فعل الشرط ، وإمّا لمجيء جمل هي كالجزء من جملة الشرط ، وإمّا لمجيء جواب القسم قسماً وشرطاً ، وإمّا لتضمن جواب القسم فعلاً متعلقاً به عدة مفعولات ، وإمّا لبعد المبلغ به عن فعل التبليغ . وقد تردد في شعر زهير نمط من الجمل التي تتداخل وتترابط عند الإبانة عن معنىً متماسك بطبيعته ، فصارت الجمل كأنها جملة واحدة مع عدم إغفال تلك التداخلات الدقيقة في بنائها . كما كشف البحث عن ضروب من علاقات الجمل في الانتقال ، وهو إمّا انتقال من معنىً إلى معنىً في إطار الغرض الواحد ، وإمّا انتقال من غرض إلى غرض ، وعلى الرغم من هذا الانتقال فإنك ترى الأبيات تمثل نسيجاً واحداً محكم البناء ، يرتبط أواخر الكلام فيه بأوائله ، وكانت

وسيلته في الانتقال إمّا القطع والاستئناف ، وإمّا "الفاء" التي تفيد الترتيب ، ولحظ في بعض مقاطع القصائد بناوءها بناءً خاصاً ، إمّا على الواو على غير مذهب واحد فيها كواو الحال ، والواو العاطفة ، وواو الاستئناف . وإمّا على الاستئناف المبني على ضمير مفهوم من الكلام متصل أو منفصل . وإمّا على الأحوال المتلاحقة ، وإمّا على القسم وما يتبعه . وإمّا على استعمال أداة الشرط " إنْ " والإتيان معها ب "الفاء" خاصة . وإمّا على استعمال أداة الشرط " إذا ".

الجمل الوصفية والحالية :

عرضت إلى كثير من الجمل الوصفية والحالية في طي التحليلات السالفة ، وقد رأيت أن أخص هاتين الجملتين بدراسة لشيوعهما في شعر زهير ، ولتنوع صورها .

وقد لحظت أن تردد الجمل الوصفية كان أكثر بصورة واضحة عن الجمل الحالية ، ومع ذلك فإنهما تشتركان في وقوعهما جملة فعلية أكثر من وقوعهما جملة اسمية . وأبدأ بالجمل الوصفية لأنها المتكاثرة ، وقد لحظت في بنائها أنماطاً تركيبية غالبة ، منها : وقوعها مبدوءة بفعل مضارع منفي ، وهو مما تكرر ، كما في قوله :

أثافِيَّ سُفْعاً ، في مُعَرَّسِ مِرجَلٍ ونُؤْياً ، كحوضِ الجُدِّ ، لم يتثلَّمِ (١)

فجملة " لم يتثلم " وصف ل " نُؤْياً " ، والمقصود بهذه الصفة بيان حالة النؤى وأنه " قد ذهب أعلاه ولم يتثلّم ما بقي منه " (٢).

---

(١) ١ : ٥ ، ص ١٨ . (٢) ص ١٨ .

وقوله :

فِي فتيةٍ ،لَيِّني المـآزِرِ ،لا يَنْسونَ أحلامَهُم ،إِذا سَكِـرُوا [١]

جملة "لا ينسون أحلامَهُم" وصفية لـ"فتية" ،وهو وصف أبان عن معنًى جيد هو استحكام الحلم فيهم وقوة نفسهم و"أنهم حُلمـاءُ لا يجهلُون ولا يَسفُهونَ".[٢]

وقولـه :

أمِن أُمّ أوفَى دِمْنَةٌ ،لم تَكَـلَّمِ بحَومانةِ الدَّرّاجِ ،فالمَتَثَلَّـمِ [٣]

جملة "لم تَكَلّمِ" وصف بالفعلية لـ"دِمْنة" وهي "آثار القوم وما سَوَّدوا".[٤] ،وقد أبانت هذه الصفة عن معنى أن هذه الدمنة صامتة خرساء لم تتكلم.

وقولـه :

أولى لكُم ،ثُمَّ أولَى ،أنْ يُصيبَكُمُ مِنّي نواقِرُ ،لا تُبقِي ،ولا تَـذَرُ [٥]

" أولى لكم : تَهَدُّدٌ ووعيد . ثم أولَى أن يُصيبَكُمُ أي : كادت تُصِيبُكم نواقِرُ . . .وقيل النَّواقِرُ : الكلماتُ اللاتي يُصابُ فيهـنّ المعنَى ،ومن السِّهامِ المُنتقَى ".[٦]

وصف "النواقر" بأنها "لا تبقي" والمقصود أنهـا مُهلِكـة مُضِرَّة ،وقد ألح هذا المعنى عليه فرمى بجملة وصفية أخرى "ولا تذر" إثر الأولى ، ليؤكد معنى أنها مهلكة. وغير هذه الجمل الوصفية المبدوءة بفعل منفي كثير في شعره.

---

(١) ٢٨ : ١١ ،ص ٢٣١.
(٢) ص ٢٣١.
(٣) ١ : ١ ، ص ١٦.
(٤) ص ١٦.
(٥) ٢٦ : ٦ ، ص ٢٢٥.
(٦) ص ٢٢٥.

ومن الأنماط التركيبية مع جملة الصفة، نمط تأتي فيه نكرة ثم جملة فعلية ثم جار و مجرور ثم مفرد، مثل قوله:

نالت بعاقبةٍ، وكان نَوالَها   طَيفٌ، يَشُقُّ، على المباعَدِ، مُنصِبُ

في كُلِّ مَثوى لَيلةٍ سارٍ، لَها،   هادٍ، يَهيجُ بِحُزنِهِ، متأوِّبُ[(١)]

"نالت"، "نُلتُ له بِشَيءٍ، أي جُدتُ".[(٢)] "عاقبة":

"عقب كل شيء، وعقبه وعاقبته، وعاقبة... آخره".[(٣)] "طيف"،

"وطاف الخيل يطيف طيفاً ومطافاً: ألمَّ في النَّوم".[(٤)] "المباعد"،

"البعد: خلاف القرب".[(٥)] "مُنصِب"، "النَّصَبُ: الإعْياء من العَناء".[(٦)] "هادٍ"، "الهادِي: الدليلُ".[(٧)] "متأوب"، "يقال للرجُل يرجع بالليل إلى أهلِهِ: قَدْ تأوَّبهم وأتابَهم، فهو مُؤْتاب ومُتأوِّب".[(٨)]

ف "يَشُقُّ على المباعَدِ" وصف لـ "طيف" بالفعلية و معها متعلقها "على المباعَدِ" و "مُنصِب" وصف بالمفرد لـ "طيف". ومثلها "يَهيجُ بِحُزنِهِ" وصف لـ "سارٍ" بالفعلية ومعها متعلقها "بِحُزنِهِ"، و "متأوِّب" وصفٌ بالمفرد لـ "سارٍ".

وقوله:

أفَذاكَ، أمْ ذُو جُدَّتينِ، مُولَّعٌ   لَهَقٌ، تُراعِيهِ بِحومَلَ رَبرَبُ؟[(٩)]

---

(١) ٥٣: ٢-٣، ص ٢٧٦.
(٢) ابن منظور (لسان العرب) ٦: ٤٥٨٢. (مادة: نول).
(٣) (المصدر السابق) ٤: ٣٠٢٢ (مادة: عقب).
(٤) (المصدر السابق) ٤: ٢٧٣٩ (مادة: طيف).
(٥) (المصدر السابق) ١: ٣٠٩ (مادة: بعد).
(٦) (المصدر السابق) ٦: ٤٤٣٤ (مادة: نصب).
(٧) (المصدر السابق) ٦: ٤٦٤١ (مادة: هدى).
(٨) (المصدر السابق) ١: ١٦٧. (مادة: أوب).
(٩) ٥٣: ٢٩، ص ٢٧٩.

" تُراعيه بحومَلَ رَبرَبُ " جملة وصفية لـ " لَهَقٍ " تعلق بها جار و مجرور وفاعل . وتأمل الصياغة في المقاطع :

طَيفٌ ، يَشُقُّ على المباعَدِ ،مُنصِبُ .

، هابِ ، يَهيجُ بِحُزنِهِ ،مُتأوِّبُ .

، لَهَقٌ ،تُراعيهِ بحومَل رَبرَبُ .

و لعلك لحظت أن هذا النمط قد تكرر في قصيدة واحدة فقط ، وقد يختلف النمط قليلاً كما في البيت التالي :

بِجيدِ مُغْزِلَةٍ ،أدْماءَ ،خاذِلَةٍ ، مِنَ الظِّباءِ ،تُراعي شادِناً ،خَرِقا (١)

فـ " تُراعي شادناً " وصف بالجملة الفعلية لـ " مُغْزِلَةٍ " ،و " خَرِقا " وصف بالمفرد لـ " شادناً ".

ومثلها :

كأنّ عينَيَّ في غَرْبَيْ مُقتَّلَةٍ مِنَ النَّواضِحِ ،تَسقي جَنَّةً ،سُحُقا (٢)

" الغَربان : الدَّلْوانِ الضَّخمانِ . والمُقتَّلةُ : المُذلَّلةُ . يعني الناقَة . يقول : كأنّ عينيَّ ،من كثرةِ دموعِهما ،في غَربَيْ ناقةٍ يُنضَحُ عليها ،قد قُتِّلَتْ بالعملِ حتّى ذَلَّتْ . وإنما خَصَّ المقتَّلةَ ،أرادَ أنها ماهرةٌ تُخْرِجُ الغربَ ملآنَ فيسيلُ من نَواحيه . . وكلُّ بعيرٍ يُستقَى عليه فهو ناضحٌ . . . تَسقِي جَنّةً سُحُقا ،يريد : تَسقي نَخْلاً . والنخلُ أحوَجُ إلى كثرة الماءِ من الخُضَرِ وما أشبَهَها " (٣) . " و " السُّحُقُ " : جمع سَحُوق ،وهي النخلة التي ذهبت جريدُها صُعُداً ، فطالت . ولم

---

(١) ٢ : ٥ ، ص ٣٩ .
(٢) ٢ : ١٠ ،ص ٤١ .
(٣) ص ٤١ - ٤٢ .

يقصد بـ "السحق " إلى معنى ،وانما ذكرها للقافية . ويحتمل أن يريد جنة ذات سُحُقٍ ،أي : بُعْدٍ ،والمعنى أنها متباعدة الأقطار والنواحي ، فهي أحوج الى الماء الكثير لبعدها وسعتها " .(١)

فجملة " تسقي جنّةً " وصف لـ " مقتَّلةٍ " ،وهي تقابل في البيت السابق " تُراعي شادِناً " و "خَرِقا " هناك تقابلها هنا " سُحُقا " فهي وصف لـ "جنّةً " وتأمل الصقل والملاءمة والتآخي في الصياغة ونمط التركيب في القصيدة الواحدة :

من الظباء ، تُراعي شادِناً ،خَرِقا

، من النواضِحِ ، تسقي جَنّةً ، سُحُقا

ومن الأنماط الغالبة مع الجمل الوصفية ،العطف عليها ،مثل قوله :

وشُعْثٍ ،مُعطَّلةٍ ،كالقِداحِ غَزَوْنَ مَخاضاً ،وأُدِّينَ حُولا (٢)

" ويُروى : " بشُعْثٍ " يعني : الخيل متغيِّرة الألوانِ منتفشةَ الشعور ، غيّرها طولُ السَّفر ، معطَّلةٌ : ليس عليها أرسانٌ من الكلالِ والتَّعبِ . والمخاضُ : اللَّقَّحُ . وأُدِّينَ حُولا : قد أَلْقَيْنَ ما في بُطونهنّ من التَّعبِ . وأُدِّينَ : رُدِدْنَ إلى أهلهنّ . والحُولُ : ليس بهنّ حَمْلٌ ... مَخاضاً : حَوامِلَ ."(٣)

فـ " غزون مخاضاً " وصفٌ بالجملة الفعلية لـ "شُعْثٍ" ، و " أُدِّينَ حُولا " معطوف على " غزون مخاضاً " . وتأمل استواء

---

(١) الأعلم الشنتمري (شعر زهير بن أبي سلمى) ص ٦٦-٦٧.

(٢) ١١ : ٦ ،ص ١٤٧ . (٣) ص ١٤٧.

الكلام والملاءمة بين المعطوف والمعطوف عليه :

غزون مخاضاً

، أدّينَ حُـــولا

فقد استخرج من كل فعل حالاً أكسب هذا الفعل مذاقـــاً ، فقد غزت الخيل حالة كونها لقاحاً ،وآبت حالة كونها ضامـــراتٍ أى ملقياتٍ ما في بطونهن إعياء .

وقوله :

كأنَّ عليهمُ ، بجُنُوب عِسْرٍ ، غَماماً ،يَستَهِلُّ ،ويَستَطِيـــــرُ (١)

" يستهلُّ : يسيل . ويستطيرُ : بالبرقِ إذا اتّسعَ وطال وامتدَّ ، يبرقُ ويلمعُ . شبّه انصبابَ الدماءِ بالمطرِ، وبريق السيوفِ بالبرقِ . والمعنى : يقعُ بهم كوقعِ المطرِ." (٢)

فـجملة " يستهِلُّ " وصفٌ لـ " غَماماً " ،و " ويستطير " معطوف على " يستهل " .

وقوله :

جُفَرٌ تَفيضُ ،ولا تَفيضُ ، طوامِياً يَزخَرْنَ ، فوق جِمامِهِنَّ الطُّحلُبُ (٣)

" جُفَرٌ "،" الجُفْرةُ : الحُفْرةُ الواسِعَةُ المُسْتَديرةُ " (٤) "طوامياً " " طَما الماءُ يَطْمُو طُمُوًّا ويطْمِي طُمِيًّا : ارتفعَ وعَلا ومَلأَ النَّهْـــــرَ ، فهو طامٍ ،وكذلك إذا امتلأَ البحْرُ أو النَّهْرُ أو البِئْرُ." (٥) "يزخرن" :

---

(١) ٤٠ : ٦ ، ص ٢٥٢ .

(٢) ص ٢٥٢ .

(٣) ٥٣ : ٢٠ ،ص ٢٧٨ .

(٤) ابن منظور (لسان العرب) ١ : ٦٤٠ ،(مادة : جفر) .

(٥) (المصدر السابق) ٤ : ٢٧٠٧ . (مادة : طما) .

"ويقال للوادي إذا جاش مَدُّه وطَمَاسَيْلُه : زَخر يَزْخَرُ زَخْراً ،وقيل : إذا كثر ماؤهُ وارتفعت أمواجه "(١) ،"جِمامِهِنَّ"،" وماء جم : كثيرٌ ، وجمعُهُ جِمَامٌ"(٢) : الطُّحْلُبُ "،" خُضْرةٌ تَعْلُو الماءَ المُزْمِنَ "(٣).

ف" تَفيض " وصف لـ" جُفَر " ،و" لا تَفيضُ " معطوف على "تفيض " ، ولكنَّ الجملة المعطوفة أتت منفية ،والفعل المضارع فيهما أحدث تمادلاً ، و"يزخَرْن " صفة ثالثة . وتأمل الصقـــل والملاءمة:

غماماً يستهل، ويستطيـــر

، جُفَرٌ تفيض ،ولا تفيض ... يزخَرْن

، شُعْثٍ غزون مخاضاً ،وأدّين حُولا

وغيرها من النماذج كثير .

أمّا الجمل الحالية ، فمع كون الحال فضلة وقيداً في الجملـــة فإنه يحمل كبير مغزى ، وكان أكثر وقوع الجمل الحالية -كما ذكـرت سابقاً - فعلية مبدوءة بفعل مضارع ،وربما كان هذا راجعاً لكـــون الفعل المضارع أشبه بالحال من حيث دلالته على الحال والتي تجعله أقرب إلى الجملةالحالية ،وقد لحظت تردد الجمل الحالية المبدوءة بفعل مضارع غير منفي من غير واو ،ولنتأمل قوله:

قامت ،تَبَدّى بِذي ضالٍ ،لِتَحزُنَني ولا مَحالةَ أنْ يَشتاقَ من عَشِــقا(٤)

---

(١) (المصدر السابق) ٣ : ١٨٢٠ . (مادة : زخر).

(٢) (المصدر السابق) ١: ٦٨٦ . (مادة : جمم).

(٣) (المصدر السابق) ٤: ٢٦٤٥. (مادة : طحلب).

(٤) ٢ :٤ ،ص ٣٩.

" تبدّى " جملة حالية من الضمير في "قامت " ،أي : قامت والحال أنها تبدى ،والتبدي هذا له فَضْل تَعَلق بقلب الشاعر، فهو يصف حالة قيامها وقد أحزنت قلبه ،فكان من المشاهد الا ثيرة عنده .

ومثله قوله يصف الحمار :

إرتاعَ ، يذكُرُ مشرباً ،بثمادِهِ   مِن دونه خُشُعٌ ،دَنَونَ ،وأنقبُ (١)

" إرتاع " ،"والرَّيْعُ : العَوْدُ والرُّجوعُ . راع يَريعُ ،وراه يَريهُ ، أي رَجَعَ "(٢) ،"بثماده" ،" الثَّمْدُ والثَّمَدُ : الماءُ القليلُ الذي لا مادّ له "(٣) ،"خُشُعٌ " ،" جمع خشوع . وهو الجبل الطويل . وخشوعه أن أطرافه لا ترى إلا خاشعة لبعدها من الناظر "(٤) ،"وأنقب ،" النَّقْبُ والنُّقْبُ : الطَّريقُ ،وقيل : الطريق الضَّيِّقُ في الجبل ."(٥)

فقوله : " يذكر " حال من الضمير في " إرتاع " يعني به الحمار، أي : ارتاع والحال أنه يذكر مشرباً ،و "قام " هناك تقابلها هنا " إرتاع " ،و " تبدّى " هناك تقابلها " يذكر " ، والاختلاف أنه أطلق الفعل هناك فلم يقيده بمفعول على عكس ما صنع هنا . وتأمل الصياغة وتلاحم وصف الكلام وتوحد سبكه :

قامت ، تبدّى

، إرتاع ، يذكر

---

(١) ٥٣ : ١٨ ، ص٢٧٨ .

(٢) ابن منظور (لسان العرب) ٣ : ١٧٩٣ . (مادة : ريع) .

(٣) (المصدر السابق) ١ : ٥٠٣ (مادة : ثمد) .

(٤) ص٢٧٨ ،حاشية (١) .

(٥) ابن منظور (لسان العرب) ٦ : ٤٥١٤ . (مادة:نقب) .

وقد يختلف النظام عما سبق فيذكر متعلقات للفعل الأول ، مثل قوله :

ووَرَّكْنَ ، في السُّوبانِ ، يعلُونَ متنَهُ عليهنَّ دَلُّ النَّاعِمِ ، المُتنعِّمِ (١)

فـ " يَعلُون مَتنَهُ " جملة حالية ، أي : ورّكن حالة كونهن يعلون متنه .

ومثل النظام السابق ، قوله :

نَشَزْنَ من الدَّهناءِ ، يقْطَعْن وسْطَها شقائقَ رملٍ ، بينهنَّ خمائلُ (٢)

فـ " يقطَعْن وسْطها " جملة حالية ، أي : نَشَزْن من الدَّهناء حالة كونهن يقطعن وسْطها .

وقوله :

وتُصْبِي الحليمَ ، بالحديثِ ، يَلَذُّه وأصواتِ حَلْيٍ ، أو تحرُّكِ دُمْلُجِ (٣)

فإنَّ " يلذُّه " جُملةٌ حالية من " الحديث " .

وقوله في الحمار :

أكل الربيعَ بِها ، يُفزِّع سَمْعَهُ ، بمكانِهِ ، هَزِجُ العَشيَّةِ ، أصهَبُ (٤)

" هزِج " : " الهزج صوت الرعد والذبان " (٥) . " أصهب " : " الصَّهَبُ والصُّهْبَةُ : لونُ حُمْرةٍ في شَعَرِ الرَّأسِ واللِّحْيَةِ ، إذا كان في الظاهر حُمْرةً ، وفي الباطِنِ اسْودادٌ ، وكذلك في لون الإبل " (٦) .

---

(١) ١ : ١٣ ، ص ٢١ .

(٢) ٢٤ : ٦ ، ص ٢١٥ .

(٣) ٣٢ : ٨ ، ص ٢٣٧ .

(٤) ٥٣ : ١٤ ، ص ٢٧٧ .

(٥) ابن منظور (لسان العرب) ٦ : ٤٦٦٠ ، (مادة : هزج) .

(٦) (المصدر السابق) ٤ : ٢٥١٣ (مادة : صهب) .

" يفزّع سمعه " حال بالجملة الفعلية من الضمير في " أكل ".

وقوله :

فأصبح محبوراً ،يُنظّر حولَهُ بمَغْبَطةٍ ،لو أنّ ذلك دائمُ ! (١)

" المحبورُ : المنعَّمُ ... يُنظِّر حوله يميناً وشِمالاً من الخُيلاء " (٢).

" ينظّر حوله " حال من الضمير في " فأصبح " ،ولعلك لحظت طبيعة بناء الفعل على التضعيف في " يُفزّع " و " ينظّر " دالاً على التكثير وأنه كان فزعاً عقب فزع ،ونظراً عقب نظره ولعلك لحظت أيضا آثار المراجعة والتدقيق في صنعة زهير في هذا النمط الذي يكاد يكون متسقاً :

وورّكن في السُّوبان ،يعلون متنه

، نَشَزْنَ من الدَّهناء ، يقطعن وسْطها

، وتُصبِي الحليمَ بالحديث يلذّه

، أكل الرَّبيع بها يفزّع سمعه

، فأصبح محبوراً ينظّر حولَه

وهكذا ترى وفرة الجمل الحالية التي تأتي من غير واو في هذه الشواهد وفي غيرها ،وهو مما أشار إليه الشيخ عبد القاهر في الفروق في الحال ،فالجملة إن كانت " من فعل وفاعل ،والفعل مضارعٌ مثبتٌ غيرُ منْفى ،لم يكد يجيء بالواو ، بل ترى الكلام على مجيئها عاريةً من " الواو " ، كقولك : " جاءني زيد يسعى غلامُه بين يديه " (٣).

---

(١) ٤٢ : ٣ ، ص ٢٥٥. (٢) ص ٢٥٥.

(٣) (دلائل الإعجاز) ص ٢٠٤.

كما وقعت في شعره جمل حالية مبدوءة بفعل ماض مقرونة بقد ومعها الواو ، مثل قوله في ناجية :

حتى تَحُلَّ ،بهم ،يوماً ،وقد ذَبَلَتْ مِنْ سَيْرِ هاجِرةٍ ،أُودُلْجةِ السَّحَرِ (١)

" وقد ذَبَلَتْ ." حال من الضمير في " تحل " ،والمراد توكيد هذه الحالة ،حالة الذبول التي عليها هذه الناجية .

وقوله :

وكأنَّها ،يوم الرحيل ،وقد بدا منها البنانُ ، يزينُه الحِنّـــاءُ (٢)

" وقد بدا .." حالية من الضمير في " كأنّها " ،والمقصود بيان زينتها وجمالها .

وقوله :

فلو كان حَيٌّ ناجياً لوجدتَـهُ من الموتِ ،في أحراسِهِ ،رَبَّ ماردِ (٣)

أوالحَضْرِ ،لم يمنَعْ مِنَ الموتِ رَبَّهُ وقد كانَ ذا مالٍ طريفٍ ،وتالِدِ

ماردٌ : "حِصنٌ بدومة الجندَلِ" . (٤)

" وقد كان ذا مال ..." جملة حالية من الضمير في "ربه" ، وهي من المعنى على الحد الذي ترى ، فهذا الحصن والحضر لم يمنع صاحبه من الموت والحال أن هذا الصاحب قد كان ذا مال طريـــف وتالد ،والمقصود أنه لا دافع يدفع الموت ،وعلى هذا بنيت الأبيات قبله :

حِياضُ المَنايا ليسَ عَنها مُزَحزَحٌ فمنتظِرٌ ظِمئاً كآخَرَ ، وارِدِ (٥)

---

(١) ٢٩ : ٣ ،ص ٢٣٢ .

(٢) ٤١ : ٦ ،ص ٢٥٤ .

(٣) ٣٣ : ٦-٧ ، ص ٢٤٢ .

(٤) ص ٢٤٢ .

(٥) ٣٣ : ٤ ، ص ٢٤١ .

وبعده :

أَلَم تَرَ أَنَّ النَّاسَ تَخلُدُ بَعدَهُم أَحادِيثُهُم ،والمَرْءُ ليسَ بخالِدِ (١)

وقوله :

ولم تَدرِ ،وَشْكَ البَينِ ،حتّى رأَتْهُمُ وقد قَعَدُوا أَنفاقَها ،كُلَّ مَقعَدِ (٢)

" وقد قعدوا " جملة حالية ،وتأمل موقعها من المعنى وأنها توشك أن تكون أصله ،فأهم ما في هذا البيت إحاطتهم - أي رماة الغوث - بها وقد سَدُّوا كل مخارجها .

وغير هذه الجمل الحالية كثير جداً في شعر زهير ،ولن نقف عند جميعه ، وهذا اللون من الجمل الحالية أشار إليه - أيضاً - الشيخ عبد القاهر " ومما يجيء بالواو وغير " الواو "،الماضي ،وهو لا يقع حالاً إلا مع " قد " مُظْهَرة أومُقَدَّرة . أمَّا مجيئها بالواو فالكثير الشائع ،كقولك : " أتاني وَقَدْ جهده السير ". (٣) وهكذا كانت عند زهير فالكثير الشائع مجيئها بالواو . والقليل أن تجيء بغير الواو ،ومنه قوله :

تَداركتُما الأَحلافَ ، قَد ثُلَّ عَرشُها وذُبْيانَ ، قد زَلَّتْ بأقدامِها النَّعْلُ (٤)

" الأحلاف : عبسٌ وفزارة . وثُلَّ عَرشُها ،هذا مَثَلٌ ،أي : أصابَها ما كسرَها وهَدَمها . يقالُ : قد ثُلَّ عرشه : هُدِم بِناؤه ". (٥)

" قد ثُلَّ عرشُها " حالٌ من الأحلاف " ،و" قد زلّت بأقدامها النّعل " حال من " ذبيان ".

---

(١) ٣٣ : ٨، ص ٢٤٢ .
(٢) ١٤ : ٢٢ ، ص ١٦٥ .
(٣) (دلائل الإعجاز) ص ٢٠٩ .
(٤) ٥ : ٣٠ ، ص ٩١ .
(٥) ص ٩١ .

ومما وردت فيه الجملة الحالية من غير " الواو " أو " قد " قوله :

أو بَيضةُ الأُدْحِيِّ ،باتَ شِعارَها   كَنَفا النَّعامةِ : جُوءٌ جُوءٌ ،وعِفاءُ(١)

" باتَ شِعارُها " حال من " بيضة الأُدْحِيِّ ".

ومن الجمل الحالية المسبوقة بـ " ليس " قوله :

قَفْرٍ ،هَجَعْتُ بها ،ولَستُ بنائمٍ   وذِراعُ مُلْقِيةِ الجِرانِ وِسادِي (٢)

" هَجَعتُ " : نِمتُ . ولستُ بنائمٍ : لم أَنم على تحقيق نومٍ ، كقولك نِمتُ ولم أَنم . والجِرانُ : باطنُ الحلْقِ ما أصابَ الأرضَ ،وإنَّما تَضَعُه من الإعياء . يقول : توسَّدتُ ذِراعَ هذه الناقةِ من الكلال والتعب. توَسَّدَ ذِراعَ ناقته ،حين نَزَلَ ،وقد أَلقتْ جِرانَها بالأَرضِ ،وهو باطن الحلقوم ،من التّعب والكلال(٣).

" ولست بنائم " جملة حالية من الضمير في " هجعت " ،أي : هجعت والحال أنني لست بنائم. و" ذراع ملقية الجران وسادى " جملة حالية معطوفة على الحال السابقة. وهاتان الجملتان هما قوام معنى البيت إذ المراد أنه في هذه القفرة التي هجع بها لم ينم ،وأنّه كان يتوسد ذراع ناقته التي أصابها الإعياء . ومجيء الواو مع جملة الحال المسبوقة بـ " ليس " اعتبره الشيخ عبد القاهر من الأكثر الأشيع(٤) ، إلا أنَّ هذا الأكثر الأشيع لم يقع منه في شعر زهير إلا في البيت السابق فيما وقعت عليه. ومما وردت فيه جملة الحال غير مسبوقة بالواو مع ليس ، قوله :

فاضَ كأنَّه رَجُلٌ ،سَليبٌ   على عَلياءَ ، لَيسَ لـهُ رِداءُ(٥)

---

(١) ٤١ : ٨ ، ص ٢٥٤.

(٢) ٣٥ : ٣ ، ص ٢٤٤.

(٣) ص ٢٤٤.

(٤) (دلائل الاعجاز) ص ٢١٠.

(٥) ٣ : ٢٩ ، ص ٦٣.

و " ليس له رداء " حال من الضمير في " كأنه " والعائد على الحمار ، وهذه الجملة الحالية مؤكّدة للمعنى المدلول عليه بكلمة " سليب " ،وكأنّ هذا التعرى والاتجرادمما يعنى الشاعر ببيانه فضل عناية .

ومجمل القول ،انّ جميع ما مضى يدل على خصوصية لغوية في شعر زهير ،وهي كثرة الجمل الفعلية الداخلة في تكوين جمل أصلية ،وهذه الجمل الفرعية تكون - غالباً - وصفية ،أوحالية وهذه الأخيرة أقل من الأولى .

استعمالات الشرط :

عالجتَ في الصور المتقدمة كثيراً من أساليب الشرط ، وقد رأيت أن أفرد هذا الأسلوب بالنظر ،وإن كان جزءاً من الذي مضى لمزيد عناية به ،وذلك لتنوّع صوره وكثرته في ضروب خاصة من المعاني ، والذي يراجع أسلوب الشرط في شعر زهير يلحظ دوران أكثره في سياق الحكمة ، ولعلّك لحظت كيف أنّها استبدت بخاتمة معلّقته ، وقد أعان قوام الشرط وطريقة استعماله زهيراً على تركيز الخلائق والآداب الإنسانية التي كان يدعو إليها ، والأبيات في خاتمة المعلقة تعتبر نموذجاً لطريقة استعماله للشرط والنظام اللغوى الذي كان يتبعه معه ، فقد قال :

سَئِمْتُ تَكاليفَ الحَياةِ ،ومن يَعِشْ ثمانينَ حولاً ، لا أبا لكَ ،يَسْأَمِ (١)

وفيه استوعبت جملةالشرط جزءاً من الشطر الأول " ومن يعش "

---

(١) ١ : ٤٨ ،ص ٣٤ .

والكلام هو " ومن يعش يسأم " ،ولكنّ الشاعر ذكر زمن الفعل " يعش " ثم اعترض بجملة دعائية " لا أبا لك " دالاّ بها على فرط سأمه وملاله وضجره ،وهذا من أحسن مواقع الاعتراض والدّعاء ،ومخاطب زهير لا ذنب له في هذا العيش الذي سئمه حتى يرمى في وجهه بهذه الآبدة " لا أبا لك " ولهذا كانت رائعة لأنّها دلت على بلوغ السأم به مبلغاً هائلاً سئم معه آداب الحياة وتكاليفها وسئم مخاطبه أيضاً ، وصدق أبو عبادة في وصف الشعر وأنّه لمح تكفي إشارته . ثم إنّ جملة الشرط منتزع أصولها من الكلمة السابقة " سئمت تكاليف الحياة " ، على حدّ ما فعل في " إلى معشر لم يورث اللؤم جدهم أصاغرهم " عندما انتزع منها " وكل فحْلٍ لهُ نَجْل ".

وقال بعده :

رأيتُ المَنايا خَبْطَ عَشواءَ مَنْ تُصِبْ تُمِتْهُ ،ومن تُخطِئْ يُعَمَّرْ ،فيَهرَمِ (١)

" خبطَ عشواءَ : ناقة تعشو لا تقصِدُ ، فمن أصابته قتلته ...

يقول : المنايا من أخطأته عاشَ وهَرِمَ ". (٢)

بُني البيت على شرطين ،أحدهما : " من تصب تمته " وهذه أكثر الجمل الشرطية اختصاراً . والآخر : " ومن تخطئ يُعمّر " وهي مثلها وإنّ كان قد لحق بها قوله " فيهرم " لضرورة بناء المعنى عليه .

وقال :

وأَعلَمُ ما في اليَومِ ،والأمْسِ ، قَبلَهُ ولكنّني ،عن عِلمِ ما في غَدٍ ،عَمِي (٣)

---

(١) ١ : ٤٩ ،ص ٣٤ .

(٢) ص ٣٤ - ٣٥ .

(٣) ١ : ٥٠ - ٥١ ، ص ٣٥ .

ومن لا يُصانِعْ ،في أُمورٍ كثيرةٍ ،   يُضَرَّسْ بأنيابٍ ،ويُوطأْ بِمَنْسِمِ

" قوله "يُضَرَّس " أي : يُمْضَغ بالضِّرسِ ،ويُوطأْ بِمَنْسِمٍ مثلُ ... يقول " من لا يُجامِلِ الناس ويُدارِهم يُعضّ بالقبيح . والمَنسِمُ للبعير مثل الظُّفرِ للإنسانِ ".(١)

بُني البيت " ومن لا يصانع .." على الشرط وهذا هو فعله ، أمّا جوابه فقد أتى جملة " يضرس بأنياب " وعطف عليها " ويوطأ بمنسم "، والبيت الذي يليه بُني كلُّه على الشرط :

ومَن يَكُ ذا فَضْلٍ ،ويَبْخَلْ بفَضلِهِ   على قومِهِ ، يُستَغْنَ عَنهُ ،ويُذمَمِ (٢)

ولكن تغير النظام قليلاً عن البيت الذي قبله حيث تكرّر فعل الشرط ، " ومن يك ذا فضل ، ويبخل بفضله " ، وتكرّر جوابه : "يُستغن عنه ويُذمم " ، ولم يقل : " ومن يك ذا فضل يُستغن " وكأنّ جملة الشرط متفرعة ، فالجواب لا يترتب إطلاقا على من يك ذا فضل ،فلا يقال عنه " يستغن عنه ويذمم " لأنّ " ذا الفضل " تعني مَكْرُمَةً ، وإنما كان مهماً لو فاء المعنى أن يكون ذا فضل ويبخل ، والبيت الذي يليه :

ومَن يَجعَلِ المعروفَ من دُونِ عِرْضِهِ   يَفِرْهُ ،ومن لا يَتَّقِ الشَّتمَ يُشتَمِ (٣)

" يَفِرْهُ : يجعله وافراً ".(٤)

بُني البيت على شرطين اثنين ،جاء جواب الشرط الأول في بداية الشطر الثاني ،ومثله تماماً البيت الذي يليه :

---

(١) ص ٣٥
(٢) ١ : ٥٢ ، ص ٣٥ .
(٣) ١ : ٥٢ ، ص ٣٥ .
(٤) ص ٣٥ .

وَمَنْ لا يَذُدْ عن حَوضِهِ بِسِلاحِهِ يُهَدَّمْ ، وَمَنْ لا يَظلِمِ النَّاسَ يُظْلَمِ (١)

قوله : " ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه " ، أي : من لا يُدافع عن قومه يَذِلّ ويُكسَر ، ومن لا يَظلم أي : من يكن مَهيناً ضَعيفاً يُظلَمْ ".(٢)

فقد استوعب أسلوب الشرط الأول الشطر الأول وجزءاً من الشطر الثاني ، وكأنّ النغمة تأخذ أعماقاً عند الشاعر لِتكوّن هذا النظام اللغوي الدقيق ، وانظر إلى التعادل في نفي فعل الشرط ب " لا " في الجملتين .

وقال بعده :

وَمَن هابَ أسبابَ المَنايا يَنَلْنَهُ ولو نالَ أسبابَ السَّماءِ بِسُلَّمِ (٣)

" أسبابُ السَّماء : نواحيها ووجوهُها . يقول : من اتّقى الموتَ لقيه ." (٤).

وكما ترى بُني الشطر الأول فقط على شرط واحد " ومن هاب .. ينلنه " ، وكذا الشطر الثاني ، بُني على شرط آخر " ولو نال .. " إلا أنّ جوابه محذوف . أما البيت الذي يليه ، فقد استوعبت جملة الشرط فيه كلّ البيت :

وَمَنْ يَعْصِ أَطرافَ الزِّجاجِ فإنَّهُ يُطِيعُ العَوالِي ، رُكِّبَتْ كُلَّ لَهذَمِ (٥)

----

(١) ١:٥٤ ، ص ٣٥ .
(٢) ص ٣٥ .
(٣) ١: ٥٥ ، ص ٣٥ .
(٤) ص ٣٦ .
(٥) ١: ٥٦ ، ص ٣٦ .

" يقول : من عَصَى الأَمرَ الصَّغيرَ صار إلى الأَمرِ الكبيرِ . وقوله " كلّ لَهذَمِ " أي : في كلِّ لَهذَمٍ ... واللَّهذم : الماضي . يقال : سِنانٌ لَهْذَمٌ ، ولسانٌ لَهْذَمٌ . وقال أبو عبيدة : هذا مَثَلٌ . يقول : إن الزُّجَّ ليس يُطعَنُ به ، إنّما يُطعَنُ بالسّنانِ ، فمن أبى الصُّلحَ ، وهو الزُّجُّ الذي لا يُطعَنُ به ، أطاعَ العَواليَ وهي التي يُطعَنُ بها ".(١)

وجاء الجواب مكوّناً من جملة اسمية مختلفاً عن جميع ما مضى " فإنه يُطيعُ العوالي " . ثم قال :

وَمَن يُوفِ لا يُذمَمْ ، ومن يُفْضِ قَلبُهُ إلى مُطمَئِنِّ البِرِّ لا يَتَجَمْجَمِ (٢)

" يقول : من وَفى لم يُذمَمْ ... ومن يُفْضِ قلبُه ، يقول : من كان في صدره بِرٌّ ، قد اطمأن وسكن ليس ببرٍّ يَرجُفُ لم يطمئنَّ ، لم يتجمجم وأمضى كلّ أمرٍ على جهته ، وليس كمن يُريد غَدراً فهو يتردّد في أمره . والبِرُّ : الصَّلاح . وقوله " إلى مطمئن البرّ " أي : إلى البرِّ المطمئن في القلب ".(٣)

وقد بُني البيت على شرطين ، وهذا البناء له نظير في قوله قبل " ومن يجعل .. " و " ومن لا يذد .. " . وقد انتقل النفي بـ " لا " إلى جواب الشرط في الجملتين وهو مختلف عن جميع ما مضى ، واستوعب الشطر الأول جملة شرطية " ومن يُوفِ لا يذمم " وجزءاً من الشرطية الثانية وهو فعل الشرط " ومن يفض قلبه " . وفي البيت الذي يليه قال :

وَمَنْ يَغتَرِبْ يَحسِبْ عدُوّاً صَديقَهُ وَمَن لا يُكَرِّمْ نَفسَهُ لا يُكَرَّمِ (٤)

---

(١) ص ٣٦ .
(٢) ١ : ٥٧ ، ص ٣٦ .
(٣) ص ٣٦ .
(٤) ١ : ٥٨ ، ص ٣٦ .

"ومن يغترب أي : من يصر غريباً يُدارِ العدوَّ ،حتى كأنّه صديقٌ عنده "(١) .

بني البيت كسابقه على شرطين اثنين ،ولكن النسق فيه مختلف عن جميع ما مضى حيث استوعبت كل شطر جملة شرطية واحدة ،وجاء فعل الشرط الثاني وجوابه منفيين ،وليس لهذا النسق اللغوي نظير فيما سبق . ثم قال :

ومَهما تكن عِنْد امرئٍ من خَليقةٍ وإنْ خالَها تَخفَى على النّاسِ ،تُعْلَمِ(٢)

وفيه بني البيت على جملة شرطية واحدة ،وقد فصل بين الشرط وجوابه بجملة اعتراضية " وإن خالها تخفى على الناس " . وهذا مع الجملة الاعتراضية السابقة " لا أبا لك " منبئ عن طريقة زهير في إدخاله الجملة الاعتراضية بين فعلي الشرط . ثم قال :

وَمَن لا يَزَلْ يَستَحمِلُ النّاسَ نَفْسَهُ ولم يُغْنِها ،يوماً من النّاسِ ،يُسْأَمِ(٣)

وفيه عطف على فعل الشرط بجملة أخرى " ولم يغنها " ،وهو تركيب له نظير في قوله قبل : "ومن يك ذا فضلٍ .." .

وفي موضع آخر تجد جملة الشرط استوعبت أكثر من بيتين لكثرة المتعاطفات على الجواب وذلك بمقدار ما في الشرط من معنًى ،هو في قوله :

فإنْ تَدعُو السَّواءَ ،فليس بيني وبَينَكُم ،بَني حِصْنٍ ،بَقاءُ(٤)

---

(١) ص ٣٧ .

(٢) ١ : ٥٩ ، ص ٣٧ .

(٣) ١ : ٦٠ ، ص ٣٧ .

(٤) ٣ : ٦٤-٦٦ ، ص ٧٤ . " القَذعُ : القبيحُ والشَّتمُ .. وشرراً أي : تطيرُ في الناس ، ليست نارَ حربٍ ،أي : يطيرُ لها شَررٌ في الناس ،أي شُهرةٌ ... وقوله "لِواء" أي : لواءٌ من الغَدْرِ والشُّهرة " ص ٧٤-٧٥ .

وَيَبقَى بَينَنا قَذَعٌ ،وتُلفَوا   إذا قَومٌ ،بأنفُسِهِمْ أَساؤوا
وتُوقَدْ نارُكُم شَرَراً ،ويُرفَعْ   لكُم ،في كُلِّ مَجمَعةٍ ، لِواءُ

" إنْ " و "إذا " ومواقعهما في شعره :

تقرّر عند علمائنا أنَّ : " إنْ " و " إذا " أداتان تشتركان في الشرط المستقبل ،وأنَّ " إنْ " تكون في الشرط غير المقطوع به ، و "إذا " في الشرط المقطوع به . وقد جرت لهما مواقع دقيقة في الكتاب العزيز أشار إليها الزّمخشري وغيره من العلماء ،وسيتابع البحث مواقع هاتين الأداتين في شعر زهير لتتبين هل كان في استعمالاته لهما ماضياً على الطريقة التي قرّرها العلماء ؟ أم نراه يلفتنا إلى استخراجات جديدة في هذا الباب .

ونبدأ بمواقع " إنْ " ،ومنها قوله يمدح هرم بن سنان :

إنْ تُؤتِهِ النُّصحَ يُوجَدْ ،لا يُضَيِّعهُ   وبالأمانةِ ،لم يَغدِرْ ،ولم يَخُنِ (١)

تشير " إنْ "هنا إلى ندرة توجيه النصح لهذا الممدوح ؛ فهو منتصحٌ بعقله ورأيه وخبرته ،وإنْ نُصح فهو لا ينصح إلا نادراً . وهذا المعنى مما جاء على أصل الباب ،ومجيء الفعل بعد"إنْ " على صيغة المضارع يؤكّد معنى الندرة .

ومثله ،قوله في هرم أيضاً :

هو الجَوادُ ،الذي يُعطِيكَ نائلَهُ   عَفْواً ،ويُظلَمُ أحياناً ، فيَظَّلِمُ

---

(١) ٦ : ٢٠ ،ص ١٠٠ .
" قال : تجده غير مضيع له ،ص ١٠٠ .

وإنْ أتاهُ خَلِيلٌ ،يَومَ مَسألـةٍ يَقُولُ : لا غائِبٌ مالِي ،ولا حَرِمُ (١)

" الخليل من الخَلَّةِ : الفقيرُ. والحَرِمُ : المنْعُ . يقولُ : ليس لمالي مَنْعٌ عنك (٢)".

استعملت " إنْ " على أصل الباب ،فإتيان الخليل طالباً في يوم الحاجة والفاقـة أمر نادر قليل ، لانّ هرماً رجل لا يحتاج الفقير معه إلى سؤال يوم الحاجة فهو يكفي الجميع ويغمرهم بفيض عطاياه فلا يحتاج أحد إلى مسألة. وقد أبان الشاعر عن هذا المعنى بقوله : " هوالجواد الذي يعطيك نائله عفوا " ، وهذا متسق جدا مع " إن " في هذا الموقع .

وقوله في القصيدة نفسها مادحاً هرِماً :

فَضَّله ،فَوقَ أقوامٍ ،و مَجّــــدَهُ مالن يَنالُوا ،وإن جادُوا ،وإنْ كَرُمُوا (٣)

" أراد : ما لن ينالوا من فضله وفعله (٤)".

جاءت " إن " على أصل الوضع ،وهي تطوي في ذات الوقـت معنى خفياً وهو أنّ هؤلاء الأقوام الذين يفضلهم الممدوح أقوام لهـم قيمة ، إلا أن تجشمهم الجود الذي يحاولون أن يصلوا به إلى المدى الذي وصل إليه هرم أمر قليل ونادر جداً . وعليه فالأمر النادر هوالجود الذي يحاولون به الوصول إلى مرتبة هرم.

---

(١) ٨ : ١٣ - ١٤ ،ص ١١٩ - ١٢٠ .

(٢) ص ١٢٠ .

(٣) ٨ : ٣٢ ، ص ١٢٥ .

(٤) ص ١٢٥ .

وقوله يمدحه أيضا :

يَطلُبُ شأْوَ امرأَينِ ، قدَّما حَسَناً   نالا المُلوكَ ،وبَذّا هذهِ السُّوقا (١)

هُو الجَوادُ ،فإِنْ يَلحقْ بشأْوِهِما،   على تكاليفِهِ ،فمِثلُهُ لَحِقـــا

" الشّأو : الوجهُ من الجريِ . والشّأو : الغايةُ . وبذّا : غَلَبا وفاقا . والسُّوَقُ بينَ الملوكِ والأوساطِ . (٢)

في البيت الأول لمسة رائعة ،لأنّ الشاعر لا يريد وضع هرم بمحاذاة والديه ،وإنّما يريد أن يجعل لهما فضلاً عليه ، فجاء ب " فإن يلحق بشأوهما " ليوحي وحياً بسأن لحوقه مكارم آبائه كالأمر غير المتوقع لفضلهما الزائد ، وهذا مدح آخر لهرم ، ومؤدّاه أنّ والديه لهما فضل سامق ،وهذا مدح بطريق مباشر ،ومجيء الفعل على صيغة المضارع يؤكّد هذا المعنى .

وقوله فيه أيضاً :

وإن سُدَّتْ ،به لَهواتُ ثَغْرٍ   يشار إليه ،جانبُهُ سَقيـــــمُ (٣)

مَخُوفٍ بأْسُهُ ،يَكلأُكَ منــهُ   عَتيقٌ ،لا أَفَـنَّ ،ولا سَـــؤُومُ

" لهوات ثَغْرٍ يعني : مَداخله . واللّهوات : جمع لهـــاةٍ ، وهي مدخل الطعام في الحلق استعارها لمدخل الثغر . والثّغر : موضع يُتّقى منه العدو . وقوله : " يشار إليه " من صفة "الثّغر" أي : يهتم به ويذكر . وقوله "جانبه سقيم " أي جانب الثغـــــر ،ومخوف ،

(١) ٢ : ٢٤-٢٥ ، ص ٤٨- ٤٩ .   (٢) ص ٤٨ .

(٣) الأعلم الشنتمري (شعر زهير بن أبي سلمى) ١٢ : ١٤-١٥ ، ص ١٥١ - ١٥٢ .

يخشى القومُ أن يُؤتَوا منه ،فجعله سقيماً لذلك . و " سِدادُ الثَّغر " : تحصينه ، ومنع العدوّ منه ...قوله " مخوفٍ بأسُهُ " من صفة " الثَّغر ". و " يكلأك منه " جواب قوله " وإن سُدَّت به " . ومعنى " يكلأك " : يحفظك . وأراد ب " العتيق " : هَرِماً . و " الألفّ " : الضَّعيف الرأي الثقيل ... والسّؤوم " : الملول .(١)

الظاهر استخدام إذا " دون " إنْ "، ليشار إلى أنّ سده لهوات الثغور مقطوع به ، إلا أنّ الشاعر آثر " إنْ " وذكر معها صفاتٍ كثيرة لهذا الثغر ، فهو " يُشار إليه " و " جانبه سقيم " و " مخوفٍ بأسه " ،وثغرٌ هذا حاله لا يكون إلا في الحالات النادرة ثم إنّ الشأن فيه إن وجد ألا يقدر على سده إلا القليل ، بل إنَّ ذكر " إنْ "هنا وصف آخر لهذا الثغر وشدة مخافته ،فلما انتقل الكلام إلى الممدوح من غير أن تكون هناك إشارة إلى الثغر جهرت العبارة بقوته " يكلأك منه عتيق لا ألف ولا سؤوم " . وبُني الكلام على التجريد " يكلأك منه عتيق " وكأنّه جرّد منه لهذا الثغر المخوف كائناً عتيقاً مجرب الرأي ذا همة موصولة و نشاط دءوب .

وقوله يمدح سنان بن أبي حارثة :

قوماً ، تَرَى عِزَّهُم والفَخرَ ،إنْ فَخَروا في بيتِ مَكرُمةٍ ، قد لُزَّ بالقَمَرِ(٢)

" لَزَّ " ، " ولَزّه يَلُزُّه لزّاً وَلزازاً أي شَدّه وألصقه ".(٣)

وفيه تدل " إن " على أنّ الفخر نادر ما يكون منهم ،وكأنهم لا يفخرون لمعرفتهم منزلتهم و مكانتهم في قومهم .

---

(١) (المصدر السابق) ص١٥١- ١٥٢ . (٢) ٢٩ : ٤ ، ص٢٣٢ .

(٣) ابن منظور (لسان العرب) ٥ : ٤٠٢٦ . (مادة : لزز) .

ومن مواقع " إذا " قوله مادحاً هرماً :

لَيثٌ بِعَثَّرَ، يَصطادُ الرِّجالَ، إذا ما اللَّيثُ كَذَّبَ، عن أقرانِهِ، صَدَقا (١)

يَطعَنُهُم ما ارتَمَوا ، حتى إذا اطَّعَنُوا

ضارَبَ ، حتّى إذا ما ضارَبُوا اعتَنَقا

جاءت " إذا " في البيت الأول بمعنى بليغ رائع وهو أنَّ هذا الممدوح يصدق في لقاء الأعداء في الموقف الصعب جداً الذي يكون فيه تكذيب الليث - وهو إحجام الشجاع وخوفه وتردّده - أمراً كثيراً متوقعاً لشدة الهول وصعوبة الموقف . وهو معنى جيد كما ترى . وأمّا " إذا " في البيت الثاني فقد أعطت التدرج الطبيعي للموقف وهو متوقع ، لأنّه ينازل رجالاً من شأنهم الإقدام .

ومن مواقعها ، قوله يمدح هرماً أيضاً :

وَعَوَّدَ قَومَهُ هَرِمٌ ، عَلَيهِ	ومن عاداتِهِ الخُلُقُ ، الكَريمُ (٢)
كما قَدْ كانَ عَوَّدَهُمْ أبُوهُ	إذا أزَمَتْ ، بِهِم ، سَنَةٌ أزُومُ
عَظِيمَةُ مَغرَمٍ ، أنْ يَحمِلُوها	تُهِمُّ النّاسَ ، أوأَمْرٌ عَظِيمُ
لِيَنجُوا من مَلامَتِها ، وكانُوا	إذا ذُكِرَ العَظائمُ لم يُلِيمُوا

" يريد : عوّد هَرِمٌ على نفسه عادةً ، أن يُعطِيَهم ويَحمِلَ عنهم... أزَمتْ : عَضّتْ... عظيمةُ مَغرَمٍ ، فسَّر ما كان عوَّدهم ، فقال : عظيمةُ مَغرمٍ ، أي : كلُّ خصلةٍ عظيمة المغرم... ولم يُليموا : لم يأتوا ما يلامون عليه . يقال : ألامَ الرجلُ ، إذا أتى أمراً يلام عليه ". (٣)

---

(١) ٢ : ٣٠-٣١ ، ص ٥٠ - ٥١ .

(٢) ١٢ : ١٢-١٥ ، ص ١٥٤ - ١٥٥ .

(٣) ص ١٥٥ .

قوله : " إذا ذكر العظائم لم يليموا " أي : أنّ هذا كثير منهم ، إذا شهدوا الأمور العظيمة ينهضون بها نهوضاً على الوجه الأوفى حتى يكونوا بمنأًى عن اللوم ،وهذا معنى عظيم كما ترى ، والأمور العظيمة هذه مفهومة من قوله : " إذا أزمت ،بهم ، سنة أزوم " أي: النكبات والشدائد التي تواجه الأقوام ،وقوله : " عظيمةً مُقْرِمٍ " ، وقوله : " تُهِمُّ الناس ،أو أمر عظيم ". وهكذا ، فقد دلّت " إذا " على أنّ هذا العمل الجليل الذي هذا وصفه كثير من هؤلاء القوم . وقوله " إذا أزمت بهم سنة أزوم " تشير فيه كلمة " إذا" إلى كثرة ذلك لأنّه في سياق المدح وأنّهم في الشدائد لا يلامون وفي هذا تحسن الإشارة إلى كثرة الشدائد .

ومن مواقعها ، قولـــه :

ولا تَكُونَنْ كأقوامٍ ، عَلِمتُهُـمُ يَلوُونَ ما عِندَهُم ،حتّى إذا نُهِكُوا (١)

طابَتْ نُفُوسُهُمُ ،عن حَقِّ خَصمِهِمُ مَخافَةَ الشَّرِّ ، فارتَدُّوا ،لِما تَرَكُوا

يخاطب الحارث بن ورقاء الصيداوي قائلاً : لا تكونن مماطلاً كأقوام إذا طولبوا بما عندهم لم يدفعوا إلا إذا قهروا ونهكوا وبُلِغ منهم في الهجاء ،وهذا أمر متوقع لأنّهم لئام ،وإنهاك الضعيف اللئيم لأخذ الحق منه أمر كثير وغالب .

وقولـه :

مِثلُ النَّعامِ ، إذا هيجتها اندَفَعَتْ على لَواحِبَ بيضٍ ،بَينَها الشَّرَكُ (٢)

---

(١) ٩ : ٢٩ - ٣٠ ، ص١٢٦-١٢٧ .

(٢) ٩ : ٩ ، ص١٣٠ .

يتحدث عن القُلُص - وهي الفتيـة من الإبل - ويشبهها بالنّعام إذا هيّجتها اندفعت ،وهو أمر يحدث كثيراً . وكأنّ فيه إشارة إلى سرعة انبعاثها ونشاطها إذا هُيّجت من حيث هي مُتَحفّزة نشطة مرحة .

ومثلها ،قوله :

وخَلْفَها سائقٌ ، يَحْدو ،إذا خَشِيَتْ مِنْهُ العَذابَ تَمُدُّ الصُّلْبَ ،والعُنُقا (١)

يتحدث عن الناقة ،وقال " إذا " لأنّ السائق يخيفها دائماً .
وهذه صورة واضحة الملامح حية وليس فيها تشبيه ولا استعارة .

وقوله :

إذا رُفِع السِّياطُ ،لها ،تَمَطَّتْ وذلكَ ،من عُلالَتِها ، مَتِيـنُ (٢)

وهو من معدن البيت السابق ، وأشار بـ " إذا " إلى كثرة إعنات الخيل في هذا الموقف . وغير هذه الشواهد في شعر زهير كثيرة جداً ، وإنّما اكتفينا هنا ببعض المواقع .

ومما قد تزاوج فيه استعمال زهير لهاتين الأداتين ،قوله : (٣)

تَرَبَّص ، فإنْ تُقْوِ المَرَوراةُ مِنهُمُ	وداراتُها لا تُقْوِ مِنهُم ،إذاً ،نَخْلُ
فإنْ تُقْوِيا ،مِنهُم ،فإنَّ مُحَجَّراً	وجِزْعَ الحِسا مِنهُم ،إذاً ،قَلَّما يَخلُو
بلادٌ ، بها نادَمْتُهُم ،وعَرَفْتُهُم	فإنْ أوحَشَتْ ،مِنهُم ،فإنَّهُمُ بَسْلُ
إذا فَزِعُوا ،طارُوا،إلى مُستَغيثِهِم	طِوالَ الرِّماح ،لا قِصارٌ ،ولا عُزْلُ
بِخَيلٍ ،عليها جِنَّةٌ ،عَبقَرِيَّـةٌ	جَديرون يوماً ،أنْ يَنالُوا ،ويَستَعلُوا

---

(١) ٢ : ١٣ ،ص ٤٣ .
(٢) ٥ : ٩-١٨ ،ص ٨٦ - ٨٩ .
(٢) ١٠ : ١١ ،ص ١٤٢ .

وإن يُقتَلوا فيُشتَفى بدِمائِهِم ... وكانُوا قديماً ،مِن مناياهُمُ القَتْلُ

علَيها أُسودٌ ،ضارِياتٌ ،لَبُوسُهم ... سَوابغُ بِيضٌ ،لا يُخرِّقُها النَّبْلُ

إذا لَقِحَتْ حَربٌ ،عَوانٌ ،مُضِرَّةٌ ... ضَروسٌ ، تُهِرُّ النّاسَ ،أنيابُها عُصْلُ

قُضاعِيَّةٌ ،أوأُختُها ،مُضَرِيَّةٌ ... يُحرَّقُ ،في حافاتِها ،الحَطَبُ الجَزْلُ

تَجِدْهُم ،على ما خَيَّلَتْ ،هُم إزاءَها ... وإنْ أفسَدَ المالَ الجماعاتُ ،والأزْلُ

قوله : "تربّص ،فإن تُقو.." ، باستعمال " إن " يحمل معنىً نفسياً دقيقاً ، لأنها - أي " إن " - تشير إلى أن الشاعر كأنَّه ينكر هذا الواقع ، واقع خلاء ديار من يحب منهم ،وإنما يعتبره على سبيل الأمر غير المقطوع به . وعليه ، فما كان ينبغي أن يكون هذا الواقع من حيث حسّه ووجد انه إلا على وجه القلة والندرة . والواقع أنَّ المروراة ودا راتها قد أقوت منهم فما كان يتعين استعمال " إن " هنا ، إلا أنَّ احساس الشاعر بالأسى لخلو ديارهم منهم جعل هذه المعاني وكأنَّها في حيّز الأمر غير الواقع . ثم قال : " فإن تقويا " مشيراً إلى حدة ما يعانيه من غربتهم وبعدهم وخلاء الديار منهم حتّى إنه كره الأماكن وحرّمها على نفسه : " فإن أوحشت منهم ، فإنّهم بُسْلُ " ، وزهير هنا يخاطبنا بمعنى غريب ،لأنّ مسلك كثير من الشعراء الذهاب إلى الأماكن والوقوف على الديار والآثار فتتوالى الذكريات والشجون .. الخ ما هو معروف في هذا الباب ،ولكن زهيراً لم يفعل هنا شيئاً من ذلك ، وكأنّ الأمر مبنيٌّ على مشاعر أخرى وفرق بين ذكر ديار الصاحبة وذكر ديار الأصحاب .

ثم قال : " إذا فزعوا طاروا .." وواضح فيه إشارته إلى أنهم أهل فزع ،وأنَّ هذا يحدث كثيراً ، فطيرانهم وفزعهم إلى مستغيثهم

أمر مشهور عنهم . وهكذا ، فقد أتت " إذا " هنا على أصل المعنى ، وقوله : " وإن يقتلوا .. " أي : أنّ هذا من الأمر النادر ، أو قل هو كذلك في حس الشاعر ؛ فهم لقوتهم وشجاعتهم وحسن بلائهم في الحرب لا ينالهم اعداؤهم ولا يكون قتلهم إلا على سبيل الأمر غير المقطوع به . وقوله : " إذا لقحت حرب ... تجدهم" هو عين " إذا فزعوا .. " ، و " إذا " هنا متناغمة تماماً مع كلام العلماء. وكأنّي بزهير ينطق الكلام لغة أخرى غير ملفوظة بحسن إيراد هذه الأدوات مواردها ؛ ففي قوله : " إذا لقحت .. تجدهم " تلمح من وراء " إذا " أنّ هذه الحروب التي تتكاثر والتي تجدهم فيها على ما خيّلت أمرٌ كثيرٌ مشهور .

ولنتأمل البيتين التاليين ، وهو قريب مما مضى مع فارق في الصّياغة :

إذا ما سَمِعْنا صارِخاً مَعَجَتْ ،بِنا إلى صَوتِهِ ،وُرْقُ المَراكِلِ ،ضُمَّرُ(١)
وإن شُلَّ رَيعانُ الجَميعِ ،مَخافَةً ، نَقولُ ،جِهاراً : وَيحَكُم ،لا تُنفِرُّوا

حيث وقعت " إذا " موقعها ،وهي شبيهة تماماً ب " إذا فزعوا طاروا " ،وتأمّل دقة زهير في الشرط : قال هنا " سمعنا صارخاً " وهناك : " فزعوا " وحركة الفزع أشدّ حدة من حركة سماع صارخ ،و " طاروا " يقابلها هنا " معجت بنا " أي مرّت مرّاً سريعاً . أرأيت هذا الاستواء وهذا التآخي والتلاؤم ؟ نعم ،فليس من تلاؤم الكلام أن يقول : إذا سمعوا صارخاً طارت بهم ،ولا أن يقول : إذا فزعوا معجت بهم. وقوله : " وإن شُلَّ .. " جاءت فيه " إن " على أصل الوضع ،وكأنّ الغارة

---

(١) ١٣ : ٥ - ٦ ، ص ١٥٨ .

عليهم أمر نادر ،وهكذا ينبغي أن تكون .

كما وقعت " إن " و " إذا " وبعدهما الماضي في شعر زهير كثيراً مقارنة بوقوع المضارع بعدهما . وثمة أمر ظهر بشكل واضح في " إنْ " عندما تدخل على الأفعال المقطوع بها - وإن كان في شواهد معدودة - هذا الأمر هو: أنَّ هذه الأفعال المقطوع بها غير مرغوب فيها عند الشاعر ، وكأنَّ عندما يدخل عليها " إنْ " يعبِّر عن رغبته في ألا يكون هذا الذي كان ،وإليك البيان :

يقول زهير :

إن تُمْسِ دارُهُم ،عنّا ،مُباعَدةً فما الأحِبَّةُ إلا هُمْ ،وإن بَعُدُوا (١)

وفيه استعمل " إنْ " للشرط المقطوع به على غير أصل الوضع ، ذلك أنَّ دار من يحبّ أصبحت مباعدةً عنه ، وهو هنا في موقف الذكرى والشجن ، فهؤلاء الأحبّة وإن بَعُدت ديارهم فذكراهم منوطة بالقلب ، وعليه فإنَّ مباعدتهم ما كانت تنبغي أن تكون إلا على سبيل الفرض ، وكأنَّ " إن " هنا تشير إلى معنى نفسي دقيق وهو لا جاء ه ألا يكون هذا الذي كان إلا على سبيل الفرض وذلك لكراهة نفسه هذه المباعدة ،وكأنَّه يرفض الواقع ويجعله في حيِّز المشكوك فيه .

وقال في موضع آخر :

و مَهْمَا تكن عِنْد امرىءٍ ،من خَليقةٍ وإن خَالَها تَخْفَى على النّاس ،تُعْلَمِ (٢)

" الخليقة والطّبيعة والسّليقة والنّحيزة والنّحاس والسّوس والتّوس ،كلّه بمعنى واحد . يقول من كتم خليقته فستظهر عند الناس (٣)

---

(١) ٢٢ : ٧ ، ٢٠٢ (٢) ١ : ٥٩ ، ص ٣٧ .

(٣) ص ٣٧ .

" إن " هنا للإشارة إلى أنّ توهم خفاء الخلائق مما لا ينبغي أن يكون إلا على سبيل الشك ، فالواقع يقول : إنّ كثيراً من الناس يخدع نفسه ويضع قناعاً على خلائق ذميمة في نفسه متوهماً خفاءها ، وهكذا فتوهم خفاء الخلائق كثير جداً ، والشاعر يقول : " وإن خالها" كأنّه يشير إلى أنّ ذلك الكثير لا ينبغي أن يكون إلا نادراً ،لأنّ الذين يفعلون ذلك فاتهم أنّ الناس أذكياء .

وقوله يمدح هرم بن سنان والحارث بن عوف :

تَداركتُما الأحلافَ قد ثُلَّ عَرْشُها وذُبْيانَ ،قد زَلَّتْ بأقدامِها النَّعْلُ (١)

فأصبحتُما ،منها ،على خَيْرِ موطنٍ سَبِيلُكُما فيها ،وإِنْ أحزَنُوا ،سَهْلُ

"ثُلَّ عرشه " : هُدم بناؤه . " أحزنوا " : وقعوا في أمر شديد ـ وأصله من الحَزْن ، وهو ما غُلُظ من الأرض . و "أسهلوا ": وقعوا في سَهلٍ . يقول :" أنتم في رخاء ،إذا اشتدّ أمرهم ".(٢)

دخلت " إنْ " على الأمر الذي هو كالمقطوع به للإشارة إلى عدم رغبة الشاعر في أن يقع الأحلاف في الأمر الصعب . وكأنّ ركوبهم الأمر الصعب ما كان ينبغي أن يكون إلا على سبيل النّدرة . وقد وصف عملهم بأنه ثُلَّت به عروشهم وزلت فيه أقدامهم وهذا هو الأمر الصعب الذي عبّر عنه بقوله " أحزنوا".

وقد وقعت " إنْ " عند زهير في صورة نادرة جداً من غير أن تكون منبئة عن معانيها البلاغية التي تحدّث عنها العلماء والتي ترددت في شعره كثيراً ،وإنّما أتت لمجرّد الربط ،وكان بالإمكان

---

(١) ـ : ٣٠-٣١ ،ص ٩١ - ٩٢ . (٢) ص ٩١ - ٩٢ .

تحمّل وجه لها إلا أننا نأبى ذلك ،كما في قوله :

من يَتجرَّمْ لي المَناطِقَ ظالماً فَيَجْرِ ،إلى شأوٍ بعيدٍ ،ويَسبح (١)

يكُنْ كالحُبارَى ،إن أُصيبَتْ فمِثْلُها أُصيبَ ،وإن تُفلِتْ من الصَّقرِ تَسلَحِ

حيث سوّى بين الحالين : الإصابة والإفلات ووقعت " إن " في الحالتين ، وهي هنا لمجرّد الربط .

ومثله قوله يصف ناقة :

كُمَيْت ،إن تَجهَدْ تَجِدْها نَجيحةً صَبُوراً ،وإنْ تَستَرْخِ عنها تَزَيَّدِ (٢)

" إن " هنا لمجرد الربط ،وتأمل الشرط وما يقابله .

ومثله :

رأيتُ ذوي الحاجاتِ ،حَولَ بُيُوتِهم قَطيناً لهُمْ ،حتّى إذا أَنبَتَ البَقْلُ (٣)

هنالِكَ ،إن يُستَخبَلُوا المالَ يُخبِلُوا وإن يُسأَلُوا يُعطُوا ،وإن يَيسِرُوا يُغلُوا

" القطينُ : أهل الرّجل وحشمه . والقطين : الساكن النازل في الدار .. وقوله " أنبت البقل " أي : أخصب الناس ... الاستخبال : أن يستعير الرجل من الرجل إبلاً ، فيشرب ألبانها وينتفع بأوبارها . ويَيسِرُوا : من الميسر . " (٤)

" إنْ " هنا لمجرد الربط ،وأنّ هذا حال هؤلاء الممدوحين في ترتب العطاء منهم .

ومجمل القول : انّ هاتين الأداتين باعتبارهما وسيلتين من وسائل ربط الكلام أو الجمل فضلاً عن المعنى الغالب فيهما - كانتا

---

(١) ٤٥: ١-٢ ،ص ٢٥٩ .   (٢) ١٤: ٩ ،ص ١٦٢ .

(٣) ٥: ٣٣-٣٤ ، ص ٩٢-٩٣ .   (٤) ص ٩٢ - ٩٣ .

تمضيان في شعر زهير على الوجه الذي استخرجه العلماء من كلام القدماء ، وهذا هو أغلب أحوالها . وأتت " إن " - في النادر - لمجرد الربط وقد يبدو لغيرنا وجه في استعمالها ، وبذلك ترجع إلى القاعدة التي وضعها البلاغيون .

عنايته بالظروف :

لقد كان زهير من أولئك الشعراء الذين يدققون في تحرير معانيهم ومبانيهم ، وهذا التدقيق البياني كان يدعوه - كثيراً - إلى استعمال الظروف ، لأنها كانت - فيما يبدو - تعود على معانيه بما يريد من جلاء وقوة ، فهو إذا مدح بالشجاعة والجسارة ذكر الوقت الصعب الحرج ، كما في قوله :

وَلَنِعْمَ حَشْوُ الدِّرعِ أنتَ ، إذا ... دُعِيتْ : نزالِ ، ولُجَّ في الذُّعرِ (١)

" يقول : نعم لابس الدِّرع أنت ، إذا اشتدت الحرب وحميت ، وتزاحمت الأقران ، فتداعوا بالنُّزول عن الخيل ، والتضارب بالسُّيوف . وكانوا إذا ازدحموا ، فلم يمكنهم التطاعن ، تداعوا " نزالِ " فنزلوا عن الخيل ، وتقارعوا بالسُّيوف . ومعنى " لُجَّ في الذُّعر " : تتابع الناس في الفزع . وهو من اللَّجاج في الشيء ، وهو التمادي فيه . " (٢)

حيث قيّد شجاعته وقوة قلبه وجسارته باللحظة الحرجة جداً ، وهذا أجلى وأبين .

---

(١) ٤ : ٧ ، ص ٧٨ .

(٢) الأعلم الشنتمري (شعر زهير بن أبي سلمى) ص ١١٧ .

ومثله ،قوله :

ولَنِعْمَ حَشْوُ الدِّرْعِ ،كانَ لَها،إذا   نَهِلَتْ من العَلَق الرِّماحُ ،وعَلَّتِ (١)

وهو إذا مدح بالكرم والعطاء تخيّر الوقت الصعب ،كما في قولـه :

تالله ، قد عَلِمَتْ قَيسٌ ،إذا قَذَفَتْ   رِيحُ الشّتاءِ بُيوتَ الحَيِّ ، بالعُنَنِ (٢)

أنْ نِعْمَ مُعتَرَكُ الحيِّ ،الجياعِ ،إذا   خَبَّ السَّفيرُ ،ومأوَى البائسِ البَطِنِ

من لا يُذابُ له شَحمُ النَّصيبِ ،إذا   زارَ الشّتاءُ ،وعزّتْ أثمُنُ البُدُنِ

" العُنن" : جمع عُنَّة . وهي حظيرةٌ من شجر ، تُعملُ حول البيت لتردَّ الريح عنهم ،فإذا اشتدت الريحُ قلعتها فرمتْ بها على البيت... " مُعتَرَكٌ " : حيث يزدحمون . و " خبَّ السَّفيرُ ": جرَى . و"السَّفيرُ": ما انحتَّ من الورق وتناثر ،تسوقه الرياح فيخُبُّ. "والبَطِنُ": النَّهِم ، ويقال : الدَّني ، ويقال الذي قد لزق ظهره ببطنه جوعاً . وإنّما سُمّي الورق سفيراً ، لأنّ الريح تسفِره ،أي:تكنسه ... وشحم النَّصيب ، يريد : نصيبَه من الشّحم لأنه لا يدَّخره ،يُطعمه النّاس عبيطاً ،أي : طريّاً . وقوله : " زار الشتاءُ " أي : أتى . و "عزّت " : غلت أثمن البُدُن ... والبُدُنُ:الإبل إذا سمنت" (٣).

حيث حرّر معناه تحريراً خاصاً فوصفه بالكرم في الوقت الصعب الذي يضن فيه النّاس بأموالهم وهذ أرفع درجات الكرم.

---

(١) ٣٨ : ٥ ، ص٢٤٩.
" العلَقُ : الدّم... " النَّهلُ " : أول الشرب . و "العَلَلُ ": الثاني والثالث." ص٢٤٩.

(٢) ٦ : ١٤-١٦ ، ص٩٩-١٠٠   (٣) ص ٩٩ - ١٠٠.

ومثله ، قوله :

أنْ نِعْم مُعْتَرَكُ الجِياع ،إذا خَبَّ السَّفِيرُ ،وسابِىءُ الخَمْـرِ (١)

وقولـه :

حَدِبٌ على المَوْلَى الضَّرِيك ،إذا نابَتْ ،عليه ،نَوائِبُ الدَّهْـرِ (٢)

" نابت " : نزلت . و " نوائب " : نوازلُ . . و " حدِبٌ " : متعطِّفٌ مُشفِقٌ . يقال : " تحدَّبت الرِّيح حول البيت ،إذا دارت حوله .
وتحدّبت الناقةُ على ولدها ،وحَدِبت عليه : إذا أقامت عليه وأشفقت .
و " الضَّرِيكُ " : المحتاج ،وهو القُرضُوب والصُّعلوكُ " (٣).

وفيه عطف ممدوحه وشفقته على المحتاج في الوقت الصعب جداً ،
وهووقت الشدة الذي تفضل فيه كل فضيلة .

وقوله :

كذلك خِيمُهُم ،ولكُلِّ قـومٍ ، إذا مَسَّتْهُم الضَّرّاءُ ،خِيمُ (٤)

تخيّر لمتانة الأخلاق ونقاء الطبع اللحظة التي تهتز فيها النفوس ، ووقت المحك وقت مقارعة الشدائد ؛ فالناس سواء حال الرّخاء ،
وإنّما تظهر معادن النفوس وقت الشدة ،ومن هنا حَسُنَ هذا القيد لما يطويه من كبير معنى .

وقوله :

وذاكَ أحزَمُهُم رأياً ،إذا نَبأٌ من الحَوادثِ آبَ النَّاسَ ،أو طَرَقا (٥)

---

(١) ٤ : ٦ ، ص٧٨ . " سابىءُ الخَمْر : المُشتري " ص ٧٨ .
(٢) ٤ : ١١ ،ص ٧٩ .
(٣) ص ٨٠ .
(٤) ١٢ : ١٦ ،ص١٥٦ .
(٥) ٢ : ١٨ ،ص٤٦ .

" يقول : هذا الممدوح أحزم الناس رأياً ،أي : أصحُّهم رأياً ، عند أمر ينوب ،ما يغدو الناس أو يطرقهم . و " الطُّروق " : المجيء بالليل . و "النّبأ " ما يُنبأ به ،أي : " يُخْبَرُ به ويؤثر ، لشدّته وفظاعته ".(١)

قيّد حزم الرأي في الوقت الشديد الحرج الذي تتشتت فيه الآراء.

وهكذا تمضي النماذج ،مثل قوله :

فتًى ، لا يُلاقي القِرْن ،إلا بصدرِه إذا أُرعِشَتْ أحشاءُ كلِّ جَبانِ (٢)

وقوله :

جَلْدٍ ،يحُثُّ على الجميع ، إذا كَرِهَ الظُّنُونُ جَوامِعَ الأمْرِ (٣)

" يحثّ على الجميع : على التآلف والاجتماع. و"الظَّنونُ " : الذي ليس يوثق بما عنده . وجوامع الأمر : الذي يجمع الناس ".(٤)

حيث قيّد حثه على الاجتماع والتآلف في الوقت الحرج عندما يكره الظنون جمع الأمر.

وقوله :

لَعَمْرُ أبيكَ ،ما هَرِمُ بنُ سَلْمَى بمُلْحِيٍّ ،إذا اللُّؤماءُ لِيمُوا (٥)

ولا ساهِي الفُؤادِ ،ولا عَيِيِّ الـ لِّسان ،إذا تَشاجَرتِ الخُصُومُ

" "مُلحِيٌّ " : ملومٌ . . " اللّؤماء " : الذين يُلامون . يقول : " ليس بمشتوم ولا مُلَّعنٍ .. "ساهي الفؤاد" : ذاهبُ العقل . و "تشاجَرت": اختصمت واختلفت ".(٦)

---

(١) الأعلم الشنتمري (شعر زهير بن أبي سلمى) ص ٧٥ .

(٢) ٤٩ : ٢٦ ، ص ٢٧٠ .

(٣) ٤ : ١٦ ، ص ٨١ .

(٤) ص ٨١ .

(٥) ١٢ : ٦-٧ ، ص ١٥٣ .

(٦) ص ١٥٣ .

ومن القيود الرائعة ،قوله :

جِنٌّ إذا فَزِعوا ،إنسٌ إذا أَمِنُوا مُرَزَّؤُونَ ،بَهالِيلٌ ، إذا جُهِدُوا (١)

" مرزّؤون " ،" ورجل مرزّأٌ " : أي كريم يُصاب منه كثيراً ". (٢)

" بهاليل " ،" البهلول : العزيز الجامع لكل خير .. والبُهْلُول : الحيُّ الكريم ". (٣) . " جُهدوا " ،" وجُهِدَ الرجلُ فهو مجهودٌ من المشقة . يقال : " أصابهم قُحُوطٌ من المطر فجُهِدُوا جَهْداً شديداً ". (٤)

فقد قيّد كونهم يستحيلون إلى جن وقت الفزع ،وإنسٍ وقت الأمن ، وكرام وقت القحط والجهد . وتأمّل إيقاع الشطر الأول على المقابلة ، مما كان له الأثر في إحداث نوع من التناغم.

والخلاصة ،إنَّ ما مضى يدل على خصوصية من خصائص قيود الجملة عند زهير لا بد من التنبه إليها ،وهي تحديد الظروف الزمانية للمعاني تحديداً دقيقاً يبين عنها ويكشفها . وشعره على هذا النمط كثير ،وله طابع واضح ومتميز ،ثم إنَّ هذه القيود الزمانية تقع في غالبها موقع الكنايات عن المراد بها ،وتأمّل :

إذا خَبَّ السَّفيرُ ،وسابىء الخمر

، إذا خبَّ السَّفيرُ،ومأوى البائس البَطِنِ

، إذا زارَ الشِّتاءُ ،وعزّت أثمُنُ البُدُن

، إذا قذفت رِيح الشِّتاء بيوت الحيِّ بالعُنن

، إذا دُعيت نَزالِ ،ولجَّ في الذُّعر

وهي كنايات عن الشدة كما يبدو.

---

(١) ٢٢ : ٣٠ ،ص ٢٠٤.
(٢) ابن منظور (لسان العرب) ٣ : ١٦٣٤. (مادة : رزأ).
(٣) (المصدر السابق) ١: ٣٧٥ . (مادة : بهل).
(٤) (المصدر السابق) ١: ٧٠٩ ،(مادة : جهد).

مواقع الفاء في شعره :

أوقع زهير الفاء التي للعطف مع التعقيب بلا مهلة في مواقع كثيرة من شعره ، وكان دخولها غالباً على جملة مترتبة على جملة سابقة لها ، ثم إنّ هذه الجملة الداخلة عليها الفاء قد كان فيها شيء من الأثر البالغ المترتب لعلة نفسية انفعالية ، وكثر خصوصاً في وصف رحلة الصاحبة ومفارقة الأحبة على ما تراه في الأبيات التالية :

إنّ الخَليطَ أجدَّ البَينَ ، فانفَرَقا ... وعُلّق القَلبُ ، من أسماءَ ، ما عَلِقا (١)

وفارَقتْكَ ، بِرَهْنٍ ، لا فَكاكَ لــهُ ... يوم الوَداعِ ، فأمسَى رَهْنُها غَلِقا

وأخلَفتك ابنةُ البكْريِّ ما وَعَدَتْ ... فأصبَحَ الحبلُ ، مِنها ، واهياً خَلَقا

فعندما تتأمل هذه الجمل : " فانفرقا " ، و " فأمسى " ، و " فأصبح " ، وتتأمل مواقع الفاء فيها تجدها قد وقعت موقعاً واحداً هو بيان سرعة الأثر المترتب على ما قبله ، وبيان قوة أثره في نفس الشاعر ، فالانفراق مترتب على ما كان من أنّ الخيط أجدّ البين . وقوله : " فأمسى رهنها غلقا " ، معنى جيد كما ترى ، وهو أنّ قلبه رهين عندها ، ثم هي فارقت والرهن لم ينفك بعد ، وكأنّها فارقت به ، وهذا المعنى مترتب على ما قبله " فارقتك " .

وقوله : " فأصبح الحبل منها واهياً خَلَقا " مترتب على : " وأخلفتك ابنة البكرى ." والخلاصة أنك إزاء حدث يترتب عليه آخر بلا مهلة ، ثم حدث يترتب عليه آخر بلا مهلة ، وهكذا مضت الفاء هنا :

---

(١) ٢ : ١-٣ ، ص ٣٨-٣٩ .
"قوله : " قد غَلِق " أي : لا فَكاكَ له ، لا يقدر أن يفكّه ...
والرّهن ههنا : القلبُ ... والحبلُ : العهد . والواهي والواهِنُ " الضّعيف " ص ٣٨-٣٩ .

أجد ... فانفرقا

، وفارقتك ... فأمسى

، وأخلفتك ... فأصبح

وليست الجمل هنا متداخلة ، بمعنى أنّ جملة " وفارقتك " مثلاً ليست داخلة في حيّز جملة " أجدّ البين " ، وإنّما هي ثلاث وحدات مستقلة ، وكل وحدة مكونة من جملة وما ترتب عليها . ولعلّه قد بان القصد من ذلك ، وهو أن نكشف شيئاً من صنعة زهير ودقة فنه في رصف جمله ونحت كلامه . وتأمّل كلمة " فأصبح " ومقابلتها لكلمة " فأمسى " ، وتدبّر حكمة زهير عندما وصف أسر قلبه ذكر المساء ، وعندما أبان عن ضعف العلقة ذكر الصباح . وهذا هو الشعر وأحوال أصحابه .

ومن هذه الفاءات قوله :

لِمَنْ طَلَلٌ ، بِرامَةَ ، لا يَرِيمُ ؟ عَفا، وخَلالَهُ عَهْدٌ ، قَدِيمُ (١)

تَحَمَّلَ أهلُهُ ، منهُ ، فبانُوا وفي عَرَصاتِهِ ، مِنهُم ، رُسُومُ

الفاء في جملة " فبانوا " مترتبة على " تحمّل أهله " ، و " تحمّل " هذه تعني الترحّل ، و " بانوا " تعني الانقطاع ، وعليه فمفارقتهم وانقطاعهم وبينونتهم مترتبة على ترحّلهم . وهو كالذي قبله .

وقوله ، في موقف التذكّر والشجن :

أوفَى على شَرَفٍ ، نَشْزٍ ، فأزعَجَهُ قلبٌ ، إلى آل سَلمَى ، تائقٌ كَمِدُ (٢)

---

(١) ١٢ : ١-٢ ، ص ١٥٢ . " العَرْصةُ : وسطُ الدار . وهي السّاحة والباحةُ والتّالة . يقول : أهلُ هذا الطلل بانوا : انقطعوا . ومنهم : من أهلها ." ص ١٥٢ .

(٢) ٢٢ : ٣ ، ص ٢٠١ .

" الفاء " في " فأزعجه " أتت لبيان سرعة الأثر المترتب على ما قبله ، وهو إشرافه على هذا النشز العالي وقد هاجت عبرته ،فأتت " الفاء " لبيان سرعة هذا الأثر ،وأنَّه ما إن أوفى على النشز حتّى انزعج ،ثم إنّ الذي أزعجه هو قلبه والذي وصفه بأنّه دائم التوق إلى آل سلمى . وهكذا ترى في البيت حدثين ،أولهما : أنّه أوفى . وثانيهما : أنّه انزعج ،وكأنه إنّما أوفى على هذا الشرف كما يطلب المهموم عزلته ووحدته ليعالج همَّ نفسه ومايجد .

كما وردت " الفاء " حاملة هذا المعنى في أبيات يصف فيها بقرة قد غفلت عن وليدها :

غَفَلَتْ ،فخالَفَها السِّباعُ ،فلم تَجِدْ إلا الإِهابَ ،تَركْنَهُ بالمرقَدِ (١)

وهنا تتابعت أحداث ثلاثة : "غفلت ... فخالفها ... فلم تجد " . فهذه الغفلة ترتب عليها مخالفة السباع إليه ، وقد أتت " الفاء" لتُبين عن سرعة هذا الأثر الذي هو " فخالفها " على ما قبله وهو " غفلت " ، ثم ترتب على مخالفة السباع إليه عدم بقاء شيء من وليدها إلا الإهاب .

ومثل ذلك ،قوله في موضع آخر :

طَباها ضحاءٌ ،أوخَلاءٌ ،فخالَفَتْ إليه السِّباعُ ، في كِناسٍ ،ومَرقَدِ (٢)

أضاعَتْ ،فلم تُغفَرلها غَفَلاتُها فلاقَتْ بياناً ،عِندَ آخِرِ مَعهَدِ

ف " طباها ... فخالفت " ،مثل قوله : " غفلت ، فخالفها .." ، ولكنه فسّر الغفلة وأباثها بذكره الذي أدى إليها وهو : " طباها

---

(١) ٢١ : ١٤ ، ص١٩٧ .
(٢) ١٤ : ١٧-١٨ ، ص٤٦٤ .

ضحاءُ" : أي دعاها الرعيُّ عند الضُّحى أو الخلوة إلى الغفلة عن وليدها . وقد ساعدت " الفاء " العاطفة للتعقيب بلا مهلة على بيان سرعة الأثر الصارخ من غفلة هذه البقرة فكان ما كان من مخالفة السباع إليه . ومثلها : " أضاعت فلم تغفر ... فلاقت " ؛ فقد أتت " الفاء " لبيان سرعة الأثر المترتب على ما قبله وهو " أضاعت " أي تركها ولدها وغَفْلَتها عنه، فلم تغفرلها هذه الغفلة منها ، وترتب عليه - أيضاً - استبانتها الجلد والدّم عند آخر موضع فارقته فيه ، ويلحظ أنّ قوله " أضاعت " ومابعده بمثابة توكيد للبيت الأول ، لأنّ معناه - أي أضاعت - مفهوم منه .

كما وقعت "الفاءات" في مواطن عديدة من شعره من غير أن تكون الأحداث فيها من الضرب الوجداني ، أو الانفعال الذي يجعل الترتب بلا مهلة مشوباً بشيء من الحدة ، كما في قوله :

يُفَدِّينه طوراً ، وطوراً يَلُمْنَهُ وأَعْيا ، فما يَدرِيْنَ : أينَ مَخاتِلُهْ ؟ (١)

وقوله :

ومن لا يُقَدِّمْ رِجلَهُ مُطمَئنَّةً فيُثْبِتَها ، في مُستَوى الأرض ، تَزلَقِ (٢)

وقوله :

وعندي ، من الأيام ، ما ليسَ عِندَهُ فقُلْتُ : تَعَلَّمْ أنَّما أنتَ حالِمُ (٣)

---

(١) ٧ : ٣٦ ، ص ١١٢ .

(٢) ١٦ : ١٢ ، ص ١٧٨ .

(٣) ٤٢ : ٤ ، ص ٢٥٥ .

وقولـه :

بَكَرَتْ عَلَيهِ ،غُدْوةً ، فوَجَدْتُـهُ قُعُوداً لَدَيهِ ، بالصَّرِيمِ ،عَوَاذِلُهْ (١)

وقولـه :

وذي خَطَلٍ ،في القَولِ ،يَحسِبُ أنَّهُ مُصِيبٌ ، فما يُلِمْ به فَهْو قَائِلُـهْ (٢)

وغيرها من الشواهد ،والأمر فيها ظاهر وتأمّل هذه الفاءات

والتي قبلها .

---

(١) ٧ : ٣٥ ، ص ١١٢ .
" والصَّريم : جمع صريمةٍ ،وهي القطعة من الرَّمل تنقطع من معظمه . وعواذله أي : يعذُلْنه على إنفاق ماله . . قال أبو عبيدة : الصَّريم الليلُ . والصَّريم :الصُّبح " ص ١١٢ .

(٢) ٧ : ٣٢ ، ص ١١١ .
" الخَطَلُ : كثرة الكلام وخَطَوُه . فمايُلِمْ به فهو قائله ، أي : ما حضره من شيء فهو قائله " ص ١١١ .

الفصل السادس

دراسة تحليلية شاملة لقصيدة من شعره

دراسة تحليلية شاملة لقصيدة من شعره

أردت أن أقدّم في نهاية البحث تصوراً لدراسة تحليلية لقصيدة من شعر زهير ، أحاول - على قدر المستطاع - ومن خلال الدرس البلاغي لطرائق اللسان العربي أن ألمّ بما يشبه المنهج في دراسة الشعر وتحليله ، ومحاولة كشف أغواره بناءً على خصائص العربية لا على وسائل وثقافات ومفاهيم أخرى بعيدة كل البعد عن طبيعة هذه اللغة ،وهو منهج مستوحى من تفكير البحث والغاية التي أقيم لأجلها ،وهذه الطريقة سلكها بعض القدماء في موء لفاتهم ، فعل مثل ذلك السّكاكي (١) ، فقد وقف في النهاية بعد عرض مسائل العلم عند قوله تعالى : * وقيل يا أرضُ ابلَعِي ماءَك ويا سماءُ أَقْلِعِي وغِيضَ الماءُ وقُضِيَ الأمْرُ واستوَتْ على الجُودِيِّ وقيل بُعْداً للقوم الظالمين * (٢) ، وحاول أن يجعل الآية الكريمة ميداناً لاختبار هذه المعارف البلاغية . والطريق هنا مغاير تماماً لطريق السكاكي لأنّه بدأ التحليل بعد الفراغ من الدّراسة النظرية ، أمّا هنا ، فإنّنا ننتقل من إطار من أطر التحليل إلى إطار أوسع وأشمل ، فالبحث كلّه تحليل لظواهر أسلوبية في شعر زهير ،وقد سار أولاً على أساس هذه الظواهر ،فوقفنا عند التقديم أو الإنشاء .. إلى آخره ، ثم هو هنا يتخلص من هذا النظام ويجري مع القصيدة الكاملة مستضيئاً بالطرق السابقة .

وقد اخترت الكافية التي قال الأصمعي (٣) فيها : " ليس على الأرض كافيّةٌ أجود منها . ومن التي لأوس بن حجر " ،وموضوعها

---

(١) (مفتاح العلوم) ص ١٧٦ .   (٢) هود : ٤٤ .

(٣) الأعلم الشنتمري (شعر زهير بن أبي سلمى) ص ٧٨ .

أنّ : " الحارث بن ورقاء الصّيداوي ،من بني أسدٍ ،أغار على بني عبدالله بن غطفان ، فغنم ،وأخذ إبل زهير ،وراعيه يساراً ." (١)

فقال زهير هذه القصيدة . وقد روعي في دراستها أن تقسّم إلى فقار، فكانت عدّتها خمساً على حسب ما دارت عليه كل فقرة من معنىً هو أشبه أن يكون معنى واحداً .

والفقرة الأولى ، هي :

بانَ الخَليطُ ،ولم يأْوُوا لِمَن تَركُوا ... وزوّدوك اشتياقاً ،أيّةً سَلَكُوا (٢)

رَدَّ القِيانُ جِمالَ الحيِّ ،فاحتَملُوا ... إلى الظَّهيرةِ أمرٌ ،بَينَهُم ،لَبِكُ

ما إنْ يَكادُ يُخَلّيهِم ،لِوجهتِهم، ... تَخالُجُ الأمر ،إنَّ الأمر مُشتركُ

ضحّوا ،قليلاً ،قَفا كُثبانِ أسنُمةٍ ... ومنهُمُ ،بالقَسُوميّاتِ ،مُعتَرَكُ

ثمّ استمَرّوا ،وقالُوا : إنَّ مشرَبَكُم ... ماءُ بِشَرقيِّ سَلمَى : فَيدُ ،أو رَكَكُ

يَغشَى الحُداةُ بهم وَعْثَ الكَثيبِ ،كما ... يُغشِي السَّفائنَ مَوجَ اللُّجَّةِ العَرَكُ

يتحدث في هذه الأبيات عن بينونة الخليط ،وعدم إيوائهم لمن تركوا ، وتزويدهم الاشتياق أيّة جهة سلكوا ، ثم يصف حال هذا الخليط وقد أعدوا أمرهم للرحلة ،وما كانوا عليه من تخالج الأمر واختلاف الرأي ، كما يصف حال سير ركبهم وقد غشي وعث الكثيب ،وهومسلك محفوف بالمهالك كالخوض في لُجّة الأمواج ،وهي لحظة حرجة للسفائن .

ونقرأ الأبيات قراءة ثانية في محاولة لاكتشاف خوافي دلالات كلماتها وتراكيبها :

---

(١) الأعلم الشنتمري (شعر زهيربن أبي سلمى) ص ٧٨ .

(٢) (المصدر السابق) ٥ : ١ - ٦ ، ٧٨ -٨٠ .

بانَ الخليطُ ، ولم يأْووا لِمن تركوا   وزّودوك اشتياقاً ،أيَّةَ سلكــوا

" بان ، "البين في كلام العرب جاء على وجهين : يكون البينُ الفُرْقَـةَ ،ويكون الوصل ، بان يبين بَيْناً وبينونةً ،وهو من الاضداد "(١) ، و" الخليط " : الأصحاب المخالطون في الدار ، ويكون واحداً وجمعاً ، وهو هـهنا جمع ، فلذلك قال " ولم يأْوُوا " ومعناه : لم يرحموا ولم يَرِقُّوا . يقال : أُويت له ، إِذا رققت له ورحمتَه . وقوله " أيَّةَ سلكوا " أي : أيَّةَ وجهةٍ سلكوا . يقول : " بانوا عـنك بمن تحبُّ ، ولم يرقُّوا لك ،وجعلوا زادك الاشتياق إِليهم ، أيَّةَ جهةٍ سلكوا ،أي : قطعوا وأخذوا . وأراد : أيَّة جهةٍ. فحذف المضاف إِليه ،كما تقول : أيّاً رأيت ،تريد : أيَّ القوم "(٢) .

بدأ الشاعر بداية من شأنها أن تثير وأن تبعث في النفس معانــي الشجن والحنين والشوق ،بقوله : "بان الخليط " ، فالبينونة : المفارقة . وقوله " ولم يأووا لِمن تركوا " جملة حالية فعلية ،وبها يضيف الشاعــــر معنى آخر إلى "بان الخليط " ،وهوأنّه كان بيناً لا تعطّف فيه ولا رحمة ولا نظر إِلى حال من يفارقون ،ووراء ذلك وصف لهذا الخليط بالقســوة وغلظ الاكباد ، ووصف نفسه بمزيد من اللوعة . وقوله : " وزّودوك اشتياقاً " معطوف على "بان الخليط " ، وهذه الجملة تفيد معنى آخر ،وهو أنَّ بينهم هذا قد أضرم شوقه وألهب مشاعره . وقوله " أيةَ سلكوا " يعني تعلُّق قلبه بهم حيث ذهبوا ، وهنا هو وصف النسيب الذي بُني على أنَّ الشاعر يصف لواعجه في الوقت الذي يصف فيه انصراف الخليــط . وقد بيَّن عبدالله الطيب(٣) رموز الخليط والإِيواء وتزويد الشوق في هذا

---

(١) ابن منظور (لسان العرب) ١٣ : ٤٠٣ . (مادة : بين) .

(٢) الأعلم الشنتمري (شعر زهير بن أبي سلمى) ص ٧٨-٧٩ .

(٣) (المرشد) ٣ : ١ : ٩٠ .

البيت مبدياً إعجابه به ، " لانّ الشاعر مزج فيه معنى الحنين الأصلي بمعنى الغزل الفرعي مزجاً محكماً كأسمى ما يكون التعبير عن الوجد ، فقد ذكر الخليط وفقدان المأوى ، واشتمال الشوق كما ترى . ثم إنّ هذا الخليط مما يكون كناية عن المحبوبة ،كما يكون الإيواء كناية عن الوصل ،وتزويد الشوق كناية عن الحرمان ".

وقوله :

رَدَّ القِيانُ جِمالَ الحَيّ ،فاحتَمَلُوا إِلى الظَّهيرةِ ،أمرٌ ،بَينَهُم ،لَبِكُ

ما إنْ يَكادُ يُخَلّيهم ،لوجهتِهِم ، تَخالُجُ الأمر ،إِنَّ الأمْرَ مُشتَرَكُ

" ردّ القيان جمال الحي " يعني : ردّوا الجمال من المرعى ،لمّا أرادوا الرحيل . و "القيان " : الإماء . وكلُّ أمَةٍ : قينة ، مغنيّة كانت أو غير مغنيّة . وقوله " إلى الظّهيرة " أي : طالت رحلتهم إلى وقت الظهيرة ،لاختلاطهم ،وكثرتهم ،واختلاف آرائهم . و " اللّبكُ " : المختلط . يقال : لبكْتُ عليه الأمر ،إذا خلطته عليه ....و " جهتهم " جهتهم ،وطريقهم التي سلكوها ذاهبين . وقوله " تخالُج الأمر " يعني : اختلافهم في الرأي ،وتنازعهم فيه ؛يقول هؤلاء : نصنع كذا وكذا ، وهؤلاء : نصنع كذا وكذا ، فأمرهم مشترك بينهم ،لم يتفقوا فيه على رأي واحد . فاختلافهم هذا هو الذي حبسهم إلى الظهيرة "(١) ، يقول ابن منظور(٢) : " وخلجني كذا أي شغلني . يقال : خلجته أمور الدّنيا ، وتخالجته الهموم : نازَعَتْه . وخالج الرجل : نازَعَه . ويقال: تخالجته الهموم إذا كان له همٌّ في ناحية وهمٌّ في ناحية كأنّه يجذبه إليه . . . وأصل الاختلاج : الحركة والاضطراب . وأمرهم مخلوج : غير

---

(١) الأعلم الشنتمري (شعر زهير بن أبي سلمى) ص ٧٨-٧٩ .
(٢) (لسان العرب) ٢ : ١٢٢٣-١٢٢٤ ، (مادة : خلج) .

مستقيم . ووقعوا في مخلوجةٍ من أمرهم أي اختلاط" .

بعد أن بان الخليط وزوّدوا الشاعر اشتياقاً أيّة سلكوا ،بدأ يصف خطوات هذه الرحلة ابتداءً من حركة القيان في جمع الإبل من الرعي ليبدأوا الرحلة ، ثم الإشارة إلى هذا الاختلاط والاختلاف الذي كان القوم فيه ، فاحتطوا إلى الظهيرة أمراً بينهم ليك ، وهذا يعطي رصد الشاعر الدقيق لما عليه هذا الخليط ،وكأنّه متعلق النظر والسمع بهم ؛ترى عينه ما يفعله العبيد والإماء ،وتسمع أذنه ما يدور بين السادة من خلاف حول الأمر ،وكأنّه - أيضاً - لما رأى ذلك استشعر الرحلة والمفارقة . إنّ الشعر هنا غائص إلى الأعماق في هذه المعاني الروحية والنفسية ،ولا بد من التنبيه إلى ذلك ، فهي عناصر شوق وحبٍّ وأسى ومفارقة . ولا يبدو في حركة رد القيان الجمال قيمة ولم يذكرها الشاعر إلا لما وراءها من تعلق النفس بهذا الخليط ،وأنّ ردّ القيان جمال الحيّ كان له لذع في قلبه أي لذع . وقوله " أمر بينهم لبك " ،كأنّ الشاعر واقف على اختلافهم في الرأي ، وهو اختلاف أومأ إلى شدته بزيادة كلمة " إنْ " ، وليس هذا الاختلاف ببعيد عن غرض القصيدة الأصلي في قصة يسار ؛ فيسار أمره لَبِك من حيث أخذه واحتجازه . ولا تخفى قيمة الحيرة المفهومة من تخالج الأمر ،فضلاً عن أنّ هذا التخالج مفسر للأمر اللبك ، ثم التعليق بـ " إنّ الأمر مشترك " وهي جملة تذييل تؤكّد خلافهم ..

وقوله :

ضَحَّوا ،قليلاً ، قَفا كُثبانِ أسنُمةٍ ومنهُمُ ، بالقَسُوميّاتِ ،مُعتَرَكُ (١)

" "ضحّوا قليلاً " أي : رعوا الضَّحاءَ . والضَّحاء للإبل : بمنزلة الغداء للناس . وقوله " قفا كُثبان " يعني : خلفها . و "أسنمة " :

---

(١) الأعلم الشنتمري (شعر زهير بن أبي سلمى) ٥ : ٤ ، ص٧٩ .

: جبل قريب من فلْج . "والكثبان": أكداس الرمل . و " القَسُوميّات ": مواضع عادلة عن طريق فلج ذات اليمين . و " المعترك " : موضع نزولهم وإناختهم . وأصله في الحرب ، فاستعاره هنا ".(١)

وقولـه :

ثمّ استَمَرُّوا ،وقالوا : إنَّ مَشرَبكُم ماءٌ بِشَرقيِّ سَلمَى : فَيدُ ،أوْرَكَــكُ

يَغشَى الحُداةُ بهم وَعْثَ الكَثيبِ،كما يُغشِي السَّفائنَ مَوجَ اللُّجَّةِ العَرَكُ

" " ثم استمروا " أي : استقام أمرهم ،واتّفق رأيهم ، فمرُّوا . و " سلمى " : أحد جبلي طيِّئ ،هما أجأ وسلمى . و " فيد وركك ": موضعان . وقال الأصمعي : " سألت أعرابياً فقلت له : أتعرفُ رَككاً ؟ قال : لا أعرفه ،ولكن هـهنا ماء يقال له : ركّ . ف " ركك " على هذا محرّك العين ضرورةً ،وهـو جائز في الشعر".(٢) . وقوله : " يغشي الحداةُ بهم وعْثَ الكثيب " ، " "غشى " الغين والشين والحـرف المعتل أصلٌ صحيح يدل على تغطية شيءٍ بشيء . يقال غشَّيــتُ الشيء أُغشِّيه . "والغِشاء": الغِطاء . "والغاشِية": القيامة ،لأنّهــا تَغْشى الخَلْق بإفزاعها . ويقال:"رَماه الله بغاشيةٍ " ، وهو داءٌ يأخـذ كأنّه يغشاه.".(٣) " وغشي الشيء إذا لابسه .. وقوله : " غَشِيَتْهمُ الرّحمة وغَشِيَها ألوانٌ أي تعلوها . . ." الغاشيةُ :" الدّاهية من خيرٍ أو شرٍّ أومكروهٍ ،ومنه قيلَ للقيامة الغاشيةُ." (٤) وكأنّ كلمة " يغشى "

---

(١) الأعلم الشنتمري (شعر زهير بن أبي سلمى) ص ٧٩.

(٢) (المصدر السابق) ص ٨٠.

(٣) ابن فارس (معجم مقاييس اللغة) ٤ : ٤٢٥، (مادة : غشى).

(٤) ابن منظور (لسان العرب) ٥ : ٣٢٦٢ . (مادة : غشى).

تأتي في مواقف الشدة والهول . و " "وعث " الواو والعين والثاء : كلمة تدل على سهولة في الشيء ورخاوة . ومكان أوعث . قال الخليل : الوعث من الرمل : ما غابت فيه القوائم ... فان قيل : فكيف قال : " أعوذ بك من وعثاء السفر " ، وقد زعمتم أن ذلك دال على السهولة ؟ قيل : المعنى الذي ذهبنا إليه صحيح ،وإنما الرمل إذا غابت فيه القوائم فإنه يدعو إلى المشقة ، فلذلك قيل : نعوذ بك من وعثاء السفر، والمعنيان صحيحان ".(١) و "اللُّجة ": معظم الماء . و " العرك" : جمع عركي ، وهو النوتي . شبَّه حَمْل الحُداةِ الإبلَ على صعبِ الرمل ، باقتحام النَّواتِيَةِ لُجَّة البحر بالسُّفن ".(٢)

قوله : " ضحّوا قليلاً ..ثم استمروا " حديث عن رحلتهم ،وقد اختصر الكلام اختصاراً شديداً ولم يقف إزاء الصور يبرز جمالها ، ولم يصنع كما صنع في المعلقة ،حين تتبع الرحلة وتقصّ القوم ببصره ،وكان في ذلك صاحب عين تنظر في الأشياء لترى عناصر جمالها فتبرزها . يقول:

(٣)
تَبصَّرْ ،خَلِيلي ،هل تَرى من ظَعائنٍ   تَحمَّلْنَ ،بالعَلياءِ ،مِن فوقِ جُرْثُمِ ؟
عَلَونَ بأنماطٍ ،عِتاقٍ ،وكِلَّةٍ   وِرادٍ حَواشِيها ،مُشاكِهَةِ الدَّمِ
وفيهنَّ مَلهًى ،لِلَّطيفِ ،ومَنظَرٌ   أنيقٌ ،لِعَينِ النّاظرِ ،المُتَوسِّمِ
بَكَرْن بُكوراً ،واستَحَرْنَ بسُحْرةٍ   فهُنَّ ،ووادي الرَّسِّ ،كاليَدِ في الفَمِ
جَعَلْنَ القَنانَ عن يَمينٍ وحَزْنَهُ   وكم بالقَنانِ ،من مُحِلٍّ ومُحْرِمِ !

---

(١) ابن فارس (معجم مقاييس اللغة) ، ٦ : ١٢٤-١٢٥ ،(مادة : وعث) .
(٢) الأعلم الشنتمري (شعر زهير بن أبي سلمى) ص ٨٠ .
(٣) ١ : ٧- ١٥ ،ص ١٩-٢٢ .

ظَهَرْن ،من السُّوبانِ ،ثم جَزَعْنَهُ   على كُلِّ قَينيٍّ ،قَشيبٍ ،ومُفْأمِ

ووَرَّكْنَ ،في السُّوبان ،يَعلُون مَتنَهُ   عليهِنَّ دَلُّ الناعِمِ ،المُتنعِّمِ

كأنَّ فُتاتَ العِهْنِ ،في كُلِّ مَنزِلٍ   نَزَلْنَ به ،حَبُّ الفَنا ، لم يُحطَّمِ

فلمّا وَرَدْنَ الماءَ ،زُرْقاً جِمامُهُ   وَضَعْنَ عِصِيَّ الحاضِرِ ،المُتَخَيِّمِ

وكأنَّ هذه الصور الحافلة بعناصر الجمال إنّما ساقها لأنّه يغري - في المعلقة - بالجمال والسلم ورخاوة الحياة وافتنانها ،أمّا في الكافيّة فنلحظ ضرباً من الصَّرامة الخفية لأنَّ المقصود تهديد القوم والجاؤهم إلى الحسنى . وقال : " ثم استمروا . . " ،أي : استمر هذا الركب في رحلته واستقام أمره . وقد قدّم ثعلب في روايته هذه القصيدة " يفشَى الحداة . . " على " ثمّ استمروا . . " ، والراجح - فيما يبدو- رواية الأعلم التي اعتمدتُ عليها هنا في تحليل القصيدة ، ففشيان الحداة بالركب وعْث الكثيب يعني انطلاقاً في السير فلابد أن يكون الاتفاق على الرأي والاستمرار قبل الانطلاق في السير ، فضلا عن أنَّ القوم ما زالوا قريبين من تخالج الأمر ،ولذا كان " ثم استمروا . . " قبل " يَفْشى الحداة . . " . وقوله : " إنّ مشربكم ماءٌبشرقي سلمى " يعني الذهاب في الرحلة وتحديد غاية يصلون إليها ،وأنَّ مشربهم هناك عند الوصول إلى تلك الغاية . وهو كلام موصول إلى حدٍ ما بقوله : " ما إن يكاد يُخَلِّيهم " ،وأنهم عقدوا العزم على الرحلة واستمروا بعد تخالج الأمر ، فقال : " إنّ مشربكم . . " أمارة على عقد العزيمة والانطلاق نحو الغايات ، وفي هذا لمح إلى أنّ ري الأقوام والنفوس المظيمة بماتروى به إنّما يكون بعد مكابدة ومشقة وحرمان وتحقيق ما انعقدت عليه العزيمة ،

وهكذا النفوس تعظم بمقدار ما تنجز ،ولذا ناسب استعمال " إنّ " لتأكيد هذه الحقيقة ، فمكان الري هذا هو مكان ري النفس والاسترواح ، هو لحظة النعمة المرتقبة ، لحظة تحقيق الأمل ، ثم هو لا محالة محتاج إلى مكابدة وضرب في مجاهل أبان عنها الشاعر بقوله : " يغشى الحداة " فهو تفسير وبيان لحالهم وحال مطيهم والحداة يغشون بهم طريقاً غير مسلوك ، وإنما هو طريق تتحاماه السابلة ، لأنه مخوف بدليل هذا التشبيه " كما يُغشِي السفائنَ موجَ اللُّجَّةِ العَرِك " ،فهذا ركب يسلك طريقاً في البحر هو مهلكة وفي البر هو مهلكة ،وهو لمح لا يخفى على ذي السليقة أشار به إلى القوم الذين يوجه هذه القصيدة إليهم ،وأنهم حين سلكوا معه هذا المسلك كانوا كمن يسلك طريقا موبقاً . إن البيت يركز على بيان المهلكة وفقدان الأمان في طريق هذا الركب ،فالخطر محدق ،وكذلك هؤلاء " القوم " بنو الصَّيداء " . وتأمل حكمة زهير البيانية في اختيار لفظ " يُغشِي " دون " يسلك " ، على سبيل المثال ، فمعناها كما بينا - قبل - يدور في معظمه حول الهول والشدة ، فالغاشية : الداهية من خير أو شر أو مكروه ،وتسمية القيامة بالغاشية لأنها تغشى القلوب بأهوالها ،وفي يغشى معنى الاقتحام والمخاطرة ،يقول عنترة :

أغشَى فتاة الحيِّ عِنْدَ حَليلِها ... وإذا غزا في الجَيْشِ لا أغْشَاها [1]

---

(١) (ديوان عنترة)ص ٣٠٨ .

فاقتحامه على الفتاة خدرها وعندها حليلها اقتحام مهلكة لا ريب فيها ، إلا أنه يدعي قدرته على ذلك ونجاته منها . وهكذا تنضم " يفشي " إلى غيرها في الإشارة إلى صعوبة الطريق ، وغيرها " موج اللُّجَّة " و " وعْث الكثيب " ، وهكذا فالركب يخوض غمراً ومهلكة ، وهي مرحلة من الخطر عظيمة . وأكرر أن هذا النَّفَس في أول القصيدة متناغم تماماً مع غرضها الأصلي .

والفقرة الثانية :

هل تُبلِغَنِّيَ أدنى دارِهم قُلُصٌ؟ يُزْجِي أوائلَها التَّبغيلُ ، والرَّتَكُ (١)

مُقْوَرَّةٌ ، تَتبارَى ، لا شَوارِبَها إلا القُطُوعُ ، على الأنساعِ ، والوُرُكُ

مِثلُ النَّعامِ ، إذا هَيَّجتَها ارتَفَعَتْ على لَواحِبَ ، بيضٍ ، بَينَها الشَّرَكُ

بعد حديث زهير في الأبيات الأولى عن بينونة الخليط وتزويده الاشتياق ، وتخالج الأمر اللّبك ، ووعث الطريق ، وموج اللُّجَّة - كان لا بد له من ناقة يقطع بها هذا الطريق الصعب ، وعليه فهذه الأبيات الثلاثة مرتبطة بحديثه عن " بـــان الخليط " وحنينه إليه .

والاستفهام في " هل تُبلِغَنِّيَ . . " للتمني ، وهذا التمني يجعل البلوغ مستبعداً ، لأن أشواق الشاعر إلى بلوغ أدنى الدار تُوهم أنه بعيد . وقال : " أدنى دارِهم " ، لا يريد أن يصل إلى الدار وإنما يقاربها ، وهو غير قوله في مواقع أخرى :

هل تُبلِغَنِّيها ، على شَحْطِ النَّوى ، عَنْسٌ ، تَخُبُّ بيَ الهَجيرَ ، وتَنعَبُ؟ (٢)

---

(١) الأعلم الشنتمري (شعر زهير بن أبي سلمى) ٥ : ٧ - ٩ ، ص ٨٠ - ٨١ .

(٢) ٥٣ : ٥ ، ٢٧٦ .

وقوله :

هل تُبْلِغَنّي ،إلى الأخيارِ ،ناجيةٌ   تخدي كوخْدِ ظَلِيمٍ ،خاضبٍ ،زَعِرِ (١)

إن جعل بلوغ الأهداف إلى الأخيار والأقوام ومن يحب دون أدنى الدار، أما هنا في الكافيّة فبلوغ أدنى دارهم أمنية تكفيه ،وفي ذلك مزيد من اللوعة والحنين . وقد افتتن زهير في وصف القُلُص ، " جمع قَلُوص ،وهي الفتيّةُ من الإبل "(٢) ، لأنها أداته في رحلته للوصول إلى غايته و " يُزْجِي أوائلَها التَّبغيلُ ، والرَّتك " ، " الإزجاء " : السَّوق الرَّفيق . و " التَّبغيل " : ضَربٌ من السَّير . وكأنه مشتق من مشي البغال . و " الرتك " : مقاربة الخطو في سرعة . وهو من مشي النعام . وهو الأمُّ مَشي الدَّواب . وإنما أراد الإبل - لكثرتها واختلاف سيرها - كان فيها كل ضربٍ من الدَّواب ، وجميعُ أنواع السَّير . "(٣) وفي " التبغيل " و " الرَّتك " روم إلى " وعْث الكثيب " فهما ضربان من السير غير مرغوب فيهما بإذ قيل في التبغيل هو مشي فيه اختلاف واختلاط بين الهملجة والعنق . "(٤) والرتك : " مِشْيَةٌ فيها اهتزاز "(٥) . وقوله " مقورّة " أي : ضامرةٌ ، يعني القُلُص . ومعنى " تتبارى " يُعارضُ بعضُها بعضاً في السّير . و " الشَّوار " المتاع . يقول : لا متاع لهذه القلُص إلا القُطوعُ ، لأنَّ أصحابها مُخِفُّون مُسرِعون ، ليلحقوا بالقوم . و " القطوع " : الطنافس التي يُوطَّأُ بها الرَّحلُ . و " الأنساءُ " : حُزَم الرِّحال . و " الوُرُك " : جمع وِراكٍ ،وهو قِطعٌ أو ثوبٌ ، يُشَدُّ

---

(١) ٢٩ : ١ ،ص ٢٣٢ .

(٢) الأعلم الشنتمري (شعر زهير بن أبي سلمى) ص ٨٠ .

(٣) (المصدر السابق) ص ٨٠ - ٨١ .

(٤) ابن منظور (لسان العرب) ١ : ٢٢٠ . (مادة : بغل) .

(٥) (المصدر السابق) ٣ : ١٥٧٨ . (مادة : رتك) .

على مَورِك الرّحل ، ثم يُثْنى فيُدخَل فضلُه تحت الرحل ، ليستريح بذلك الراكبُ.[١] . لم يصفها بأنها مجهدة كما يصفها الشعراء ، وكما وصفها زهير نفسه في غير هذا السياق :

تَهدِي قَلائص ،دُرِّبتْ ، عِيدِيَّةً خُوصاً ، أَضَرَّبِها الوجيفُ ،المُهْذِبُ [٢]

" تَهدِي " ، " والهادية : المتقدمة من الإبل "[٣] " خُوصا " ، " الخَوصُ : ضِيقُ العَيْنِ وصِغَرُها وغُئُورُها "[٤] ، " الوجيف " ، " الوَجْف : سرعة السير. "[٥] " المُهْذِب " : " السريع "[٦] . ومنها وصف المرقِّش الأصغر :

رَمتكَ ابنةُ البكريِّ عن فرعِ ضالةٍ وهُنَّ بنا خُوصٌ ، يُخلنَ نعائما [٧]

وكان ذلك - أعني تحامي وصفها بالضعف والضمور - مدخلاً محتاطاً لتوعد بني الصَّيداء . وقوله : " مِثلَ النَّعامِ " . تشبيه الإبل بالنعام ، وإذا هيّجتها يعني أنّها تملك فضل قوة تمدها بالسرعة والمواصلة على " لواحب بيضٍ " ، و " اللاحبُ " : الطريق الماضي البيّن " بينها الشَّرك " ، و " الشَّرك " : بُنيّاتُ الطريق التي تتفرّع منه والواحدة : شَرَكة . "[٨] وغريب ذكر اللواحب البيض هنا مقابل ذكر " وعْث الكثيب " هناك . ، وكأنَّ اللواحب البيض فيها إيحاء إلى

---

(١) الأعلم الشنتمري (شعر زهير بن أبي سلمى) ص ٨١ .
(٢) ق٣ : ١٠ ، ص ٢٧٧ .
(٣) ابن منظور (لسان العرب) ٦ : ٤٦٤١ . (مادة : هدى) .
(٤) (المصدر السابق) ٢ : ١٢٨٧ . (مادة : خوص) .
(٥) (المصدر السابق) ٦ : ٤٧٧٣ . (مادة : وجف) .
(٦) (المصدر السابق) ٦ : ٤٦٤٢ . (مادة : هذب) .
(٧) (شعر المُرقِّش الأصغر) ص ٥٣٤ .
(٨) الأعلم الشنتمري (شعر زهير بن أبي سلمى) ص ٨١ .
(٩) (المصدر السابق) ٥ : ١٠ - ١٢ ، ص ٨١ - ٨٢ .

مضي الشاعر على منهج واضح وطريق مستقيم ، وعلى ضرب من الخلق والمضاء معروف غير ناظر إلى بنيّات الطريق التي يسلكها غير أهل الجادة ، وهي الأخلاق الملتوية والسلوك المشوب بالريبة ، وفيه لمح آخر إلى بني الصّيداء مفهوم من " بينها الشَّرك " ، وهي الطرق المتفرعة غير المسلوكة التي يَكْمُن فيها قطاع الطرق ومن لا خلاق لهم ، وكأنَّها الياءة إلى " وعث الكثيب " هنالك .

والفقرة الثالثة يقول فيها :

وقد أرُوحُ أمامَ الحَيِّ ، مُقْتَنِصاً قُمْراً ، مَراتِعُها القِيعانُ ، والنَّبَكُ (١)

وصاحِبي وَردةٌ ، نَهدٌ مَراكِلُها جَرداءُ ، لا فَحَجٌ فيها ، ولا صَكَكُ

مَرّاً ، كِفاتاً ، إذا ما الماءُ أسهَلَها حتَّى إذا ضُرِبَتْ ، بالسَّوطِ ، تبتَرِكُ

يذكر صيده واقتناصه حمر الوحش التي مراتعها القِيعان والنَّبَك على فرس وردة اللَّون ، نَهد مراكلها ، جَرداء ، لا فحجٌ فيها ولا صَكَكُ ، سريعة إذا ما عرقت ، مجتهدة في العدو إذا ضربت .

ترك زهير في هذه الأبيات الناقة ، وقد ذكرها عند الرحلة ، وركب الفرس ، ومن عادة الشعراء عندما يخرجون للقنص والغزو ذكر الخيل ، وكأنَّهما من باب واحد ، وبناء عليه فإن ذِكر الفرس للصيد كأنه ذكر للغارة . وحديث القنص في حياة الجاهليين ، وفي حياة العرب بشكل عام فيه معنى الفتوة والقوة والنعمة والرغد ، وربما أراد زهير بحديث القنص هذا التغني بجملة المعاني المرتبطة به . ولا يغفل في هذا المقام حديثه عن قنصه وهو ضربٌ من اللهو ، على الرغم من أن سياق القصيدة وعيد لبني

---

(١) (المصدر السابق) ٥ : ١٠-١٢ ، ص ٨١ - ٨٢ .

الصّيداء، وإنّه لعجب ، شاعر يتوعد قوماً اغتصبوا عبده وماله وهو في ذات الوقت يتحدث عن صيده وقنصه !! . هل هو تهديد لهم بلهوه وعبثه ؟ أم هو إغراء لهم به ؟ . إنّ الصيد هنا - فيما يبدو - ذو قيمة متصلة بالفتوة والفحولة والاقتدار والقوة على قهر أعدائه وإلا فما كان ينبغي أن يسوقه زهير وهو يخاطب قوماً يتوعدهم .

ويلحظ اختفاء المرأة في هذه الأبيات وسابقاتها وما سيأتي بعد ، فلم يتغن بها على عادته في غنائه بصاحبته سواء أكانت أم أوفى أو غيرها ، ولم يذكر الطلل وعفاءه .. على حد ما صنع في مواضع أخرى ، مثل قوله :

أَمِنْ أُمِّ أوفى دِمْنَةٌ ،لم تَكَلَّمِ بحَومانةِ الدَّرّاجِ ، فالمُتَثَلَّمِ (١)

وقوله :

أَمِنِ آلِ لَيلَى ،عَرَفْتَ الطُّلُولا بذِي حُرُضٍ ،ماثِلاتٍ ، مُثُولا (٢)

ولم يصف جيدها .. ، على الرغم من أنّه صنع ذلك في قصيدة أخرى ، وقد بان الخليط :

إِنَّ الخليطَ أَجَدَّ البينَ ،فانفرقا وعُلِّقَ القَلبُ ،من أسماءَ ، ما عَلِقا (٣)

وفارَقَتْكَ ،برَهْنٍ ،لا فَكاكَ لهُ يومَ الوَداعِ ،فأمسَى رَهْنُها غَلِقا

وأخلَفَتْكَ ابنةُ البَكْريِّ ما وَعَدَتْ فأصبَحَ الحبلُ ،مِنها ،واهِياً خَلَقا

---

(١) ١: ١ ، ص ١٦ .

(٢) ١١: ١ ، ص ١٤٦ .

(٣) ٢: ١ - ٥ ، ص ٣٨ - ٣٩ .

قامَتْ ، تَبَدَّى بِذِي ضالٍ ، لَتَحزُنَني ولا مَحالةَ أَنْ يَشتاقَ مَن عَشِقا

بِجِيدِ مُغْزِلَةٍ ، أَدْماءَ ، خاذِلَةٍ مِنَ الظِّباءِ ، تُراعِي شادِناً ، خَرِقا

وهكذا فإن اختفاء عنصر المرأة في القصيدة الكافية واضح جدا .
نعم ، هو مضمر في الخليط وتزويده بالاشتياق أَيَّةَ سلك .

وقوله : " أمام الحيّ " للإشارة إلى أنّه عُرِف بالمعاني والصفات التي ترتبط بالصيد - كما ذُكِر - وشهر بها ، فهي ليست بخافية فيه . واختياره " قُمْراً مراتِعُها القيعان والنَّبكُ " دالٌ على اقتدار عليها ، إذ القُمْرُ : " حُمُرُ الوحش البيضُ البطون ؛ واحدها أقمَرُ وقَمراء . و " القِيعان " : بطون الأرض . و " النَّبك " جمع نَبَكة ، وهي رابية من طين . وإنما جعل الحُمُر تَرعاها هنا لأنها تُصيب فيها من الكلأ ما لا تُصيب في غيرها . مع أنّ ذلك أشدُّ لعدوها ."(1) ووراء ذلك شيء يومئ إليه المعنى ولا يبوح ، وهو : قدرته على هذا الطريق غير اللاحب وهذه الأماكن الصعبة ، واقتحامه إياها ، وانتزاعه قنصه منها ، وفيه لمحٌ إلى قدرة يده على انتزاع يسارٍ مِن أَيْدى بني الصَّيداء .

وقوله : " وصاحِبي وَردةٌ " أي : الذى أصاحبه ، وأستعمله في الصيد ، فرسٌ وردةُ اللون ."(2) أي : حمراء ، وما قيمة كون الفرس حمراء ؟ هل أراد بالوردة لونها ، وما فيه من الوحي إلى القوة والقهر والدم والحرب ؟ أم أراد الجمال والنعمة وما فيها من الرغبة في المسالمة والموادعة بينه وبين بني الصيداء ؟ أم أراد الأمرين معاً كما قال في آخر القصيدة ؟ :

---

(1) الأعلم الشنتمري (شعر زهير بن أبي سلمى) ص ٨١-٨٢ .

(2) (المصدر السابق) ص ٨٢ .

ولا تكُونَنْ كأقوامٍ ،عَلِمتُهُـــمُ يلوُون ما عِندَهُم ،حتَّى إِذا نُهِكوا (١)

طابَتْ نُفوسُهُمُ ،عن حَقِّ خصمِهِمُ مَخافةَ الشَّرِّ ،فارتَدُّوا ،لِما تَرَكُوا

وقوله : " نَهدٌ مراكِلِها ، النهد " : "الغليظ الضخم" (٢)
وهووصف لضخامةفرسه وقوتها . و " الجرداء " : "القصيرة الشعر .
و " الفحج " تباعُد ما بين العرقوبين والفخذين . و " والصكك " :
اصطكاك العرقوبين في الدّوابّ ، وفي الناس : اصطكاك الرُّكبتين" (٢)
وكأن هذا البيت : " وصاحِبي وردةٌ .. " وصفٌ للفرس نفسها ،
لونها وضخامتها وقصر شعرها وخلو مشيها من العيوب ،وهو مُبينٌ عن
شدة عدوها . " وقوله " مَرًّا كِفاتاً " أي : تمرُّ هذه الفرس مرّاً سريعـاً .

والكِفات والكَفْتُ : القبْض . يقال : انكَفَتَ في حاجته ،أي
انقبضَ فيها وأسرعَ ،وشَمَّرَ " (٢) وكما يبدو ،فالكلام في " مرًّا " مبني
على الإِيجاز ، لأنْ مرًّا مصدر لفعل محذوف ،وكذلك "كِفاتًا " ، وربما
كان بين الحذف والسرعة ملاءمة . وقوله : " إِذا ما الماء أسهَلَهـــا "
أضاف قيداً إِلى سرعةالفرس على نحوٍ يمثل اصطفاء الصفات وهو شدتها
وسرعتها إِذا عرقت ، " حتى إِذا ضُرِبت بالسوط تبترك " أبقى فيها
فضل قوة وأراد أنَّها كريمة أصيلة جداً ،وأنَّها لا يستفرغ جهدهـا ،
وإِنما تَمد راكبها ،حتى إِذا ما الماء أسهلها مرّت مرًّا كِفاتًا ، فإِذا ما
ضربها واشتد وجد فيها فضل قوة .

---

(١) (المصدر السابق) ٥ : ٢٩ - ٣٠ ، ص ٨٨ .

(٢) (المصدر السابق) ص ٨٢ .

والفقرة الرابعة :

كأنّها من قَطا الأجباب ،حلّأها ... وِردٌ ،وأفرَد عنها أُختَها الشَّرَكُ (١)

جُونيّةٌ ،كحَصاةِ القَسْمِ ،مَرتَعُها ... بالسِّيِّ ما تُنبِتُ القَفعاءُ ،والحَسَكُ

أهوَى ،لها ،أسْفَعُ الخدَّينِ مُطّرِقٌ ... رِيشَ القَوادِمِ ،لم يُنصَبْ لهُ الشَّبَكُ

لا شيءَ أسرَعُ مِنْها ،وهْيَ طَيِّبةٌ ... نَفْساً ، بما سَوفَ يُنْجِيها ،وتتَّرِكُ

دُونَ السَّماءِ ،وفَوقَ الأرضِ ،قدرهُما ... عِندَ الذُّنابَى ،فلا فَوتٌ ،ولا دَرَكُ

عندَ الذُّنابَى ، لها صَوتٌ ،وأزمَلةٌ ... يكادُ يَخطَفُها طَوراً ،وتَهتَلِكُ

حتّى إذا ما هَوَتْ كَفُّ الوليدِ لها ... طارَتْ ،وفي كَفِّهِ ،من رِيشِها ،بِتَكُ

ثُمّ استمَرّتْ إلى الوادِي ،فألجأها ... منه ،وقد طَمِعَ الأظفارُ ، والحَنَكُ

حتّى استغاثَتْ بماءٍ ،لا رِشاءَ لَهُ ... من الأباطِحِ ،في حافاتِهِ البُرَكُ

مُكَلّلٍ بأُصُولِ النَّبتِ ، تنسُجُهُ ... رِيحٌ ، خَرِيقٌ ،لضاحي مائِهِ حُبُكُ

كما استغاثَ ،بسَيْءٍ ، فَزُّ غَيطَلَةٍ ... خافَ العُيُونَ ،فلم يُنظَرْ بهِ الحَشَكُ

فزَلّ عنها ،وأوفَى رأسَ مَرقَبةٍ ... كمَنصِبِ العِترِ ، دَمَّى رأسَهُ النُّسُكُ

في هذه الأبيات يشبه فرسه بقطاة من قطا الأجباب طردها عن الماء وِردٌ ،وأخذ منها أختها الشرك ، فهي فَزِعة ، وهي جُونيةٌ كحصاة القَسْم ،تعيش في خصب ، أهوى لها أسفع الخدين فانذعرت وراحت تَجدُّ في طيرانها وهو يقاربها ، يكاد يخطفها طوراً وتهتلك ،واستمرت إلى واد لجأت إليه فأنجاها منه . ثم شَبَّه حالها بعد أن أمنت في هذا الوادي الذي ينبطح فيه الماء ،وفي حافاته البُرَكُ - بحال ولد

---

(١) (المصدر السابق) ٥: ١٢ -٢٤ ، ص ٨٢- ٨٦ .

بقرةٍ وحّشيةٍ خاف العيون فاستغاث بسيء أمه يلتمس الأمن . وانتهى صراع أسفع الخدين هذا مع القطاة بزلّه عنها وإشرافه على رأس مَرقبة .

وقراءة أخرى للأبيات :

قوله : " كأنّها من قطا الأجباب " ، " الأجباب " : جمع جُبّ ، وهو كل بئر لم تُطْوَ ، وإنما هي كما جُبّت وخرقت . يقال : جَببتُ الشيء ، إذا قطعته . و " الوِردُ " قوم يَردون الماء . ومعنى " حلّأها " : طردها عن الماء . يعني أنها نظرت إلى القوم ، يردون الماء فامتنعت من الوِرد ، ورجعت مسرعةً .(١) فهذه قطاة تعيش بمنأى عن الناس على بئر غير مطروقة أو مُعدة ، وهذا أدعى لفزعها ، وقوله : "أفردَ عنها أختها الشَّرك " أي : أخذت أختها بالشّرك ، ففزعت لذلك ، فكان أسرع لها . والمعنى : كأنّ هذه الفرس ، في خفتها وسرعتها ، قطاة من قطا الأجباب ، هذه صفتها وإنما خص قطا الأجباب لأنها وردت في نهر لم يكن لها مانع من الوِرد ، كما كان لها عند الأجباب ، لاجتماع الواردة عليها " (٢) . وفي أخذ أختها بالشّرك مزيد من تصوير فزعها ، وتأكيد لمعنى الحزن والشجن في صدرها ، وأنها ظلمت وقهرت ، وهي تشبه يساراً ، فقصته قصة هذه القطاة أو مشبه لها ، إن كلاهما غُلب على أمره . وما هي القطاة ؟ وأحسبه أراد بها هنا الحمامة فقد " تذكر العرب القطاة تريد الحمامة والحمامة تريد القطاة " (٣) ، وإذا أراد بالقطاة الحمامة ، فما هي الحمامة ؟ هي التي لها في بيان العربية وفي وجدان الناس معان أخرى ، قال الجاحظ

---

(١) (المصدر السابق) ص ٨٣ .

(٢) (المصدر السابق) ص ٨٣ .

(٣) عبدالله الطيب (المرشد) ٣ : ٩٣٢ .

مبيّناً ذلك الموروث التاريخي لقصتها :" قال صاحب الحَمام : أمّـــا العرب والأعرابُ والشّعَراء ، فقد أطبقوا على أنّ الحَمامةَ هي التي كانت دليلَ نوحٍ ورائده ،وهي التي استجعَلَت عليه الطّوْقَ الذي في عنقها وعند ذلك أعطاها الله تعالى تلك الحِلْية ، ومنحها تلك الزّينـــة بدعاءِ نوحٍ عليه السلام ، حينَ رجعتْ إليه ومعها مع الكرْم ما مَعها ، وفي رجليها من الطّين والحَمْأة ما برجليها ، فعوّضتْ من ذلك الطّيــن خِضابَ الرّجلين ، ومن حُسن الدّلالَةِ والطّاعةِ طَوْق العنق ."[1] كما ذكر نماذج شعرية دلل بها على وصفها بحُسن الغناء والإطراب والنوح والأمن والإسعاد . ومن ذكر رموزها ودلالتها على الخصب والحيــاة والأمن والسلام والالف أميةبن أبي الصلت ، وقد استمد ذلك مــن القصة القديمةكهذه الحمامة مع نوح عليه السلام ،والتي ذكرتها نقـــلا عن الجاحظ ، قال أمية :

وأُرسِلَتِ الحمامةُ بعد سبــعٍ	تدُلُّ على المهالك لا تهابُ[2]
تَلمَّسُ هل ترى في الأرضِ عيناً	وغايته بها الماءُ العبـــا بُ
فجاءت بعدما ركضتْ بِقِطْفٍ	عليه الثأْطُ والطّينُ والكُتابُ
فلما فرَّسُوا الايات صاغوا	لها طوقاً كما عُقِد السِّخابُ
إذا ماتت تُورِّثُه بنيهــــــا	وإن تُقتَلْ فليس لها استلابُ

وهذا مع غيره دليل على أنها ربّة الخصب والغناء والإطراب والإلف والأنوثة والوداعة والحزن والشوق والصبابة والبكاء والمأوى ، وهي التي بكت هديلاً ،وفي هذا تجسيد لمعنى الوفاء ، وأنّ الحمام

---

(١) (الحيوان) ٣ : ١٩٥-١٩٦ .

(٢) (شرح ديوان أمية بن أبي الصلت) ص ٢١ .

كله في كل الأرض لا يزال يبكي وينادي الهديل الذي ظلم إلى اليوم [١] ، وفي ذلك بيان لبشاعة الظلم وتنفير منه . أمّا قطاة زهير هنا فيضاف إليها مع قصتها القديمة قصة أخرى وهي أنها حلّأ ها ورد ، وأفردَ عنها أُختَها الشَّرك ، ثم أهوى لها أسفع الخدين ... وفي كل ذلك إشارات بعيدة وقريبة إلى عبده يسار الذي غبن واختطف .

وقوله : " جُونيةً " ، " ما كان في لونه سواد ، وهو أشدُّ القطا طيراناً " [٢] ، فهو وصف للونها فضلاً عن أنَّ " الجُونيّ " نوعٌ من القطا جيد ، والكلام مبني على الاستئناف ، والحذف على الطريقة المشهورة التي أومأ اليها الشيخ عبد القاهر [٣] . " وقوله : " كحصاة القَسْم " هي حصاة ، إذا قلَّ الماء عند المسافرين وضعوها في القَدَح وصبُّوا عليها الماء حتَّى يغمرها ، ليُقسَم بينهم بالسَّويَّة ، ولا يتغابنوا . ولا تكون تلك الحصاة إلاّ مجتمعة ملساء " [٤] وكأن " حصاة القَسْم " هذه ايماءة إلى بني الصَّيداء ، وأنهم قوم لم يلتزموا بشريعة العدل التي عليها الناس . و " حصاة القَسْم " هذه تقابل " الميزان " الذى هو رمز العدل والحق ، فإذا ذكر الميزان لظالم عرف أنه خالف قانون العدل ، وهكذا " حصاة القَسْم " ترتبط أشد ارتباط بالغبن والظلم . وقوله : " مرتَعُها " ، " رتع " ... تدل على الاتِّساع في المأكل . تقول : رَتَعَ يَرْتَع ، إذا أكل ما شاء ، ولا يكون ذلك

---

(١) انظر ما كتبه حول ذلك الاستاذ عبدالله الطيب (المرشد) ٣ : ٩١٠ - ٩٦٨ .

(٢) الأعلم الشنتمري (شعر زهير بن أبي سلمى) ص ٨٣ .

(٣) (دلائل الإعجاز) ص ١٤٧ .

(٤) الأعلم الشنتمري (شعر زهير بن أبي سلمى) ص ٨٣ .

إلاَّ في الخصب . والمراتِع : مواضع الرتعة، وهذه المنزلة يستقرُّ فيها الإنسان "(١) . وقوله : " القَفعاء " : وهي " بقلة من أحرار البقل . و " الحَسك " ثمر النَّفَلِ ، يُستخرج منه حَبٌّ فيؤكل "(٢) إشارة إلى رغد عيشها ، والصورة مليئة بالايحاءات ، فالمرتع شبيه بقصة يسار والإبل الراتعة . ثم انتقل الشاعر إلى وصف الصقر الذي حاول الانقضاض على القطاة بقوله : " أهوى " و " هوي " : الهاء والواو والياء أصلٌ صحيح يدلُّ على خُلُوٍّ وسقوط . أصله الهواء بين الأرض والسماء سمي لخلوِّه ... وأهْوَى إليه بيده ليأخذه ، كأنَّه رمى إليه بيده إذا أرسلها ... ويقولون : الهَوِيُّ ذهابٌ في انحدار ، والهُوِيّ في الارتفاع . "(٣) وهكذا ، فهوى الصقر عليها فيه فضل من قوة ، وفيه فتك . واختار " أسفع " و " السُّفعة " : " سواد يَضرِب إلى الحُمرة " " وكُل صقر أسفع "(٤)(٥) ، والسواد يعني العتاقة والقوة . و " قوله " مُطَّرِقٌ " : أي : ريشه بعضه على بعض ، ليس بمنتشر ، فهو أحق له . و " القوادم " : ريشُ مُقدَّم الجناح ... وقوله " لم ينصب له الشَّبَكُ " يعني : أنه وحشيّ ، لم يُؤخذ ولم يُذلَّل . فذلك أشدُّ له ، وأثبت لريشته "(٦) . ومراده أن يصفه بالقوة والشراسة ، وهي الآمنة وقد أهوى عليها . ثم انتقل إلى وصف القطاة بكلام أنِق في رسم الصورة وتحديد أبعادها ، فـ" لا شيء أسرع منها " كلمة عامة بمدلولها وتنكيرها ووقوعها في سياق النفي ، وهكذا فهي عبارة لم تدع خاطرة من

----

(١) ابن فارس (معجم مقاييس اللغة) ٢ : ٤٨٦ (مادة : رتع) .
(٢) الأعلم الشنتمري (شعر زهير بن أبي سلمى) ص ٨٣ .
(٣) ابن فارس (معجم مقاييس اللغة) ٦ : ١٥-١٦ (مادة : هوى) .
(٤) الأعلم الشنتمري (شعر زهير بن أبي سلمى) ص ٨٤ .
(٥) ابن منظور (لسان العرب) ٣ : ٢٠٢٨ . (مادة : سفع) .
(٦) الأعلم الشنتمري (شعر زهير بن أبي سلمى) ص ٨٤ .

خواطر الدلالة على سرعة القطاة إلاّ دلت عليه . وعلى طريقة زهير في اصطفاء الصفات ، تراه لم يكتف بهذا ، بل قال : " وهي طيّبة نفساً " ، وهي عبارة حسنة ،فالطيّب : " خلاف الخبيث "(١) وعلق ابن برى على ذلك :" الأمر كما ذكر (يعني الجوهرى) إلا أنه قد تتسع معانيه ، فيقال : أرضٌ طيبةٌ للتي تصلح للنبات ... ونفسٌ طيبة بما قُدِّر لها أي راضيةٌ ... وطابت نفسه بالشيء إذا سمحت به من غير كراهَةٍ ولا غضبٍ " (٢) ، فهي راضية بما تملكه من سرعة الطيران وبما يحقق لها النجاة ، ولم يكتف زهير بهذا وإنما رتب حالاً على حال ، فقال : " وتترك" أي معها فضل قوة،وتُبقي من سرعتها ما تدخره ، " لثقتها بنفسها في أن الصقر لا يدركها "(٣).

وقوله بعد ذلك : " دُونَ السماء ، وفَوقَ الأرضِ ، قدرُ هُما" تحديد دقيق لمكان الصراع ، ولأجل ذلك قدم في بنائها ما يدل على المكان " دون .." ، وأخر المسند اليه " قدرُهُما " ،وقوله : " عند الذُّنابى " تحديدٌ مكاني آخر ، إلا أنّه لمكان الصقر من القطاة فهو " عند الذُّنابى " ، وهذا تعبير قد يوقع في النفس نيل الصقر منها ، فجاء قوله : " فلا فوت ولا درك " ليحدد أنّه لم يدركها ،فهو وإن كان عند الذنابى إلا أنه لم يدركها ، وتأمل الإيجاز والبناء على الحذف في " فلا فوتٌ ولا دَرَك " ومعناه " لم تفته فَوتاً بَعيداً ، ولم يُدركها فيصطادَها ، فهي بين الفوت والدَّرَك "(٤) فالسياق سياق سرعة . و " لا فوتٌ " هذه ، مما ورد في القرآن الكريم وقدوقعت

---

(١) الجوهري (الصحاح) ١ : ١٧٣ . (مادة : طيب) .
(٢) ابن منظور (لسان العرب) ٤ : ٢٧٣١ - ٢٧٣٣ . (مادة :طيب) .
(٣) الأعلم الشنتمري (شعر زهير بن أبي سلمى) ص ٨٤ .
(٤) (المصدر السابق) ص ٨٤ .

موقعا عظيماً ،قال تعالى ﴿ وَلَو تَرى إِذ فَزِعُوا فَلا فوتَ وأُخِذُوا من مكانٍ قريب ﴾ (١) ، أي ولو ترى الكفار إذ فزعوا فلا فوت أي لا يفوتون الله ولا يهرب لهم عما يريد بهم .. ووصف المكان بالقرب من حيث قدرة اللـه عليهم فحيث ماكانوا هو قريب" (٢) ، أي أخذوا أخذاً متمكناً كما يؤخذ الشيء القريب . وهكذا فقد ناسب الإيجاز ضيق المكان ،وأثار ضرباً من التوجس والوجيب حينما ذكر أن الصقر عند ذنب القطاة ، وهي صورة حية ـ لا ريب ـ حتى ليكاد القارىء يتوقع وثبة الصقر عليها ، ثم هي لحظة صراع أُبين عنها بلغة خاطفة . وإعادةُ الشاعر قوله "عند الذّنابى " ليبنى عليه معنى جديدا هوالإشارةإلى ما داخل قلبها مما بعث صوتها ، وهو صوت خائف بدليل قوله " وأزمَلةٌ " "والأزمل : كل صوت مختلط " (٣) وكأن زهيراً يحاول أن يندس داخل هذه القطاة في صراعها ليصور هواجسها في تلك اللحظة المملوءة بالرعب والتي انبعثت معها تلك الأصوات المختلطة الدالة على فزعها واختلاط أمرها ، ولا ريب ، فقد عرفت الحمامة بالغناء والإطراب ، أمّا أن يئول إنشادها إلى أزملة فهو منبىء عن توترها ، وهنا لمسة من زهير أومأ بها إلى تلك اللحظة التي تركت فيها هذه القطاة الغناء والإنشاد والإطراب إلى حال من التوتر والاختلاط ووجيب النفس . والتوتر المفاد هنا يؤكده أيضا بعد ذلك :

﴿ يكادُ يخطَفُها طوراً ،وتَهتلِكُ ﴾

ولعلك لاحظت أنه ذكر صوتها هنا ، أمّا وهي طيِّبة نفساً ، فلا .

---

(١) سبأ : ٥١.
(٢) أبوحيّان الأندلسي (تفسير البحر المحيط) ٧ : ٢٩٣.
(٣) ابن منظور (لسان العرب) ٢: ١٨٦٢. (مادة : زمل).

وقوله بعد ذلك :

حتى إذا ما هوت كَفُّ الوليدِ لها طارَتْ ،وفي كَفِّهِ ،من رِيشِها ،بِتَكُ

بيت قلق به موضعه ،فما من ذكر قبل ذلك لهذا الوليد الذي هوت كفه لها . و " ثُمَّ " في " ثم استمرت إلى الوادي ،فألجأها" مفيدة التعقيب والتراخي ،وكأن لحظة التوتر تلك امتدت وتراخت ،إذ لا يزال الصقر طامعا فيها ، أمّا هي فتبحث عن وسيلة للنجاة ، ولا تلوذ الحمامة إلى ملجأ إلا بعد الإحساس بالخطر المحدق ، وهي كذلك كلما رأت الصقر توخت الملجأ ، فكيف وهو عند الذّنابى يكاد يخطفها وتهتلكُ ؟ .

وتقوي " حَتَّى " في " حتَّى استغاثت بماءٍ ،لا رِشاءَ لهُ " ، دلالة " ثُمَّ " ،لأنَّها تشير إلى نهاية الصراع ، وهذه الاستغاثة دالة على ما تعانيه من شدة ،وقوله " لا رِشاء له من الأباطحِ " ، " الأبطح " المنبطح من الأرض . وقوله : " لا رِشَاءَ لهُ " أي : هو ظاهر على وجه الأرض،فلا يحتاج إلى رشاء ، يُستقَى به . و "الرشاء " : الحبل".(١) فهو ماء تناله اليد من غير حيل . وتأمل العلاقة الواضحة بين القطاة والماء ، فقد شبهها ـ قبل ـ بأنّها كحصاة القسم وأنّها من قطا الأجباب ،وهنا يذكر استغاثتها بالماء ، وهذه العلاقة منبئة عن معنى الوداعة والخصب . و " في حافاته البُرك " ، " البُرك " : طيرٌ بيضٌ صِغار ".(١) وهي تعني الطفولة والبراءة والأمان والطهر والنقاء والحياء . و " مُكلَّلٍ بأصُولِ النبت " . أي : " هوماءٌ دائمٌ لا ينقطع ، فالنَّبت قد كلَّله ،وأحاط به . و "الخريق " الشديدة . ومعنى " تنسجه " : تَمُرُّ

---

(١) الأعلم الشنتمري (شعر زهير بن أبي سلمى) ص ٨٥ .

عليه . و " الضَّاحي " ما ضحَى للشّمس من الماء ،أي : بَرَز وظهر .
و " الحُبُك " طرائق الماء . واحدها حَبِيك . يقول : إذا مرَّت الريحُ
بهذا الماء علتْهُ طرائقُ لكثرته ،وأنَّه لا يقيه من الريح شيء لبروزه وانكشافه (١)
وواضح من خلال هذه الصورة محاولة زهير تكثيف معنى الحياة والأمان
والخصب والنقاء والطفولة ، فقد انتهت الأخطار ،وآلت القطاة إلى هذا
الوادي وحق له أن يسمى وادي الحياة ، الذي فيه هذا الماء ، والذي
فيه هذه البُرك ، والذي هو مكلل بأصول النبّت ، وكان الانتقال من هـذا
إلى تشبيه غريب صور فيه استغاثتها ولواذها بمأمن :

كما استغاثَ ، بِسَيْءٍ ،فَزٌّ غَيطَلَةٍ خافَ العُيُون ، فلم يُنظَر به الحَشَكُ

و " الفزّ " : ولد البقرة . و "السَّيء " ما يكون في الضَّرع من
اللَّبن ، قبل نزول الدِّرَّة و " الغيطلة " : شجرملتفّ . قال الأصمعيّ:
كأن أُمَّه أرضعَته في شجر ملتفّ . وقال أبو عبيدة : الغيطلة : البقرة
. وقوله " خاف العيون " أي : خاف أن يراه الناس ، فتعجّلَ ما في
الضَّرع من السَّيء ، ولم ينتظر اجتماع الدِّرّة . و" الحَشَك " : دفعُ
الدِّرّة وحَفْلُها " (٢) . والغرابة من اختلاف الصورتين ، هناك حياة
وماء وأصول نبت وبُرك ،وهنا بقرة وولدها واستغاثة بلبن الضرع بعد
فزع . يقول عبدالله الطيب (٣) : " والمقصود بالتشبيه من ولـد
البقرة هاهنا عيناه إذ فيهما الدلالة على خوفه " والمهم - فيما يبدو -

---

(١) (المصدر السابق) ص ٨٥- ٨٦ .
(٢) (المصدر السابق) ص ٨٦ .
(٣) (المرشد) ٣ : ٩٢٤ .

خصب الصورة في الحالين .

وإذا كان زهير قد انتهى بالقطاة إلى هذا الأمن ،وهذه الدعة ، فكيف بالصقر ؟

فزلَّ عنها ، وأوفَى رأسَ مَرقَبةٍ كمنصِبِ العِترِ ،دَمَّى رأسَهُ النُّسُكُ

" وقوله " فزلَّ عنها " أي زل الصقر عن القطاة ،وأشرف على رأس" مرقبة " : وهي المكان المرتفع حيث يرقب الرقيب . وقوله " كمنصب العِتر " أي : كأنَّ الصقر ، مما به من الدم ، الحجرُ الذي يُعتَرُ عليه ، وهوالمَنصِب . والعِتر : ذِبح كان يُذبَح في رجب . والعتيرة : الذبيحة. و "النُّسُك " : جمع نَسيكة وهو ما ذُبح عليه تعبداً ونُسْكاً ".(١)

لقد انتهى زهير بالصقر إلى أعلى مرقبة يبدو كحجر تذبح عليه العتائر التي كانت تقدم قرباناً وتكفيراً عن الخطيئة ،وكما آلت القطاة إلى وادي الحياة ،آل الصقر إلى المكان الذي تكفر فيه الخطايا . وهنا سؤال عن وحي الحجارة التي تذبح عليها العتائر للنسك ؟ ربما كان إشارة إلى الجور والظلم الذي كان عليه الصقر ، وكأنه انتهى من ضراوة فاشلة فلجأ إلى ما يكفر . وكأن زهيراً يومئ بهذه النهاية إلى ما يجب على بني الصيداء . نعم ،لقد أخطأوا وجاروا ، وسقطوا عند أخذهم يساراً وكان يمكنهم اللواذ إلى منصب العتر الذي هو إشارة إلى الرجوع عن الخطأ وبداية طلب الرشاد .

وقد ذكر زهير قصة كهذه في عينيّته :

---

(١) الأعلم الشنتمري (شعر زهير بن أبي سلمى) ص ٨٦ .

لقد لَحِقتُ ،بأُولَى الخيلِ ،تَحمِلُني لمّا تذاءَبَ لِلمشبُوبةِ ،الفَزَعُ (١)

ووصف فيها فرسه التي تحمله للحرب الفزِعة ،وذكر شبهها بالقطاة :

كأنَّها ، مِن قَطا مَرّانَ ،جانِئةً فالجِدُ مِنها أمامَ السِّربِ ،والسَّرَعُ (٢)

" ومَرّانُ : أرض، وجانئة : تُدْنِي صدرَها من الأرضِ مُنْعطِفةً للماء والوقوع . . . والسِّرْبُ : جماعةُ القَطا . والجميعُ أسرابٌ . والسَّرَعُ : السُّرعة ". (٣)

ثم ذكر الصقر ،وفصل في أوصافه ثم تحدث عن الصراع بينه وبين القطاة ، وهو شبيه بما ذكره هنا ، ثم أبان عن نهايةالصراع ، وكان الصقر فيها قد تمكن من القطاة وأهلكها :

حتّى إذا قَبَضَتْ أُولَى أظافِرِه مِنها ،وأوشَكَ بما لم تَخْشَهُ ،يَقَعُ (٤)

حَثَّ عليها ،بِصَكٍّ ،لَيسَ مُؤْتلِياً بل هُوَ لِأمثالِها ،من مِثلِهِ ،يَدَعُ

" حَثَّ عليها ، يضرِبُ بجناحَيه ،وهوالصَّكُّ . ليس مُؤْتلِياً : لا يألُو يَصُكُّ : يَضرِبُ بجناحَيه . لأمثالِها : لأمثالِ القَطاةِ ، أي : ليَصِيدَ غيرَها ، فهو يُبقي من جُهْدِه " (٥) ، والنهاية هنا مختلفة تماما والسياق مختلف ، فزهير هنا مندفع نحو أعدائه يهوي عليهم هوى هذا الصقر على تلك القطاة ،وينفذ فيهم ضربه ،ويحث عليهم بصك ليس مؤتلياً .

---

(١) ١٥ : ١ ،ص ١٧١.

(٢) ١٥ : ٤ ،ص ١٧٢.

(٣) ص ١٧٢ .

(٤) ١٥ : ١٢-١٣ ، ص ١٧٥ .

(٥) ص ١٧٥ .

والفقرة الخامسة :

هلّا سألتَ بَني الصَّيداءِ ،كلّهمُ: بأيِّ حَبلٍ جِوارٍ ،كُنت أَمتَسِكُ؟ (١)

فلن يقُولُوا : بِحَبلٍ واهِنٍ ،خَلَقٍ لو كانَ قومُكَ في أسبابِهِ هَلَكُوا

يا حارِ لا أُرمَيَنْ ،مِنكم ،بداهِيةٍ لم يَلقَها سُوقةٌ قَبلِي ،ولا مَلِكُ

أرْدُدْ يَسارا ،ولا تَعْنُفْ عليهِ ،ولا تَمعَكْ بِعِرضِكَ ،إنَّ الغادرَ المَعِكُ

ولا تكُونَنْ كأقوامٍ ،عَلِمتُهُمُ يَلوُونَ ما عِندَهُم ،حتَّى إذا نُهِكوا

طابَتْ نُفُوسُهُمُ ،عن حَقِّ خَصمِهِمُ مَخافةَ الشَّرِ ،فارتدُّوا ،لِما تَرَكُوا

تَعلَّمَنْ وها-لعَمرُ اللَّهِ-ذا قَسَماً فاقدِرْ بِذَرعِكَ ،وانظُر: أينَ تَنسلِكُ؟

لئن حَلَلتَ بِجوٍّ ،في بَني أَسَدٍ في دِينِ عمرٍو ،وحالَتْ بَينَنا فَدَكُ

لَيأتيَنَّكَ منّي مَنطِقٌ ،قَذِعٌ باقٍ ،كما دَنَّسَ القُبطِيَّةَ الوَدَكُ

لمّا انتهى زهير من قصة القطاة مع الصقر ،انتقل الى الغرض الأصلي من القصيدة ،وهو هجاء بني الصّيداء ،فأنبأهم أنه متمسك بحبل من قومه متين ، وأخذ في المطالبة بحقه الذي اغتصب من رد يسارٍ ،وعدم العنف عليه ، وعدم المعك بالعرض . . ، وهدد ابن ورقاء أخيراً بمنطق مقذع باق على ألسنة الرواة يدنّس عرضه .

ونظر آخر في الأبيات :

بدأ بـ " هلّا " وهي أداة للحضّ لا تخلو من حِدَّةٍ هنا ،وقال:

---

(١) الأعلم الشنتمري (شعر زهير بن أبي سلمى) ٥ : ٢٥-٣٣ ، ص ٨٧-٨٩ .

" سألتَ " وهو خِطاب لكـل من يتأتى خطابـه ، والسؤال مُوجَّـــهٌ لبني الصيداء ، إذ قال " سألتَ بني الصيداء " ، ولا يغفل التعميـم والشمول في " كلّهمُ " ، وعَمَّ يُسألون ؟ يُسألون عن عزة قـــوم زهيرٍ المفاد من " حبل جوار " ، وفيه ما فيه من أنهم وإن كانــــوا أعداء وبينه وبينهم مهاجاة فلن يستطيع واحد منهم انكار عـــزة قوم زهير وكأنه يستنطـــق الأعداء بعزة قومـه ، ولم يقل " هـــلّا سألت العرب " أو " الناس " - على سبيل المثال - وإنما " بني الصيداء كلّهم " الذين أغاروا على عبده وإبله . وفي قوله : " بأيِّ حبل جـوارٍ كنت أمتسك ؟ تنكير " حَبْل " تعظيماً له ، وأنه بسبب من قومـــه قوي ، و " أمسكْتُ الشيء ، وتمسَّكْتُ به ، واسْتَمسَكْتُ به ، وامْتَسكْتُ بـــه ، كلُّه بمعنَى اعتصمتُ به ."(١) وهي دالة على الاقتدار والتمكـــن . والظنّ في " بأيِّ حَبْل ِجوار كُنت أمْتَسِكُ " بذكر " حَبْل " أنّـــه نفم قريبٌ من " بان الخليطُ " السابق ، فالخليط - كما مر - هـــو المصاحب والمجاور في الدَّار الذي له حُرمة وذمام وجوار ، وكأنَّ الحديث عن الخليط ومفارقته فيه نَفَسٌ يربطـه بغرض القصيدةِ الأَصْلـــي ، ويكاد يفصح هذا النَّفَسُ عَنْ نَفْسِه بقوله : " بأيِّ حَبْلٍ " ويلحـــظ في المفارق الذي وجد الشاعر لفراقه ما وجد ، وصْفُه بالقسوة والصرامة ، وأنه يبين من غير الالتفات إلى حال الجار المتعلّق بـه ، وكأنَّ زهيـــراً هنا يصف نفسه بأنه هو الذي يمتسك بحبل الجوار . ثم إنه لمّا تحـدَّث عن " وَعْثِ الكثيبِ " كان أكثر وضوحاً في العلاقةِ بين مُقَدِّمَةِ القصيدة

---

(١) الجوهري (الصّحاح) ٤ : ١٦٠٨ . (مادة : مسك) .

و "هَلّا سألتَ " ،لأنّه لمّا كان يصفُ الرَّكْبَ وضع في طريقه وعْثَاء ،
وإنما الأصل في رحلة الركب يسرها وسهولتها ،إلا أنّه تخير" وعْث " ،
وهو قريب مما وصف به بني الصَّيداء كما أشرنا .

وواضحٌ أنَّ حديثه عن منعه في قومه استتبع ذكر ضعف بني الصَّيداء ،
وغدرهم ،وأنَّهم قومٌ لا يُنْصَرون :

فلن يَقُولُوا : بِحبل واهِنٍ ، خَلَقٍ لو كانَ قومُكَ في أسبابِهِ هَلَكُوا

قوله : " لو كان قومك في أسبابه " أي: "في أسباب ذلك الحبل .
يقول: هو حبلٌ شديد محكم ،فمن تمسّك به نجا ،وليس بحبل ضعيف ،
من تعلّق بأسبابه هلك . و "الواهن" : الضعيف . وجعله " خلقا"
ليكون أوهنَ له ."(١)

وبيّنٌ هنا استيفاء زهير القصيدة حقها من حيث بناؤها الفني ،
فأتى بالفرض الأساسي منها بعد أن احتشد لها وتأنق في ذلك التصوير
البارع ،لإظهار مقدرته على إخراج نفم الشعر بالهجاء المقذع تخويفاً
للأقوام منه .

وقوله بعد ذلك : " يا حارِ .. " خطاب للحارث بن ورقاء نفسه ،
وهكذا نرى خطابه إياهم على وجهين : خطاب بواسطة ،وإنما خاطبهم
به لما انتقل في " هلّا سألت " وفيه نوعٌ من الانصراف عنهم وإظهار
الغضب منهم . وخطاب مباشر ، وهو لمّا خاطبهم مقبلاً عليهم نادى
شيخهم الحارث ورخّم ،والترخيم فيه إشعار بضيق زهير وتبرمه من
إتمام هذا النداء ،ومسارعته في الوصول إلى مابعده ،كما مر في النداء .

وقال : " لا أُرمِيَنْ مِنكم بِداهيةٍ " والدّاهية : "الأمرُ الشديدُ"(٢)

---

(١) الأعلم الشنتمري (شعر زهير بن أبي سلمى) ص ٨٧ .
(٢) (المصدر السابق) ص ٨٨ .

وقد استعظم الداهية بتنكيرها ووصفها بأنها لم يلقها سُوقَةٌ ولا مَلِكٌ ، أي : داهيةٌ لم تصب أحداً . ونفي هذه الداهية بقوله : " لا أُرمَيَنَّ " معناه : أنه لن يتم لهم رميه بهذه الداهية ،وهي استخفافهم به وسوقهم إبله وعبده ،وكان مقتضى النظرة الأولى أن يقول : لم يلقها ملك ولا سُوقة ، لأنَّ الداهية التي لا يلقاها الملك قد يلقاها السُّوقة ، إلا أنه لمّا بنى كلامه على النفي صح أن يتدرج من الأدنى إلى الأعلى ،فالسُّوقة طبقة تلي الملوك . وكأنه قال: إنها دَنِيَّةٌ لا يقبلها أحد ، ثم إنَّ تقديم السُّوقة مُؤَكِّدٌ لمعنى العموم في النفي .

وقوله : " فاردد يساراً " بيان وعلةٌ للغرض الأصلي من الخطاب ،وبناء الجمل على فقرات قصيرةٍ فيه نوع من الحِدَّة والعنف ، والأمر للتهديد في " فاردد .. " ، و" لا تعنُف عليه " ليس معناه : العنف الذي تستعمله وإنما فعل الشيء على غير وجهه والتجاوز فيه ، وكأنه يأمره أَنْ يَسْلُكَ طريق العدل متدرجاً بردِّ يسارٍ ،ثُمَّ كَفِّه عن الجور ، ثم كفه عن المطل . وهوتدرج يتسع [1] ، ف " اردد يساراً " قضية خاصة ،و " لا تعنف عليّ " أوسع من رد يسارٍ ،لأنه نهي عن الظلم للتحذير ، و" لا تمعَك بِعِرْضك "أوسع من " ولا تعنُفْ علي " ، وكأن رأس المعنى هو رد يسارٍ . وقوله : " إن الغادر المعك " من الجمل المنحوتة نحتاً مما سبقها . وهكذا ترى استقصاء المعنى واتساعه من حَيِّزٍ إلى أوسع .

وقوله : " ولا تكُونَنَّ كأقوامٍ عَلِمتُهُمُ " النهي فيه للتحذير والتنبيه والتوبيخ ،وجمع " أقوام " وتنكيرها دليل على أنَّهم أقوام كثيرون ،

---

(١) انظر ما تقدم ص ٣٢٩ .

و " عَلِمْتُهُمْ " تعني أنَّ له سابقة مع أقوام آخرين . و " يلوُون ما عندَهُم " ، " وَلَواه دَيْنَهُ وبدَيْنِهِ لَيًّا وَلِيًّا وليانا ولَيَّاناً : مَطَلَهُ "(١) . فاللَّيُّ صفة خبث ودناءة وخسة . و " نُهكوا " : شتموا ، وبولغ في هجائهم ."(٢) فأُذِلُّوا ولم يعودوا قادرين . و " طابت نُفُوسُهُمْ " معناه رجعوا ، و " طابت" هذه فيها نوع من السُّخرية واللَّذع ، إذ المُكْره لا يقال في حَقِّه " طابت نَفْسَه " ، ووراء ذلك أنها نفوسٌ خبيثةٌ ما طابت إلا بعد ما نُهِكَتْ ، والنفس الأبية لا تطيب ولا تُرْجِعُها القوةُ إلى الحق ، وإنما يرجعها إلى الحق معرفته ، ويؤكد معنى السخرية في " طابت " قوله : " عَنْ حَقِّ خصمهم " ، فالنفس لا تطيب عن حَقِّ غَيْرِها ، وإنما إنْ أنهكها الخصم طابت نفساً عن حقه . هذا هو سخاء المعنى في البيتين اللَّذين كأنهما جملة واحدة لا يتم المعنى إلا بهما ، وقد داخلتها جمل كثيرة ، إلا أنَّ سمتها الإيجاز.

وقوله : " تعلَّمَنْ ، ها ـ لعمرُ اللّه ـ ذا قسماً .. " تهديد شديدٌ ، والفصل بين حرف التنبيه واسم الإشارة بـ " ـ لعمر الله ـ " مشيرٌ إلى حدة انفعال الشاعر وحدة الموقف ، وكأنَّ الكلمات تتمزَّق غيظاً . يقول الحريري في : " هو هذا يفعل " " فتفرَّع حرف التنبيه الَّذي هو " ها " من اسم الإشارة الذي هو ذا ، وصُدِّر في الكلام ، وأُقْحِمَ بينهما الضمير ، ويُسَمَّى هذا التقريب ، إلا أنه إذا قيل : هاهو ذا كُتِبَ حرف التنبيه بإثبات الألف لئلا يَبْقَى على حرف واحد ، والعرب تُكْثِرُ الإشارة والتنبيه فيما تقصد به التفخيم ."(٣) وأكد زهير ذلك بقوله : " قسماً " وهو مصدر مُؤَكِّدٌ به معنى اليمين ، وافْتُتِح الكلام بـ " تعلَّمَنْ " ، فيها توكيد بنون التوكيد ، والتعلُّم فيه معنى التجهيل ، ونبرة

---

(١) ابن منظور (لسان العرب) ٥ : ٤٠٧٠ . (مادة : لوى) .
(٢) الأعلم الشنتمري (شعر زهير بن أبي سلمى) ص ٨٨ .
(٣) (دُرَّة الغواص في أوهام الخواص) ص ١٠٩ .

الأمر مع التوكيد فيها استعلاء من الشاعر واستصغار لمن يخاطب، وكأنّ بناء البيت تنبيه إلى المقسم به وما في حيّزه، وكل هذا تأكيد للمعنى الذي أراده " ليأتينك ..". وقوله : " فاقدِرْ بِذَرعِك " فيه تجهيل مثل " تعلّمن " ، أي : " قَدِّرْ بخَطْوِك . والذّرع : قَدْرُ الخطو . وهذا مثلٌ . والمعنى : لا تكلِّفْ نفْسَك ما لا تُطيق منّي . يتوعّده بذلك ."(١) وفي هذا استضعاف لهم وتوعد صريح واعتداد من زهير بقوته . و" انظُر : أينَ تنسَلِك ؟ " تنبيهٌ على ضلال بني الصّيداء ، والحارث بن ورقاء الصّيداوي خاصة ، فيما سلكوا وفيما هو ذاهب فيه من أمرٍ يسار . وقد بلغ زهير الغاية في التعبير عن حدة الموقف بجملة هذه العناصر المؤكِّدة في " تعلّمن .." وفي جواب القسم وحيّزه :

لئن حلَلْتَ بِجَوٍّ ، في بَني أَسَدٍ ... في دِينِ عَمروٍ ، وحالَتْ بَيْنَنا فَدَكُ

لَيأتيَنَّكَ مِنّي مَنطِقٌ ، قَذَعٌ ... باقٍ ، كما دَنَّسَ القُبطِيَّةَ الوَدَكُ(١)

وتأمّل جواب القسم : " لئن حلَلْتَ ..." ، واللام الموطئة للقسم الثاني في " لَئِن " ، ثم جُملةُ فعل الشرط " إن حللت " . ، وجواب القسم الثاني " ليأتيَنّكَ " المؤكّد بلام ونون التوكيد ، والمهم هو التنبه إلى عناصر التوكيد وتزاحمها . وقوله : " لئن حلَلْتَ .." ذكرٌ لكل ما يمكن توهم أنه يحصنهم من زهير من قوم أو ملك أو أرض . ولا يغفل التكرار في " في بني أسدٍ في دينِ عمروٍ " الذي يطوي إفراغ مزيد من التوتر بهذه النغمة المتكررة . وقوله : " قَذَعٌ " ، أي : " أقبحُ الشّتم والهجاء "(٢) ، وهي كلمة شنيعة ، يصف بها زهيرٌ

---

(١) الأعلم الشنتمري (شعر زهير بن أبي سلمى) ص ٨٩ .

(٢) (المصدر السابق) ص ٨٩ .

هجاءه بالقذع وتدنيس العرض ، وهو هجاء " باقٍ " ،أي : " يجري على أفواه الرواة ،ويبقى مع الدهر الطويل . و " القُبطِيَّةُ " : ثيابٌ بيض ،تُصنَع بالشّام . وقد تقع على كل ثوب أبيض "(١) ،و "الودك" : " وَدِكَتْ يدُه ،ولحم وَدِكٌ ،ودجاجة وَدِكَةٌ . ومن المجاز : ما فيه وَدَكٌ ، وما رأيتُ عنده متودَّكاً إذا لم يكن عنده طائل،ونحوه : مافيه دَسَمٌ".(٢)

وقد هجا زهير بني الصَّيداء في قصائد أخرى ، مثل قوله :

فأبلغْ ،إنْ عَرَضتَ بهِ ،رَسُولاً ... بَنِي الصَّيداءِ ،إنِ نَفَعَ الجِوارُ(٣)

بأنَّ الشِّعْرَ لَيسَ لَهُ مَـرَدٌّ ... إذا وَرَدَ المِياهَ ، بِهِ ، التِّجَارُ

وقولـه :

أولَى لكُم ،ثُمَّ أولَى ،أنْ يُصِيبَكُمُ ... مِنِّي نَواقِرُ ،لا تُبقِي ،ولا تَذَرُ(٤)

وأنْ تَقَلْقَل رُكبانُ المَطِيِّ ،بِكُم ... بِكُلِّ قافيةٍ ، شَنعاءَ ،تَشتَهِـرُ

---

(١) (المصدر السابق) ص٨٩ .
(٢) الزمخشري (أساس البلاغة)ص ٦٧٠ . (مادة : ودك) .
(٣) ٢٥: ١٢-١٣ ، ص٢٢٣ .
(٤) ٢٦: ٦ - ٧ ، ص٢٢٥ .

خاتمة

خاتمـــــــة

حاول البحث بيان مدى استثمار زهير لأحوال اللسان العربي إفراداً وتركيباً ،والانتفاع بفكر عبد القاهر البلاغي في الكشف عن جوهـــر شعر زهير ،وبيان النسق البنائي الغالب فيه ،مع محاولة فض مغاليـق الشعر وسبر أغواره مصطنعاً تقنيات البلاغيين وتلمّساً ما يمكن أن يدل على كلام زهير من أسرار صنعته ، مع تقديم نماذج من شعره رجحـــت مرجوحاً أو أثارت جدلاً فيما اتفق عليه .

وأتت مجمل النتائج على النحو التالي :

ففي التمهيد تبينت الدراسة أنّ ثمة مصطلحات نبتت وتكاثـــرت حول شعر زهير متصلة ببعض المسائل البلاغية ،وكان التفات البلاغييـــن إلى شعره وهم يقررون أصول البلاغة بصورة بارزة في علم البديع ،ثم المعاني ،ثم البيان .

وفي الفصل الأول " الدلالات البلاغية في أحوال المفردات "، لحظت غلبة صيغة الماضي الزاخرة بالمعاني القلبية في فاتحة القصائد ، وجريان صيغة المضارع في سياقات شعرية أنبأت عن معانٍ رائقة ،وقـــد كثر مجيء المضارع للدلالة على الحال أو الاستقبال وأقل من ذلك التعبير بالمضارع عن الماضي لاستحضار الصورة .

كما ظهر دقة زهير في استعماله أبنية المشتقات وإيقاعهـــا الموقع الأحكم . وتبين لي في وسائل التعريف أن أكثرها دوراناً في شعره الضمائر التي كان لضمير الخطاب فيها نصيب وافر ،وأبنت عن طريقتـــه

في خطاب الأقوام التي يبدأ فيها بضمير الغيبة وبعد ذكر بعض الصفات ينتقل إلى طريق الخطاب ويستمر فيه ثم ينتقل إلى الغيبة وهكذا ينوع ويراوح . كما أظهرتُ استثماره الجيد لاسم الإشارة من حيث هو وسيلة من وسائل ربط الكلام واختصار صفات كثيرة. ولحظت في استعماله لاسم الموصول تكرر صيغ بعينها وكذلك في تعريف الطرفين الذي لم يخرج فيه عن الإطار الذي قرره الشيخ عبد القاهر، وكان مما يميز استعمالاته لوسائل التعريف مجيئها متتابعة مكثفة في قصائد معينة، وربما كان مرده إلى أن الشاعر يألف في بعض المواقف صيغاً معينة فيرددها ، وبينت أبرز مواقع الاضافة، ولم أجد في دلالة التنكير وفرة من تلك المعاني التي ساقها البلاغيون في هذا الباب.

وفي الفصل الثاني وهو "التوكيد، طرائقه ودواعيه في شعره" ،ظهر لي أن أكثر طرائقه دوراناً في شعره هي "إنَّ" مقترنة بخصوصيات أسلوبية أخرى ،إلا أنها لم تخرج كثيراً في معانيها عما قرره البلاغيون ،وكانت دلالة النفي والاستثناء في ذلك أخصب وإن كانت غائرة في أعماق المعنى ، أمّا إنما فلم تقع في شعره إلا قليلاً جداً جارية على ما قرره البلاغيون فيها. وكان التوكيد بقد والأدوات الأخرى التي درستها لا يطوي دلالات شعرية رائقة فيما رأيت ،ولكنني حاولت مع ذلك تبين نمط استخدام زهير لها بما أفصح عن خصوصيات معينة جرت في الغالب عليها.

وفي الفصل الثالث وهو "أسلوب التقديم في شعره" ،كشفت الدراسةُ عن التقديم في إطار الجملة الذي ظهر فيه أن الجار والمجرور

كان أكثر العناصر اللغوية تقديماً وتغيراً في شعره ،وكان الغالب في مدخول هذا الجار والمجرور هوالضمير وخاصة في تقديم المسند حتى إنه ليكوّن نسقاً بنائياً متشابهاً جداً . وتركزت معاني التقديم في الاختصاص والعناية والاهتمام في مقامي المدح والوصف خصوصا .

وانتهى البحث في تقديم المسند المنفي على المسند إليه إلى أنه ليس بلازم أن يكون مفيدا الاختصاص ، وإنما هو دال عليه بمعونة السياق لا بطريق الوضع مرجحة ذلك ببعض من شعره لا مجال لتأول هذه الدلالة فيه فانضم إلى الرأى المرجوح الذي استمددته من كلام للمغربي والدسوقي ،كما حاولت قطع بعض ما دار من خلاف بين عبد القاهر من جهة والسعد وابن الأثير من جهة أخرى حول دلالة التقديم في المتعلق على العامل ببعض من شعرزهير،وشرته أنه لا منافاة في دلالته بين مراعاة السجع أوالقافية والمعنى السياقي،وهو الأهم .

وفي نسق تقديم بعض الصفات على بعض في المرأة ، ظهر أنه خاضع إمّا لعطاء النظرة الأولى والتحديقات والتأملات التي تعطي درجة من الادراك الأعلى ،وإمّا للحظة النفسية الغالبة عليه . وفي وصف الرجال خضع النسق لمنزع زهير النفسي أيضاً وإجمال المعاني ثم تفصيلها مع التركيز على خلال الخير ،وفي وصف الحيوان خضع النسق للحال أو الغرض الداعي الذي سيق الوصف لأجله و معه الإدراك البصري .

وفي الفصل الرابع : وهو " الأساليب الإنشائية في شعره " ظهر أن أكثر أساليب الإنشاء تردداً الاستفهام الذي كثر بالهمزة وهل خصوصاً ، وكان توجه الهمزة إلى الفعل في الغالب ، ولم ألحظ تصادماً بين ما قرره البلاغيون في أدوات الاستفهام واستعمالات زهير لها ، وهذا يؤكد أن ما استخلصه البلاغيون من هذا اللسان كان هو

الأصل الذى اطردت عليه سليقة اللغة. وبرز في استعمال " هل " دلالتها على التمني دلالة لم تتنوع بها أداة الاستفهام حتى إنها لتكاد تمثل ظاهرة أسلوبية من حيث تكررها على نمط تركيبي خاص.
كما لحظت تزاحم العناصر الإنشائية في شعره والتي تشيع جوًّا من التدله والتوتر والحيرة، وارتباطها في ذلك بأنماط تركيبية تشابهت إلى حد كبير. كما شاع استخدام الاستفهام في فاتحة القصائد ويليه في ذلك الأمر، وكان أبرز استعمال في صيغة الأمر مجيئها وسيلة من وسائل الانتقال والربط. وأمّا النهي فأظهر ما فيه استعماله خاضعاً لتسلسل معين يتنزل فيه مع المخاطب درجة درجة، أوعلى صورة يتسع بها المعنى بعد كل نهي. وأمّا النداء فقد ارتبط كثيرا بحذف حرف النداء دالاً على الاقتراب.

وفي الفصل الخامس : " تكوينات الجمل وعلاقاتها " ، وفيه تبين لي قلة الجمل القصيرة في كلامه ، ودحضت الرأى الشائع بأن الجملة الشعرية جملة قصيرة بتقديم نماذج من جمل طويلة في شعره طالت وتنوعت أسباب طولها ، وتبيَّنت نمطاً آخر من الجمل التي تداخلت وتلاحمت حتى كونت جملة واحدة وكان ذلك في الإبانة عن معنًى متماسك بطبيعته. ثم حاولت تبين طريقة زهير في الانتقال عند معاقد الفقر وانتقالات المعاني فيما درست ، ولحظت في بعض المقاطع غلبة نمط خاص عليها في ربطها كالشرط والواو على اختلاف مذهبها والقطع والاستئناف .. الخ ما توصلت الدراسة إليه. ولحظت كثرة الجمل الفرعية الحالية والوصفية المبدوءة بفعل مضارع ، وبدت لي أنماط تركيبية خاصة في استعماله لهاتين الجملتين الداخلتين في تكوين جمل أصلية . كما بدا تردد

أسلوب الشرط في المعاني التي تركز الآداب الانسانية ،وجريان إن
وإذا على ما قرره البلاغيون فيهما . وأفصحت عنايته بالظروف عـــن
دقته في تحرير معانيه ومبانيه بذلك الاستعمال لها الذي يحددها
زمانياً ، والتي أوقعها موقع الكنايات عن المراد بها ،والتي كثرت فـــي
سياق المدح خصوصا . وفي مواقع الفاء وقفت إزاء الفاء التي للتعقيـــب
خصوصاً وكانت الجملة الداخلة عليها تنطوي شيئاً من الأثر البالغ وكثرت
في سياقات وصف رحلة الصاحبة ومفارقة الأحبة .

وفي الفصل السادس وهو"دراسة تحليلية شاملة لقصيدة من شعره"،وهي
الكافية ، وفيه انتقلـــت الدراسة من إطار دراسة الظاهرة الأسلوبيـــة
إلى إطار أوسع هو الدراسة التحليلية لقصيدة ما مصطنعة في ذلك
الوسائل البلاغية مع الوقوف إزاء خوافي الدلالات واستبطانها من الشعر
نفسه لا من ثقافات وأفكار أخرى غريبة عن تراثنا ولغتنا .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين الذي هدانا إلـــى
هذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

المصادر والمراجع

المصادر والمراجـــــع

١ - الآمــدي ، أبو القاسم الحسن بن بشر
" الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري " ،تحقيق : السيد أحمد صقر، ج ١ ،ط ٢ ،دار المعارف بمصر ١٣٩٢هـ ، ١٩٧٢م.

٢ - ابراهيم ،د/ ابراهيم حسن .
" أسرار النداء في لغة القرآن الكريم " ، مطبعة الفجالة الجديدة .

٣ - ابن الأثير ، ضياء الدين .
" المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر " ، تحقيق : أحمد الحوفي ، بدوي طبانة،ج ١ - ٢ ، ط ٢ منشورات دار الرفاعي بالرياض ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٤ - ابن الأثير ، نجم الدين احمد بن اسماعيل .
" جوهر الكنز " ، تحقيق د . محمد زغلول سلام ، منشأة المعارف،الإسكندرية ١٩٨٠م.

٥ - الأصبهاني ،أبوالفرج علي بن الحسين بن محمد القرشي .
"كتاب الأغاني " تحقيق : ابراهيم الأبياري ، المجلد : ٦ ، ١٠ عن طبعة دارالكتب ، مصر ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.

٦ - الأصمعي ، أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك .
" الأصمعيات " تحقيق : أحمد محمد شاكر ، عبد السلام هارون ، ط ٥ ، دارالمعارف .

٧ - الأنباري ، أبو بكر محمد بن القاسم .
" شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات " ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ،ط ٤ ،دار المعارف ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

٨ - الباقلاني ، أبو بكر محمد بن الطيب .
" إعجازالقرآن " ،تحقيق : السيد أحمد صقر ،ط ٣ دارالمعارف، مصر .

٩ - البغدادى ، ابو طاهر محمد بن حيدر .
" قانون البلاغة في نقد النثر والشعر " ،تحقيق : د . محسن غيّاض عجيل ،ط١ ،موءسسة الرسالة ، بيروت ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .

١٠- التفتازاني ، مسعود بن عمر بن عبدالله سعد الدين .
أ - " شرح السعد المسمى مختصر المعاني في علوم البلاغة " تحقيق : محمد محي الدين عبدالحميد ج٢ ، مكتبة ومطبعة محمد على صبيح وأولاده ،مصر .
ب - " المطول على التلخيص " ،مطبعة احمد كامل ١٣٣٠ .

١١- الثعالبي ،أبومنصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل .
" خاص الخاص " . تقديم حسن الأمين ،دار مكتبة الحياة - بيروت لبنان ١٩٦٦م .

١٢- الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر .
أ - " البيان والتبيين " ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ج٢ ، ط ٤ مكتبة الخانجي بمصر ، ١٣٩٥هـ ١٩٧٥م
ب - " الحيوان " تحقيق : عبدالسلام محمدهارون ، ج ٣ ، ط٢ ، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م .

١٣- الجبورى ، د . يحيى .
" قصائد جاهلية نادرة " ط ١ ،موءسسة الرسالة ، بيروت ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

١٤- الجرجاني ، عبد القاهر .
أ - " أسرار البلاغة " تعليق : محمد عبد المنعم خفاجي، ج١ -٢ ، ط ٢ ، مكتبة القاهرة ، ١٣٩٦هـ ١٩٧٦م
ب - " دلائل الإعجاز " تعليق : أبو فهر محمود محمد شاكر ،مكتبة الخانجي بالقاهرة .

١٥- الجرجاني ، علي بن عبد العزيز .
" الوساطة بين المتنبي وخصومه " تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم ، علي محمد البجاوى ، ط ٣ ، دار إحياء الكتب العربية .

١٦- الجرجاني ، محمد بن علي بن محمد .
" الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة " تحقيق :
د . عبد القادر حسين ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ،
القاهرة .

١٧- ابن جعفر ، أبو الفرج قدامه .
" نقد الشعر " ، تحقيق : كمال مصطفى ، ط ٣
مكتبة الخانجي ، القاهرة .

١٨- الجمحي ، محمد بن سلام .
" طبقات فحول الشعراء " السفر الأول ، شرح :
محمود محمد شاكر مطبعة المدني ، القاهرة .

١٩- ابن جني ، أبو الفتح عثمان .
" الخصائص " ، تحقيق : محمد على النجار ،
المجلد الأول ، ج ١ ، ط٢ ، دار الهدى للطباعة
والنشر ، بيروت .

٢٠- الجوهري ، اسماعيل بن حماد .
" الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية " ، تحقيق :
أحمد عبد الغفور عطار ، ط٢ ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

٢١- الحاتمي ، محمد بن الحسن .
" حلية المحاضرة " ، تحقيق : هلال ناجي ، دار مكتبة
الحياة للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٧٨م .

٢٢- ابن الحاجب ، جمال الدين أبو عمرو عثمان بن محمد .
" الكافية في النحو " شرح رضي الدين محمد بن
الحسن الاستراباذى النحوى ، ج٢ ، دار الكتب
العلمية ، بيروت ، لبنان .

٢٣- ابن أبي الحديد ، عز الدين عبد الحميد .
" الفلك الدائر على المثل السائر " تحقيق : د . أحمد
الحوفي ، د . بدوى طبانة ، ط٢ ، منشورات دار
الرفاعي بالرياض ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .

٢٤- الحريري ، القاسم بن علي .
" درة الغواص في أوهام الخواص " تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم ، دار نهضة مصر للطبع والنشر القاهرة .

٢٥- الحلبي ، شهاب الدين محمود .
" حسن التوسل إلى صناعة الترسل " تحقيق : أكرم عثمان يوسف ، دار الرشيد للنشر .

٢٦- أبو حيان ، محمد بن يوسف .
" تفسير البحر المحيط " ج٧ ، ط٢ ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

٢٧- الخطيب القزويني ، جلال الدين أبو عبد الله .
" الإيضاح في علوم البلاغة " تعليق محمد عبد المنعم خفاجي ، ج١ - ٢ ، ط ٥ ، دار الكتاب اللبناني ، ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م

٢٨- الخفاجي ، عبد الله بن محمد .
" سر الفصاحة " ، شرح وتصحيح عبد المتعال الصعيدي ، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده ، القاهرة ، ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م

٢٩- ابن رشيق القيرواني ، أبو علي الحسن .
" العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده " تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، ج١-٢ ط٤ ، دار الجيل ، ١٩٧٢م .

٣٠- الزركشي ، محمد بن عبد الله .
" البرهان في علوم القرآن " ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، ج١ ، ط ٢ ، عيسى البابي الحلبي وشركاه .

٣١- الزمخشري ، محمود بن عمر .
" أساس البلاغة " ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .

٣٢- السكاكي ، محمد بن علي .
" مفتاح العلوم " ، طبع بمطبعة التقدم العلمية ، مصر .

٣٣- سيبويه ، عمرو بن عثمان بن منير.
" الكتاب " تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ،
ج١ ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة
١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.

٣٤- شروح التلخيص ، ج ٢ ، طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي
بمصر.

٣٥- ضيف ، د . شوقي .
" العصر الجاهلي " ، ط٣ ، دار المعارف بمصر.

٣٦- ابن طباطبا العلوي ، محمد أحمد .
" عيار الشعر " ، دراسة وتحقيق د . محمد زغلول
سلام ، منشأة المعارف بالاسكندرية ، ١٩٨٠م.

٣٧- الطيب ، عبدالله .
" المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها " ج٣ ،
ط ١ ، الدار السودانية ، بيروت ١٩٧٠م.

٣٨- العباسي ، عبد الرحيم بن أحمد .
"معاهد التنصيص على شواهد التلخيص" ، تحقيق :
محمد محي الدين عبد الحميد ، ج ١ - ٢ ، عالم
الكتب ، بيروت ١٣٦٧هـ - ١٩٤٧م.

٣٩- العسكري ، علي محمد .
"الصناعتين" ، طبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه .

٤٠- العلوي ، محمد بن حمزة بن علي .
" الطراز " ، المجلد ٢ - ٣ ، دار الكتب العلمية ،
بيروت ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م.

٤١- ابن فارس ، أبو الحسين أحمد .
" معجم مقاييس اللغة " تحقيق : عبد السلام محمد
هارون ، دار الكتب العلمية .

٤٢- ابن قتيبة ، أبو محمد عبدالله بن مسلم .
" الشعر والشعراء " تحقيق : أحمد محمد شاكر ،
ج١ ، ط ٣ ، ١٩٧٧م.

٤٣- المبرد ، محمد بن يزيد .
" الكامل " تحقيق : محمد أبوالفضل ابراهيم ، ج١ ، ٣ ،
دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة .

٤٤- المرزباني ، محمد بن عمران .

" الموشح " ، تحقيق : علي محمد البجاوى ، ١٩٦٥م.

٤٥- ابن المعتز ، عبدالله .

" البديع " ، تحقيق : اغناطيوس كراتشقوفسكي ، ط ٢ مكتبة المثنى ، بغداد ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٤٦- ابن منظور ، عبد الله محمد .

" لسان العرب " ، دار المعارف.

٤٧- ابن منقذ ، أسامة .

" البديع في نقد الشعر " ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده .

٤٨- أبو موسى ، د . محمد .

أ - " البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية " ، دار الفكر العربي .

ب - " دلالات التراكيب " ، دراسة بلاغية ، ط١ ، مكتبة وهبة ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

جـ - " الإعجاز البلاغي " دراسة تحليلية لتراث أهل العلم ، ط ١ ، مكتبة وهبة ١٤٠٥ هـ . ١٩٨٤م.

د - " خصائص التراكيب " دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني " ، ط ٢ ، مكتبة وهبة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

٤٩- هايمن ، ستانلي ؛

" النقد الأدبي ومدارسه الحديثة " ، ترجمة د . احسان عباس ، د . محمد يوسف نجم ، جـ٢ ، ط ٣ ، دار الثقافة بيروت ١٩٧٨م.

٥٠- ابن هشام ، أبو محمد عبدالله .

أ - " شرح قطر الندى وبل الصدى " تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، ط ١٣ ، المكتبة التجارية الكبرى ، ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.

ب - " مغني اللبيب عن كتب الأعاريب " ، تحقيق : محمد محي الدين عبدالحميد ، جـ ١ -٢ .

الدواوين :

٥١- " ديوان الأعشى " ،تحقيق فوزي عطوي ،الشركة اللبنانية للكتاب للطباعة والنشر والتوزيع - لبنان .

٥٢- " ديوان أوس بن حجر " تحقيق : د . محمد يوسف نجم ، ط ٣ دار صادر بيروت ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .

٥٣ - " شرح ديوان امرىء القيس بن حجر الكندي " لأبي الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى المعروف بالأعلم الشنتمري ، تصحيح : الشيخ ابن أبي شنب ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م .

٥٤ - " شرح ديوان أمية بن أبي الصلت " تقديم سيف الدين الكاتب ، أحمد عصام الكاتب ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت - لبنان .

٥٥- " ديوان شعر حاتم بن عبدالله الطائي واخباره " ، صنعة يحيى ابن مدرك الطائي ، رواية هشام بن محمد الكلبي ، تحقيق : د . عادل سليمان جمال . مطبعة المدني ، القاهرة .

٥٦ - " ديوان شعر الحادرة " إملاء أبي عبدالله محمد بن العباس اليزيدي عن الأصمعي ،تحقيق : د . ناصر الدين الأسد ، ط٢ ، دار صادر بيروت ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .

٥٧- " ديوان شعر الخرنق بنت بدر بن هفّان " ، تحقيق : د . حسين نصار ، مطبوعات مركز تحقيق التراث ونشره . مطبعة دار الكتب ١٩٦٩م .

٥٨- " شرح شعر زهير بن أبي سلمى " ، أبي العباس ثعلب ، تحقيق : د . فخر الدين قباوة ،ط١ ،منشورات دار الآفاق الجديدة ،بيروت ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

٥٩- " شعر زهير بن أبي سلمى " الأعلم الشنتمري ،تحقيق : د . فخر الدين قباوة ، منشورات دار الآفاق الجديدة،بيروت .

٦٠- " شعر المرقّش الأصغر " صنعة د . نوري حمودي القيسي مستلة من مجلة كلية الاداب ، ع ١٣ ،مطبعة المعارف بغداد .

٦١ - " ديوان طرفة بن العبد " ، شرح الأعلم الشنتمري ، تحقيق درية الخطيب ، لطفي الصقال ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

٦٢ - " ديوان الطُفيل الغنوى " ، تحقيق : محمد عبدالقادر أحمد ط ١ ، دار الكتاب الجديد ١٩٦٨م.

٦٣ - " ديوان عبيد بن الأبرص " ، تحقيق : د . حسين نصار . ط١ ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر.

٦٤ - " ديوان عمرو بن قميئة " ، تحقيق : حسن كامل الصيرفي . المجلد ١١ ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.

٦٥ - " ديوان عنترة " ، تحقيق : محمد سعيد مولوى ، المكتب الاسلامي

٦٦ - " ديوان شعر المثقّب العبدى " ، تحقيق : حسن كامل الصيرفي المجلد ١٦ ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.

٦٧ - " ديوان شعر المتلمّس الضُّبعي " ، رواية الأثرم وأبي عبيدة عن الأصمعي ، تحقيق : حسن كامل الصيرفي ، المجلد ١٤ ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٩م.

٦٨ - " ديوان النابغة الذبياني " ، تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم ، دار المعارف بمصر.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحـــة